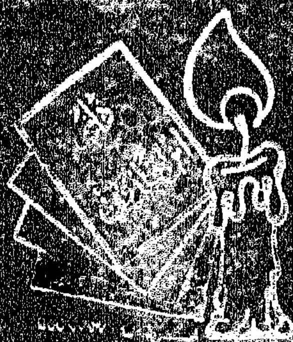
معارج القبول

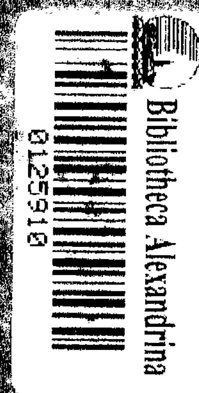
شرح سلم الوصول إلى علم الأصول في التوحيد

تأليف
الشيخ حافظ بن أحمد الحكمي

تحقيق
طه عبد الرؤوف سعد

الجزء الأول





مَعَارِجُ القَبُولِ

بشرح سُلَّم الوُصُول ، إلى علم الأُصُول في التوحيـــــــد

تأليـــف

الشيخ حافظ بن أحمد الحَكَمِي

تحقيـــق

طـــه عبد الرءوف سعد

الجـــزء الأول



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل وما كان معه من إله ، الذي لا إله إلا هو ولا خالق غيره ولا رب سواه ، المستحق لجميع أنواع العبادة ولذا قضي أن لا نعبد إلا إياه ، ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلي الكبير . عالم الغيب والشهادة الذي استوى في علمه ما أسر العبد وما أظهر ، الذي علم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون ، وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ، يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها . كيف لا وهو الذي خلق وقدّر ، ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير . رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما الذي كتب على نفسه الرحمة وهو أرحم الراحمين ، الذي غلبت رحمته غضبه كما كتب ذلك عنده على عرشه في الكتاب المبين ، الذي وسعت رحمته كل شيء وبها ايتراحم الخلائق بينهم كما ثبت ذلك عن سيد المرسلين فانظر الى آثار رحمة لله كيف يحيي الأرض بعد موتها إن ذلك لمحيي الموتى وهو على كل شيء قدير . الملك الحق الذي بيده ملكوت كل شيء ولا شريك له في ملكه ولا معين ، المتصرف في خلقه بما يشاء من الأمر والنهي والإعزاز والإذلال والإحياء والإماتة والهداية والإضلال ، ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ، لا رادّ لقضائه ولا مضادّ لأمره ولا معقب لحكمه ، ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين ، له ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير . القدوس السلام الذي اتصف بصفات الكمال ، وتقدس عن كل نقص ومحال ، وتعالى عن الأشباه والأمثال ، حرام على العقول أن تصفه وعلى الأوهام أن تكيفه ، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير . المؤمن الذي آمن أولياءه من خزي الدنيا ووقاهم في الآخرة عذاب الهاوية ، وآتاهم في هذه الدنيا حسنة وسيحلهم دار المقامة في جنة عالية ، المهيمن الذي شهد علي الخلق بأعمالهم وهو القائم علي كل نفس بما كسبت لا تخفي عليه منهم خافية ، إنه بعباده لخبير بصير . العزيز الذي لا مغالب له ولا مرام لجنابه ، الجبار الذي له مطلق الجبروت والعظمة وهو الذي يجبر كل كسير مما به ، المتكبر الذى لا ينبغى الكبرياء إلا له ولا يليق إلا بجنابه ، العظمة إزاره والكبرياء رداؤه ، فمن نازعه صفة منهما أحل به الغضبَ والمقت والتدمير . الخالق البارىء المصوِّر لما شاء إذا شاء في أي صورة شاء من أنواع التصوير ، هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن والله بما تعملون بصير ، خلق

السموات والأرض بالحق وصوركم فأحسن صوركم وإليه المصير ، ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة إن الله سميع بصير . الغفار الذي لو أتاه العبد بقراب الارض خطايا ثم لقيه لا يشرك به لأتاه بقرابها مغفرة ، القهار الذي قصم بسلطان قهره كل مخلوق وقهره ، الوهاب الذي كل موهوب وصل إلى خلقه فمن فيض بحار جوده وفضله ونعمائه الزاخرة الرزاق الذي لا تنفد خزائنه ولم يغض ما في يمينه ، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض ماذا نقص من فضله الغزير . يرزق كل ذي قوت قوته ثم يدبر ذلك القوت في الأعضاء بحكمته تدبيرا متقنا محكما ، يرزق من هذه الدنيا من يشاء من كافر ومسلم أموالا وأولادا وأهلا وخدما ، ولا يرزق الآخرة إلا أهل توحيده وطاعته ، قضى ذلك قضاء حتما مبرما ، وأشرف الأرزاق في هذه الدار ما رزقه عبده على أيدى رسله من أسباب النجاة من الإيمان والعلم والعمل والحكمة وتبيين الهدى المستنير . الفتاح الذى يفتح على من يشاء بما يشاء من فضله العميم ، يفتح على هذا مالا وعلى هذا ملكا وعلى هذا علما وحكمة ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ، ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم ، العليم الذى أحاط علمه بجميع المعلومات من ماض وآت وظاهر وكامن ومتحرك وساكن وجليل وحقير. علم بسابق علمه عدد أنفاس خلقه وحركاتهم وسكناتهم وأعمالهم وأرزاقهم وآجالهم ومن هو منهم من أهل الجنة ومن هو منهم من أهل النار في العذاب المهين ، وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم مافي البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين . وما من جبل إلا ويعلم مافي وعره ، ولا بحر إلا ويدرى ما في قعره وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه ، وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب ، إن ذلك على الله يسير . القابض الباسط فيقبض عمن يشاء رزقه فيقدره عليه ، ويبسطه على من يشاء فيوسع عليه ، وكذا له القبض والبسط في أعمال عباده وقلوبهم ، كل ذلك إليه ، إذ هو المتفرد بالإحياء والإماتة والهداية والإضلال والإيجاد والإعدام وأنواع التصرف والتدبير . الخافض الرافع ، الضار النافع المعطى المانع فلا رافع لمن خفض ولا خافض لمن رفع ولا نافع لمن ضر ولا ضار لمن نفعه ولا مانع لما أعطى ولا معطى لمن هو له مانع ، فلو اجتمع أهل السموات السبع والأرضين السبع وما فيهن وما بينهما على خفض من هو رافعه أو ضر من هو نافعه أو إعطاه من هو مانعه لم يك ذلك في استطاعتهم بواقع . وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير . المعز المذل الذى أعز أولياءه المؤمنين في الدنيا والآخرة ، وأيدهم بنصره المبين وبراهينه القويمة المتظاهرة ، وأذل

أعداءه فى الدارين وضرب عليهم الذلة والصغار وجعل عليهم الدائرة فما لمن والاه وأعزه من مذل وما لمن عاداه وأذله من ولى ولا نصير . السميع البصير لا كسمع ولا بصر أحد من الورى . القائل لموسى وهارون إننى معكما أسمع وأرى ، فمن نفى عن الله ما وصف به نفسه أو شبه صفاته بصفات خلقه فقد افترى على الله كذبا وقد خاب من افترى ، لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير . الحكم العدل فى قضائه وقدره وشرعه وأحكامه قولا وفعلا إن ربى على صراط مستقيم . فلا يحيف فى حكمه ولا يجوز، وما ربك بظلام للعبيد . الذى حرم الظلم على نفسه وجعله بين عباده محرما ووعد الظالمين الوعيد الأكيد ، وفى الحديث « إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد ، وهو الذى يضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا بل يحصى عليهم الخردلة والذرة والفتيل والقطمير. اللطيف بعبادة معافاة وإعانة وعفوا ورحمة وفضلا وإحسانا ، ومن معانى لطفه إدراك أسرار الأمور حيث أحاط بها خبرة تفصيلا وإجمالا وسراً وإعلانا ، الخبير بأحوال مخلوقاته وأقوالهم وأفعالهم ماذا عملوا وكيف عملوا وأين عملوا ومتى عملوا حقيقة وكيفية ومكانا وزمانا ، إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير . الحليم فلا يعاجل أهل معصيته بالعقاب ، بل يعافيهم ويمهلهم ليتوبوا فيتوب عليهم إنه هو التواب الرحيم . الذى اتصف بكل معنى يوجب التعظيم وهل تنبغى العظمة إلا لرب الارباب ، خضعت لعظمته وجبروته جميع العظماء ، وذل لعزته وكبريائه كل كبير . الغفور الشكور الذى يغفر الكثير من الزلل ، ويقبل اليسير من صالح العمل ، فيضاعفه أضعافا كثيرة ويثيت عليه الثواب الجلل ، وكل هذا لأهل التوحيد ، أما الشرك فلا يغفره ولا يقبل معه من العمل من قليل ولا كثير . العلى الذى ثبت له كل معانى العلو ، علو الشأن وعلو القهر وعلو الذات ، الذى استوى على عرشه وعلا على خلقه بائنا من جميع المخلوقات ، كما أخبر بذلك عن نفسه فى كتابه وأخبر عنه رسوله ﷺ فى أصح الروايات ، وأجمع على ذلك أهل الحل والعقد بلا نزاع بينهم ولا نكير . الكبير الذى كل شىء دونه والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه كما أخبر بذلك عن نفسه نصا بينا محكما ، الحفيظ على كل شىء فلا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، الذى وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما ، حفظ أولياءه فى الدنيا والآخرة ونجاهم من كل أمر خطير . المغيث لجميع مخلوقاته فما استغاثه ملهوف إلا نجاه ، الحسيب الوكيل الذى ما التجأ إليه مخلص إلا كفاه ، ولا اعتصم به مؤمن إلا حفظه ووقاه ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه

فنعم المولى ونعم النصير . الجليل الذى جل عن كل نقص واتصف بكل كمال وجلال ، الجميل الذى له مطلق الجمال فى الذات والصفات والأسماء والأفعال ، الكريم الذى لو أن أول الخلق وآخرهم وإنسهم وجنهم قاموا فى صعيد واحد فسألوه فأعطى كل واحد منهم مسألته ما نقص ذلك مما عنده إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر ، كما روى عنه نبيه المصطفى المفضال ، ومن كرمه أن يقابل الإساءة بالإحسان والذنب بالغفران ويقبل التوبة ويعفو عن التقصير . الرقيب على عباده بأعمالهم ، العليم بأقوالهم وأفعالهم ، الكفيل بأرزاقهم وآجالهم وإنشائهم ومآلهم ، المجيب لدعائهم وسؤالهم وإليه المصير . الواسع الذى وسع كل شيء علما ، ووسع خلقه برزقه ونعمته وعفوه ورحمته كرما وحلما ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير . الحكيم فى خلقه وتدبيره إحكاماً وإتقانا ، والحكيم فى شرعه وقدره عدلا وإحسانا ، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة ، ومن أكبر من الله شهادة وأوضح دليلا وأقوم برهانا . فهو العدل وحكمه عدل وشرعه عدل وقضاؤه عدل ، فله الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير . الودود الذى يحب أولياءه ويحبونه كما أخبر عن نفسه فى محكم الآيات ، المجيب لدعوة الداعى إذا دعاه فى أى مكان كان وفى أى وقت من الأوقات ، فلا يشغله سمع عن سمع ولا تختلف عليه المطالب ولا تشتبه عليه الأصوات ، فيكشف الغم ويذهب الهم ويفرج الكرب ويستر العيب وهو الستير . المجيد الذى هو أهل الثناء كما مجد نفسه وهو الممجد على اختلاف الألسن وتباين اللغات بأنواع التمجيد الباعث الذى بدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه إنه هو الفعال لما يريد الشهيد الذى هو اكبر كل شيء شهادة وكفى بالله شهيداً ، أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ، هو الحق وقوله الحق وله الملك يوم ينفخ فى الصور عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير . القوى المتين الذى لم يقم لقوته شيء وهو الشديد المحال ، الولى للمؤمنين فلا غالب لمن تولاه واذا أراد بقوم سوءا فلا مردّ له وما لهم من دونه من وال ، الحميد الذى ثبت له جميع أنواع المحامد ، وهل يثبت الحمد الا لذى العزة والجلال ، فله الحمد كما يقول وخيرا مما نقول لا نحصى ثناء عليه وهو كما أثنى على نفسه وكيف يحصى العبد الضعيف ثناء على العلى الكبير . المحصى الذى أحصى كل شيء عددا وهو القائل ﴿ **وكل شيء أحصيناه فى إمام مبين**﴾ المبدىء المعيد الذى قال وهو أصدق القائلين ﴿ **كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا انا كنا فاعلين** ﴾ ، ﴿ **وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه** ﴾ وأنى يعجزه اعادته وقد خلقه من قبل ولم يك شيئا ، كل يعلم ذلك ويقر به بلا نكير . المحيى المميت الذى انفرد بالإحياء فلو اجتمع الخلق على اماتة نفس هو محييها أو احياء نفس

هو مميتها لم يك ذلك ممكنا وهل يقدر المخلوق الضعيف على دفع ارادة الخالق العلام، الحى الدائم الباقى الذى لا يموت وكل ما سواه زائل كما قال تعالى **﴿ كل من عليها فان * ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام ﴾** القيوم الذى قام بنفسه ولا قوام لخلقه الا به ، ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره فلا يحتاج الى شىء وكل شىء اليه فقير . الواحد الأحد الذى لا شريك له فى إلهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته وملكوته وجبروته وعظمته وكبريائه وجلاله ، لا ضد له ولا ند ولا شبيه ولا كفؤ ولا عديل . الصمد الذى يصمد اليه جميع الخلائق فى حوائجهم ومسائلهم فهو المقصود اليه فى الرغائب المستغاث به عند المصائب ، فاليه منتهى الطالبات ، ومنه يسأل قضاء الحاجات ، وهو الذى لا تعتريه الآفات، وهو حسبنا ونعم الوكيل . فهو السيد الذى قد كمل فى سؤدده ، والعظيم الذى قد كمل فى عظمته ، والحليم الذى قد كمل فى حلمه ، والعليم الذى قد كمل فى علمه ، والحكيم الذى قد كمل فى حكمته ، وهو الذى قد كمل فى صفات الكمال ، ولا تنبغى هذه الصفات لغير الملك الجليل . القادر المقتدر الذى إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ، وما كان الله ليعجزه من شىء فى السموات ولا فى الأرض ، إنه على كل شىء قدير . المقدم المؤخر بقدرته الشاملة ومشيئته النافذة على وفق ما قدره وسبق به علمه وتمت به كلمته بلا تبديل ولا تغيير . الأول فليس قبله شىء والآخر فليس بعده شىء والظاهر فليس فوقه شىء ، والباطن فليس دونه شىء ، هكذا فسره البشير النذير . الوالى فلا منازع له ولا مضاد ، المتعالى عن الشركاء والوزراء والنظراء والأنداد ، البر وصفا وفعلا ومن بره المن على أوليائه بانجائهم من عذابه كما وعدهم على ألسنة رسله انه لا يخلف الميعاد ، التواب الذى يرزق من يشاء التوبة فيتوب عليه وينجيه من عذاب السعير . المنتقم الذى لم يقم لغضبه شىء وهو الشديد العقاب والبطش والانتقام ، العفوّ بمنه وكرمه عن الذنوب والآثام ، الرءوف بالمؤمنين ومن رأفته بهم أن نزل على عبده آيات مبينات ليخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الاسلام ، ومن رأفته بهم أن اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة مع كون الجميع ملكه ولم ينزع عنهم التوبة قبل الحمام ، فقال تعالى **﴿ يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار يوم لا يخزى الله النبى والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شىء قدير ﴾** . مالك الملك يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء ، ذى الجلال والاكرام والعزة والبقاء والملكوت والجبروت والعظمة والكبرياء ، المقسط الذى أرسل رسله بالبينات وأنزل معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وما

للظالمين من نصير . الجامع لشتات الأمور وهو جامع الناس ليوم لا ريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد ، الغنى المغنى فلا يحتاج إلى شيء ولا تزيد فى ملكه طاعة الطائعين ولا تنقصه معصية العاصين من العباد . وكل خلقه مفتقرون إليه لا غنى بهم عن بابه طرفة عين ، وهو الكفيل بهم رعاية وكفاية وهو الكريم الجواد ، وبجوده عم جميع الأنام من طائع وعاص وقوى وضعيف وشكور وكفور ومأمور وأمير . نور السموات والأرض ومن فيهن كما وصف نفسه بذلك فى كتابه ووصفه به محمد عبده ورسوله وحبيبه ومصطفاه وقال ﷺ مستعيذا به « أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن يحل بى غضبك أو ينزل بى سخطك لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بالله » فبصفات ربنا تعالى نؤمن ولكتابه وسنة رسوله نحكم وبحكمهما نرضى ونسلم ، وإن أبى الملحد إلا جحود ذلك وتأويله على ما يوافق هواه ، ﴿ **إن الذين يلحدون فى آياتنا لا يخفون علينا ، أفمن يلقى فى النار خير أمّن يأتى آمناً يوم القيامة ، اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير** ﴾ . الهادى الذى بيده الهداية والاضلال فلا هادى لمن أضل ولا مضل لمن هدى ﴿**من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا** ﴾ ، ﴿ **من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم** ﴾ ، ﴿ **قل إن هدى الله هو الهدى** ﴾ ، ﴿ **ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير** ﴾ . البديع الذى أبدع السموات والأرض وما بينهما بلطيف صنعه وبديع حكمته بلا معين ولا مثال ، الباقى الذى كل شيء هالك إلا وجهه فلا ابتداء لأوليته ولا لآخريته زوال ، الوارث الذى يرث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين . وإليه المرجع والمآل فبايجاده كل موجود وجد وإليه كل الأمور تصير . الرشيد فى كل أقواله وأفعاله فبالرشاد يأمر عباده وإليه يهديهم ، الصبور الذى لا أحد أصبر منه على أذى سمعه ، ينسبون له الولد ويجحدون أن يعيدهم ويحييهم . وكل ذلك بسمعه وبصره وعلمه لا يخفى عليه منهم شيء ثم هو يرزقهم ويعافيهم ، ذلك بأنهم لم يبلغوا نفعه فينفعوه ولا ضره فيضروه ، وإنما يعود نفع طاعتهم إليهم ، ووبال عصيانهم عليهم ، واستغنى الله والله غنى حميد « **زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربى لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير** » .

أحمده تعالى على جزيل إنعامه وإفضاله ، وأشكره على جليل إحسانه ونواله وله الحمد على أسمائه الحسنى وصفات كماله ونعوت جلاله ، وله الحمد على عدله قدرا وشرعا ، وله الحمد فى الأولى والآخرة وهو الحكيم الخبير . وأشهد[1] أن لا إله إلا الله وحده لا

(١) شهادة أن لا إله إلا الله هى كلمة التوحيد التى جاء بها رسل الله تعالى وهى تشتمل على نفى الألوهية عن كل شيء وإثباتها لله تعالى وحده ، وهذا النفى والإثبات أبلغ فى الحصر من الإثبات المجرد . راجع النفى والإثبات فى كتاب المنهاج الواضح للشيخ حامد عونى .

شريك له الملك الحق العلي الكبير ، تعالى في إلهيته وربوبيته عن الشريك والوزير ، وتقدس في أحديته وصمديته عن الصاحبة والولد والوالد والولي والنصير ، وتنزه في صفات كماله ونعوت جلاله عن الكفؤ والنظير ، وعز في سلطان قهره وكمال قدرته عن المنازع والمغالب والمعين والمشير ، وجل في بقائه وديموميته وغناه وقيوميته عن المطعم والمجير . وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً[1] عبده ورسوله البشير النذير ، المرسل إلى الناس كافة بالملة الحنيفية والهدى المنير ، بعثه الله عز وجل رحمة للعالمين ، وأنزل عليه كتابه المهيمن والنور المبين والهدى المستبين ، والمنهج المستنير . والشرك مضطرمة ناره ، طائر شراره ، مرتفع غباره ، لا مغير له ولا نكير . فقام بتبليغ الرسالة حق القيام ، وجاهد في الله حق جهاده إعلاء لكلمة الله الملك العلام ، حتى جاء الحق وزهق الباطل وأدبر ليل الكفر والضلالة وانفجر فجر الايمان والاسلام ، ونشرت أعلام التوحيد وعلا بنيانه وأشرقت أنواره ، ونكست راية الشرك وانكسرت شوكته وخمدت ناره ورمي بناؤه بالدمدمة والتكسير والتدمير . صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه شموس الهداية وأوعية العلم وأنصار الدين القويم ، وتابعيهم ﴿ **والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم** ﴾ وعلى من اقتفى أثرهم واتبع سيرهم وسلك صراطهم المستقيم ، وجعلنا من المقتدين بهم المهتدين بهديهم المتمسكين بالكتاب والسنة نقف معهما وبسيرهما نسير .

أما بعد فاعلموا رحمكم الله أنه لا صلاح للعباد ولا فلاح ولا نجاح ولا حياة طيبة ولا سعادة في الدارين ولا نجاة من خزي الدنيا وعذاب الآخرة إلا بمعرفة أول مفروض عليهم والعمل به ، وهو الأمر الذي خلقهم الله عز وجل له وأخذ عليهم الميثاق به وأرسل به رسله إليهم وأنزل به كتبه عليهم ولأجله خلقت الدنيا والآخرة والجنة والنار وبه حقت الحاقة ووقعت الواقعة وفي شأنه تنصب الموازين وتتطاير الصحف وفيه تكون الشقاوة والسعادة وعلى حسب ذلك تقسم الأنوار ، ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور . وذلك الأمر هو معرفة الله عز وجل بإلهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته وتوحيده بذلك ، ومعرفة ما يناقضه أو بعضه من الشرك والتعطيل ، والتشبيه والتشبه واجتناب ذلك ، والايمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره . وتوحيد الطريق إلى الله عز وجل بمتابعة كتابه

---

(١) جاء اشتقاق اسم « محمد » من اسمه تعالى المحمود ، وقد روى في التاريخ الصغير للبخاري : كان أبو طالب يقول :

وشق له من اسمه ليجله * فذو العرش محمود وهذا محمد

راجع السيرة النبوية من تحقيقنا ط دار الجيل / بيروت في سته أجزاء مع الدراسة والفهارس .

ورسوله والعمل على وفق ما شرعه الله عز وجل ورسوله ﷺ ، ومعرفة ما يناقضها من البدع المضلة ، ويميل بالعبد عنها فيجانبها كل المجانبة ويعوذ بالله منها . فإن الله تعالى أنزل كتابه تبيانا لكل شيء ، وتفصيل كل شيء وقال﴿ **ما فرطنا في الكتاب من شيء** ﴾ . وقال ﴿**ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا** ﴾ . وأرسل رسوله بذلك الكتاب مبلغا ومبينا ليقرأه على الناس على مكث ويبينه لهم أتم البيان ويحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون ، ويهديهم به إلى صراط مستقيم ، فقال تعالى ﴿ **وأنزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء** ﴾ وقال تعالى ﴿ **ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون** ﴾ وقال تعالى ﴿ **وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون** ﴾[1] وقال تعالى ﴿ **وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون** ﴾ وقال تعالى ﴿ **يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير ، قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم** ﴾ ولا شفاء للقلوب والأرواح ولا حياة لها إلا بطاعة الله تعالى ورسوله ﷺ والاستجابة لله تعالى ولرسوله ﷺ قال الله تعالى ﴿ **يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون ، ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون ، إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون ، ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون . يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم** ﴾ الآيات ، وقال تعالى ﴿ **إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون** ﴾ ولم ينج الله تعالى من عذابه ولم يكتب رحمته إلا لمن اتبع كتابه ورسوله كما قال تعالى ﴿ **عذابى أصيب به من أشاء ورحمتى وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون، الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم ، فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون** ﴾ وقد كان الرسول يبعث فى قومه خاصة وبعث محمد ﷺ إلى الناس كافة كما قال تعالى ﴿ **قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون** ﴾ وقال

(١) وردت هذه الآية مضطربة فى الأصول والصواب ما أثبتناه ، وهى الآية : ٤٤ من سورة النحل .

تعالى ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ ولم يتوفه الله تعالى حتى أكمل له الدين وبلغ البلاغ المبين ، وبين للناس ما نزل إليهم أوضح التبيين ، وترك أمته على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعده إلا هالك ، وما من طائر يطير بجناحيه إلا وقد ذكر لهم منه علما . وهدى الله به الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم كما قال تعالى ﴿ **كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم** ﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما : كان بين نوح وآدم عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ، وكذلك هى فى قراءة عبد الله وأبىّ بن كعب . وهذا التفسير مروى عن قتادة ومجاهد أيضا . وقوله ﴿ **وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم** ﴾ أى من بعد ما قامت الحجج عليهم ، وما حملهم على ذلك إلا البغى من بعضهم على بعض . وقوله تعالى ﴿ **فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه** ﴾ قال النبى ﷺ « نحن الآخرون السابقون يوم القيامة فنحن أول الناس دخولا الجنة ، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه . فهذا اليوم الذى اختلفوا فيه وهدانا الله له فالناس لنا فيه تبع فغدا لليهود وبعد غد للنصارى »(1) رواه عبد الرزاق ، وهو فى الصحيح من طرق بألفاظ . وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه فى قوله تعالى ﴿ **فهدى الله الذين آمنوا لما إختلفوا فيه من الحق بإذنه** ﴾ فاختلفوا فى يوم الجمعة فاتخذ اليهود يوم السبت والنصارى يوم الأحد ، فهدى الله أمة محمد ليوم الجمعة ، واختلفوا فى القبلة فاستقبلت النصارى الشرق واليهود بيت المقدس ، وهدى الله تعالى أمة محمد للقبلة . واختلفوا فى الصلاة فمنهم من يركع ولا يسجد ومنهم من يسجد ولا يركع ، ومنهم من يصلى وهو يتكلم ، ومنهم من يصلى وهو يمشى ، فهدى الله تعالى أمة محمد للحق من ذلك . واختلفوا فى إبراهيم عليه الصلاة والسلام فقالت اليهود كان يهوديا وقالت النصارى كان نصرانيا وجعله الله حنيفا مسلما ، فهدى الله أمة محمد إلى الحق من ذلك . واختلفوا فى عيسى عليه الصلاة والسلام فكذبت به اليهود وقالوا لأمه بهتانا عظيما ، وجعلته النصارى إلها وولدا ، وجعله الله تعالى روحه وكلمته فهدى الله أمة محمد ﷺ إلى الحق من ذلك ، وقال الربيع بن أنس فى قوله عز وجل ﴿ **فهدى الله الذين آمنوا لما**

---

(1) رواه الشيخان والنسائى .ـ راجع لنا مفاتيح القارى لأبواب فتح البارى بشرح صحيح البخارى .

اختلفوا فيه من الحق بإذنه ﴾ : أي عند الاختلاف أنهم كانوا على ما جاءت به الرسل قبل الاختلاف ، أقاموا على الاخلاص لله عز وجل وحده وعبادته لا شريك له وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، فأقاموا على الأمر الأول الذى كان قبل الاختلاف ، وكانوا شهداء على الناس يوم القيامة ، شهداء على قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم شعيب وآل فرعون وأن رسلهم قد بلغوهم وأنهم كذبوا رسلهم ، وفى قراءة أبيّ بن كعب وليكونوا شهداء على الناس يوم القيامة ﴿ **والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم** ﴾ وكان أبو العالية رحمه الله تعالى يقول : فى هذه الآية المخرج من الشبهات والضلالات والفتن . وفى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ كان إذا قام يصلى من الليل قال « اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون . اهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم » ، وفى الدعاء المأثور « اللهم أرنا الحقّ حقا وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه ، ولا تجعله ملتبسا علينا فنضل ، واجعلنا للمتقين إماما » .

اختلاف الفرق الإسلامية

واعلم أنه كما أخبرنا الله تعالى عن الأمم السابقة أنهم اختلفوا اختلافا شديدا وافترقوا افتراقا بعيدا ، وفى ذلك أعظم واعظ وأكبر زاجر عن الاختلاف والتفرق ، ولم يقتصر سبحانه فى تذكيرنا بذلك عليه بل زجرنا عن الاختلاف زجرا شديدا ، وتوعد على ذلك وعيدا أكيدا فقال تعالى ﴿ **ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم ، يوم تبيض وجوه وتسود وجوه** ﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما : تبيض وجوه أهل السنة والائتلاف ، وتسود وجوه أهل البدع والاختلاف . ثم فصل تعالى مآل الفريقين ، وأين توصل أهلها كل من الطريقين فقال تعالى ﴿ **فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون . وأما الذين ابيضت وجوههم ففى رحمة الله هم فيها خالدون** ﴾ وحذرنا عن ذلك نبينا محمد ﷺ الذى هو أولى بنا من أنفسنا فقال ﷺ « ألا وإن من كان قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين ملة ، وإن هذه الملة ستفترق على ثلاث وسبعين ، ثنتان وسبعون فى النار وواحدة فى الجنة وهم الجماعة »[1] ، وفى بعض الروايات « هم من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابى » .

---

(١) ينظر حديث افتراق الأمة فى كتاب الفرق بين الفرق للبغدادى ، من تحقيقنا ، نشر مؤسسة الحلبى وشركاه .

وقد حصل مصداق ما أخبر به الرسول ﷺ هو الصادق المصدوق من الافتراق ، وتفاقم الأمر وعظم الشقاق فاشتد الاختلاف ونجمت البدع والنفاق فافترقوا فى أسماء الله تعالى وصفاته إلى نفاة معطلة ، وغلاة ممثلة ، وفى باب الايمان والوعد والوعيد إلى مرجئة ووعيدية من خوارج ومعتزلة ، وفى باب أفعال الله وأقداره إلى جبرية غلاة وقدرية نفاة ، وفى أصحاب رسول الله ﷺ وأهل بيته إلى رافضة غلاة وناصبة جفاة ، إلى غير ذلك من فرق الضلال ، وطوائف البدع والانتحال ، وكل طائفة من هذه الطوائف قد تحزبت فرقا وتشعبت طرقا ، وكل فرقة تكفر صاحبتها وتزعم أنها هى الفرقة الناجية المنصورة .

الفرقة الناجية

وقد أخبر الصادق المصدوق ﷺ أن الفرقة الناجية هم من كان على مثل ما كان عليه وهو وأصحابه ، وليس أحد من هؤلاء كذلك ، بل إنهم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل . وذلك لأنه لا يعرف ما كان عليه النبى ﷺ وأصحابه إلا من طريق سنته المروية وآثاره المصطفوية التى هى الشريعة الغراء والمحجة البيضاء ، وهؤلاء من أبعد الناس عنها وأنفرهم منها ، وإنما تصلح هذه الصفة لحملتها وحفاظها ونقادها المنقادين لها المتمسكين بها ، الذابين عنها يقفون عندها ويسيرون بسيرها ، لا ينحرفون عنها يمينا ولا شمالا ، ولا يقدمون عليها لأحد مقالا ، ولا يبالون من خالفهم ولا من خذلهم ، ولا يضرهم ذلك حتى يأتى أمر الله تبارك وتعالى . أعنى بذلك أئمة الحديث وجهابذة السنة وجيش دولتها ، المرابطين على ثغورها الحافظين حدودها الحامين حوزتها ، وفقهم الله عز وجل للاستضاءة بنورها والاهتداء بهديها القويم ، وهداهم لما اختلفوا فيه من الحق باذنه والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ، فآمنوا بما أخبر الله به فى كتابه وأخبر به عبده ورسوله محمد ﷺ فى سنته ، وتلقوه بالقبول والتسليم إثباتا بلا تكييف ولا تمثيل وتنزيها بلا تحريف ولا تعطيل ، فهم الوسط فى فرق هذه الأمة كما أن هذه الأمة هى الوسط فى الأمم ، فهم وسط فى باب صفات الله تعالى بين أهل التعطيل الجهمية وأهل التمثيل المشبهة ، وهم وسط فى باب أفعال الله تعالى بين الجبرية والقدرية ، وفى باب وعيد الله بين المرجئة والوعيدية من القدرية وغيرهم ، وفى باب الايمان والدين بين الحرورية والمعتزلة وبين المرجئة والجهمية وفى أصحاب رسول الله ﷺ بين الرافضة والخوارج . فهم والله (أهل السنة والجماعة)، وهم الطائفة المنصورة إلى قيام الساعة ، الذين لم تزل قلوبهم على الحق متفقة مؤتلفة ، وأقوالهم وأعمالهم وعقائدهم على الوحى لا مفترقة ولا مختلفة. فانتدبوا لنصرة الدين دعوة وجهادا ، وقاوموا أعداءه جماعات وفرادى ، ولم يخشوا فى الله لومة لائم ولم يبالوا بعداوة من عادى ، فقهروا البدع المضلة وشرّدوا بأهلها واجتثوا شجرة الإلحاد

بمعاول السنة من أصلها ، فبهتوهم بالبراهين القطعية فى المحافل العديدة ، وصنفوا فى رد شبههم ودفع باطلهم وإدحاض حججهم الكتب المفيدة ، فمنهم المتقصى للرد على الطوائف بأسرها ، ومنهم المخلص لعقائد السلف الصالح من غيرها ، ولم تنجم بدعة من المضلين الملحدين ، إلا ويقيض الله لها جيشا من عباده المخلصين ، فحفظ الله بهم دينه على العباد ، وأخرجهم بهم من ظلمات الزيغ والضلالة إلى نور الهدى والرشاد ، وذلك مصداق وعد الله عز وجل بحفظه الذكر الذى أنزله ، كما قال تعالى **﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾** وإعلاء لكلمته وتأييدا لحزبه إذ يقول **﴿ وإن جندنا لهم الغالبون﴾** .

سبب نظم المتن وتأليف الشرح

وقد سألنى من لا تسعنى مخالفته من المحبين ، أن أنظم مختصرا يسهل حفظه على الطالبين ، ويقرب مناله للراغبين ، ويفصح عن عقيدة السلف الصالح ويبين فأجبته إلى ذلك مستعينا بالله ، راجيا الثواب من الله ، قائلا لا حول ولا قوة إلا بالله . وضممت إلى ذلك مسائل نافعة تتعلق بهذه العصور من التنبيه على ما افتتن به العامة من عبادة الأشجار والأحجار والقبور ، ومناقضتهم التوحيد بالشرك الذى هو أقبح المحظور ، وصرف جل العبادة لغير الله من الدعاء والرجاء والخوف والمحبة والذبح والنذور ، فيسر الله تعالى ذلك بمنه وإفضاله ، وأعاننى وله الحمد والمنة على إكماله . وسميته (سُلّم الوصول ، إلى مباحث علم الأصول) فلما انتشر بأيدى الطلاب ، وعظمت فيه رغبة الأحباب ، سئل منى أن أعلق عليه تعليقا لطيفا ، يحل مشكله ويفصل مجمله ، مقتصرا على ذكر الدليل ومدلوله ، من كلام الله تعالى وكلام رسوله ، فاستخرت الله تعالى بعلمه ، واستقدرته بقدرته ، فعنّ لى أن أعزم على ذلك الأمر المسئول ، مستمدا من الله تعالى الاعانة على نيل السول ، وسميته (معارج القبول ، بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول) . والله أسأل أن يعين على إكماله بمنه وفضله ، وأن ينفعنى وطلاب العلم به وبأصله ، وأن يهدينا الصراط المستقيم ، ويجعلنا من أنصار التوحيد وأهله ، إنه سميع قريب مجيب ، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب . ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

(أبدأ باسم الله مستعينا   راض به مدبرا معينا)

(أبدأ) فى جميع حركاتى وسكناتى وأقوالى وأعمالى وفى شأنى كله ومنه هذا التصنيف (باسم الله) متبركا و (مستعينا) به أو إياه يتعدى بالباء وبدونه أى طالبا منه العون على فعل طاعته وترك معصيته ، كما قال تعالى معلما لنا فى فاتحة الكتاب **﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾** وقال النبى ﷺ لابن عمه عبد الله بن عباس رضى الله عنهما « إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله » وهو خطاب شامل لجميع الأمة ، وفى ضمن ذلك الأمر الواقع فى جواب الشرط نهى لنا عن الاستعانة بغير الله عز وجل لأنه لا خالق للعباد وأفعالهم غيره تعالى ، فاذا كان المخلوق لا يقدر على فعل نفسه إلا بما أقدره الله تعالى عليه فكيف يجوز أن تطلب الإعانة منه على فعل غيره والعاقل يفهم ذلك بادىء بدء .

خلاصة القول فى تفسير البسملة

والكلام على تفسير البسملة مستوفى فى كتب المفسرين[1] ، ولنذكر خلاصة ذلك فنقول : الباء أداة تخفض ما بعدها ، ومعناها فى البسملة الاستعانة ، وتطويلها فى القرآن تعظيما لكتاب الله عز وجل ، وإسقاط الألف من الاسم طلبا للخفة لكثرة استعمالها ، وقيل لما أسقطوا الألف ردوا طولها على الباء ليدل على السقوط ، ولذلك لما كتبت الألف[2] فى **﴿اقرأ باسم ربك الذى خلق ﴾** ردت الباء إلى هيئتها . والاسم هو المسمى وعينه وذاته فإنك تقول : يا الله يا رحمن يا رحيم ، فتدعوه بأسمائه التى سمى بها نفسه كما قال تعالى **﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ﴾** وقال تعالى **﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيًا مّا تدعوا فله الأسماء الحسنى ﴾** ، ولو كانت أسماء الله غيره لكان الداعى بها مشركا إذ دعا مع الله غيره ، ولكانت مخلوقة إذ كل ما سوى الله مخلوق ، وهذا هو الذى حاوله الملحدون فى أسماء الله تعالى وصفاته ، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا . وسيأتى بسط القول فى ذلك إن شاء الله تعالى فى الكلام على الأسماء . (الله) علم على ذاته تبارك وتعالى وكل الأسماء الحسنى تضاف إليه كما قال تعالى **﴿ ولله الأسماء الحسنى ﴾** وقال تعالى **﴿ الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى ﴾** ألا ترى أنك تقول الرحمن من أسماء الله تعالى والرحيم من أسماء الله ونحو ذلك ، ولا تقول الله من أسماء الرحمن ،

---

(١) انظر ذلك فى مقدمة فتح البارى شرح صحيح البخارى ، لابن حجر العسقلانى ، من تحقيقنا .

(٢) هناك قاعدة إملائية تقضى بحذف ألف اسم من البسملة الكاملة فقط .

وقال النبى ﷺ «إن لله تسعة وتسعين اسما مائة إلا واحدا من أحصاها دخل الجنة »[١]
واختلفوا فى كونه مشتقا أو لا ، ذهب الخليل وسيبويه وجماعة من أئمة اللغة والشافعى والخطابى وإمام الحرمين ومن وافقهم إلى عدم اشتقاقه لأن الألف واللام فيه لازمة فتقول يا الله ولا تقول يا الرحمن ، فلولا أنه من أصل الكلمة لما جاز إدخال حرف النداء على الألف واللام . وقال آخرون إنه مشتق ، واختلفوا فى اشتقاقه إلى أقوال أقواها أنه مشتق من أله يأله إلاهة ، فأصل الاسم الاله . وحذفت الهمزة وأدغمت اللام الأولى فى الثانية وجوبا فقيل الله ، ومن أقوى الأدلة عليه قوله تعالى ﴿ **وهو الله فى السموات وفى الأرض** ﴾ مع قوله عز وجل ﴿ **وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله** ﴾ ومعناه ذو الألوهية التى لا تنبغى إلا له، ومعنى أله يأله إلهة عبد يعبد عبادة فالله المألوه أى المعبود . ولهذا الاسم خصائص لا يحصيها إلا الله عز وجل ، وقيل إنه هو الاسم الاعظم . (الرحمن الرحيم) اسمان مشتقان من الرحمة على وجه المبالغة ، ورحمن مبالغة من رحيم فالرحمن يدل على الرحمة العامة كما قال تعالى ﴿ **الرحمن على العرش استوى** ﴾ والرحيم يدل على الرحمة الخاصة بالمؤمنين كما قال تعالى ﴿ **وكان بالمؤمنين رحيما** ﴾ ذكره ابن جرير بسنده عن العزرمى بمعناه وفى الدعاء المأثور « رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما » ، والظاهر المفهوم من نصوص الكتاب والسنة أن اسمه الرحمن يدل على الصفة الذاتية من حيث اتصافه تعالى بالرحمة ، واسمه الرحيم يدل على الصفة الفعلية من حيث إيصاله الرحمة إلى المرحوم ، فلهذا قال تعالى ﴿ **وكان بالمؤمنين رحيما** ﴾ ، ﴿ **إنه بهم رءوف رحيم** ﴾ ولم يأت قط إنه بهم رحمن ، ووصف نبيه محمدا ﷺ بأنه رءوف رحيم فقال تعالى ﴿ **حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم** ﴾ ولم يصف قط أحدا من خلقه أنه رحمن فتأمل ذلك ، والله أعلم . (راض) خبر لمبتدأ محذوف تقديره وأنا راض (به) أى بالله عز وجل (مدبرا) حال من الضمير المجرور أى بتدبيره لى فى جميع شئونى، فإن أزِمّة الأمور بيده وهو الذى يعلم ما لا نعلم ويقدر ما لا نقدر ، وهو الذى يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ﴿ **الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شىء قدير وأن الله قد أحاط بكل شىء علما** ﴾ . و (معينا) لى على جميع أمورى الدينية والدنيوية فانى لا أقدر إلا على ما أقدرنى عليه ولا علم لى إلا ما علمنيه فلا أعبد إلا إياه ولا أستعين إلا به ولا أتوكل إلا عليه ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ولا منجا ولا ملجأ منه إلا إليه .

---

(١) رواه البخارى ومسلم والترمذى وابن حبان وابن ماجه . راجع لنا مفاتيح القارء .

القول في حمد الله وشكره والاستعانة به

(والحمد لله كما هدانا   إلى سبيل الحق واجتبانا)

أى (و) أثني بحمده فأقول (الحمد لله) كما أثنى به على نفسه فى كتابه فقال **﴿الحمد لله رب العالمين﴾** وأمر بذلك عباده فقال تعالى مخاطبا لنبيه خطابا يدخل فيه جميع أمته **﴿ قل الحمد لله ﴾** فله الحمد كالذى يقول وخيرا مما نقول سبحانه لا نحصى ثناء عليه هو كما أثنى على نفسه ، فله الحمد على أسمائه الحسنى وصفاته العلى وله الحمد على نعمه الظاهرة والباطنة ، وله الحمد في الأولى والآخرة . وعن الأسود بن سريع رضى الله عنه قال أقلت يا رسول الله، ألا أنشدك محامد حمدت بها ربى تبارك وتعالى . فقال ﷺ « أما إن ربك يحب الحمد » رواه أحمد والنسائى ، وعن الحكم بن عمير رضى الله عنه وكانت له صحبة قال : قال رسول الله ﷺ « إذا قلت الحمد لله فقد شكرت فزادك » رواه ابن جرير . وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ «أفضل الذكر لا إله إلا الله ، وأفضل الدعاء الحمد لله » رواه الترمذى والنسائى وابن ماجه وقال الترمذى حسن غريب . وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « ما أنعم الله على عبد نعمة فقال الحمد لله إلا كان الذى أعطى ـ يعنى من هدايته للحمد ـ أفضل مما أخذ » رواه ابن ماجه ، وللقرطبى عنه عن النبى ﷺ قال «لو أن الدنيا بحذافيرها فى يد رجل ثم قال الحمد لله لكان الحمد لله أفضل من ذلك » قال القرطبى وغيره : أى لكان إلهامه الحمد لله أكثر نعمة عليه من نعم الدنيا . لأن ثواب الحمد لا يفنى ونعيم الدنيا لا يبقى قال الله تعالى **﴿ المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا ﴾** وقال على رضى الله عنه : الحمد لله كلمة أحبها الله تعالى لنفسه ورضيها لنفسه وأحب أن تقال . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : الحمد لله كلمة الشكر ، وإذا قال العبد الحمد لله قال شكرنى عبدى . وقال رضى الله عنه : الحمد لله كلمة كل شاكر . وقال رضى الله عنه : الحمد لله هو الشكر لله، هو الاستخذاء له والاقرار له بنعمته وهدايته وابتدائه وغير ذلك . وقال الضحاك : الحمد لله رداء الرحمن ، وقال كعب الأحبار : الحمد لله ثناء الله . وفى معنى الحمد لله وفضلها آثار غير ما ذكرنا لا تحصى . ولما كان من أكبر نعم الله علينا ، وأجل مننه الواصلة إلينا ، هدايته إيانا إلى صراطه المستقيم ، الذى هو دين الاسلام الذى أرسل به رسله وأنزل به كتبه ولا يقبل من أحد غيره ، ناسب الثناء عليه بها فقلت (كما هدانا) أى على ما هدانا إرشادا ودلالة بكتبه ورسله ، وتوفيقا وتسديدا بمشيئته وقدره (إلى سبيل الحق) وهو دين الاسلام والايمان (واجتبانا) له ، وبذلك قال تعالى ممتنا علينا وله الحمد والمنة **﴿ واذكروه كما**

هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين ﴾ وقال تعالى ﴿ لقد من الله على المؤمنين إذا بعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين ﴾ وقال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون ، وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير ﴾ ولما كان الحمد الخبرى أبلغ من الانشائى لدلالته على الثبوت والاستمرار قدمته عليه أولا ثم عطفت عليه الانشائى جمعا بينهما فقلت :

(أحمده سبحانه وأشكره ومن مساوى عملى أستغفره)

(أحمده) أى أنشئ له حمدا آخر متجددا على توالى نعمه وتواتر فضله ، فله الحمد كما ينبغى لجلال وجهه وعظيم سلطانه (سبحانه) أى تنزيها له عما لا يليق بنعوت جلاله وصفات كماله ، وهذه العبارة تتضمن معنى قوله ﷺ فى الحديث المتفق عليه «كلمتان حبيبتان إلى الرحمن خفيفتان على اللسان ثقيلتان فى الميزان : سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم»[1] (وأشكره) على ما أنعم وألهم امتثالا لقوله عز وجل ﴿فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون ﴾ . واختلف العلماء فى معنى الحمد والشكر هل هما مترادفان أو لا ، فذهب إلى ترادفهما ابن جرير الطبرى صاحب التفسير وجعفر الصادق وغيرهما ، وذهب جماعة من المتأخرين إلى التفرقة بينهما ، وقال شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى : الحمد يتضمن المدح والثناء على المحمود بذكر محاسنه ، سواء كان الإحسان إلى الحامد أو لم يكن ، والشكر لا يكون إلا على إحسان المشكور إلى الشاكر . فمن هذا الوجه الحمد أعم من الشكر لأنه يكون على المحاسن والإحسان ، فإن الله تعالى يحمد على ما له من الأسماء الحسنى والمثل الأعلى ، وما خلقه فى الآخرة والأولى ، ولهذا قال تعالى ﴿ وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولى من الذل ﴾ وقال تعالى ﴿ الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ﴾ وقال تعالى ﴿ الحمد لله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض وله الحمد فى الآخرة ﴾ وقال تعالى ﴿ الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد فى الخلق ما يشاء﴾ . وأما الشكر فإنه لا يكون إلا على الإنعام ، فهو أخص من الحمد من هذا الوجه ، لكنه يكون بالقلب واليد واللسان كما قيل :

(١) انظر صحيح مسلم بشرح النووى ط دار الغد العرب ، حديث ٢٠٧٢ راجع فهارسه وضع د / قلعجى

أفادتكم النعماء منى ثلاثة — يدى ولسانى والضمير المحجبا

ولهذا قال تعالى ﴿ **اعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادى الشكور** ﴾ والحمد يكون بالقلب واللسان ، فمن هذا الوجه الشكر أعم من جهة أنواعه ، والحمد أعم من جهة أسبابه . وفى الحديث « الحمد لله رأس الشكر » ، فمن لم يحمد الله لم يشكره ، وفى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال : « إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها ويشرب الشربة فيحمده عليها والله اعلم انتهى كلامه رحمه الله تعالى (ومن مساوئ) جمع مساءة (عملى) مضاف اليه من إضافة الصفة الى الموصوف (استغفره) السين للطلب اى أطلب منه مغفرة تلك المساوئ ما تقدم منها وما تأخر إنه هو أهل التقوى وأهل المغفرة .

(وأستعينه على نيل الرضا — وأستمدُّ لطفه فى ما قضى)

(وأستعينه) أطلب منه العون (على نيل الرضا) أى على فعل الأعمال الصالحة التى بسببها ينال رضاه أن يرزقنيها وينيلنى رضاه بفضله ورحمته . (وأستمد) أى أطلب منه الإمداد بأن يرزقنى (لطفه) بى (فيما قضى) وقدّر من المصائب ، وأن يجعلنى راضيا بذلك مؤمنا به مستيقنا أنه من عند الله وأن وقوعه خير عندى من كونه لم يقع ، وأن يهدى قلبى كما قال تعالى ﴿ **ما أصاب من مصيبة إلا باذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه والله بكل شىء عليم** ﴾ وكما قال ﷺ « وأسألك الرضا بعد القضاء » الحديث ، فإن ذلك أعلى درجات الإيمان بالقدر ، وهو الرضا بالمصيبة .

القول فى كلمة الشهادة

(وبـعـ د إنى باليقين أشهد — شهادة الإخلاص أن لا يعبد)

(بالحق مألوهٌ سوى الرحمنِ — مِن جلَّ عن عيب وعن نقصان)

(وبعد) هو ظرف زمانى يؤتى به للتنبيه على ما بعده وفصله عما قبله ، ويبنى على الضم لقطعه عن الإضافة[1] ويغنى عن إعادة المضاف إليه (إنى باليقين) القاطع الجازم بدون شك ولا تردد (أشهد شهادة) مصدر مؤكد (الإخلاص) مضاف إلى شهادة من إضافة الصفة إلى الموصوف (أن) مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن مستكن والتقدير أنه ، والخبر (لا يعبد) بضم الياء وفتح الباء بالبناء للمفعول (بالحق) يتعلق

---

(١) كما فى قوله تعالى : « لله الأمر من قبلُ ومن بعدُ » [الروم : ٤] . وراجع أحوال قبل وبعد فى كتاب شرح الألفية لابن الناظم يظهر قريبا من تحقيقنا .

يعبد (مألوه) نائب الفاعل ليعبد ومعناه معبود (سوى) أداة استثناء بمعنى إلا (الرحمن) أى لا معبود بحق إلا الله عز وجل ، والتقيد بحق يخرج به الآلهة المعبودة بباطل فإنها قد عبدت ، والمنفى هو استحقاق العبادة عن غير الله عز وجل لا وقوعها ، وهذه هى شهادة أن لا إله إلا الله ، ولما لم يمكن فى النظم الإتيان بلفظها نظمتها بمعناها ، وسيأتى إن شاء الله تعالى بسط القول فى تفسيرها (مَن جلّ) فى صفات كماله ونعوت جلاله (عن عيب وعن نقصان) وهما لفظان مترادفان فكل عيب يسمى نقصانا وكل نقصان يسمى عيبا والله سبحانه وتعالى منزه عن ذلك كله ، بل له الجلال المطلق والكمال المطلق فى ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله .

﴿ وأن خير خلقه محمدا	من جاءنا بالبينات والهدى ﴾
﴿ رسوله إلى جميع الخلق	بالنـور والهدى ودين الحق ﴾

(و) أشهد (أن خير) أفضل (خلقه) هاء الضمير يعود على الرحمن (محمداً) بدل من خير أو عطف بيان ، ومعناه الكثير المحامد فهو أبلغ من محمود . (من جاءنا بالبينات والهدى) من عند الله عز وجل ، هذه الجملة صلة من وهو محله النصب نعت لمحمد ﷺ والخبر (رسوله) الرسول بمعنى المرسل وهو من أوحى إليه وأمر بالتبليغ ، فإن أوحى إليه ولم يؤمر بالتبليغ فهو نبى فقط ، فكل رسول نبى ولا عكس (إلى جميع الخلق) كافة قال الله عز وجل ﴿ **وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾ وقال تعالى ﴿ **قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيى ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون** ﴾ وفى الصحيح من حديث الخصائص « وكان الرسول يبعث فى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة » وفيه أيضا « والذى نفس محمد بيده ، لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى ثم يموت ولم يؤمن بالذى أرسلت به إلا كان من أصحاب النار » . (بالنور المبين) وهو القرآن الذى قال الله عز وجل فيه ﴿ **يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نورا مبينا** ﴾ وقال تعالى ﴿ **وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم * صراط الله** ﴾ الآية ، وقال تعالى ﴿ **فآمنوا بالله ورسوله والنور الذى أنزلنا** ﴾ وغير ذلك من الآيات (والهدى) الارشاد والدلالة إلى الصراط المستقيم ، (ودين الحق) الاسلام الذى لا يقبل الله تعالى من أحد غيره قال الله عز وجل ﴿ **هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون** ﴾ وكل من القرآن والرسول والإسلام يسمى

نورا وهدى وصراطا مستقيما . وكل الثلاثة متلازمة تقول أرسل الله عز وجل رسوله وأنزل عليه كتابه بدين الإسلام ، وتقول دين الإسلام هو الذى أرسل الله به رسوله وأنزل به كتابه ، وكل منها نور مبين ، وهدى مستبين ، وصراط مستقيم .

القول فى الصلاة ، والتعريف بالآل والأصحاب

(صلى عليه ربنا ومجدا   والآل والصحب دواما سرمدا)

(صلى عليه ربنا) قال أبو العالية : الصلاة من الله عز وجل ثناؤه على عبده فى الملأ الأعلى ، ذكره عنه البخارى . ومنه قوله تعالى ﴿ **هو الذى يصلى عليكم وملائكته** ﴾ وفى الصحيح من الحديث القدسى « وإذا ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وإذا ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منهم » . (ومجّدا) بألف الاطلاق أى شرفه وزاده تشريفا وتمجيدا (والآل) أى آله ﷺ وهم أتباعه وأنصاره إلى يوم القيامة كما قيل :

آل النبـــى همـــو أتبـاع ملتــه   علـى الشريعـة مـن عجـم ومن عرب

لـــو لـــم يكـن آلهُ إلا قرابتــه   صلـى المصلى على الطاغى أبى لهب

ويدخل الصحابة فى ذلك من باب أولى ، ويدخل فيه أهل بيته من قرابته وأزواجه وذريته من باب أولى وأولى . (والصاحب) جمع صحابى وهو من رأى او لقى النبى ﷺ مؤمنا به ولو لحظة ومات على ذلك ولو تخللت ردة فى الأصح ، وهم أفضل القرون فى هذه الأمة ، وسيأتى فى آخر المتن الكلام على فضل بعضهم على بعض إن شاء الله تعالى

التعريف بموضوع الكتاب

(وبعد هذا النظم فى الأصول   لمـن أراد منهـج الرسول)

(سألنـى إياه مـن لا بـد لـى   من امتثال سؤله الممتثل)

(وبعد) تقدم الكلام عليه قريبا ، اى وبعد الشهادتين والصلاة والسلام على محمد ﷺ وآله وصحبه (هذا النظم) الألف واللام للعهد الحضورى ، موضوعه (فى الأصول) والمراد بها هنا اصول الدين من الإيمان بالله عز وجل واسمائه وصفاته وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره ، واركان الإسلام الشهادتين والصلاة والزكاة والصوم والحج وما يتعلق بكل منها ، والكلام على رسالة نبينا محمد ﷺ وما يتعلق بها ، والكلام فى مسألة الخلافة ، والاعتصام بالكتاب والسنة وما تحتوى عليه كل مسألة من ذلك ، وسترى إن شاء الله تعالى تبيانها مفصلا (لمن اراد) من المؤمنين . (منهج الرسول) سبيله ومسلكه وهو ما عليه اهل السنة والجماعة . (سألنى الخ) البيت بين

واضح

(فقلت مع عجزى ومع إشفاقى   معتمدا على القدير الباقى)

(فقلت) جواب سألنى (مع عجزى) عدم قدرتى على ذلك (ومع إشفاقى) خوفى من الغلط فى هذا الباب الذى المسألة منه اكبر من الدنيا وما فيها ، وذلك لقصر باعى وقلة اطلاعى ، والذى قوى عزمى على ذلك هو كونى (معتمدا) اى متوكلا (على القدير) الذى لا يعجزه شىء فى السموات ولا فى الأرض (الباقى) الذى كل شىء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

مقـــــدّمة

تعرُّف العبد بما خلق له ، وبأول ما فرض الله تعالى عليه وبما أخذ الله عليه به الميثاق في ظهر أبيه آدم ، وبما هو صائر إليه

(اعلـــم بأن الله جل وعلا   لم يترك الخلق سدى وهمـلا)

(بـل خلـق الخلـق ليعبـدوه   وبالإلهيــــــة يفردوه)

(اعلم) كلمة يؤتى بها للاهتمام وللحث على تدبر ما بعدها ، والخطاب بها في هذا الموضع لكل المكلفين . (بأن الله جل) شأنه وتنزه عن كل نقص (وعلا) بكل معانى العلوّ (لم يتـرك الخلق سـدى و) لا (همـلا) أى لا يأمرهم ولا ينهاهم فى الدنيا ولا يـعثهم فيجازيهم فى الآخرة ، لأنه تعالى ما خلقهم إلا بالحق لا عبثا ولا باطلا ، بل لحكمة بالغة يستحق عليها الحمد ، قال الله تعالى ﴿ **إن فى خلق السمـوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ، الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار** ﴾ ﴿ **ربنا ما خلقت هذا** ﴾ أى الخلق ﴿ **باطلا** ﴾ لا بل بالحق ، ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى . ثم نزهوه عن العبث وخلق الباطل فقالوا ﴿ **سبحانك** ﴾ أى عن أن تخلق شيئـا باطلا تباركت وتعاليت . وقـال تعـالى ﴿ **خلق السموات والأرض بالحق تعالى عما يشركون ، خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين** ﴾ يخبر تعالى عن خلقه العالم العلوى وهو السموات بما حوت ، والعالم السفلى وهو الأرض بما حوت ، وأن ذلك مخلوق بالحق لا للعبث ، ثم نزه تعالى نفسه عن شرك من عبد معه غيره وهو المستقل بالخلق وحده لا شريك له ، فلهذا يستحق أن يعبد وحده لا شريك له . ثم نبه تعالى على خلق جنس الانسان من نطفة أى مهينة ضعيفة ، فلما استقل ودرج إذا هو يخاصم ربه تعالى ويكذبه ويحارب رسله ، وهو إنما خلق ليكون عبدا لا ضدا ، وهذا كقوله تعالى ﴿ **أولم يرَ الإنسان أنا خلقناه من نطفة فاذا هو خصيم مبين، وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحى العظام وهى رميم ، قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم** ﴾ وقال تعالى ﴿ **أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون** ﴾ أى أفظننتم أنكم مخلوقون عبثا بلا قصد ولا إرادة منا ولا حكمة لنا ، وقيل للعبث أى لتلعبوا وتعبثوا كما خلقت البهائم لا ثواب لها ولا عقاب ﴿ **وأنكم إلينا لا ترجعون** ﴾ أى لا تعودون فى الدار الآخرة ، لا ليس الأمر كذلك ، إنما خلقناكم للعبادة

وإقامة أوامر الله عز وجل ثم نبعثكم ليوم لا ريب فيه فنجازى كل عامل بعمله إن خيرا فخير وإن شرا فشر ، وهذا يقوله تعالى لأهل النار توبيخا وتقريعا وتبكيتا بعدما رأوا الحقائق عين اليقين . ثم قال تعالى منزها نفسه عما حسبوه ﴿ فتعالى الله الملك الحق ﴾ أى تقدس أن يخلق شيئًا عبثا فإنه الملك الحق المنزه عن ذلك ﴿ لا إله إلا هو رب العرش الكريم ﴾ وقال تعالى ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار﴾ يخبر تعالى أنه ما خلق الخلق عبثا وإنما خلقهم ليعبدوه ويوحدوه ثم يجمعهم ليوم الجمع فيثيب المطيع ويعذب الكافر ، وليس الأمر كما يظنه الذين كفروا الذين لا يرون بعثا ولا معادا وإنما يعتقدون هذه الدار فقط ﴿ فويل للذين كفروا من النار﴾ أى ويل لهم يوم معادهم ونشورهم من النار المعدة لهم . ثم بين تعالى أنه عز وجل من عدله وحكمته لا يساوى بين المؤمنين والكافرين فقال تعالى ﴿ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار ﴾ أى لا نفعل ذلك ولا يستوون عند الله ، وإذا كان الأمر كذلك فلا بد من دار أخرى يثاب فيها هذا المتقى ويعاقب فيها هذا الفاجر . قال ابن كثير رحمه الله تعالى : وهذا الارشاد يدل العقول السليمة والفطر المستقيمة على أنه لا بد من معاد وجزاء ، فانا نرى الظالم الباغى يزداد ماله وولده ونعيمه ويموت كذلك ، ونرى المطيع المظلوم يموت بكمده ، فلا بد فى حكمة الحكيم العليم العادل الذى لا يظلم مثقال ذرة من إنصاف هذا المظلوم من هذا الظالم ، وإذا لم يقع هذا فى هذه الدار ، فتعين أن هناك دارا أخرى لهذا الجزاء والمواساة . وقال تعالى ﴿ أولم يتفكروا فى أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمي ﴾ يقول تعالى منبها على التفكر فى مخلوقاته الدالة على وجوده وانفراده بخلقها وأنه لا إله غيره ولا رب سواه فقال تعالى : ﴿ أولم يتفكروا فى أنفسهم ﴾ يعنى به النظر والتدبر والتأمل لخلق الله عز وجل الأشياء من العالم العلوى والسفلى وما بينهما من المخلوقات المتنوعة والأجناس المختلفة فيعلموا أنها ما خلقت سدى ولا باطلا بل بالحق وأنها مؤجلة إلى أجل مسمي وهو يوم القيامة ، ولهذا قال تعالى ﴿ وإن كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون ﴾ وقال تعالى ﴿ خلق الله السموات والأرض بالحق ﴾ أى للحق وإظهار الحق لا على وجه العبث واللعب ﴿ إن فى ذلك ﴾ أى فى خلقها ﴿ لآية ﴾ أى لدلالة ﴿للمؤمنين﴾ على أنه تعالى المتفرد بالقدر والحق والتدبير والإلهية . وقال تعالى ﴿ خلق الله السموات والأرض بالحق ﴾ أى بالعدل ﴿ ولتجزى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون﴾ . وقال تعالى ﴿ وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق ﴾ أى لا على وجه العبث واللعب ﴿ وأجل مسمى ﴾ أى وإلى مدة معينة مضروبة يعنى يوم القيامة

وهو الأجل الذى تنتهى إليه السموات وهو الاشارة إلى فنائهما . وقال تعالى ﴿ **أيحسب الإنسان أن يترك سدى** ﴾ قال السدى : يعنى لا يبعث . وقال مجاهد والشافعى وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم : يعنى لا يؤمر ولا ينهى . قال ابن كثير رحمه الله تعالى : والظاهر أن الآية تعم الحالين ، أى ليس يترك فى هذه الدنيا مهملا لا يؤمر ولا ينهى ، ولا يترك فى قبره سدى لا يبعث ، بل هو مأمور منهى فى الدنيا محشور إلى الله فى الدار الآخرة (بل خلق) الله تعالى (الخلق ليعبدوه) عز وجل بما شرعه على ألسنة رسله وأنزل به كتبه (و) مع عبادتهم إياه لا يشركون بعبادته أحدا كائنا من كان بل (بالالهية يفردوه) دون ما سواه ، فمن عبد الله تعالى ألف سنة ثم أشرك به لحظة من اللحظات ومات على ذلك حبط جميع عمله وصار هباء منثوراً حيث أشرك مع الله فى عبادته من هو مثله مخلوق لعبادة الله عز وجل ، قال تعالى ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلا يعبدون** ﴾ قال على ابن أبى طالب رضى الله عنه : أى إلا لآمرهم أن يعبدون وأدعوهم لعبادتى . يؤيده قوله عز وجل ﴿ **وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحد لا إله إلا هو سبحانه عما ليعبدون** ﴾ وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس رضى الله عنهما : إلا ليعبدون ، إلا ليقروا بعبادتى طوعا أو كرها . وهذا اختيار ابن جرير ، وقال ابن جريج ومجاهد : إلا ليعرفون . وقال الربيع بن أنس : اى إلا للعبادة طوعا أو كرها ، وقال السدى : من العبادة ما ينفع ومنها ما لا ينفع ﴿**ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله** ﴾ فهذا منهم عبادة ولا ينفعهم مع الشرك وقال الضحاك : المراد بذلك المؤمنون . ا هـ من تفسيرا ابن كثير . وقال الكلبى والضحاك وسفيان : هذا خاص لأهل طاعته من الفريقين يدل عليه قراءة ابن عباس ﴿ **وما خلقت الجن والانس** « من المؤمنين » **إلا ليعبدون** ﴾ ثم قال فى آية أخرى ﴿ **ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس** ﴾ وقال بعضهم : وما خلقت السعداء من الجن والانس إلا لعبادتى ، والأشقياء منهم إلا لمعصيتى . وهذا معنى قول زيد ابن أسلم قال : هم على ما جبلوا عليه من الشقاوة والسعادة ، وقيل : معناه إلا ليخضعوا إلى ويتذللوا ، ومعنى العبادة فى اللغة التذلل والانقياد ، فكل مخلوق من الجن والانس خاضع لقضاء الله ومتذلل لمشيئته ولا يملك أحد لنفسه خروجا عما خلق عليه قدر ذرة من نفع ولا ضر . وقيل : إلا ليعبدون ، إلا ليوحدون . فأما المؤمن فيوحده فى الشدة والرخاء ، وأما الكافر فيوحده فى الشدة والبلاء دون النعمة والرخاء ، بيانه قوله عز وجل ﴿ **فاذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين** ﴾ الآية . ا هـ من تفسير البغوى رحمه الله تعالى . قلت : وهذه الأقوال فى هذه الآية وإن كانت متقاربة والاية تسع جميعها ، أرجحها الأول وهو قول أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه : إلا لآمرهم وأدعوهم لعبادتى ، يؤيده قوله

تعالى ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ﴾ وقوله تعالى ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ﴾ الآية وغيرها من الآيات . ويؤيد ذلك أن الله تبارك وتعالى إنما شاء العبادة من جميع عباده وأرادها منهم وقضاها عليهم في الشرع لا في الكون ، فمن أطاع أمره وأتى بما أراده وشاءه منه فله رضاه والجنة ومن خالف في ذلك فله سخطه والنار . ولو شاء الله تعالى من جميعهم العبادة وأرادها في الكون لم يكن لهم بدٌ من ذلك ولم يكن لأحد إلى معصية الله تعالى من سبيل ، ولا يخرج عن قضائه تعالى وقدره شيء من المخلوقات مثقال ذرة ، فإنه لا رادٌ لقضائه ، ولا معقب لحكمه ، ولا مضاد لأمره ، ولا ناقض لما أبرمه ، ولا دافع لما قدره ، ولذلك قال المفسرون هذا المعنى في قوله تعالى ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه ﴾ فقال ابن عباس وقتادة والحسن : وأمر ربك . وقال الربيع ابن أنس : وأوجب ربك . وقال مجاهد : وأوصى ربك . وقرأ أبيّ بن كعب وابن مسعود والضحاك بن مزاحم «ووصى ربك ألا تعبدوا إلا إياه» ولو أنه تبارك وتعالى قضى في الكون أن لا يعبد إلا إياه لم يشرك به أحد من خلقه ، وإنما قضى ذلك شرعاً ليبلوكم أيكم أحسن عملا ، ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى . وهذه المشيئة منه للعبادة من عباده شرعا عامة لمؤمنهم وكافرهم ، وأما مشيئته للعبادة الكونية القدرية فخاصة للمؤمنين ، فلهذا اتفقت فيهم المشيئتان فوافقوا المشيئة الشرعية لما سبق لهم في المشيئة القدرية الكونية ، وأما الكافر فلم يوافق المشيئة الشرعية لما سبق عليه في المشيئة القدرية من الشقاوة . فتبين بهذا أن المشيئة الكونية القدرية لا خروج لأحد منها ، ولا محيد له عنها ، سواء سبقت له بالشقاوة أو السعادة . وأما المشيئة الشرعية فمن كان سبق له في القدرية أنه يوافقها كان كذلك ، أو يخالفها كان كذلك .

وأما معنى العبادة فقال شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى : العبادة هي اسم جامع لكل ما يحبه الله تعالى ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة . فالصلاة والزكاة والصيام والحج وصدق الحديث وأداء الأمانة وبر الوالدين وصلة الأرحام والوفاء بالعهود والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد للكفار والمنافقين والاحسان إلى الجار واليتيم والمسكين وابن السبيل والمملوك من الآدميين والبهائم والدعاء والذكر والقراءة وأمثال ذلك من العبادة ـ يعني الظاهرة ـ وكذلك حب الله ورسوله وخشيته والانابة اليه وإخلاص الدين له والصبر لحكمه والشكر لنعمه والرضا بقضائه والتوكل عليه والرجاء لرحمته والخوف لعذابه وأمثال ذلك هي من العبادة لله ـ يعني الباطنة ـ وجماع العبادة كمال الحب مع كمال الذل . وسيأتي إن شاء الله تعالى زيادة بحثها في بابها من المتن .

﴿ أخرج فيما قد مضى من ظهر آدم ذريتـــــــه كالذرّ ﴾

﴿ وأخـــذ العهـــد عليهـــم أنه لا رب معبود بحق غيره ﴾

(أخرج) أى الله تبارك وتعالى (فيما) أى الزمن الذى (قد مضى) وذلك بعد خلقه آدم عليه الصلاة ولسلام (من ظهر . آدم) أبى البشر عليه السلام (ذريته) كل من يوجد منهم إلى يوم القيامة (كالذر)[1] أى كهيئته (وأخذ) عز وجل (العهد عليهم) وتفسير العهد (أنه) الضمير للشأن أو الحال هو ربهم (لا رب معبود) مستحق للعبادة ولذا قيد (بحق غيره) وإلا فكم قد اتخذ أعداؤه من أرباب وعبدوها بالباطل بدون حق بل بالظلم العظيم قال الله تبارك وتعالى **﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِى آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيتهمْ وَأَشْهَدَهُم عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلستُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ القِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ أَوْ تَقُولُوا إِنَّما أَشْرَكَ آبَاؤنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهلِكُنَا بِمَا فَعَلَ المُبْطِلُونَ. وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾** وعن أنس بن مالك رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة : أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتديا به ؟ قال فيقول : نعم ، فيقول قد أردت منك أهون من ذلك ، قد أخذت عليك فى ظهر آدم أن لا تشرك بى شيئا فأبيت إلا أن تشرك بى » أخرجاه فى الصحيحين[2] . وعن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : إن الله تعالى أخذ الميثاق من ظهر آدم عليه السلام بنعمان يوم عرفة ، فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنثرها بين يديه ثم كلمهم قبلا قال تعالى **﴿ ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين . أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية** « إلى قوله » **المبطلون ﴾** رواه أحمد والنسائى والحاكم وقال صحيح الاسناد ولم يخرجاه ، وقد روى من طرق كثيرة موقوفا . وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه سئل عن هذه الآية **﴿ وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى﴾** الآية ـ فقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : سمعت رسول الله ﷺ سئل عنها فقال « إن الله خلق آدم عليه السلام ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية قال : خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون ، ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية قال : خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون » فقال رجل : يا رسول الله ، ففيم العمل ؟ قال رسول الله ﷺ « إذا خلق الله العبد للجنة استعمله بأعمال أهل الجنة حتى

---

(١) الذر فى اللغة : صغار النمل .

(٢) انظر الحديث ٣١٥٦ فى فتح البارى شرح صحيح البخارى ـ من تحقيقنا .

يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخل به الجنة ، وإذا خلق العبد للنار استعمله بأعمال أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخل به النار » رواه أحمد وأبو داود والنسائي والترمذى وابن أبي حاتم وابن جرير وابن حبان فى صحيحه وقال الترمذى : هٰذا حديث حسن . وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « لما خلق الله آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة ، وجعل بين عينى كل إنسان منهم وبيصا من نور ، ثم عرضهم على آدم فقال : أى رب ، من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء ذريتك . فرأى رجلا منهم فأعجبه وبيص ما بين عينيه فقال : أى رب ، من هذا ؟ قال : هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك يقال له داود . قال : رب وكم جعلت عمره ؟ قال : ستين سنة . قال : أى رب زده من عمرى أربعين سنة . فلما انقضى عمر آدم جاءه ملك الموت فقال : أولم يبق من عمرى أربعون سنة ؟ قال : أولم تعطها لابنك داود ؟ قال : فجحد آدم ، فجحدت ذريته . ونسى آدم ، فنسيت ذريته » رواه الترمذى وقال : هذا حديث حسن صحيح . وقد روى من غير وجه عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ ، ورواه الحاكم وقال صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، ورواه ابن أبى حاتم فى تفسيره نحو ما تقدم إلى أن قال « ثم عرضهم على آدم فقال يا آدم هؤلاء ذريتك ، وإذا فيهم الأجذم والأبرص والأعمى وأنواع الأسقام ، فقال آدم : يارب لم فعلت هذا بذريتى ؟ قال : كى تشكر نعمتى . وقال آدم : يارب من هؤلاء الذين أراهم أظهر الناس نورا ؟ قال : هؤلاء الأنبياء يا آدم من ذريتك » . ثم ذكر قصة داود كنحو ما تقدم . وعن هشام بن حكيم رضى الله عنه أن رجلا سأل النبى ﷺ فقال : يارسول الله ، أتبتدأ الأعمال أم قد قضى القضاء ؟ قال فقال رسول الله ﷺ « إن الله قد أخذ ذرية آدم من ظهورهم ، ثم أشهدهم على أنفسهم ، ثم أفاض بهم فى كفيه ، ثم قال : هؤلاء فى الجنة وهؤلاء فى النار . فأهل الجنة ميسرون لعمل أهل الجنة وأهل النار ميسرون لعمل أهل النار » رواه ابن جرير وابن مردويه من طرق عنه . وعن أبى أمامة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « لما خلق الله الخلق وقضى القضية أخذ أهل اليمين بيمينه وأهل الشمال بشماله فقال : يا أصحاب اليمين ، فقالوا لبيك وسعديك . قال ألست بربكم ؟ قالوا بلى ، قال يا أصحاب الشمال ، قالوا لبيك وسعديك . قال ألست بربكم ؟ قالوا بلى . ثم خلط بينهم . فقال له يارب لم خلطت بينهم ، قال لهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون أن يقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين ، ثم ردهم فى صلب آدم » رواه ابن مردويه ، وفيه جعفر بن الزبير وهو ضعيف . وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : أخرج الله ذرية آدم من ظهره كهيئة الذر وهو فى أذى من الماء . رواه ابن جرير . وله عنه رضى

الله عنه قال : إن الله تعالى مسح صلب آدم فاستخرج منه كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة ، فأخذ منهم الميثاق أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا وتكفل لهم بالرزق . ثم أعادهم في صلبه . فلن تقوم الساعة حتى يولد من أعطى الميثاق يومئذ ، فمن أدرك منهم الميثاق الآخر فوفى به نفعه الميثاق الأول ، ومن ادرك الميثاق الآخر فلم يقر به لم ينفعه الميثاق الأول . ومن مات صغيرا قبل ان يدرك الميثاق الآخر مات على الميثاق الأول على الفطرة . وله عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم قال : اخذ من ظهره كما يؤخذ بالمشط من الراس فقال لهم واشهدهم على انفسهم : الست بربكم ؟ قالوا بلى ، قالت الملائكة شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين » وصحح ابن كثير وقفه . وعن ابى بن كعب رضى الله عنه فى قوله تعالى **﴿وإذ اخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى﴾** الآيات ، قال فجمعهم له يومئذ جميعا ما هو كائن منه إلى يوم القيامة فجعلهم فى صورهم ، ثم استنطقهم فتكلموا واخذ عليهم العهد والميثاق واشهدهم على انفسهم الست بربكم ؟ قالوا بلى . الآية ، قال : فانى أشهد عليكم السموات السبع والأرضين السبع واشهد عليكم اباكم آدم أن تقولوا يوم القيامة لم نعلم بهذا ، اعلموا انه لا إله غيرى ولا رب غيرى ولا تشركوا بى شيئا ، وإنى سأرسل إليكم رسلا ليذكروكم عهدى وميثاقى وانزل عليكم كتبى . قالوا نشهد انك ربنا وإلهنا لا رب لنا غيرك ولا إله لنا غيرك ، فأقروا له يومئذ بالطاعة ورفع اباهم آدم فنظر إليهم فراى فيهم الغنى والفقير وحسن الصورة ودون ذلك ، فقال يارب لو سويت بين عبادك قال إنى احببت ان اشكر . وراى فيهم الأنبياء مثل السرج عليهم النور وخصوا بميثاق آخر من الرسالة والنبوة فهو الذى يقول تعالى **﴿ وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ﴾** الآية وهو الذى يقول **﴿فأقم وجهك للدين حنيفا فطرت الله ﴾** الآية ومن ذلك قال **﴿ هذا نذير من النذر الأولى﴾** ومن ذلك قال **﴿ وما وجدنا لأكثرهم من عهد﴾** الآية رواه عبد الله بن احمد فى مسند ابيه وابن ابى حاتم وابن جرير وابن مردويه . وفى البغوى قال مقاتل وغيره من اهل التفسير : إن الله تعالى مسح صفحة ظهر آدم اليمنى فأخرج منه ذرية بيضاء كهيئة الذر يتحركون ، ثم مسح صفحة ظهره اليسرى فأخرج منه ذرية سوداء كهيئة الذر فقال يا آدم هؤلاء ذريتك ، ثم قال لهم ألست بربكم ، قالوا بلى ، فقال للبيض : هؤلاء فى الجنة برحمتى ولا ابالى وهم اصحاب اليمين ، وقال للسود : هؤلاء فى النار ولا ابالى وهم اصحاب الشمال ، ثم اعادهم جميعا فى صلبه ، فأهل القبور محبوسون حتى يخرج اهل الميثاق كلهم من اصلاب الرجال وارحام النساء ، قال الله تعالى فيمن نقض العهد الأول

﴿وما وجدنا لأكثرهم من عهد ﴾ وقال بعض اهل التفسير : إن اهل السعادة اقروا طوعا وقالوا بلى . واهل الشقاوة قالوا تقية وكرها . وذلك معنى قوله تعالى ﴿ وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها ﴾ واختلفوا فى موضع الميثاق قال ابن عباس رضى الله عنهما : يبطن نعمان واد إلى جنب عرفة . وروى عنه ايضا انه بدهناء من ارض الهند وهو الموضع الذى هبط آدم عليه السلام عليه ، وقال الكلبى : بين مكة والطائف ، وقال السدى : اخرج آدم عليه السلام من الجنة فلم يهبطه من السماء ثم مسح ظهره فأخرج ذريته ، وروى ان الله تعالي اخرجهم جميعا وصورهم وجعل لهم عقولا يعلمون بها وألسناً ينطقون بها ثم كلمهم قبلا يعنى عيانا وقال : ألست بربكم ؟ وقال الزجاج : وجائز ان يكون الله تعالى جعل لأمثال الذر فهما تعقل به كما قال تعالى ﴿قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم ﴾ قال البغوى : فان قيل ما معنى قوله ﴿ وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم ﴾ وإنما أخرجهم من ظهر آدم ؟ قيل إن الله تعالى أخرج ذرية آدم بعضهم من ظهور بعض على نحو ما يتوالد الأبناء من الآباء فى الترتيب فاستغنى عن ذكر ظهر آدم لما علم أنهم كلهم بنوه وأخرجوا من ظهره . قوله تعالى ﴿وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى ﴾ أى أشهد بعضهم على بعض ، قوله ﴿شهدنا أن تقولوا ﴾ قرأ أبو عمرو[1] أن يقولوا ،أو يقولوا ، بالياء فيهما ، وقرأ الآخرون بالتاء فيهما . واختلفوا فى قوله ﴿ شهدنا ﴾ قال السدى : هو خبر من الله عز وجل عن نفسه وملائكته أنهم شهدوا على إقرار بنى آدم . وقال بعضهم هو خبر عن قول بنى آدم أشهد الله بعضهم على بعض فقالوا بلى شهدنا . وقال الكلبى ذلك من قول الملائكة وفيه حذف تقديره لما قالت الذرية بلى قال الله عز وجل للملائكة اشهدوا قالوا شهدنا . قوله ﴿ أن يقولوا ﴾ يعنى وأشهدهم على أنفسهم أن يقولوا أى لئلا يقولوا أو كراهية أن يقولوا . ومن قرأ بالتاء فتقدير الكلام أخاطبكم ألست بربكم لئلا تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين ، أى عن هذا الميثاق والإقرار ، فان قيل كيف يلزم الحجة واحدا لا يذكر الميثاق ؟ قيل قد أوضح الله تعالى الدلائل على وحدانيته وصدق رسله فيما أخبروا ، فمن أنكره كان معاندا ناقضا للعهد ولزمته الحجة ، وبنسيانهم وعدم حفظهم لا يسقط الاحتجاج بعد إخبار المخبر صاحب المعجزة ، قوله ﴿ أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم ﴾ يقول إنما أخذ الميثاق عليكم لئلا تقولوا أيها المشركون إنما أشرك آباؤنا من قبل ونقضوا العهد وكنا ذرية من بعدهم أى كنا أتباعا لهم فاقتدينا بهم فتجعلوا هذا عذرا لأنفسكم وتقولوا

(١) هو أبو عمرو الدانى ، الإمام النحوى ، ثالث القراء السبعة المذكورين فى حرز الأمانى ، المعروف بالشاطبية .

﴿أفتهلكنا بما فعل المبطلون﴾ أفتعذبنا بجناية آبائنا المبطلين ؟ فلا يمكنهم أن يحتجوا بمثل هذا الكلام بعد تذكير الله تعالى بأخذ الميثاق على التوحيد﴿ **وكذلك نفصل الآيات﴾** أى نبين الآيات ليتدبرها العباد ﴿ **ولعلهم يرجعون** ﴾ من الكفر إلى التوحيد . ا هـ البغوى.

وقال ابن كثير رحمه الله تعالى : وذهب طائفة من السلف والخلف أن المراد بهذا الاشهاد إنما هو فطرهم على التوحيد ، كما فى حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « كل مولود يولد على الفطرة »[1] وفى رواية « على هذة الملة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه ، كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء » أخرجاه . وفى صحيح مسلم عن عياض بن حمار رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « يقول الله تعالى : إنى خلقت عبادى حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم »[2] وعن الأسود بن سريع من بنى سعد قال غزوت مع رسول الله ﷺ أربع غزوات قال فتناول القوم الذرية بعدما قتلوا المقاتلة فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فاشتد عليه ثم قال « ما بال أقوام يتناولون الذّرية » ؟ فقال رجل يا رسول الله أليسوا أبناء المشركين ؟ فقال « إن خياركم أبناء المشركين . ألا إنها ليست نسمة تولد إلا ولدت على الفطرة فما تزال عليها حتى يبين عنها لسانها فأبواها يهودانها وينصرانها » قال الحسن ولقد قال الله تعالى فى كتابه **﴿وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم ﴾** قالوا ولهذا قال تعالى ﴿ **وإذ أخذ ربك من بنى آدم** ﴾ ولم يقل من آدم ﴿ **من ظهورهم** ﴾ ولم يقل من ظهره ﴿ **ذرياتهم** ﴾ أى جعل نسلهم جيلا بعد جيل وقرنا بعد قرن كقوله تعالى **﴿وهو الذى جعلكم خلائف الأرض﴾** وقال ﴿ **ويجعلكم خلفاء الأرض** ﴾ وقال تعالى **﴿كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين ﴾** ثم قال تعالى ﴿ **وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى** ﴾ أى أوجدهم شاهدين بذلك قائلين له حالا ، قال والشهادة تكون بالقول كقوله تعالى ﴿ **قالوا شهدنا على أنفسنا** ﴾ الآية وتارة تكون حالا كقوله تعالى ﴿ **ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر** ﴾ أى حالهم شاهد عليهم بذلك لا أنهم قائلون ذلك ، وكذا قوله تعالى ﴿ **وإنه على ذلك لشهيد** ﴾ كما أن السؤال تارة يكون بالمقال ، وتارة يكون بالحال كقوله تعالى ﴿ **وآتاكم من كل ما سألتموه﴾** قالوا: ومما يدل على أن المراد بهذا أن جعل هذا الاشهاد حجة عليهم فى الاشراك فلو كان قد وقع هذا كما قال من قال لكان كل احد يذكره ليكون حجة عليه .. فان قيل إخبار

رواه الشيخان والترمذى وأبو داود .

(٢) انظر صحيح مسلم بشرح النووى ط دار الغد العربى حديث رقم ٢٦٥٨ . راجع أيضا فهارسه من وضع د / قلعجى .

الرسول ﷺ به كاف في وجوده ، فالجواب ان المكذبين من المشركين يكذبون بجميع ماجاءتهم به الرسل من هذا وغيره ، وهذا جعل حجة مستقلة عليهم فدل على انه الفطرة التى فطروا عليها من الاقرار بالتوحيد ، ولهذا قال تعالى ﴿ **أن تقولوا** ﴾ اى لئلا تقولوا يوم القيامة ﴿ **إنا كنا عن هذا غافلين** ﴾ اى عن التوحيد ﴿ **أو تقولوا إنما اشرك آباؤنا** ﴾ الآية ا هـ . قلت : ليس بين التفسيرين منافاة ولا مضادة ولا معارضة ، فان هذه المواثيق كلها ثابتة بالكتاب والسنة ، الأول الميثاق الذى اخذه الله تعالى عليهم حين اخرجهم من ظهر ابيهم آدم عليه السلام واشهدهم على انفسهم ﴿ **ألست بربكم قالوا بلى** ﴾ الآيات ، وهو الذى قاله جمهور المفسرين رحمهم الله فى هذه الآيات ، وهو نص الأحاديث الثابتة فى الصحيحين وغيرهما. الميثاق الثانى ميثاق الفطرة وهو أنه تبارك وتعالى فطرهم شاهدين بما أخذه عليهم فى الميثاق الأول كما قال تعالى ﴿ **فأقم وجهك للدين حنيفا فطرت الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله** ﴾ الآية . وهو الثابت فى حديث أبى هريرة وعياض بن حمار والأسود بن سريع رضى الله عنهم وغيرها من الأحاديث فى الصحيحين وغيرهما . الميثاق الثالث هو ما جاءت به الرسل وأنزلت به الكتب تجديدا للميثاق الأول وتذكيرا به ﴿**رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، وكان الله عزيزا حكيما** ﴾ فمن أدرك هذا الميثاق وهو باق على فطرته التى هى شاهدة بما ثبت فى الميثاق الأول فانه يقبل ذلك من أول مرة ولا يتوقف ، لانه جاء موافقا لما فى فطرته وما جبله الله عليه ، فيزداد بذلك يقينه ويقوى إيمانه فلا يتلعثم ولا يتردد . ومن أدركه وقد تغيرت فطرته عما جبله الله عليه من الإقرار بما ثبت فى الميثاق الأول بأن كان قد اجتالته الشياطين عن دينه وهوّده أبواه أو نصراه أو مجساه فهذا إن تداركه الله تعالى برحمته فرجع إلى فطرته وصدق بما جاءت به الرسل ونزلت به الكتب نفعه الميثاق الأول والثانى ، وإن كذب بهذا الميثاق كان مكذبا بالأول فلم ينفعه إقراره به يوم أخذه الله عليه حيث قال ﴿**بلى** ﴾ جوابا لقوله تعالى ﴿**ألست بربكم** ﴾ وقامت عليه حجة الله وغلبت عليه الشقوة وحق عليه العزاب ومن يهن الله فما له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء . ومن لم يدرك هذا الميثاق بأن مات صغيرا قبل التكليف مات على الميثاق الأول على الفطرة فان كان من أولاد المسلمين فهم مع آبائهم ، وإن كان من أولاد المشركين فالله أعلم بما كان عاملا لو أدركه كما فى الصحيحين عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : سئل رسول الله ﷺ عن أولاد المشركين فقال ﷺ « الله تعالى إذ خلقهم أعلم بما كانوا عاملين » . وفيه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سئل رسول الله ﷺ عن ذرارى المشركين فقال ﷺ « الله أعلم بما كانوا عاملين » .

﴿ وبعــد هذا رسله قــد أرسـلا — لهـم وبالحق الكتـــاب أنزلا ﴾
﴿ لكي بذا العــهــد يذكـروهم — وينـــذروهم ويبــشـروهــم ﴾
﴿ كي لا يكون حجة للناس بل — لله أعـلى حـجـة عــز وجل ﴾
﴿ فـمن يصـدقـهم بلا شـقـاق — فـقــد وفى بذلك الميـثـاق ﴾
﴿ وذاك ناج من عـــذاب النار — وذلك الوارث عـقـبى الدار ﴾
﴿ ومن بهم وبالكتــاب كـذبا — ولازم الاعـــراض عنه والإبا ﴾
﴿ فـذاك ناقض كـلا العـهـدين — مستوجب للخزى في الدارين ﴾

(وبعد هذا) أى الميثاق الذى أخذه عليهم فى ظهر أبيهم ثم فطرهم وجبلهم على الاقرار به وخلقهم شاهدين به (رسله) باسكان السين للوزن[1] مفعول أرسل مقدم (قد أرسلا) بألف الاطلاق (لهم) أى إليهم (وبالحق) متعلق بأنزل أى بدين الحق (الكتاب) جنس يشمل جميع الكتب المنزلة على جميع الرسل (أنزلا) بألف الاطلاق والأمر الذى أرسل الله تعالى به الرسل إلى عباده وأنزل عليهم به الكتب هو (لكى بذا العهد) الميثاق الأول (يذكروهم) تجديدا له وإقامة لحجة الله البالغة عليهم (وينذروهم) عقاب الله إن هم عصوه ونقضوا عهده (ويبشروهم) بمغفرته ورضوانه إن هم وفوا بعهده ولم ينقضوا ميثاقه وأطاعوه وصدقوا رسله ، والحكمة فى ذلك (لكى لا يكون حجة) على الله عز وجل (للناس بل لله) على جميع عباده (أعلى حجة) أبلغها وأدمغها (عز) سلطانه (وجل) شأنه عن أن يكون لأحد عليه حجة ، كما قال تعالى لنبيه محمد ص وهو خاتم الرسل والمصدق لما جاءوا به وكتابه مصدق لما بين يديه مما معهم من الكتب ومهيمن عليه **﴿ إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبورا . ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما . رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما ﴾** وقال تعالى لنبيه ﷺ **﴿ قل يا أيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين . فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ورزق كريم . والذين سعوا فى آياتنا معاجزين أولئك أصحاب الجحيم ﴾** وقال تعالى له ﷺ **﴿ إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا . وداعيا الى الله بإذنه وسراجا منيرا . وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا ﴾** الآيات . وقال

(١) ووردت القراءة المتواترة عن رسول الله ﷺ فى القرآن الكريم بإسكان سين « درُسْل » .

تعالى له ﴿ **إن أنت إلا نذير**﴾ وقال تعالى ﴿ **قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة ، إن هو إلا نذير لكم بين يدى عذاب شديد**﴾ الآيات . وقال تعالى ﴿ **فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين . وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار** ﴾ الآية . وغير ذلك من الايات التى يخبر الله تعالى فيها أنه ما أرسل من رسول إلا داعيا إلى عبادة الله عز وجل لا شريك له والكفر بما سواه من الأنداد ومبشرا لمن صدقة وأطاعه بالجنة ونذيرا لمن كذبه وعصاه من النار . ثم أخبر تعالى أن المراد بذلك ﴿ **لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل** ﴾ وقال تعالى ﴿ **قل فلله الحجة البالغة** ﴾ . وتقدير البحث فى الرسالة واتفاق الرسل فى دعوتهم يأتى فى بابه إن شاء الله عز وجل . (فمن يصدقهم) يعنى الرسل (بلا شقاق) تكذيب ولا مخالفة (فقد وفى) لربه عز وجل (بذلك الميثاق) العهد الأول ، وهؤلاء هم القليل من الثقلين ، ولكن هم جند الله الغالبون المنصورون فى الدنيا ، وحزبه المفلحون الفائزون فى الآخرة ، وجواب الشرط (فذاك ناج من عذاب النار) إذ لم يرتكب أسباب دخولها من معصية الله وتكذيب رسله كما ارتكب ذلك من خلق لها (وذلك الوارث عقبى الدار) وهى الجنة لفعله أسبابها التى أمره الله عز وجل بها من الوفاء بعهد الله وميثاقه وتصديق رسله وكتبه والعمل بجميع طاعته تبارك وتعالى .(ومن بهم) أى بالرسل (وبالكتاب) أى الكتب التى أنزل الله عليهم ليبلغوها إلى عباده ويبينوها ليعملوا بما فيها (كذّبا) ، (ولازم الاعراض عنه) عما أرسل الله به رسله (والإبا) أى الامتناع ، وهم الذين قال الله تعالى فيهم ﴿ **الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون** ﴾ الايات وقال تعالى فيهم ﴿ **ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا** ﴾ الايات وغيرها وهؤلاء أكثر الثقلين كما قال الله تبارك وتعالى ﴿ **فأبى أكثر الناس إلا كفورا** ﴾ وقال تعالى ﴿ **وما وجدنا لأكثرهم من عهد وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين** ﴾ وقال تعالى ﴿ **وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله** ﴾ وغير ذلك من الايات . وجواب الشرط (فذاك أى المكذب بالكتاب وبما أرسل الله تعالى به رسله الآبى منه المعرض عنه المصر على ذلك حتى مات عليه هو (ناقض كلا العهدين) الميثاق الذى أخذه الله عليه وفطره على الاقرار به وما جاءت به الرسل من تجديد الميثاق الأول وإقامة الحجة (مستوجب) بفعله ذلك (للخزى فى الدارين) أى فى الدنيا والآخرة كما قال تعالى ﴿ **وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين** ﴾ وقد وفى بذكر الفريقين الموفين بالعهد والناقضين له وما لكل منهم وما عليه فى الدنيا والآخرة قول الله عز وجل ﴿ **للذين استجابوا لربهم** ﴾ أى فيما دعاهم إليه على ألسنة رسله وهم الفريق الأول

﴿ **الحسنى** ﴾ الجنة ﴿ **والذين لم يستجيبوا له** ﴾ وهم الفريق الثانى ﴿ **لو أن لهم ما فى الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به أولئك لهم سوء الحساب ومأواهم جهنم وبئس المهاد** ﴾ وتأويل ذلك ما ورد فى الصحيحين من طرق عن أنس بن مالك رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « يقول الله تعالى لأهون أهل النار عذابا يوم القيامة : لو أن لك مافى الأرض من شيء أكنت تفتدى به ؟ فيقول : نعم فيقول : أردت منك أهون من هذا وأنت فى صلب آدم ، أن لا تشرك بى شيئا ، فأبيت إلا أن تشرك بى » وقد تقدم ذكره قريبا ﴿ **أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق** ﴾ يعنى الفريق الأول ﴿ **كمن هو أعمى** ﴾ يعنى الفريق الثانى ، لا والله ليسوا سواء ﴿ **إنما يتذكر أولو الألباب ، الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق** ﴾ يتناول كل العهود والمواثيق التى أمر الله عز وجل بالوفاء بها مع الحق ومع الخلق وتناولها للميثاق المذكور من باب أولى ﴿ **والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل** ﴾ من صلة الأرحام ومن الايمان بالله ورسله وعدم التفريق بين أحد منهم ﴿ **ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب . والذين صبروا** ﴾ على قدر الله وعلى ملازمة طاعته وعن معصيته ﴿ **ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ويدرأون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار** ﴾ . فكأنه قيل : ما هى ؟ فقال تعالى ﴿ **جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب . سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار** ﴾ . ثم ذكر الفريق الثانى بصفاتهم السيئة وبين جزاءهم عليها والعياذ بالله تعالى فقال تعالى ﴿ **والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار** ﴾ فسبحان الله وبحمده ما أبلغ حكمته وأعدل حكمه ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

فصل فى انقسام التوحيد إلى نوعين

وبيان النوع الأول وهو توحيد المعرفة والاثبات

﴿ أول واجب على العبيد   معرفة الرحمن بالتوحيد ﴾
﴿ إذ هو من كل الأوامر أعظم   وهو نوعان أيا من يفهم ﴾
﴿ إثبات ذات الرب جل وعلا   أسمائه الحسنى صفاته العلى ﴾
﴿ وأنه الرب الجليل الأكبر   الخالق البارىء والمصور ﴾
﴿ بارى البرايا منشئ الخلائق   مبدعهم بلا مثال سابق ﴾

(أول واجب) فرضه الله عز وجل (على العبيد) هو (معرفة الرحمن) أى معرفتهم إياه (بالتوحيد) الذى خلقهم له وأخذ عليهم الميثاق به ، ثم فطرهم شاهدين مقرين به ، ثم أرسل به رسله إليهم وأنزل به كتبه عليهم . (إذ) حرف تعليل لأولية وجوب معرفة العباد ربهم تبارك وتعالى بالتوحيد (هو من كل الأوامر) جمع أمر وهو خطاب الله عز وجل المتعلق بالمكلفين بصيغة تستدعى الفعل (أعظم) كما أن ضده من الشرك والتعطيل والتمثيل هو أعظم المناهى ، ولهذا لا يدخل العبد فى الإسلام إلا به ولا يخرج منه إلا بضده ولم يزحزح عن النار ويدخل الجنة إلا به . ولا يخلد فى النار ويحرم الجنة إلا بضده ولم تدع الرسل إلى شىء قبله ولم تنه عن شىء قبل ضده . (وهو) أى التوحيد (نوعان) : الأول التوحيد العلمى الخبرى الاعتقادى المتضمن إثبات صفات الكمال لله عز وجل وتنزيهه فيها عن التشبيه والتمثيل وتنزيهه عن صفات النقص وهو توحيد الربوبية والأسماء والصفات . والثانى التوحيد الطلبى القصدى الارادى وهو عبادة الله تعالى وحده لا شريك له وتجريد محبته والاخلاص له وخوفه ورجاؤه والتوكل عليه والرضا به ربا وإلها ووليا وأن لا يجعل له عدلا فى شىء من الأشياء وهو توحيد الإلهية . والقرآن كله من أوله إلى آخره فى تقرير هذين التوحيدين ، لأنه إما خبر عن الله عز وجل وما يجب أن يوصف به وما يجب أن ينزه عنه وهو التوحيد العلمى الخبرى الاعتقادى ، وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له وخلع ما يعبد من دونه فهو التوحيد الطلبى الارادى . وإما أمر ونهى والزام بطاعته فذلك من حقوق التوحيد ومكملاته ، وإما خبر عن إكرامه لأهل التوحيد وما فعل بهم فى الدنيا من النصر والتأييد وما يكرمهم به فى الآخرة وهو جزاء توحيده . وإما خبر عن أهل الشرك وما فعل بهم فى الدنيا من النكال وما يفعل بهم فى العقبى من العذاب فهو جزاء من خرج عن حكم توحيده . فالقرآن كله فى التوحيد وحقوقه وجزائه وفى شأن الشرك وأهله وجزائهم ، اقرأ فى الجمع بين التوحيدين ﴿ **طه . ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى . إلا تذكرة لمن يخشى . تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلى . الرحمن على العرش استوى . له مافى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى . وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى . الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى** ﴾ وآية الكرسى وقل هو الله أحد وغيرها من القرآن . واقرأ فى الأمر والنهى ﴿ **وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا** ﴾ واقرأ فى إكرام أهل التوحيد فى الدنيا والاخرة ﴿**إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد** ﴾ واقرأ فى إخزاء أهل الشرك فى الدنيا والآخرة ﴿ **واستكبر هو وجنوده فى الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون . فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين .**

وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون ، وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين ﴾ .

(والكلام فى هذا الفصل على النوع الأول ، وهو التوحيد العلمى الخبرى الاعتقادى هو (إثبات) بالرفع بدل بعض من قولنا « نوعان » أى الأول منهما (إثبات ذات الرب جل وعلا) فان هذه العوالم العلويات والسفليات لا بد لها من موجد أوجدها ويتصرف فيها ويدبرها . ومحال أن توجد بدون موجد ، ومحال أن توجد أنفسها . قال الله تبارك وتعالى فى مقام إثبات الربوبية وتوحيد الألوهية ﴿ **أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون . أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون** ﴾ . قال ابن عباس رضى الله عنهما ﴿ **أم خلقوا من غير شىء** ﴾ أى من غير رب ومعناه أخلقوا من غير شىء خلقهم فوجدوا بلا خالق ، وذلك مما لا يجوز أن يكون لأن تعلق الخلق بالخالق من ضرورة الاسم فلا بد له من خالق فان أنكروا الخالق لم يجز أن يوجدوا بلا خالق . ﴿ **أم هم الخالقون** ﴾ لأنفسهم وذلك فى البطلان أشد لأن ما لا وجود له كيف يخلق فإذا بطل الوجهان قامت الحجة عليهم بأن لهم خالقا فليؤمنوا به ﴿ **أم خلقوا السموات والأرض** ﴾ وهذا فى البطلان أشد وأشد فان المسبوق بالعدم يستحيل إن يوجد بنفسه فضلا عن أن يكون موجدا لغيره وهذا إنكار عليهم فى شركهم بالله عز وجل وهم يعلمون أنه الخالق لا شريك له ﴿ **بل لا يوقنون** ﴾ أى ولكن عدم إيقانهم هو الذى يحملهم على ذلك . وعن جبير بن مطعم رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقرأ فى المغرب بالطور ، فلما بلغ هذه الآية ﴿ **أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون . أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون . أم عندهم خزائن ربك أم هم المصيطرون** ﴾ كاد قلبى أن يطير . أخرجاه فى الصحيحين . وكثيرا ما يرشد الله تبارك وتعالى عباده إلى الاستدلال على معرفته بآياته الظاهرة من المخلوقات العلوية والسفلية كما قال تعالى ﴿ **وفى الأرض آيات للموقنين** ﴾ أى فيها من الايات الدالة على عظمة خالقها وقدرته الباهرة ، مما قد ذرأ فيها من صنوف النبات والحيوانات والمهاد والجبال والقفار والأنهار والبحار واختلاف ألسنة الناس وألوانهم وما جبلوا عليه من الارادات والقوى وما بينهم من التفاوت فى العقول والفهوم والحركات والسعادة والشقاوة وما فى تركيبهم من الحكم فى وضع كل عضو من أعضائهم فى المحل هو محتاج إليه فيه ، ولهذا قال عز وجل ﴿ **وفى أنفسكم أفلا تبصرون** ﴾ قال قتادة من تفكر فى خلق نفسه علم أنه إنما لينت مفاصله للعبادة ، وكذا ما فى ابتداء الانسان من الآيات العظيمة إذ كان نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظاما إلى أن نفخ فيه الروح . وقال تعالى ﴿ **والسماء بنيناها بأيد وانا لموسعون . والأرض فرشناها فنعم الماهدون . ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم**

تذكرون ﴾ يقول تعالى منبها على خلق العالم العلوى والسفلى ﴿ **والسماء بنيناها** ﴾ أى جعلناها سقفا محفوظا رفيعا﴿ **بأيد** ﴾ أى بقوة قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والثورى وغير واحد ﴿ **وإنا لموسعون** ﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما : لقادرون . وعنه أيضا : لموسعون الرزق على خلقنا . وقيل : ذو وسعة . وقال ابن كثير : أى قد وسعنا أرجاءها ورفعناها بغير عمد حتى استقلت كما هى . ﴿ **والأرض فرشناها** ﴾ أى جعلناها فراشا للمخلوقات ﴿**فنعم الماهدون**﴾ الباسطون نحن . قال ابن عباس : نعم ما وطأت لعبادى . ﴿ **ومن كل شيء خلقنا زوجين** ﴾ صنفين ونوعين مختلفين كالسماء والأرض ، والشمس ، والقمر ، والليل والنهار ، والبر والبحر ، والسهل والجبل ، والشتاء والصيف ، والجن والإنس ، والذكر والأنثى ، والنور والظلمة ، والايمان والكفر ، والسعادة والشقاوة ، والجنة والنار ، والحق والباطل ، والحلو والمر ، والدنيا والآخرة ، والموت والحياة ، والجامد والنامى ، والمتحرك والساكن ، والحر والبرد وغير ذلك ﴿ **لعلكم تذكرون** ﴾ أى لتعلموا أن الخالق واحد فرد لا شريك له ا هـ . ابن كثير والبغوى . وقال تعالى ﴿ **إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون** ﴾ قال أبو الضحى : لما نزلت ﴿ **وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم** ﴾ قال المشركون إن كان هكذا فليأتنا بآية ، فأنزل الله عز وجل ﴿ **إن فى خلق السموات والأرض** ﴾ تلك فى ارتفاعها ولطافتها واتساعها وكواكبها السيارة والثوابت ودوران فلكها ، وهذه الأرض فى كثافتها وانخفاضها وجبالها وبحارها وقفارها ووهادها وعمرانها وما فيها من المنافع ﴿ **واختلاف الليل والنهار** ﴾ هذا يجيء ثم يذهب ويخلفه الآخر . ويعقبه ولا يتأخر عنه لحظة كما قال تعالى ﴿ **لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون** ﴾ وتارة يطول هذا ويقصر هذا وتارة يأخذ هذا من هذا ثم يتعاوضان ، كما قال تعالى ﴿ **يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل** ﴾ أى يزيد من هذا فى هذا ومن هذا فى هذا ﴿ **والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس** ﴾ أى فى تسخير البحر بحمل السفن من جانب إلى جانب لمعايش الناس والانتفاع بما عند أهل ذلك الاقليم ونقل هذا إلى هؤلاء ﴿ **وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها** ﴾ كما قال تعالى ﴿ **وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون** ﴾ إلى قوله﴿ **ومما لا يعلمون** ﴾ . ﴿ **وبث فيها من كل دابة** ﴾ على اختلاف أشكالها وأنواعها وألوانها ومنافعها وصغرها وكبرها وهو يعلم ذلك كله ويرزقه لا يخفى عليه شيء من ذلك كما

قال تعالى ﴿ **وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين** ﴾ . ﴿ **وتصريف الرياح** ﴾ فتارة تأتي بالرحمة وتارة تأتي بالعذاب وهي الريح ، وتارة تأتي مبشرات بين يدى السحاب ، وتارة تسوقها ، وتارة تجمعه ، وتارة تفرقه ، وتارة تصرفه ، ثم تارة تأتي من الشمال وهي الشامية ، وتارة تأتي من ناحية اليمين ، وتارة صبا وهي الشرقية ، وتارة دبور وهي غربية وغير ذلك والله أعلم ﴿ **والسحاب المسخر بين السماء والأرض** ﴾ أى سائر بين السماء والأرض مسخر إلى ما يشاء الله من الأراضى والأماكن كما يصرفه تعالى ﴿ **لآيات لقوم يعقلون** ﴾ أى في هذه الأشياء دلالات بينة على وحدانية الله تعالى ﴿ **لقوم يعقلون** ﴾ فيعلمون أن لهذه الأشياء خالقا وصانعا غنيا بذاته وكل ما سواه فقير إليه ، قائم بذاته وكل ما سواه لا يقوم إلا به ، قدير لذاته وكل ما سواه عاجز لا قدرة له إلا بما أقدره متصف بجميع صفات الكمال ، وكل ما سواه فلازمه النقص وليس الكمال المطلق إلا له وهو الله تبارك وتعالى . وقال تبارك وتعالى ﴿ **ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون . ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون . ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين . ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون . ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون . ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون** ﴾ يقول تعالى ﴿ **ومن آياته** ﴾ الدالة على عظمته وكمال قدرته أنه خلق أباكم آدم من تراب ﴿ **ثم إذا أنتم بشر تنتشرون** ﴾ فأصلكم من تراب ثم من ماء مهين ، ثم تصور فكان علقة ثم مضغة ثم صار عظاما شكله شكل إنسان ثم كسا الله تعالى تلك العظام لحما ثم نفخ فيه الروح فاذا هو سميع بصير ، ثم أخرج من بطن أمه صغيراً ضعيف القوى والحركة ثم كلما طال عمره تكاملت قواه وحركاته حتى آل به الحال إلى أن صار يبنى المدائن والحصون ويسافر في أقطار الأقاليم ويركب متن البحور ، ويدور أقطار الأرض ويكتسب ويجمع الأموال وله فكرة وغور ودهاء ومكر ، ورأى وعلم ، واتساع في أمور الدنيا والآخرة كل بحسبه ، فسبحان من أقدرهم وسيرهم وسخرهم وصرفهم في فنون المعايش والمكاسب وفاوت بينهم في العلوم والفكر والحسن والقبح والغنى والفقر والسعادة والشقاوة . وعن أبي موسى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إن الله تعالى خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض ، جاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك ، والخبيث والطيب

والسهل والحزن وغير ذلك » رواه أحمد وأبو داود والترمذى . وقال حسن صحيح ، ﴿ **ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا** ﴾ أى خلق لكم من جنسكم إناثا تكون لكم أزواجا ﴿ **لتسكنوا إليها** ﴾ كما قال تعالى ﴿ **هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها** ﴾ يعنى بذلك حواء خلقها الله تعالى من آدم من ضلعه الأقصر الأيسر، ولو أنه تعالى جعل بنى آدم كلهم ذكورا وجعل إناثهم من جنس آخر من غيرهم إما من جان أو حيوان لما حصل هذا الائتلاف بينهم وبين الأزواج ، بل كانت تحصل نفرة لو كانت الأزواج من غير الجنس ، ثم من تمام رحمته ببنى آدم أن جعل الأزواج من جنسهم ﴿ **وجعل بينكم مودة** ﴾ وهى المحبة ﴿ **ورحمة** ﴾ وهى الرأفة ، فان الرجل يمسك المرأة إما لمحبة لها أو لرحمة بها بأن يكون لها منه ولد أو محتاجة إليه فى الإنفاق أو لألفة بينهما وغير ذلك ﴿ **إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون** ﴾ فى عظمة الله وقدرته ﴿ **ومن آياته** ﴾ الدالة على قدرته العظيمة ﴿ **خلق السموات والأرض** ﴾ أى خلق السموات فى ارتفاعها واتساعها وشفوف أجرامها وزهارة كواكبها ونجومها الثوابت والسيارات ، وخلق الأرض فى انخفاضها وكثافتها وما فيها من جبال وأودية وبحار وقفار وحيوان وأشجار ﴿**واختلاف ألسنتكم** ﴾ يعنى اللغات ، فهؤلاء بلغة العرب ، وهؤلاء ترى لهم لغة أخرى ، وهؤلاء كرج ، وهؤلاء روم ، وهؤلاء إفرنج ، وهؤلاء بربر ، وهؤلاء حبشة ، وهؤلاء هنود ، وهؤلاء فرس ، وهؤلاء صقالبة ، وهؤلاء خزر ، وهؤلاء أرمن ، هؤلاء أكراد إلى غير ذلك مما لا يعلمه إلا الله عز وجل من اختلاف لغات بنى آدم ﴿ **وألوانكم** ﴾ أى واختلاف ألوانكم أبيض وأسود وأحمر ، وأنتم أولاد رجل واحد وامرأة واحدة ، وغير ذلك من اختلاف الصفات والحلى ، فجميع أهل الأرض بل أهل الدنيا منذ خلق الله آدم إلى قيام الساعة كل له عينان وحاجبان وأنف وجبين وفم وخدّان وليس يشبه واحد منهم الآخر ، بل لا بد أن يفارقه بشيء من السمت أو الهيئة أو الكلام ظاهرا كان أو خفيا يظهر عند التأمل كل وجه منهم أسلوب بذاته وهيئة لا تشبه أخرى ، ولو توافق جماعة فى صفة من جمال أو قبح لا بد من فارق بين كل واحد منهم وبين الآخر ﴿ **إن فى ذلك لآيات للعالمين . ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله** ﴾ أى ومن الآيات ما جعل الله من صفة النوم فى الليل فان فيه تحصل الراحة وسكون الحركة وذهاب الكلال والتعب ، وجعل لكم الانتشار والسعى فى الأسباب والأسفار فى النهار وهذا ضد النوم ، ﴿**إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون** ﴾ سماع تدبر واعتبار ﴿ **ومن آياته**﴾ الدالة على عظمته أنه ﴿ **يريكم البرق خوفا وطمعا** ﴾ أى تارة تخافون مما يحدث بعده من أمطار مزعجة وصواعق متلفة ، وتارة ترجون وميضه وما يأتى بعده من المطر المحتاج إليه ، ولهذا قال تعالى

﴿ وينزل من السماء فيحيي به الأرض بعد موتها ﴾ أى بعدما كانت هامدة لا نبات فيها ولا شىء ﴿ فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ﴾[1] وفى ذلك عبرة ودلالة واضحة على المعاد وقيام الساعة ، ولهذا قال تعالى ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون . ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ﴾ كقوله تعالى ﴿ ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ﴾ وقوله تعالى ﴿ إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده ﴾ وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه إذا اجتهد فى اليمين قال : والذى قامت السموات والأرض بأمره ، أى هى قائمة ثابتة بأمره لها وتسخيره إياها ، ثم إذا كان يوم القيامة بدلت الأرض غير الأرض والسموات ، وخرجت الاموات من قبورها أحياء بأمره تعالى ودعائه إياهم ، ولهذا قال تعالى ﴿ ثم إذا دعاكم دعوة من الإرض إذا أنتم تخرجون ﴾ أى من الارض كما قال تعالى ﴿ يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون إن لبثتم إلا قليلا ﴾ وقال تعالى ﴿ فإنما هى زجرة واحدة فإذا هم بالساهرة ﴾ وقال تعالى ﴿إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون ﴾ والآيات فى هذا الباب العظيم من الاستدلال بالمخلوقات على وجود خالقها وقدرته وعظمته أكثر من أن تحصى وأجل من أن تستقصى ، وفيما ذكرنا كفاية وغنى يغنى عن خرط المناطقة ومقدماتهم ونتائجهم وتناقضهم فيها ، والله تبارك وتعالى أعلى وأكبر وأجل وأعظم من أن يحتاج فى معرفة وجودة إلى شواهد واستدلالات ، فذات المخلوق نفسه شاهدة بوجود خالقه حيث أوجده ولم يك من قبل شيئا ، فلمَ يذهب يستدل بغيره وفى نفسه الآية الكبرى والبرهان الأعظم ، وشأن الله تعالى أكبر من ذلك ، ولم يجحد وجودة تعالى من جحده من أعدائه إلا على سبيل المكابرة ، ولهذا قال تعالى فى كفرهم بآياته ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا ﴾ فكيف بوجود الخالق تبارك وتعالى . ولهذا لما قال أعداء الله لرسله على سبيل المكابرة لما جاءوهم بالبينات فردوا أيديهم فى أفواههم وقالوا ﴿ إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفى شك مما تدعوننا إليه مريب . قالت رسلهم أفى الله شك فاطر السموات والأرض ﴾ وهذا يحتمل شيئين : أحدهما أفى وجوده تعالى شك ، فان الفطر شاهدة بوجوده ومجبولة على الاقرار به ، فإن الاعتراف به ضرورى فى الفطر السليمة ولكن قد يعرض لغيرها شك واضطراب واكثر ذلك على سبيل المكابرة والاستهزاء ، فيجب إقامة الحجة عليهم للإعذار إليهم ، ولهذا قالت لهم رسلهم ترشدهم إلى طريق معرفته فقالوا ﴿فاطر السموات والارض ﴾ الذى خلقهما وابتدعهما على غير مثال سبق ، فإن شواهد الحدوث والخلق والتسخير ظاهرة عليهما فلا بد لهما من

---

(١) الآية : ٥ من سورة الحج ، وقد وردت مضطربة فى الأصل .

خالق وهو الله الذى لا إله إلا هو خالق كل شيء وإلهه ومليكه . والمعنى الثانى فى قولهم **﴿ أفي الله شك ﴾** أى أفى إلهيته وتفرده بوجوب العبادة له شك وهو الخالق لجميع الموجودات ولا يستحق العبادة إلا هو وحده لا شريك له ، فان غالب الامم كانت مقرة بالخالق ولكن تعبد معه غيره من الوسائط التى يظنونها تنفعهم أو تقربهم ، والجواب لهذا الاستفهام على كلا المعنيين : لا ، أى لا شك فيه

ذكر مناظرة أخرى بين رسل الله وأعدائه

قال الله تبارك وتعالى **﴿ ألَم تَرَ إلى الذى حاجَّ إبرٰهيمَ في رَبّه أنْ آتاهُ اللهُ المُلكَ إذ قال إبراهيمُ ربى الذى يحيى ويميتُ قال أنا أحيى وأميتُ قال إبراهيمُ فإن الله يأتى بالشمس من المشرقِ فأتِ بها من المغرب فبُهت الذى كفر ، والله لا يهْدى القومَ الظالمين ﴾** قالَ المفسرون وغيرهم من علماء النسب والاخبار : هذا المحاج هو ملك بابل واسمه نمرود بن كنعان ، ذكروا أنه استمر فى ملكه أربعمائة سنة وكان قد طغى وبغى وتجبر وعتا وآثر الحياة الدنيا ، ولما دعاه الخليل ابراهيم عليه الصلاة والسلام إلى عبادة الله وحده لا شريك له حمله الجهل والضلال وطول الآمال على إنكار الخالق جل وعلا عنادا ومكابرة فحاجَّ إبراهيم الخليل فى ذلك وادعى لنفسه الربوبية ، فلما قال الخليل عليه الصلاة والسلام **﴿ربى الذى يحيى ويميت قال أنا أحيى وأميت ﴾** قال قتادة والسدى ومحمد بن إسحاق : يعنى أنه إذا أتى بالرجلين قد تحتم قتلهما فاذا أمر بقتل أحدهما وعفا عن الآخر فكأنه قد أحيا هذا وأمات هذا الآخر ، وهذا ليس بمعارضة للخليل عليه الصلاة والسلام بل هو كلام خارجى عن مقام المناظرة ليس بمنع ولا بمعارضة بل هو تشغيب محض وهو انقطاع فى الحقيقة ، فإن الخليل عليه الصلاة والسلام استدل على وجود الخالق جل وعلا بحدوث هذه المشاهدات من إحياء الحيوانات وإماتتها على وجود فاعل ذلك الذى لابد من استنادها إليه فى وجودها ضرورة لعدم قيامها بأنفسها ولا بد من فاعل لهذه الحوادث المشاهدة من خلقها وتسخيرها وتسيير هذه الكواكب والرياح والسحاب والمطر وخلق هذه الحيوانات التى توجد مشاهدة ثم إماتتها ، ولهذا قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام **﴿ ربى الذى يحيى ويميت﴾** فقول هذا الجاهل أنا أحيى وأميت إن عنى أنه الفاعل لهذه المشاهدات فقد كابر وعاند ، وإن عنى ما ذكره قتادة والسدى ومحمد بن إسحاق فلم يقل شيئا يتعلق بكلام الخليل إذ لم يمنع مستلزما ولا عارض الدليل . ولما كان انقطاع مناظرة هذا المحاجّ قد تخفى على كثير من الناس ممن حضره وغيرهم ذكر دليلا آخر بين وجود الخالق وبطلان ما ادعاه النمرود وانقطاعه جهرة **﴿ قال إبراهيم فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ﴾** أى هذه الشمس مسخرة كل يوم تطلع من

المشرق كما سخرها خالقها ومسيّرها وقاهرها وهو الله الذى لا إله إلا هو خالق كل شيء ، فإن كنت كما زعمت أنك تحيي وتميت فأت بهذه الشمس من المغرب ، فان الذى يحيى ويميت هو الذى يفعل ما يشاء ولا يمانع ولا يغالب بل قد قهر كل شيء ودان له كل شيء ، فان كنت كما تزعم فافعل هذا ، فان لم تفعله فلست كما زعمت ، وأنت تعلم وكل أحد أنك لا تقدر على شيء من هذا ، بل أنت أعجز وأقل وأذل من أن تخلق بعوضة أو تتصرف فيها . فبين ضلاله وجهله وكذبه فيما ادعاه وبطلان ما سلكه وتبجح به عند جهلة قومه ، ولم يبق له كلام يجيب الخليل عليه الصلاة والسلام به بل انقطع وسكت ، ولهذا قال تعالى ﴿**فبهت الذى كفر والله لا يهدى القوم الظالمين**﴾

ذكر مناظرة أخرى من ذلك أيضاً

قال الله تبارك وتعالى ﴿ **قال فرعون وما رب العالمين . قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين . قال لمن حوله ألا تستمعون . قال ربكم ورب آبائكم الأولين . قال إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون . قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون** ﴾ يذكر تعالى ما كان بين موسى وفرعون من المقاولة والمحاجّة والمناظرة ، وما أقامه الكليم على فرعون اللئيم من الحجة العقلية المعنوية ثم الحسية ، وذلك أن فرعون قبحه الله أظهر جحد الخالق تبارك وتعالى وزعم أنه الإله ﴿ **فحشر فنادى فقال أنا ربكم الأعلى** ﴾ وقال ﴿ **يأيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى** ﴾ وهو فى هذه المقالة معاند يعلم أنه عبد مربوب وأن الله هو الخالق البارئ المصور الإله الحق كما قال تعالى ﴿**وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين** ﴾ ولهذا قال لموسى عليه السلام على سبيل الانكار لرسالته وإظهار أنه ما ثمّ رب أرسله ﴿ **وما رب العالمين** ﴾ لأنهما قالا له ﴿ **إنا رسول رب العالمين** ﴾ فكأنه يقول لهما : ومن رب العالمين الذى تزعمان أنه أرسلكما وابتعثكما ، فأجابه موسى قائلا ﴿ **رب السموات والأرض وما بينهما**﴾ أى خالق جميع ذلك ومالكه والمتصرف فيه وإلهه لا شريك له هو الله الذى خلق الأشياء كلها العالم العلوى وما فيه من الكواكب النيرات الثوابت والسيارات ، والعالم السفلى وما فيه من بحار وأنهار وقفار وجبال وأشجار وحيوانات ونبات وثمار وما بين ذلك من الهواء والطير والسحاب المسخر والرياح والمطر وما يحتوى عليه الجو وغير ذلك من المخلوقات التى يعلم كل موقن أنها لم تحدث بأنفسها ولا بد لها من موجد ومحدث وخالق وهو الله الذى لا إله إلا هو رب العالمين، الجميع مذللون مسخرون وعبيد له خاضعون ذليلون ﴿ **إن كنتم موقنين** ﴾ أى إن كانت لكم قلوب موقنة وأبصار نافذة ﴿ **قال** ﴾ أى فرعون ﴿ **لمن حوله** ﴾ من أمرائه ومرازبته وكبرائه ورؤساء دولته على سبيل التهكم والتنقص والاستهزاء والتكذيب

لموسى عليه الصلاة والسلام فيما قاله ﴿ **ألا تستمعون** ﴾ أى ألا تعجبون من هذا فى زعمه أن لكم إلها غيرى ، فقال لهم موسى ﴿ **ربكم ورب آبائكم الأولين** ﴾ أى هو الذى خلقكم والذى من قبلكم من الآباء والأجداد والقرون السالفة فى الآباد فان كل واحد يعلم أنه لم يخلق نفسه ولا أبوه ولا أمه ولم يحدث من غير محدث ، وإنما أوجده وخلقه رب العالمين ، وهذان المقامان هما المذكوران فى قوله تعالى ﴿ **سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق** ﴾ ومع هذا كله لم يستفق فرعون من رقدته ولا نزع عن ضلالته بل استمر على طغيانه وعناده وكفرانه ﴿ **قال إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون** ﴾ أى ليس له عقل فى دعواه أن ثم ربا غيرى . ﴿ **قال** ﴾ أى موسى لأولئك الذين أوعز إليهم فرعون ما أوعز من الشبه فأجاب موسى عليه السلام بقوله ﴿ **رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون** ﴾ أى هو الذى جعل المشرق مشرقا تطلع منه الكواكب ، والمغرب مغربا تغرب فيه الكواكب ثوابتها وسياراتها مع هذا النظام الذى سخرها وقدرها وهو الله لا إله إلا هو خالق الظلام والضياء ورب الارض والسماء رب الأولين والآخرين ، خالق الشمس والقمر والكواكب السائرة والثوابت الحائرة ، خالق الليل بظلامه والنهار بضيائه والكل تحت قهره وتسخيره وتسييره سائرون وكل فى فلك يسبحون ، يتعاقبون فى سائر الأوقات ويدورون ، فهو تعالى الخالق المالك المتصرف فى خلقه بما يشاء . فان كان هذا الذى يزعم أنه ربكم وإلهكم صادقا فليعكس الأمر وليجعل المشرق مغربا والمغرب مشرقا ، والثابت سائرا والسائر ثابتا كما قال تعالى عن الذى حاجَّ ابراهيم فى ربه فى الآية السابقة . ولما قامت الحجج على فرعون وذهبت شبهه وغُلِبَ وانقطعت حجته ولم يبق له قول سوى العناد عدل إلى استعمال جاهه وقوته ، وسلطانه وسطوته ، واعتقد أن ذلك نافع له ونافذ فى موسى عليه الصلاة والسلام فقال وظن أنه ليس وراء هذا المقام مقال ﴿ **قال لئن اتخذت إلها غيرى لأجعلنك من المسجونين** ﴾ إلى آخر ما قص الله عز وجل عنه ، حتى قصمه الله تعالى قاصم الجبابرة وأخذه أخذ عزيز مقتدر . ومناظرة الرسل لأعداء الله فى هذا الباب يطول ذكرها ومقامات نبينا محمد ﷺ مع هذه الأمة أشهر من أن تذكر، فمن شاءها فليقرأ المصحف من فاتحته إلى خاتمته ، إلا أن أمته لم يكن فيهم من يجحد الخالق ، بل هم مقرون به وبربوبيته ، غير أنهم لم يقدروه حق قدره بل عبدوا معه غيره ، ولهذا قال تعالى فى شأنهم ﴿ **ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله** ﴾ ﴿**ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله** ﴾ ، ﴿**ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله** ﴾ إلى غير ذلك من الآيات كما سيأتى بسطه إن شاء الله تعالى .

ذكر ما نقل عن الأئمة وعن غيرهم فى هذا الباب

عن الامام مالك رحمة الله تعالى أن الرشيد سأله عن ذلك فاستدل له باختلاف اللغات والأصوات والنغمات . وعن أبى حنيفة رحمه الله تعالى أن بعض الزنادقة سألوه عن وجود البارى تعالى فقال لهم دعونى أفكر فى أمر قد أخبرت عنه ، ذكروا لى أن سفينة فى البحر موقرة فيها أنواع من المتاجر وليس بها أحد يحرسها ولا يسوقها ، وهى مع ذلك تذهب وتجىء وتسير بنفسها وتخترق الأمواج العظام حتى تخلص منها وتسير حيث شاءت بنفسها من غير أن يسوقها أحد . فقالوا : هذا شىء لا يقوله عاقل . فقال : ويحكم هذه الموجودات بما فيها من العالم العلوى والسفلى وما اشتملت عليه من الأشياء المحكمة ليس لها صانع ؟ فبهت القوم ورجعوا إلى الحق وأسلموا على يديه . وعن الشافعى رحمه الله تعالى أنه سئل عن وجود الخالق عز وجل ، فقال : هذا ورق التوت طعمه واحد تأكله الدود فيخرج منه الابريسم ، وتأكله النحل فيخرج منه العسل ، وتأكله الشاء والبقر والأنعام فتلقيه بعرا وروثا ، وتأكله الظباء فيخرج منه المسك ، وهو شىء واحد . وعن الامام أحمد ابن حنبل رحمه الله أنه سئل عن ذلك فقال : ههنا حصن حصين أملس ليس له باب ولا منفذ ظاهره كالفضة البيضاء وباطنه كالذهب الابريز فبينا هو كذلك إذ انصدع جداره فخرج منه حيوان سميع بصير ذو شكل حسن وصوت مليح اهـ يعنى بذلك البيضة إذا خرج منها الديك . وسئل أبو نواس عن ذلك فأنشد :

تأمل فى رياض الأرض وانظر ... إلـى آثار ما صنـــع المليك
عيـــون من لجين شاخصات ... بأحداق هى الذهب السبيـك
على قضب الزبرجد شاهدات ... بأن الله ليـــس لـــه شريك

وقال ابن المعتز ، ويروى لأبى العتاهية رحمهما الله تعالى :

فيا عجبا كيف يُعصى الإله ... أم كيف يجحده الجاحدُ
ولله فـــى كـــل تحريكـة ... وفـى كل تسكينة شاهد
وفى كـــل شـــىء لـه آيـة ... تـدل علـى أنـه واحـد

وسئل بعض الأعراب عن هذا وما الدليل على وجود الرب تعالى ، فقال : يا سبحان الله، إن البعر ليدل على البعير ، وإن أثر الأقدام ليدل على المسير ، فسماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، وبحار ذات أمواج ، ألا يدل ذلك على وجود اللطيف الخبير ؟ ومن خطب قس بن ساعدة الإيادى وكان على ملة إبراهيم رحمه الله تعالى : أيها الناس ،

اجتمعوا فاسمعوا ، وإذا سمعتهم فعوا ، وإذا وعيتم فانتفعوا ، وقولوا وإذا قلتم فاصدقوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت ، مطر ونبات ، وأحياء وأموات . ليل داج ، وسماء ذات أبراج ، ونجوم تزهر ، وبحار تزخر ، وضوء وظلام ، وليل وأيام ، وبر وآثام ، إن في السماء خبرا ، وإن في الأرض عبرا ، يحار فيهن البصر ، مهاد موضوع ، وسقف مرفوع ، ونجوم تغور وبحار لا تفور ، ومنايا دوان ، ودهر خوان ، كحد النسطاس ووزن القسطاس . أقسم قس قسما ، لا كاذبا فيه ولا آثما . لئن كان في هذا الأمر رضى ليكونن سخط ، ثم قال : أيها الناس ، إن لله دينا هو أحب إليه من دينكم هذا الذى أنتم عليه . وهذا زمانه وأوانه . ثم قال : ما لى أرى الناس يذهبون فلا يرجعون ، أرضوا بالمقام فأقاموا ، أم تركوا فناموا . وفي بعض ألفاظها قال : شرق وغرب ، ويتم وحزب ، وسلم وحرب ، ويابس ورطب ، وأجاج وعذب ، وشموس وأقمار ، ورياح وأمطار ، وليل ونهار ، وإناث وذكور ، وبرار وبحور ، وحب ونبات ، وآباء وأمهات ، وجمع وأشتات ، وآيات في إثرها آيات ، ونور وظلام ، ويسر وإعدام ، ورب وأصنام . لقد ضل الأنام ، نشو مولود ، ووأد مفقود ، وتربية محصود ، وفقير وغنيّ ، ومحسن ومسيّ ، تباً لأرباب الغفلة ، ليصلحن العامل عمله ، وليفقدن الآمل أمله ، كلا بل هو إله واحد ليس بمولود ولا والد ، أعاد وأبدى ، وأمات وأحيا ، وخلق الذكر والأنثى ، رب الآخرة والأولى . أما بعد فيا معشر إياد ، أين ثمود وعاد ، وأين الاباء والأجداد ، وأين العليل والعواد ، كل له معاد . يقسم قس برب العباد ، وساطح المهاد ، لتحشرن على الانفراد ، في يوم التناد ، وإذا نفخ في الصور ، ونقر في الناقور ، ووعظ الواعظ ، فانتبذ القانط وأبصر اللاحظ . فويل لمن صدف عن الحق الأشهر والنور الأزهر والعرض الأكبر ، في يوم الفصل ، وميزان العدل ، إذا حكم القدير ، وشهد النذير ، وبعد النصير ، وظهر التقصير ، فريق في الجنة وفريق في السعير .

أسماء الله الحسنى

وأسماء الله الحسنى هى التى أثبتها تعالى لنفسه وأثبتها له عبده ورسوله محمد ﷺ وآمن بها جميع المؤمنين ، قال الله تعالى ﴿ **ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون بما كانوا يعملون** ﴾ وقال تعالى ﴿ **قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيًا مّا تدعوا فله الأسماء الحسنى** ﴾ وقال تعالى ﴿ **الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى** ﴾ وقال تعالى ﴿ **هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم . هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم** ﴾ وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه

قال: قال رسول الله ﷺ « إن لله تسعة وتسعين اسما من أحصاها دخل الجنة ، وهو وتر يحب الوتر » أخرجاه في الصحيحين ، ورواه الترمذى وزاد « هو الله الذى لا إله إلا هو الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارئ المصور الغفار القهار الوهاب الرزاق الفتاح العليم القابض الباسط الخافض الرافع المعز المذل السميع البصير الحكم العدل اللطيف الخبير الحليم العظيم الغفور الشكور العلى الكبير الحفيظ المقيت الحسيب الجليل الكريم الرقيب المجيب الواسع الحكيم الودود المجيد الباعث الشهيد الحق الوكيل القوى المتين الولى الحميد ، المحصى المبدئ المعيد ، المحيى المميت الحى القيوم الواجد الماجد الواحد الأحد الفرد الصمد ، القادر المقتدر المقدم المؤخر الأول الآخر الظاهر الباطن الوالى المتعالى البر التواب المنتقم العفو الرءوف ، مالك الملك ذو الجلال والاكرام ، المقسط الجامع الغنى المغنى المعطى المانع الضار النافع النور الهادى البديع الباقى الوارث الرشيد الصبور » ثم قال الترمذى : هذا حديث غريب . وقد روى من غير وجه عن أبى هريرة ولا نعلم فى كثير من الروايات ذكر الأسماء إلا فى هذا الحديث ا هـ . ورواه الدارمى وزاد : كلها فى القرآن . وأخرج ابن أبى الدنيا والطبرانى كلاهما فى الدعاء وأبو الشيخ والحاكم وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقى عن أبى هريرة : إن لله تسعة وتسعين اسما من أحصاها دخل الجنة ، أسأل الله الرحمن الرحيم الإله الرب الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارئ المصور الحليم العليم السميع البصير الحى القيوم الواسع اللطيف الخبير ، الحنان المنان البديع الغفور الودود الشكور المجيد المبدى المعيد النور البارئ ــ وفى لفظ القائم ــ الأول الآخر الظاهر الباطن العفو الغفار الوهاب الفرد ــ وفى لفظ القادر ــ الأحد الصمد الوكيل الكافى الباقى المغيث الدائم المتعال ذا الجلال والإكرام النصير الحق المتين الوارث المنير الباعث القدير ــ وفى لفظ المجيب ــ المحيى المميت الحميد ــ وفى لفظ الجميل ــ الصادق الحفيظ المحيط الكبير القريب الرقيب الفتاح التواب القديم الوتر الفاطر الرزاق العلام العلى العظيم الملك المقتدر ، الأكرم الرءوف المدبر المالك القاهر الهادى الشاكر الكريم الرفيع الشهيد الواحد ذا الطول ذا المعارج ذا الفضل الخلاق الكفيل الجليل . وأخرج أبو نعيم عن محمد بن جعفر رحمه الله تعالى قال : سألت أبى جعفر بن محمد الصادق عن الأسماء التسعة والتسعين التى من أحصاها دخل الجنة فقال: هى فى القرآن ، ففى الفاتحة خمسة أسماء : يا الله يارب يا رحمن يا رحيم ياملك ، وفى البقرة ثلاثة وثلاثون اسما : يا محيط يا قدير يا عليم يا حكيم يا على يا عظيم يا تواب يا بصير يا ولى يا واسع يا كافى يا رءوف يا بديع يا شاكر يا واحد يا سميع يا قابض يا باسط يا حى يا قيوم يا غنى يا حميد يا غفور يا حليم يا إله

يا قريب يا مجيب يا عزيز يا نصير ياقوى يا شديد يا سريع يا خبير . وفى آل عمران : يا وهاب يا قائم يا صادق يا باعث يا منعم يا متفضل . وفى النساء : يا حسيب يا رقيب يا شهيد يا مقيت يا وكيل يا على يا كبير . وفى الأنعام : يا فاطر يا قاهر يا لطيف يا برهان . وفى الأعراف : يا محيى يا مميت . وفى الأنفال : يا نعم المولى ويا نعم النصير . وفى هود : يا حفيظ يا مجيد يا ودود يا فعال لما تريد . وفى الرعد : يا كبير يا متعالى . وفى إبراهيم : يا منان يا وارث . وفى الحجر : يا خلاق . وفى مريم : يا فرد . وفى طه : يا غفار . وفى قد أفلح[1] : يا كريم . وفى النور : يا حق يا مبين . وفى الفرقان : يا هاد . وفى سبأ : يا فتاح . وفى الزمر : يا عالم وفى غافر: يا قابل التوب يا ذا الطول يا رفيع . وفى الذاريات : يا رزاق يا ذا القوة يا متين . وفى الطور: يا بر . وفى اقتربت[2] : يا مقتدر يا مليك . وفى الرحمن : يا ذا الجلال والاكرام يارب المشرقين يارب المغربين يا باقى يا معين . وفى الحديد : يا أول يا آخر يا ظاهر يا باطن. وفى الحشر :

يا ملك يا قدوس يا سلام يا مؤمن يا مهيمن يا عزيز يا جبار يا متكبر يا خالق يا بارئ يا مصور . وفى البروج : يا مبدى يا معيد . وفى الفجر : ياوتر . وفى الاخلاص : يا أحد يا صمد انتهى . وقد حررها الحافظ ابن حجر رحمه الله فى (تلخيص الحبير) تسعة وتسعين اسما من الكتاب العزيز منطبقة على لفظ الحديث ورتبها هكذا : الله الرب الإله الواحد الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارئ المصور الأول الآخر الظاهر الباطن الحى القيوم العلى العظيم التواب الحليم الواسع الحكيم الشاكر العليم ، الغنى الكريم ، العفو القدير اللطيف الخبير السميع البصير المولى النصير القريب المجيب الرقيب الحسيب القوى الشهيد الحميد المجيد المحيط الحفيظ الحق المبين . الغفار القهار الخلاق الفتاح الودود الغفور الرءوف الشكور الكبير المتعال المقيت المستعان الوهاب الحفى الوارث الولى القائم القادر الغالب القاهر البر الحافظ الأحد الصمد المليك المقتدر الوكيل الهادى الكفيل الكافى الأكرم الأعلى الرزاق ذو القوة المتين غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذو الطول رفيع الدرجات سريع الحساب فاطر السموات والأرض بديع السموات والأرض نور السموات والأرض مالك الملك ذو الجلال والاكرام اهـ . وقد عدها جماعة غير من ذكرنا كسفيان بن عيينة وابن حزم والقرطبى وغيرهم ، وعدها ابن العربى المالكى فى (أحكام القرآن) مرتبا لها على السور ، لكنه أخطأ فى بعض ما عده كما سنشير إليه قريبا إن شاء الله تعالى .

---

(١) أى سورة المؤمنون

(٢) أى سورة القمر .

واعلم أن أسماء الله عز وجل ليست بمنحصرة فى التسعة والتسعين المذكورة فى حديث أبى هريرة ولا فيما استخرجه العلماء من القرآن بل ولا فيما علمته الرسل والملائكة وجميع المخلوقين ، لحديث ابن مسعود عند أحمد وغيره عن رسول الله ﷺ أنه قال « ما أصاب أحداً قط هم ولا حزن فقال : اللهم إنى عبدك وابن عبدك وابن أمتك ناصيتى بيدك ماضٍ فىّ حكمك عدل فىّ قضاؤك أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته فى كتابك أو علمته أحدا من خلقك أو استأثرت به فى علم الغيب عندك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبى ونور صدرى وجلاء حزنى وذهاب همى ، إلا أذهب الله حزنه وهمه وأبدله مكانه فرحا » .

فقيل يا رسول الله ، أفلا نتعلمها ؟ فقال « بلى ينبغى لكل من سمعها أن يتعلمها »

واعلم أن من أسماء الله عز وجل ما لا يطلق عليه إلا مقترنا بمقابله فإذا أطلق وحده أوهم نقصا تعالى الله عن ذلك ، فمنها المعطى المانع ، والضار النافع ، والقابض الباسط ، والمعز المذل ، والخافض الرافع ، فلا يطلق على الله عز وجل المانع الضار القابض المذل الخافض كلا على انفراده ، بل لا بد من ازدواجها بمقابلاتها ، إذ لم تطلق فى الوحى إلا كذلك ، ومن ذلك المنتقم لم يأت فى القرآن إلا مضافا إلى ذو كقوله تعالى ﴿ **عزيز ذو انتقام** ﴾ أو مقيدا بالمجرمين كقوله تعالى ﴿ **إنا من المجرمين منتقمون** ﴾

واعلم أنه قد ورد فى القرآن أفعال أطلقها الله عز وجل على نفسه على سبيل الجزاء العدل والمقابلة ، وهى فيما سيقت فيه مدح وكمال ، لكن لا يجوز أن يشتق له تعالى منها أسماء ولا تطلق عليه فى غير ما سيقت فيه من الآيات ، كقوله تعالى ﴿ **إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم** ﴾ وقوله ﴿ **ومكروا ومكر الله** ﴾ وقوله تعالى ﴿ **نسوا الله فنسيهم** ﴾ وقوله تعالى ﴿ **وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون ، الله يستهزئ بهم** ﴾ ونحو ذلك فلا يجوز أن يطلق على الله تعالى مخادع ماكر ناس مستهزئ ونحو ذلك مما يتعالى الله عنه ، ولا يقال الله يستهزئ ويخادع ويمكر وينسى على سبيل الاطلاق ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا. وقال ابن القيم رحمه الله تعالى : إن الله تعالى لم يصف نفسه بالكيد والمكر والخداع والاستهزاء مطلقا ، ولا ذلك داخل فى أسمائه الحسنى ، ومن ظن من الجهال المصنفين فى شرح الأسماء الحسنى أن من أسمائه تعالى الماكر المخادع المستهزئ الكائد فقد فاه بأمر عظيم تقشعر منه الجلود وتكاد الأسماع تصم عند سماعه ، وغر هذا الجاهل أنه سبحانه وتعالى أطلق على نفسه هذه الأفعال فاشتق له منها أسماء ، وأسماؤه تعالى كلها حسنى فأدخلها فى الأسماء الحسنى وقرنها بالرحيم الودود الحكيم الكريم ، وهذا جهل عظيم فان هذه الأفعال ليست ممدوحة مطلقا بل تمدح

في موضع وتذم في موضع فلا يجوز إطلاق أفعالها على الله تعالى مطلقا ، فلا يقال إنه تعالى يمكر ويخادع ويستهزئ ويكيد ، فكذلك بطريق الأولى لا يشتق له منها أسماء يسمى بها بل إذا كان لم يأت في أسمائه الحسنى المريد والمتكلم ولا الفاعل ولا الصانع لأن مسمياتها تنقسم إلى ممدوح ومذموم وإنما يوصف بالأنواع المحمودة منها كالحليم والحكيم والعزيز والفعال لما يريد ، فكيف يكون منها الماكر والمخادع والمستهزئ ، ثم يلزم هذا الغالط أن يجعل من أسمائه الحسنى الداعي والآتي والجائي والذاهب والقادم والرائد والناسي والقاسم والساخط والغضبان واللاعن إلى أضعاف أضعاف ذلك من التي أطلق تعالى على نفسه أفعالها في القرآن ، وهذا لا يقوله مسلم ولا عاقل . والمقصود أن الله سبحانه وتعالى لم يصف نفسه بالكيد والمكر والخداع إلا على وجه الجزاء لمن فعل ذلك بغير حق ، وقد علم أن المجازاة على ذلك حسنة من المخلوق فكيف من الخالق سبحانه وتعالى . قلت ومن هنا يتبين لك ما ذكرنا من النظر في بعض ما عده ابن العربي ، فان الفاعل والزارع إذا أطلقا بدون متعلق ولا سياق يدل على وصف الكمال فيهما فلا يفيدان مدحا ، أما في سياقها من الآيات التي ذكرت فيها فهي صفات كمال ومدح وتوحد كما قال تعالى ﴿ **كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين** ﴾ وقال تعالى ﴿ **أفرأيتم ما تحرثون . أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون** ﴾ الآيات بخلاف ما إذا عدت مجردة عن متعلقاتها وما سيقت فيه وله وأكبر مصيبة أن عد في الأسماء الحسنى رابع ثلاثة وسادس خمسة مصرحا قبل ذلك بقوله : وفي سورة المجادلة اسمان فذكرهما . وهذا خطأ فاحش ، فان الآية لا تدل على ذلك ولا تقتضيه بوجه لا منطوقا ولا مفهوما ، فإن الله عز وجل قال ﴿ **ألم تر أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا** ﴾ الآية ، وأين في هذا السياق رابع ثلاثة وسادس خمسة ؟ وكان حقه اللائق بمراده أن يقول: رابع كل ثلاثة في نجواهم وسادس كل خمسة كذلك فانه تعالى يعلم أفعالهم ويسمع أقوالهم كما هو مفهوم من صدر الآية ، ولكن لا يليق بهذا المعنى إلا سياق الاية . والله تعالى أعلم .

واعلم أن دلالة أسماء الله تعالى حق على حقيقتها مطابقة وتضمنا والتزاما ، فدلالة اسمه تعالى « الرحمن » على ذاته عز وجل مطابقة وعلى صفة الرحمة تضمنا وعلى الحياة وغيرها التزاما ، وهكذا سائر أسمائه تبارك وتعالى . وليست أسماء الله تعالى غيره كما يقوله الملحدون في أسمائه ، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا ، فإن الله عز وجل هو الإله وما سواه عبيد ، وهو الرب وما سواه مربوب ، وهو الخالق وما سواه مخلوق ، وهو

الأول فليس قبله شيء وما سواه محدث كائن بعد أن لم يكن ، وهو الآخر الباقي فليس بعده شيء وما سواه فان ، فلو كانت أسماء الله تعالى غيره كما زعموا لكانت مخلوقة مربوبة محدثة فانية إذ كل ما سواه كذلك ، تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا .

وقال عثمان بن سعيد الدارمي ـ نقمة الله على بشر المريسي وذويه ـ : باب الايمان بأسماء الله تعالى وأنها غير مخلوقة . قال : ثم اعترض المعترض ـ يعني ابن الثلجي ـ أسماء الله تعالى المقدسة فذهب في تأويلها مذهب إمامه المريسي فادعى أن أسماء الله غير الله وأنها مستعارة مخلوقة كما أنه قد يكون شخص بلا اسم فتسميته لا تزيد في الشخص ولا تنقص ، يعني الخبيث أن الله تعالى كان مجهولا كشخص مجهول لا يهتدى لاسمه ولا يدرى ما هو حتى خلق الخلق فابتدعوا له أسماء من مخلوق كلامهم فأعاروه إياها من غير أن يعرف له اسم قبل الخلق ، قال : ومن ادعى التأويل في أسماء الله فقد نسب الله تعالى إلى العجز والوهن والضرورة والحاجة إلى الخلق ، لأن المستعير محتاج مضطر ، والمعير أبدا أعلى منه وأغنى ، ففي هذه الدعوى استجهال الخالق إذ كان بزعمه هملا لا يدرى ما اسمه. والله المتعالي عن هذا الوصف المنزه عنه لأن أسماء الله تعالى هي تحقيق صفاته سواء عليك قلت عبدت الله أو عبدت الرحمن أو الرحيم أو الملك العزيز الحكيم ، وسواء على الرجل قال كفرت بالله ، أو قال كفرت بالرحمن الرحيم أو بالخالق العزيز الحكيم ، وسواء الرحمن أو عبد العزيز أو عبد المجيد . وسواء عليك قلت يا الله أو يارحمن أو يا رحيم أو يا مالك يا عزيز يا جبار بأي اسم دعوته من هذه الأسماء أو أضفته إليه فانما تدعو الله نفسه من شك فيه فقد كفر . وسواء عليك قلت ربي الله أو ربي الرحمن كما قال تعالى **﴿وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون﴾** وقال تعالى **﴿ سبح لله ما في السموات وما في الأرض ﴾** وقال **﴿ وسبحوه بكرة وأصيلا ﴾** كذلك قال في الاسم **﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾** كما قال تعالى **﴿ يسبح لله ﴾** ولو كان الاسم مخلوقا مستعارا غير الله لم يأمر الله تعالى أن يسبح مخلوق غيره ، وقال تعالى **﴿ له الأسماء الحسنى ، يسبح له ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾** ثم ذكر الآلهة التي تعبد من دون الله عز وجل بأسمائها المخلوقة المستعارة فقال تعالى **﴿ إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ﴾** وكذلك قال هود لقومه حين قالوا **﴿ أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا ﴾** فقال لهم نبيهم **﴿ أتجادلونني في أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ﴾** يعني أن أسماء الله تعالى لم تزل كما لم يزل عز وجل وأنها بخلاف هذه الزسماء المخلوقة التي أعاروها الأصنام والآلهة التي عبدوها من دونه . فان لم تكن أسماء الله بخلافها ، فأي توبيخ لأسماء هذه الآلهة المخلوقة إذ كانت أسماؤها وأسماء الله تعالى مخلوقة مستعارة عندكم

بمعنى واحد وكلها من تسمية العباد وتسمية آبائهم بزعمهم . ففى دعوى هذا المعارض أن الخلق عرّفوا الله إلى عباده بأسماء ابتدعوها لا أن الله عرفهم بها نفسه ، فأى تأويل أوحش فى أسماء الله تعالى من أن يتأول رجل أنه كان كشخص مجهول أو بيت أو شجرة أو بهيمة لم يسبق لشيء منها اسم ولم يعرف ما هو حتى عرفه الخلق بعضهم بعضا ، ولا تقاس زسماء الله تعالى بأسماء الخلق لأن أسماء الخلق مخلوقة مستعارة وليست أسماؤهم نفس صفاتهم بل مخالفة لصفاتهم ، وأسماء الله تعالى صفاته ليس شيء منها مخالفا لصفاته ولا شيء من صفاته مخالفا لأسمائه ، فمن ادعى أن صفة من صفات الله مخلوقة أو مستعارة فقد كفر وفجر ، لأنك إذا قلت الله فهو الله ، وإذا قلت الرحمن فهو الرحمن وهو الله ، فإذا قلت الرحيم فهو كذلك ، وإذا قلت حكيم عليم حميد مجيد جبار متكبر قاهر قادر فهو كذلك ، وهو الله سواء لا يخالف اسم له صفته ولا صفته اسما . وقد يسمى الرجل حكيما وهو جاهل ، وحكما وهو ظالم ، وعزيزا وهو حقير ، وكريما وهو لئيم ، وصالحا وهو طالح ، وسعيدا وهو شقى ، ومحمودا وهو مذموم ، وحبيبا وهو بغيض ، وأسدا وحمارا وكلبا وجديا وكليبا وهرا وحنظلة وعلقمة وليس كذلك . والله تعالى وتقدس اسمه كل أسمائه سواء لم يزل كذلك ولا يزال ، لم تحدث له صفة ولا اسم لم يكن كذلك ، كان خالقا قبل المخلوقين ورازقا قبل المرزوقين وعالما قبل المعلومين وسميعا قبل أن يسمع أصوات المخلوقين وبصيرا قبل أن يرى أعيانهم مخلوقة ، قال الله تعالى ﴿ **الرحمن على العرش استوى** ﴾ وقال ﴿ **الله الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش** ﴾ وقال فى موضع ﴿ **ثم استوى على العرش الرحمن** ﴾ لأنهما بمعنى واحد ، ولو كان كما ادعى المعارض ـ يعنى ابن الثلجى وإمامه المريسى ـ لكان الخالق والمخلوق استويا جميعا على العرش إذ كانت أسماؤه مخلوقة عندهم إذ كان الله فى دعواهم فى حد المجهول أكثر منه فى حد المعروف لأن لحدوث الخلق حدا ووقتا وليس لأزلية الله تعالى حد ولا وقت لم يزل ولا يزال ، وكذلك أسماؤه لم تزل ولا تزال . ثم احتج المعارض لترويج مذهبه هذا بأقبح قياس فقال : أرأيت لو كتبت اسما فى رقعة ثم احترقت الرقعة أليس إنما تحرق الرقعة ولا يضر الاسم شيئا . فيقال لهذا التائه الذى لا يدرى ما يخرج من رأسه : إن الرقعة وكتابة الاسم ليس كنفس الاسم ، إذا احترقت الرقعة احترق الخط وبقى اسم الله له وعلى لسان الكاتب لم يزل قبل أن يكتب لم تنقص النار من الاسم ولا ممن له الاسم شيئا ، وكذلك لو كانت أسماء المخلوقين لم تنقص النار من أسمائهم ولا من أجسامهم شيئا ، وكذلك لو كتبت الله بهجائه فى رقعة ثم أحرقت الرقعة لاحترقت الرقعة وكان الله سبحانه بكماله على عرشه ، وكذلك لو صور رجل فى رقعة ثم

ألقيت فى النار لاحترقت الرقعة ولم يضر المصوِّر شيئا : وكذلك القرآن لو احترقت المصاحف كلها لم ينقص من القرآن نفسه حرف واحد ، وكذلك لو احترق القراء كلهم أو قتلوا أو ماتوا لبقى القرآن بكماله كما كان لم ينقص منه حرف واحد لأنه منه بدأ وإليه يعود عند فناء الخلق بكماله غير منقوص . وقد كان للمريسى فى أسماء الله مذهب كمذهبه فى القرآن ، كان القرآن عنده مخلوقا من قول البشر لم يتكلم الله بحرف منه فى دعواه ، وكذلك أسماء الله تعالى عنده من ابتداع البشر من غير أن يقول تعالى **﴿ إنى أنا الله رب العالمين ﴾** بزعمه قط ، وزعم أنى متى اعترفت بأن الله تعالى تكلم بـ **﴿ إنى أنا الله رب العالمين ﴾** لزمنى أن أقول تكلم بالقرآن ، ولو اعترفنا بذلك لانكسر علينا مذهبنا فى القرآن . وقد كسره الله عليهم على رغم أنوفهم فقال **﴿ إنى أنا الله رب العالمين ﴾** ولا يستحق مخلوق أن يتكلم بهذا فإن فعل ذلك كان كافرا كفرعون الذى قال **﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾** فهذا الذى ادعوا فى أسماء الله عز وجل أصل كبير من أصول الجهمية التى بنوا عليها محنتهم وأسسوا بها ضلالتهم غالطوا بها الأغمار والسفهاء وهم يرون أنهم يغالطون بها الفقهاء ، ولئن كان السفهاء وقعوا فى غلط مذاهبهم فان الفقهاء منهم لعلى يقين .

أرأيتم قولكم إن أسماء الله مخلوقة ، فمن خلقها : وكيف خلقها ؟ أجعلها أجساما وصورا تشغل أعيانها أمكنة دونه من الأرض والسماء أم موضعا دونه فى الهواء ؟ فان قلتم لها أجسام دونه فهذا ما تنقمه عقول العقلاء ، وإن قلتم خلقها فى ألسنة العباد فدعوه بها وأعاروها إياه فهو مما ادعينا عليكم أن الله تعالى كان بزعمكم مجهولا لا اسم له حتى أحدث الخلق فأحدثوا له أسماء من مخلوق كلامهم ، فهذا هو الالحاد فى أسماء الله والتكذيب بها ، قال الله تعالى **﴿ الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم . مالك يوم الدين ﴾** كما يضيفه إلى رب العالمين ، ولو كان كما ادعيتم لقيل الحمد لله رب العالمين . المسمى الرحمن الرحيم مالك يوم الدين ، وكما قال **﴿ الله لا إله إلا هو الحى القيوم نزل عليك الكتاب بالحق ﴾** كما قال **﴿ تنزيل الكتاب من الله ﴾** كذلك قال **﴿ تنزيل من الرحمن الرحيم ـ تنزيل من حكيم حميد ﴾** ، **﴿ وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم ﴾** «كلها بمعنى واحد وكلها هى الله ، والله هو أحد أسمائه ـ إلى أن قال ـ وكما قال الله تعالى فى كتابه » **﴿ أنا الله رب العالمين ﴾** كذلك قال على لسان نبيه ﷺ « أنا الرحمن » ثم روى بسنده حديث عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « قال الله تعالى : أنا الرحمن ، وهى الرحم شققت لها من اسمى ، فمن وصلها وصلته ومن قطعها بتته » فيقول تعالى « أنا شققت لها من اسمى » وادعت الجهمية مكذبين لله ولرسوله أنهم أعاروه الاسم الذى شقها منه . ومن أين علم الخلق

أسماء الخالق قبل تعليمه إياهم فانه لم يعلم آدم ولا الملائكة أسماء المخلوقين حتى علمهم الله تعالى من عنده وكان بدء علمها منه فقال تعالى ﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ، قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ﴾ وقال رسول الله ﷺ « إن لله تسعة وتسعين اسما من أحصاها وحفظها دخل الجنة» وساق الأسماء الحسنى كما قدمنا ثم قال : فهذه كلها أسماء الله تعالى لم تزل له كما لم يزل ، بأيها دعوت فانما تدعو الله نفسه . قال : ولن يدخل الايمان قلب رجل حتى يعلم أن الله تعالى لم يزل إلها واحدا بجميع أسمائه وجميع صفاته لم يحدث له منها شيء كما لم تزل وحدانيته . انتهى كلامه رحمه الله تعالى .

واختلف العلماء في معنى قوله ﷺ « من أحصاها » فقال البخارى وغيره من المحققين : معناه حفظها وأن إحدى الروايتين مفسرة للأخرى . وقال الخطابى : يحتمل وجوها : أحدها أن يعدها حتى يستوفيها ، بمعنى أن لا يقتصر على بعضها فيدعو الله بها كلها ويثنى عليه بجميعها فيستوجب الموعود عليها من الثواب . وثانيها المراد بالاحصاء الاطاقة ، والمعنى من أطاق القيام بحق هذه الأسماء والعمل بمقتضاها وهو أن يعتبر معانيها فيلزم نفسه بمواجبها فاذا قال « الرزاق » وثق بالرزق وكذا سائر الاسماء . ثالثها المراد بها الاحاطة بجميع معانيها ، وقيل أحصاها عمل بها فإذا قال « الحكيم » سلم لجميع أوامره وأقداره وأنها جميعها على مقتضى الحكمة ، وإذا قال « القدوس » استحضر كونه مقدسا منزها عن جميع النقائص واختاره أبو الوفاء بن عقيل . وقال ابن بطال : طريق العمل بها أن ما كان يسوغ الاقتداء به كالرحيم والكريم فيمرن العبد نفسه على أن يصح له الاتصاف بها ــ يعنى فيما يقوم به ، وما كان يختص به نفسه كالجبار والعظيم فعلى العبد الاقرار بها والخضوع لها وعدم التحلى بصفة منها ، وما كان فيه معنى الوعد يقف فيه عند الطمع والرغبة ، وما كان فيه معنى الوعيد يقف منه عند الخشية والرهبة ا هـ والظاهر أن معنى حفظها وإحصائها هو معرفتها والقيام بعبوديتها كما أن القرآن لا ينفع حفظ ألفاظه من لا يعمل به ، بل جاء في المرّاق من الدين أنهم يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم . وقال ابن القيم رحمه الله تعالى بعد كلام طويل على أولية الله تعالى وما في ذلك الشهود من الغنى التام قال : وليس هذا مختصا بأوليته تعالى فقط بل جميع ما يبدو للقلوب من صفات الرب سبحانه يستغنى العبد بها بقدر حظه وقسمه من معرفتها وقيامه بعبوديتها ، فمن شهد مشهد علو الله تعالى على خلقه وفوقيته لعباده واستوائه على عرشه

كما أخبر بها أعرف الخلق وأعلمهم به الصادق المصدوق وتعبد بمقتضى هذه الصفة ، بحيث يصير لقلبه صمد يعرج إليه مناجيا له مطرقا واقفا بين يديه وقوف العبد الذليل بين يدى الملك العزيز ، فيشعر بأن كلمه وعمله صاعد إليه معروض عليه مع أوفى خاصته وأوليائه فيستحي أن يصعد إليه من كلمه ما يخزيه ويفضحه هناك ، ويشهد نزول الأمر والمراسيم الالهية إلى أقطار العوالم كل وقت بأنواع التدبير والتصرف من الاماتة والإحياء والتولية والعزل والخفض والرفع والعطاء والمنع وكشف البلاء وإرساله وتقلب الدول ومداولة الأيام بين الناس إلى غير ذلك من التصرفات فى المملكة التى لا يتصرف فيها سواه فمراسيمه نافذة فيها كما يشاء ﴿ **يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون** ﴾ فمن أعطى هذا المشهد حق معرفة وعبودية استغنى به.

وكذلك من شهد مشهد العلم المحيط الذى لا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السموات ولا فى قرار البحار ولا تحت أطباق الجبال بل أحاط بذلك علما تفصيليا ثم تعبد بمقتضى هذا الشهود من حراسة خواطره وإراداته وجميع أحواله وعزماته وجوارحه علم أن حركاته الظاهرة والباطنة وخواطره وإراداته وجميع أحوله ظاهرة مكشوفة لديه علانية بادية لا يخفى عليه منها شيء . وكذلك إذا أشعر قلبه صفة سمعه سبحانه لأصوات عباده على اختلافها وجهرها وخفائها وسواء عنده من أسرّ القول ومن جهر به لا يشغله جهر من جهر عن سمعه صوت من أسر ولا يشغله سمع عن سمع ولا تغلطه الأصوات على كثرتها واختلافها واجتماعها بل هى عنده كلها كصوت واحد كما أن خلق الخلق جميعهم وبعثهم عنده بمنزلة نفس واحدة . وكذلك إذا شهد معنى اسمه البصير جل جلاله الذى يرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء فى حندس الظلماء ويرى تفاصيل خلق الذرة[1] الصغيرة ومخها وعروقها ولحمها وحركتها ويرى مد البعوضة جناحها فى ظلمة الليل وأعطى هذا المشهد حقه من العبودية بحرس حركاته وسكناته وتيقن أنها بمرأى منه سبحانه ومشاهدة لا يغيب عنه منها شيء . وكذلك إذا شهد مشهد القيومية الجامع لصفات الأفعال وأنه قائم على كل شيء وقائم على كل نفس بما كسبت ، وأنه تعالى هو القائم بنفسه المقيم لغيره القائم عليه بتدبيره وربوبيته وقهره وإيصال جزاء المحسن وجزاء المسيء إليه وأنه بكمال قيوميته لا ينام ولا ينبغى له أن ينام يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار وعمل النهار قبل عمل الليل لا تأخذه سنة ولا نوم ولا يضل ولا ينسى . وهذا المشهد من أرفع مشاهد العارفين وهو مشهد الربوبية وأعلى منه مشهد الإلهية الذى هو مشهد الرسل وأتباعهم الحنفاء وهو شهادة أن لا إله إلا الله وأن إلهية ما سواه باطل ومحال كما أن ربوبية ما سواه كذلك فلا أحد سواه يستحق أن يؤله

(١) الواحدة من صغار النمل .

ويعبد ويصلى له ويسجد ويستحق نهاية الحب مع نهاية الذل الكمال أسمائه وصفاته وأفعاله، فهو المطاع وحده على الحقيقة والمألوه وحده وله الحكم فكل عبودية لغيره باطلة وعناء وضلال وكل محبة لغيره عذاب لصاحبها وكل غنى بغيره فقر وفاقة ، وكل عز بغيره ذل وصغار وكل تكثر بغيره قلة وذلة ، فكما استحال أن يكون للخلق رب غيره فكذلك استحال أن يكون لهم إله غيره ، فهو الذى انتهت إليه الرغبات وتوجهت نحوه الطلبات ويستحيل أن يكون معه إله آخر فان الإله على الحقيقة هو الغنى الصمد الكامل فى أسمائه وصفاته الذى حاجة كل أحد إليه ولا حاجة به إلى أحد وقيام كل شىء به وليس قيامه بغيره ـ إلى أن قال ـ فمشهد الألوهية هو مشهد الحنفاء وهو مشهد جامع للأسماء والصفات وحظ العباد منه بحسب حظهم من معرفة الأسماء والصفات ، ولذلك كان الاسم الدال على هذا المعنى هو اسم الله جل جلاله ، فان هذا الاسم هو الجامع ، ولهذا تضاف الأسماء الحسنى كلها إليه فيقال الرحمن الرحيم العزيز الغفار القهار من أسماء الله، ولا يقال الله من أسماء الرحمن ، قال الله تعالى ﴿ **ولله الإسماء الحسنى** ﴾ فهذا المشهد تجتمع فيه المشاهد كلها وكل مشهد سواه فإنما هو مشهد لصفة من صفاته ، فمن اتسع قلبه لمشهد الإلهية وقام بحقه من التعبد الذى هو كمال الحب مع كمال الذل والتعظيم والقيام بوظائف العبودية فقد تم له غناه بالإله الحق وصار من أغنى العباد ولسان مثل هذا يقول :

غنيت بلا مال عن الناس كلهم　　　وإن الغنى العالى عن الشىء لا به ا هـ

وقوله تعالى ﴿ **وذروا الذين يلحدون فى أسمائه** ﴾ قال ابن عباس وابن جريج ومجاهد : هم المشركون عدلوا بإسماء الله تعالى عما هى عليه فسموا بها أوثانهم فزادوا ونقصوا ، فاشتقوا اللات من الله والعزى من العزيز ومناة من المنان . وقيل هى تسميتهم الأصنام آلهة، وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما يلحدون فى أسمائه أى يكذبون . وقال قتادة : يلحدون يشركون فى أسمائه . وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس : الالحاد التكذيب، وأصل الالحاد فى كلام العرب العدول عن القصد والميل والجور والانحراف ومنه اللحد فى القبر لانحرافه إلى جهة القبلة عن سمة الحفر ا هـ . وهذه الأقوال متقاربة ، والالحاد يعمها وهو ثلاثة أقسام : الأول إلحاد المشركين وهو ما ذكره ابن عباس وابن جريج ومجاهد من عدولهم بأسماء الله تعالى عما هى عليه وتسميتهم أوثانهم بها مضاهاة لله عز وجل ومشاقة له وللرسول ﷺ . الثانى إلحاد المشبهة الذين يكيفون صفات الله عز وجل ويشبهونها بصفات خلقه مضادة له تعالى وردّاً لقوله عز وجل ﴿ **ليس كمثله شىء ، ولا يحيطون به علما** ﴾ وهو مقابل لالحاد المشركين فأولئك جعلوا المخلوق بمنزلة الخالق وسووه به ،

وهؤلاء جعلوا الخالق بمنزلة الاجسام المخلوقة وشبهوه بها تعالى وتقدس عن إفكهم . الثالث إلحاد النفاة وهم قسمان : قسم أثبتوا ألفاظ أسمائه تعالى دون ما تضمنته من صفات الكمال فقالوا رحمن رحيم بلا رحمة ، عليم بلا علم ، حكيم بلا حكمة ، قدير بلا قدرة ، سميع بلا سمع ، بصير بلا بصر . واطردوا بقية الأسماء الحسنى هكذا وعطلوها عن معانيها وما تقتضيه وتتضمنه من صفات الكمال لله تعالى ، وهم فى الحقيقة كمن بعدهم وإنما أثبتوا الألفاظ دون المعانى تسترا وهو لا ينفعهم . وقسم لم يتستروا بما تستر به إخوانهم بل صرحوا بنفى الأسماء وما تدل عليه من المعانى واستراحوا من تكلف أولئك وصفوا الله تعالى بالعدم المحض الذى لا اسم له ولا صفة وهم فى الحقيقة جاحدون لوجود ذاته تعالى مكذبون بالكتاب وبما أرسل الله به رسله . وكل هذه الأربعة الأقسام كل فريق منهم يكفر مقابله ، وهم كما قالوا كلهم كفار بشهادة الله وملائكته وكتبه ورسله والناس أجمعين من أهل الايمان والاثبات الواقفين مع كلام الله تعالى وسنة رسوله ﷺ وآله وصحبه أجمعين .

(صفاته العلى) أى وإثبات صفاته العلى التى وصف بها نفسه تعالى ووصفه بها نبيه ﷺ من صفات الكمال ونعوت الجلال ، من صفات الذات وصفات الأفعال ، مما تضمنته أسماؤه بالاشتقاق كالعلم والقدرة والسمع والبصر والحكمة والرحمة والعزة والعلو وغيرها ، ومما أخبر به عن نفسه وأخبر بها عنه رسوله ﷺ ولم يشتق منه اسما كحبه المؤمنين والمتقين والمحسنين ورضائه عن عباده المؤمنين ورضاه لهم الاسلام دينا ، وكراهته انبعاث المنافقين وسخطه على الكافرين وغضبه عليهم وإثبات وجه ذى الجلال والاكرام ويديه المبسوطتين بالانفاق وغير ذلك مما هو ثابت فى الكتاب والسنة والفطر السليمة ، وسيأتى الكلام على ما ذكر من ذلك فى المتن فى محله وما لم يذكر فى المتن ففى خاتمة الباب إن شاء الله تبارك وتعالى .

﴿ وأنه الرب الجليل الأكبر   الخالق البارئ والمصور ﴾

﴿ بارى البرايا منشئ الخلائق   مبدعهم بلا مثال سابق ﴾

(وأنه الرب) أى وإثبات ربوبيته بأنه رب كل شيء ومليكه رب الأولين والآخرين رب المشرقين ورب المغربين ، ورب السموات والأرضين وما بينهما رب العالمين رب الآخرة والأولى ، مالك الملك فلا شريك له فى ملكه يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء ويهدى من يشاء ويضل من يشاء ويسعد من يشاء ويشقى من يشاء ويخفض من يشاء ويرفع من يشاء ويعطى من يشاء ويمنع من يشاء ويصل من يشاء

ويقطع من يشاء ويبسط الرزق لمن يشاء ويقدره على من يشاء يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور . أو يزوجهم ذكرانا واناثا ويجعل من يشاء عقيما إنه عليم قدير، يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ويخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ويحيى الأرض بعد موتها وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ، يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون خلق فسوى وقدر فهدى ، وأضحك وأبكى وأمات وأحيا وخلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى ، وأغنى وأقنى وأوجد وأفنى ، يبدى ويعيد ويفعل ما يريد ، رفع سمك السماء فسواها وأغطش ليلها وأخرج ضحاها ، وبسط الأرض ودحاها ، فراشا لعباده ومهادا ، ونصب الجبال عليها أوتادا ، سخر الفلك تجرى فى البحر بأمره ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا باذنه ، فالق الاصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا لليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون الذى أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الانسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون . خالق الكون وما فيه ، وجامع الناس ليوم لا ريب فيه . مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا ، وأسبغ على عباده نعمه الظاهرة والباطنة وجعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا ، علم وألهم ، ودبر فأحكم وقضى فأبرم لا راد لقضائه ولا مضاد لأمره ولا معقب لحكمه ولا شريك له فى ملكه ولا إله غيره ولا رب سواه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

(الجليل) أى المتصف بجميع نعوت الجلال وصفات الكمال ، المنزه عن النقائص والمحال ، المتعالى على الأشباه والأمثال ، له الاسماء الحسنى والصفات العلى والمثل الأعلى، وله الحمد فى الآخرة والأولى .

(الأكبر) الذى السموات والأرض وما فيهن وما بينهما فى كفه كخردلة فى كف آحاد عباده له العظمة والكبرياء وهو أكبر كل شيء شهادة لا منازع له فى عظمته وكبريائه ولا ينبغى العظمة والكبرياء إلا له ومن نازعه فى صفة منهما أذاقه عذابه وأحل عليه غضبه ومن يحلل عليه غضبه فقد هوى

(الخالق) أى المقدر والمقلب للشيء بالتدبير إلى غيره كما قال تعالى ﴿ **يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق فى ظلمات ثلاث** ﴾ وقال تعالى ﴿ **ياأيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم**

نخرجكم طفلا ﴾ الآية . وقال تعالى ﴿ ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ وقال تعالى ﴿أولا يذكر الانسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا ﴾[1] وقال تعالى ﴿ الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ﴾ وقال تعالى ﴿ الله خالق كل شيء ﴾ وقال تعالى ﴿ والله خلقكم وما تعملون ﴾ فالله تبارك وتعالى الخالق وكل ما سواه مخلوق له مربوب له لا خالق غيره ، فجميع السموات والأرض ومن فيهن وما بينهما وحركات أهلها وسكناتهم وأرزاقهم وآجالهم وأقوالهم وأعمالهم كلها مخلوقات له محدثة كائنة بعد أن لم تكن ، وهو خالق ذلك كله وموجده ومبدئه ومعيده ، فمنه مبدأها وإليه منتهاها ﴿ ألا إلى الله تصير الأمور ﴾.

(البارئ) أى المنشئ للأعيان من العدم إلى الوجود ، والبرء هو الفرى وهو التنفيذ وإبراز ما قدره وقرره إلى الوجود ، وليس كل من قدر شيئا ورتبه يقدر على تنفيذه وإيجاده سوى الله عز وجل كما قيل :

ولأنت تفرى ما خلقت   وبعض القوم يخلق ثم لا يفرى

أى أنت تنفذ ما خلقت أى قدرت بخلاف غيرك فانه لا يستطيع كل ما يريد فالخلق التقدير ، والفرى التنفيذ .

(المصور) الممثل للمخلوقات بالعلامات التى يتميز بعضها عن بعض ، أى الذى ينفذ ما يريد إيجاده على الصفة التى يريدها ، يقال هذه صورة الأمر أو مثاله فأولا يكون خلقا ثم برءا ثم تصويرا ، وهذه الثلاثة الاسماء التى فى سورة الحشر فى خاتمتها ﴿ هو الله الخالق البارئ المصور ﴾ قال ابن كثير رحمه الله تعالى : أى الذى إذا أراد شيئا قال له كن فيكون على الصفة التى يريد والصورة التى يختار كقوله تعالى ﴿ فى أى صورة ما شاء ركبك ﴾

(بارى البرايا) جميع الموجودات (منشئ الخلائق) أى جميع المخلوقات (مبدعهم) أى خالقهم ومنشئهم ومحدثهم ، يفسر ذلك (بلا مثال سابق) أى بلا نظير سالف ، ومنه سميت البدعة بدعة لأنها على غير مثال سبق فى الشرع ، وقال الله تعالى ﴿ بديع السموات والأرض ﴾ أى محدثها وموجدها على غير مثال سبق . وهذا مفسر للبيت الذى قبله وقد تقدم الكلام عليه ولله الحمد والمنة .

(١) الآية : ٦٧ من سورة مريم ، وقد خلط فى الأصل بينها وبين موضع سورة يس .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

﴿ الأول المبدئ بلا ابتداء والآخر الباقي بلا انتهاء ﴾

(الأول) فليس قبله شيء (المبدئ) الذى يبدئ الخلق ثم يعيده (بلا ابتداء) لأوليته تعالى (والآخر) فليس بعده شيء (الباقي) وكل ما سواه فان (بلا انتهاء) لآخريته تعالى قال الله عز وجل ﴿ **هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم** ﴾ وقال تعالى ﴿ **قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده فأنى تؤفكون** ﴾ وقال تعالى ﴿ **أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير . قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشيء النشأة الآخرة إن الله على كل شيء قدير** ﴾ وقال تعالى ﴿ **ولا تَدْعُ مع الله إلها آخر لا إله إلا هو كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون** ﴾ وقال تعالى ﴿ **كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام** ﴾ وقال تعالى ﴿ **يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء ، لمن الملك اليوم لله الواحد القهار** ﴾ وقال رسول الله ﷺ « اللهم رب السموات السبع ورب العرش العظيم ، ربنا ورب كل شيء فالق الحب والنوى منزل التوراة والإنجيل والقرآن ، أعوذ بك من شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها أنت الأول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء وأنت الظاهر فليس فوقك شيء وأنت الباطن فليس دونك شيء ، اقض عنى الدين وأغننى من الفقر »[1] رواه مسلم من حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ . وفى الصحيحين عن عمران بن حصين رضى الله عنهما قال : دخلت على النبى ﷺ وعقلت ناقتى بالباب، فأتاه ناس من بنى تميم فقال « اقبلوا البشرى يا بنى تميم » قالوا : قد بشرتنا فأعطنا . مرتين . ثم دخل عليه ناس من أهل اليمن فقال «اقبلوا البشرى يا أهل اليمن إذ لم يقبلها بنو تميم » قالوا : قبلنا يا رسول الله، قالوا : جئناك نسألك عن أول هذا الأمر ، قال « كان الله ولم يكن شيء غيره وكان عرشه على الماء وكتب فى الذكر كل شيء وخلق السموات والأرض » الحديث[2] . وقال عمر رضى الله عنه : قام فينا النبى ﷺ مقاما فأخبرنا عن بدء الخلق حتى دخل أهل الجنة منازلهم وأهل النار منازلهم ، حفظ ذلك من حفظه ونسيه من نسيه . رواه البخارى[3] . وفى حديث ابن عمر رضى الله عنهما « أنه تعالى يطوى السموات بيده ثم يقول : أنا الملك أنا الملك أنا الجبار المتكبر ، أين ملوك الأرض أين الجبارون أين المتكبرون »[4] وفى

---

(١) انظر صحيح مسلم بشرح النووى ط دار العربى حديث رقم ٢٧١٣ .

(٢) انظر فتح البارى شرح صحيح البخارى بتحقيقنا ، ح ٣٠١٨ ، ٣٠١٩ ، ٦٩٨٢.

(٣) انظر فتح البارى شرح صحيح البخارى بتحقيقنا ح ٣٠٢٠ .

(٤) انظر فتح البارى شرح صحيح البخارى بتحقيقنا ح ٦١٥٤ .

حديث الصور « أنه عز وجل إذا قبض أرواح جميع خلقه فلم يبق سواه وحده لا شريك له حينئذ يقول لمن الملك اليوم ثلاث مرات ، ثم يجيب نفسه قائلا : « لله الواحد القهار » أى الذى هو وحده قد قهر كل شيء وغلبه . ولابن أبي حاتم عن ابن عباس رضى الله عنهما قال « ينادى مناد بين يدى الساعة يأيها الناس أتتكم الساعة ، فيسمعه الأحياء والأموات . قال : وينزل الله عز وجل إلى السماء الدنيا ويقول : لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار » قال ابن القيم رحمه الله تعالى فى أثناء كلامه على هذه الاسماء الأربعة وهى الأول والآخر والظاهر والباطن : هى أركان العلم والمعرفة ، فحقيق بالعبد أن يبلغ فى معرفتها إلى حيث ينتهى به قواه وفهمه . واعلم أن لك أنت أولا وآخرا وظاهرا وباطنا بل كل شيء فله أول وآخر وظاهر وباطن ، حتى الخطرة واللحظة والنفس وأدنى من ذلك وأكثر ، فأولية الله عز وجل سابقة على أولية كل ما سواه ، وآخريته ثابتة بعد آخرية كل ما سواه ، فأوليته سبقه لكل شيء ، وآخريته بقاؤه بعد كل شيء ، وظاهريته سبحانه فوقيته وعلوه على كل شيء ، ومعنى الظهور يقتضى العلو ، وظاهر الشيء هو ما علا منه وأحاط بباطنه ، وبطونه سبحانه إحاطته بكل شيء بحيث يكون أقرب إليه من نفسه ، وهذا قرب غير قرب المحب من حبيبه ، هذا لون وهذا لون ، فمدار هذه الأسماء الأربعة على الاحاطة وهى إحاطتان زمانية ومكانية ، فاحاطة أوليته وآخريته بالقبل والبعد ، فكل سابق انتهى إلى أوليته وكل آخر انتهى إلى آخريته ، فأحاطت أوليته وآخريته بالأوائل والأواخر ، وأحاطت ظاهريته وباطنيته بكل ظاهر وباطن ، فما من ظاهر إلا والله فوقه وما من باطن إلا والله دونه ، وما من أول إلا والله قبله وما من آخر إلا والله بعده ، فالأول قدره والآخر دوامه وبقاؤه ، والظاهر علوه وعظمته والباطن قربه ودنوه ، فسبق كل شيء بأوليته وبقى بعد كل شيء بآخريته وعلا على كل شيء بظهوره ودنا من كل شيء ببطونه ، فلا توارى منه سماء سماء ولا أرض أرضا ، ولا يحجب عنه ظاهر باطنا بل الباطن له ظاهر والغيب عنده شهادة ، والبعيد منه قريب والسر عنده علانية ، فهذه الأسماء الأربعة تشتمل على أركان التوحيد فهو الأول فى آخريته والآخر فى أوليته والظاهر فى بطونه والباطن فى ظهوره لم يزل أولا وآخرا وظاهرا وباطنا . ثم ساق الكلام على التعبد بهذه الأسماء فشفى وكفى رحمه الله تعالى ، ولكن قد أحاط بذلك المعنى تفسير رسول الله ﷺ فى حديث أبى هريرة المتقدم قريبا بأوجز عبارة وأخصرها فسبحان من خصه بجوامع الكلم ﷺ .

﴿ الأحد الفرد القدير الأزلى الصمد البر المهيمن العلـى﴾
﴿ علـوّ قهـر وعلـوّ الشـان جل عن الأضداد والأعوان ﴾
. ﴿ كـذا لـه العلـو والفوقـيه علـى عبـاده بـلا كيفيـه ﴾

(الأحد الفرد) الذى لا ضد له ولا ند له ولا شريك له فى إلهيته وربوبيته ولا متصرف معه فى ذرة من ملكوته ، ولا شبيه له ولا نظير له فى شىء من أسمائه وصفاته . فهو أحد فى إلهيته لا معبود بحق سواه ولا يستحق العبادة إلا هو ولذا قضى ألا نعبد إلا إياه ، وهو أحد فى ربوبيته فلا شريك له فى ملكه ولا مضاد ولا منازع ولا مغالب . أحد فى ذاته وأسمائه وصفاته فلا شبيه له ولا مثيل ليس كمثله شئ وهو السميع البصير . يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما . فكما أنه الأحد الفرد فى ذاته وإلهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته فهو المتفرد فى ملكوته بأنواع التصرفات ـ من الايجاد والاعدام والاحياء والاماتة والخلق والرزق والاعزاز والاذلال والهداية والاضلال والاسعاد والاشقاء والخفض والرفع والعطاء والمنع والوصل والقطع والضر والنفع ـ فلو اجتمع أهل السموات السبع والأرضين السبع ومن فيهن وما بينهما على إماتة من هو محييه أو إعزاز من هو مذله أو هداية من هو مضله أو إسعاد من هو مشقيه ، أو خفض من هو رافعه أو وصل من هو قاطعه ، أو إعطاء من هو مانعه أو ضر من هو نافعه أو عكس ذلك لم يكن ذلك بممكن فى استطاعتهم ، وأنّى لهم ذلك والكل خلقه وملكه وعبيده وفى قبضته وتحت تصرفه وقهره ، ماض فيهم حكمه عدل فيهم قضاؤه نافذة فيهم مشيئته لا امتناع لهم عما قضاه ولا خروج لهم من قبضته ولا تحرك ذرة فى السموات والأرض ولا تسكن إلا باذنه ، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن . فسحقا لأصحاب السعير كيف جحدوا بآياته وأشركوا فى إلهيته وربوبيته من هو مخلوق مربوب مثلهم لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ، واتخذوهم من دونه أربابا وأندادا سووهم به وعدلوهم به واعتقدوا أنهم متصرفون معه فى ملكوته وعبدوهم من دونه . وهم يرون ويعلمون أنهم محدثون بعد أن لم يكونوا ، مسبوقون بالعدم عاجزون عن القيام بأنفسهم فقراء إلى من يقوم بهم . وألحدوا فى أسماء الله وصفاته وآياته على اختلافهم فى صناعة الالحاد فبين مشبه له تعالى بالعدم وهم نفاة أسمائه وصفاته بل هم نفاة وجود ذاته ، وبين مشبه له بالمخلوقات ممثل صفاته تعالى بصفات الحادثات المحدثات حاكمين عليه بعقولهم واصفين له بما لم يصف به

نفسه . وآخرون جحدوا إرادته ومشيئته النافذة وقدرته الشاملة وأفعاله وحكمته وحمده وجعلوا أنفسهم هم الفاعلين لما شاءوا الخالقين لما أرادوا من دون مشيئة لله ولا إرادة ، وجحدوا أن يكون الله خلقهم وما يعملون . وآخرون جعلوا قضاءه وقدره حجة لهم على ترك أوامره ونواهيه ، وأنهم لا قدرة لهم ولا اختيار ، وأنه كلفهم بفعل ما لا يطاق فعله وترك ما لا يطاق تركه ، وجعلوا معاصيه طاعات إذ وافقت مشيئته الكونية وقدره الكونى فخاصموه بمشيئته وأقداره وعطلوا أوامره ونواهيه ونسبوه إلى الظلم تعالى ، وأن تعذيبه من لم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ولم يقم الصلاة ولم يؤت الزكاة ولم يصم ولم يحج ولم يعمل الطاعات ولم يترك المعاصى كتعذيب الذكر لم يصر أنثى والأنثى لم تصر ذكرا ، وأن أمرهم بالصلاة وغيرها كأمر الآدمى بالطيران والأعمى بنقط المصاحف ، أولئك خصماء الله يوم القيامة ، تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون علوا كبيرا .

ورضى الله عن المؤمنين إذ عرفوه حق معرفته وقدروه حق قدره ووحدوه بإلهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته ، وأثبتوا له ما أثبته لنفسه ، ونفوا عنه التمثيل ، وآمنوا بقضائه وقدره وتلقوه بالرضا والتسليم ، وأن ذلك موجب ربوبيته ومقتضى إلهيته واللائق بحكمته وحمده ، وتلقوا أمره بالسمع والطاعة والامتثال والانقياد ، ووقفوا عند نواهيه وحدوده فلم يعتدوها ، ونزلوا كلا من القدر والشرع منزلته ولم ينصبوا الخصام بينهما ، فالقضاء والقدر يؤمن به ولا يحتج به ، والأمر والنهى يطاع ويمتثل ، فالإيمان بالقدر من كمال التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله ، والقيام بالأمر والنهى موجب شهادة أن محمدا رسول الله ﷺ ، فمن لا يؤمن بالقضاء والقدر وينقاد للأمر والنهى فهو مكذب بالشهادتين ولو نطق بهما بلسانه .

وهذا البحث سيأتى تفصيله عن قريب إن شاء الله فى موضعه ، وإنما ساقنا إليه هاهنا الكلام على كمال أحدية الله عز وجل فى إلهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته وأفعاله وقدره وشرعه ، وأنه لا معارض لمشيئته ولا معقب لحكمه ، وأن المخلوق لا تصرف له فى نفسه فضلا عن غيره ولا قدرة له على ما لم يقدره الله تعالى عليه ، فكيف يسوى به ويعدل به ويشرك معه فى إلهيته أو ينسب إليه التصرف فى شيء من ملكوته ، وكم يقيم الحجة تبارك وتعالى على من أشرك معه إلها غيره بأحديته فى الربوبية والأسماء والصفات وإقرار المشرك بها ، وأن آلهته التى أشرك لا تتصف بشيء منها ويلزمه إفراده بالألوهية الملازمة للربوبية كما قال تعالى ﴿ **رب السموات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميا** ﴾ وقال تعالى ﴿ **الله الذى خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل**

من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ وقال تعالى ﴿ قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده ، قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده فأنى تؤفكون . قل هل من شركائكم من يهدى إلى الحق ، قل الله يهدى للحق أفمن يهدى إلى الحق أحق أن يتبع أم من لا يَهدى إلا أن يُهدَى فما لكم كيف تحكمون ﴾ إلى غير ذلك من الآيات .

(القدير) الذى له مطلق القدرة وكمالها وتمامها الذى ما كان ليعجزه من شيء فى الأرض ولا فى السماء الذى ما خلق الخلق ولا بعثهم فى كمال قدرته إلا كنفس واحدة الذى إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون . الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه . الذى يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده، ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا باذنه الذى وسع كرسيه السموات والأرض ولا يئوده حفظهما ، أى لا يكثره ولا يثقله ، الفعال لما يشاء إذا شاء كيف شاء فى أى وقت شاء ، قال الله تعالى ﴿ إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديرا ﴾ وقال تعالى بعد الكلام على البدء والاعادة ﴿ ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل ﴾ الآية وقال تعالى بعد الكلام على هذا المعنى ﴿ ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحي الموتى وأنه على كل شيء قدير ﴾ وقال تعالى ﴿ أولم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا أشد منهم قوة وما كان الله ليعجزه من شيء فى السموات ولا فى الأرض إنه كان عليما قديرا ﴾ وقال تعالى ﴿ ما خلقُكم ولا بعثُكم إلا كنفس واحدة ﴾ وقال تعالى ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ﴾ وقال تعالى ﴿ أولم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض ولم يعى بخلقهن بقادر على أن يحيى الموتى ، بلى إنه على كل شيء قدير ﴾ وقال تعالى ﴿أفعيينا بالخلق الأول بل هم فى لبس من خلق جديد ﴾ وقال ﴿ ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام وما مسنا من لغوب ﴾ وقال تعالى ﴿ الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما ﴾ وقال تعالى ﴿ أوليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم . إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون﴾ وقال تعالى ﴿ تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شيء قدير ﴾ وقال تعالى

﴿ فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون على أن نبدل خيرا منهم وما نحن بمسبوقين ﴾ وقال تعالى **﴿ وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه فى الأرض وإنا على ذهاب به لقادرون ﴾** وقال تعالى **﴿ ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذى أحياها لمحى الموتى إنه على كل شىء قدير ﴾** وقال تعالى **﴿قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة إن الله على كل شىء قدير . يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تقلبون . وما أنتم بمعجزين فى الأرض ولا فى السماء وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير ﴾**[1] والايات فى هذا الباب كثيرة يطول ذكرها ، بل كل آيات الله الظاهرة والمعنوية وجميع مخلوقاته العلوية والسفلية تدل على كمال قدرته الشاملة التى لا يخرج عنها مثقال ذرة كما أنه لا يعزب عن علمه مثقال ذرة ، وعبارة العبد تقصر عن ذلك المعنى العظيم ، وكفى العبد دليلا أن ينظر فى خلق نفسه كيف قدره أحكم الحاكمين وخلقه فى أحسن تقويم ، وشق له السمع فسمع والبصر فأبصر واللسان فنطق والفؤاد فعقل إلى غير ذلك ، فكيف إذا سرح قلبه فى عجائب الملكوت ، ونظر بعين بصيرته إلى مبدعات الحى الذى لا يموت ، ورأى الايات الباهرة والبراهين الظاهرة على كمال قدرة ذى العزة والجبروت **﴿ أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فبأى حديث بعده يؤمنون ﴾** وفى حديث الاستخارة المتفق عليه « اللهم إنى أستخيرك بعلمك ، وأستقدرك بقدرتك ، وأسألك من فضلك العظيم ، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم » الحديث

(الأزلى) بذاته وأسمائه وصفاته الذى لا ابتداء لأوليته ولا انتهاء لآخريته وليس شىء من أسمائه وصفاته متجددا حادثا لم يكن قبل ذلك ، كذلك له كمال الربوبية ولا مربوب، واسم الخالق ولا مخلوق ، هو العليم قبل إيجاده المعلومات والسميع قبل إيجاده المسموعات ، والبصير قبل إيجاده المبصرات ، وكذلك سائر أسمائه وصفاته أزلية بأزلية ذاته، باقية ببقاء ذاته ، لم يزل متصفا بها فى أوليته وكذلك لم يزل متصفا بها فى سرمديته ، ليس بعد خلق الخلق استفاد اسم الخالق ، ولا باحداثه البرية استفاد اسم البارى ، بل هو سبحانه الخالق قبل خلق المخلوقين والرزاق قبل وجود المرزوقين ، وهو المحيى المميت قبل خلقه الموت والحياة ، وكذلك وصف نفسه تبارك وتعالى فقال **﴿ وكان الله عليما قديرا ـ**

---

(١) الآيات : ٢٠ ـ ٢٢ من سورة العنكبوت ، وقد ورد ختام الآية الأخيرة فى الأصل : « وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون » والصواب هو المثبت ، حيث إن الأصل قد خلط بين موضع العنكبوت وموضع هود .

وكان الله غفورا رحيما ـ وكان الله عزيزا حكيما ـ وكان الله سميعا بصيرا ـ إن الله كان لطيفا خبيرا ـ إن الله كان عليا كبيرا ﴾ إلى غير ذلك ، قال ابن عباس : أى لم يزل كذلك ا هـ . ولا يجوز أن يعتقد أن الله تعالى وصف بصفة لم يكن متصفا بها لأن صفاته سبحانه كلها صفات كمال وفقدانها صفة نقص ، ولا يجوز كونه قد حصل له الكمال بعد أن كان متصفا بضده ، وتقدم فى الأزلية حديث عمران بن حصين رضى الله عنهما فى بدء الخلق « كان الله ولم يكن شىء غيره وكان عرشه على الماء » .

(الصمد) قال عكرمة عن ابن عباس : يعنى الذى يصمد إليه الخلائق فى حوائجهم ومسائلهم . وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس : هو السيد الذى قد كمل فى سؤدده والشريف الذى قد كمل فى شرفه والعظيم الذى قد كمل فى عظمته والحليم الذى قد كمل فى حلمه والعليم الذى قد كمل فى علمه والحكيم الذى قد كمل فى حكمته وهو الذى قد كمل فى أنواع الشرف والسؤدد وهو الله سبحانه ، هذه صفته لا تنبغى إلا له، ليس له كفؤ وليس كمثله شىء سبحان الله الواحد القهار . وعن أبى وائل : « الصمد» الذى قد انتهى سؤدده . ورواه عن ابن مسعود رضى الله عنه . وعن زيد بن أسلم الصمد السيد . وقال الحسن وقتادة : هو الباقى بعد خلقه . وقال الحسن أيضا : الصمد الحى القيوم الذى لا زوال له . وقال عكرمة : الصمد الذى لم يخرج منه شىء ولم يطعم . وقال ابن مسعود وابن عباس وسعيد بن المسيب ومجاهد وعبد الله بن بريدة وعكرمة أيضا وسعيد ابن جبير وعطاء بن أبى رباح وعطية العوفى والضحاك والسدى : الصمد الذى لا جوف له. وقال الشعبى : هو الذى لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب . وقال عبد الله ابن بريدة أيضا : الصمد نور يتلألأ . قال ابن كثير رحمه الله تعالى : روى ذلك كله وحكاه ابن أبى حاتم والبيهقى والطبرانى ، وكذا أبو جعفر بن جرير ساق أكثر ذلك بأسانيده . وقال الطبرانى فى كتاب السنة له بعد إيراده كثيرا من هذه الأقوال فى تفسير الصمد : وكل هذه صحيحة ، وهى صفات ربنا عز وجل ، وهو الذى يصمد إليه فى الحوائج ، وهو الذى قد انتهى سؤدده ، وهو الصمد الذى لا جوف له ولا يأكل ولا يشرب وهو الباقى بعد خلقه . وقال البيهقى نحو ذلك . وقال الترمذى رحمه الله تعالى : حدثنا أحمد بن منيع أخبرنا أبو سعد هو الصنعانى عن أبى جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية عن أبىّ بن كعب أن المشركين قالوا لرسول الله ﷺ : انسب لنا ربك ، فأنزل الله تعالى **﴿ قل هو الله أحد ، الله الصمد ﴾** والصمد الذى لم يلد ولم يولد ، لأنه ليس شىء يولد إلا سيموت وليس شىء يموت إلا سيورث وإن الله تعالى لا يموت ولا يورث . **﴿ ولم يكن له كفوا أحد ﴾** قال : لم يكن له شبيه ولا عدل وليس كمثله شىء ، حدثنا عبد بن حميد أخبرنا

عبيد الله بن موسى عن أبى جعفر الرازى عن الربيع عن أبى العالية أن النبى ﷺ ذكر آلهتهم فقالوا : انسب لنا ربك ، قال فأتاه جبريل عليه السلام بهذه السورة ﴿ **قل هو الله أحد** ﴾ فذكر نحوه ولم يذكر فيه أبى بن كعب ، وهذا أصح من حديث أبى سعيد ا هـ . قلت : وهذه السورة العظيمة التى قال فيها النبى ﷺ « إنها تعدل ثلث القرآن » مشتملة على توحيد الإلهية والربوبية والأسماء والصفات ، جامعة بين الإثبات لصفات الكمال وبين التنزيه له تعالى عن الأشباه والأمثال ، متضمنة الرد على جميع طوائف الكفر من الدهرية والوثنية والملاحدة من المشبهة والمعطلة وأهل الحلول والاتحاد ومن نسب له الصاحبة والولد وغيرهم ، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا . والله أعلم .

(البَرّ) وصفا وفعلا ، قال ابن عباس : اللطيف . وقال الضحاك : الصادق فيما وعد .

(المهيمن) قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدى ومقابل : هو الشهيد على عباده بأعمالهم ، يقال هيمن يهيمن فهو مهيمن إذا كان رقيبا على الشيء كما قال تعالى ﴿**والله على كل شيء شهيد**﴾ وقوله ﴿ **ثم الله شهيد على ما يفعلون** ﴾ وقال ﴿ **أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت** ﴾ وقال الحسن : الأمين ، وقال الخليل هو الرقيب الحافظ ، وقال ابن زيد : المصدق . وقال سعيد بن المسيب والضحاك : القاضى . وقال ابن كيسان : هو اسم من أسماء الله تعالى فى الكتب ، والله أعلم بتأويله . ا هـ .

(العلى) فكل معانى العلو ثابتة له ، (علو قهر) فلا مغالب له ولا منازع ، بل كل شيء تحت سلطان قهره ﴿ **قل إنما أنا منذر ، وما من إله إلا الله الواحد القهار** ﴾ . ﴿ **لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه ، هو الله الواحد القهار** ﴾ وقد جمع الله تعالى بين علو الذات والقهر فى قوله تعالى ﴿ **وهو القاهر فوق عباده** ﴾ أى وهو الذى قهر كل شيء وخضع لجلاله كل شيء ، وذل لعظمته وكبريائه كل شيء ، وعلا بذاته على عرشه فوق كل شيء .

(وعلو الشان) فتعالى عن جميع النقائص والعيوب المنافية لإلهيته وربوبيته وأسمائه الحسنى وصفاته العلى . تعالى فى أحديته عن الشريك والظهير والولى والنصير ، وتعالى فى عظمته وكبريائه وجبروته عن الشفيع عنده بدون إذنه والمجير . وتعالى فى صمديته عن الصاحبة والولد والوالد والكفؤ والنظير . وتعالى فى كمال حياته وقيوميته وقدرته عن الموت والسِّنَة والنوم والتعب والإعياء ، وتعالى فى كمال علمه عن الغفلة والنسيان وعن عزوب مثقال ذرة عن علمه فى الأرض أو فى السماء ، وتعالى فى كمال حكمته وحمده عن الخلق عبثا وعن ترك الخلق سدى بلا أمر ولا نهى ولا بعث ولا جزاء ، وتعالى فى كمال

عدله عن أن يظلم أحدا مثقال ذرة أو أن يهضمه شيئا من حسناته ، وتعالى فى كمال غناه عن أن يُطعَم أو يرزق أو أن يفتقر إلى غيره فى شىء ، وتعالى فى صفات كماله ونعوت جلاله عن التعطيل والتمثيل . قال الله تعالى ﴿ وما من إله إلا الله ﴾ وقال تعالى ﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله ﴾ وقال تعالى ﴿ قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى السموات ﴾ وقال ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون ﴾ وقال تعالى ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض وما لهم فيهما من شرك وماله منهم من ظهير ﴾ وقال تعالى ﴿ ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولى من الذل ﴾ وقال تعالى ﴿ قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ﴾ وقال تعالى ﴿ وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا ﴾ وقال تعالى ﴿ رب السموات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميا ﴾ وقال تعالى ﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ﴾ وقال تعالى ﴿ ما من شفيع إلا من بعد إذنه ﴾ وقال تعالى ﴿ من ذا الذى يشفع عنده إلا باذنه ﴾ وقال تعالى ﴿وهو الذى يجير ولا يجار عليه ﴾ وقال تعالى ﴿ وتوكل على الحى الذى لا يموت ﴾ وقال تعالى ﴿ الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم ﴾ وقال تعالى ﴿ ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام وما مسنا من لغوب ﴾ وقال تعالى ﴿أفعيينا بالخلق الأول بل هم فى لبس من خلق جديد ﴾ وقال تعالى ﴿ أولم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض ولم يعىَ بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى ، بلى إنه على كل شىء قدير ﴾ وقال تعالى ﴿ وما الله بغافل عما تعملون ﴾ وقال تعالى ﴿ وما كنا عن الخلق غافلين ﴾ وقال تعالى ﴿ وما كان ربك نسيًا ﴾ وقال تعالى عن موسى لما قال له فرعون ﴿ فما بال القرون الأولى . قال علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى ﴾ وقال تعالى ﴿ عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ﴾[1] وقال تعالى ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا ﴾ وقال تعالى ﴿ وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين . ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ وقال تعالى ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون ﴾ وقال تعالى ﴿ أيحسب الانسان أن يترك سدى ﴾ وقال تعالى ﴿ ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا ﴾ وقال تعالى ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وان تك حسنة يضاعفها ﴾ وقال تعالى ﴿ وما ربك بظلام للعبيد ﴾ وقال تعالى

(١) الآية : ٣ من سورة سبأ ، وقد ،وردت فى الأصل : « فى الأرض ولا فى السماء » وهو تحريف .

﴿ ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما ﴾ وقال تعالى ﴿ قل أغير الله أتخذ وليا فاطر السموات والأرض وهو يطعم ولا يطعَم ﴾ وقال تعالى ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ، ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ، إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾ وقال تعالى ﴿ يأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد ﴾ وقال تعالى ﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما﴾ وقال تعالى ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ . والآيات فى هذا الباب كثيرة جدا ، وهذان المعنيان من العلوّ لم يخالف فيهما أحد ممن يدعى الاسلام وينتسب إليه وإنما ضل من ضل منهم وأخطأ فى التنزيه الذى هو مقصوده حيث لم يسلك الطريق الموصلة إليه ، وأحسن الظن بنفسه وعقله ومتبوعه ، وأساءه بالكتاب والسنة ، وكثير منهم اغتر بقول كان مقصود قائله الزيغ والفساد والكفران ، فحسب ـ لإحسان الظن به ـ أن مقصوده التحقيق والايمان والعرفان . واتبعوا السبل المضلة فتفرقت بهم عن صراط الرحمن ، فمنهم من نزهه تعالى عن فوقيته على عرشه بائنا من خلقه ووقع فى أعظم من ذلك حيث اعتقد أنه فى كل مكان ، ولم ينزهه حتى عن الأماكن الخسيسة . ومنهم من نزهه عن العلو والفوقية وجعله هو الوجود بأسره ، ومنهم من نزهه عن وجود ذاته ووصفه بالعدم المحض ، ومنهم من نزهه عن أفعاله ومشيئته فرارا من وصفه بالظلم ، ووقع فى تعطيله عن قدرته ونسبته إلى العجز ، وغلا بعضهم فى ذلك حتى أنكر علمه السابق ووصفه بضده ، ومنهم من غلا فى مسألة القدر وإثباته وخاصم به الأمر والنهى فرارا مما وقع فيه الأولون ووقع فى أعظم ذلك تعطيل الشريعة ونسبته تعالى إلى الظلم وإلى تكليف عباده ما لا يطاق تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا ، ففروا من الهدى إلى الضلالة ومن الرشد إلى الغى ومن الاسلام إلى الكفر ومن السنة إلى البدعة ومن النور إلى الظلمات وضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، وهدى الله الذين آمنوا لما اختلف فيه من الحق بإذنه فجعلوا إمامهم وقدوتهم الكتاب والسنة وساروا معهما حيث سارا ووقفوا حيث وقفا . فأثبتوا لله ما أثبته لنفسه وأثبته له رسوله ﷺ من الاسماء الحسنى والصفات العلا ، وآمنوا بالقدر خيره وشره وتلقوه بالرضا والتسليم ، وانقادوا للشريعة فقابلوا أوامرها ونواهيها بالامتثال والتعظيم ، فما أثبت لنفسه أثبتوه ، وما نفاه عن نفسه نفوه ، فإذا سمعوا آيات الصفات وأحاديثها قالوا آمنا به كل من عند ربنا ، وإن أحسنوا قالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ، وإن أساءوا قالوا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ، وإذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون .

(كذا ثابت) (له العلوّ والفوقية) بالكتاب والسنة وإجماع الملائكة والأنبياء

والمرسلين وأتباعهم على الحقيقة من أهل السنة والجماعة (على عباده) فوقهم مستويا على عرشه عاليا على خلقه بائنا منهم ، يعلم أعمالهم ويسمع أقوالهم ويرى حركاتهم وسكناتهم لا تخفى عليه منهم خافية ، والأدلة فى ذلك من الكتاب والسنة أكثر من أن تحصى وأجل مَن أن تستقصى ، والفطر السليمة ، والقلوب المستقيمة مجبولة على الاقرار بذلك لا تنكره . ولنشر إلى بعض ذلك إشارة تدل على ما وراءها وبالله التوفيق .

فمن ذلك أسماؤه الحسنى الدالة على ثبوت جميع معانى العلوّ له تبارك وتعالى كاسمه الأعلى واسمه العلى واسمه المتعالى واسمه الظاهر واسمه القاهر وغيرها . قال تعالى ﴿**سبح اسم ربك الأعلى**﴾ ولما نزلت قال النبى ﷺ اجعلوها فى سجودكم ، وقال تعالى ﴿ **وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلى العظيم** ﴾ وقال تعالى ﴿**إن الله كان عليا كبيرا** ﴾ وقال تعالى ﴿ **ذلك بأن الله هو الحق وان ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلى الكبير** ﴾[1] وقال تعالى ﴿ **حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلى الكبير** ﴾ وقال تعالى ﴿ **إنه على حكيم** ﴾ وقال تعالى ﴿**عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال** ﴾ وقال تعالى ﴿ **هو الأول والآخر والظاهر والباطن**﴾ وقال النبى ﷺ فى دعائه « وأنت الظاهر فليس فوقك شيء » وقال تعالى ﴿ **وهو القاهر فوق عبده** ﴾ وهذه الأسماء تدل على ثبوت جميع معانى العلو له تبارك وتعالى ذاتا وقهرا وشأنا ومن ذلك التصريح بالاستواء على عرشه كما قال تعالى فى سورة الأعراف ﴿**إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش** ﴾ وقال تعالى فى سورة يونس ﴿ **إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر** ﴾ وقال تعالى فى سورة الرعد ﴿ **الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش** ﴾ وقال تعالى فى سورة طه ﴿ **الرحمن على العرش استوى** ﴾ وقال تعالى فى سورة الفرقان ﴿ **الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمن** ﴾ وقال تعالى فى سورة الم تنزيل السجدة ﴿**الله الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من ولى ولا شفيع أفلا تتذكرون . يدبر الأمر من السماء إلى الأرض** ﴾ الآية وقال تعالى فى سورة الحديد ﴿ **هو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير** ﴾

(١) الآية : ٣٠ من سورة لقمان ، وقد وردت فى الأصل : « وإنما يدعون وهو تحريف » .

وفى حديث أنس فى فضل الجمعة وتسميته فى الآخرة يوم المزيد الحديث بطوله وفى آخره قال « وهو اليوم الذى استوى فيه ربك على العرش » وقد رواه الشافعى فى مسنده وعبد الله بن أحمد فى كتاب السنة وابن خزيمة وغيرهم ، وقد جمع أبو بكر بن أبى داود طرقه فى جزء وسيأتى إن شاء الله تعالى بطوله وألفاظه فى إثبات رؤية المؤمنين ربهم تبارك وتعالى . وعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إذا جمع تعالى الخلائق حاسبهم فيميز بين أهل الجنة وأهل النار وهو تعالى فى جنته على عرشه » قال محمد بن عثمان الحافظ هذا حديث صحيح . وعن قتادة بن النعمان رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « لما فرغ الله من خلقه استوى على عرشه » رواه الخلال فى كتاب السنة باسناد صحيح على شرط البخارى . وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن اليهود أتوا النبى ﷺ فسألوه عن خلق السموات والأرض ، فذكر حديثا طويلا ، قالوا : ثم ماذا يا محمد ؟ قال « ثم استوى على العرش » . قالوا أصبت يا محمد ، لو أتممت : ثم استراح ، فغضب غضبا شديدا ، فأنزل الله تعالى ﴿ **ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام وما مسنا من لغوب** ﴾ رواه ابن منده والحاكم وصححه ، وفى إسناده البقال ضعفه ابن معين . وعن أبى رزين العقيلى قال : قلت يا رسول الله أين كان ربنا قبل أن يخلق السموات والأرض : قال « كان فى عماء ما فوقه هواء وما تحته هواء ، ثم خلق العرش فاستوى عليه » رواه أبو داود وابن ماجه ، وقال الذهبى إسناده حسن[1]، ورواه الترمذى وحسنه لكن لفظه « وخلق عرشه على الماء » قال يزيد بن هارون : العماء ، أى ليس معه شىء . وعن ابن عباس رضى الله عنهما وعن مرة عن ناس من أصحاب النبى ﷺ فى قوله تعالى ﴿ **ثم استوى إلى السماء** ﴾ قال إن الله تعالى كان عرشه على الماء ولم يخلق شيئا قبل الماء فلما أراد أن يخلق الخلق أخرج من الماء دخانا فارتفع فوق الماء فسما عليه فسماه سماء ثم أيبس الماء فجعله أرضا ثم فتقها فجعلها سبع أرضين . الحديث . إلى أن قال : فلما فرغ الله عز وجل من خلق ما أحب استوى على العرش . رواه السدى وابن جرير الطبرى فى تفسيره والبيهقى فى الأسماء والصفات . وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ أخذ بيده فقال « يا أبا هريرة ، إن الله تعالى خلق السموات والأرضين وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش يوم السابع » الحديث بطوله رواه النسائى فى تفسير سورة السجدة من سننه الكبرى . وفيه أخضر بن عجلان قال الذهبى وثقه ابن معين ، وقال أبو حاتم يكتب حديثه ، ولينه الأزدى ، وحديثه فى السنن الأربعة وهذا الحديث غريب من أفراده .

---

(١) كذا فى كتاب العلوّ ولم أر هذا اللفظ فى كتب السنن

ومن ذلك التصريح بالفوقية لله تعالى الله عز وجل ﴿ **وهو القاهر فوق عباده** ﴾ وقال ﴿**يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون** ﴾ ولما حكم سعد بن معاذ رضى الله عنه في بني قريظة بأن تقتل مقاتلتهم وتسبى ذريتهم وتغنم أموالهم قال له النبي ﷺ « لقد حكمت فيهم بحكم الملك من فوق سبعة أرقعة » وفي لفظ « من فوق سبع سموات »(١) وأصله في الصحيحين وهذا سياق ابن إسحاق . وفي صحيح البخارى عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : كانت زينب رضى الله عنها تفتخر على أزواج النبي ﷺ وتقول : زوجكن أهاليكن وزوجني الله من فوق سبع سموات(٢) . وفي سنن أبي داود من حديث جبير ابن مطعم رضى الله عنه قال : جاء أعرابى إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله جهدت الأنفس وضاعت العيال ونهكت الأموال وهلكت الأنعام فاستسق الله لنا فانا نستشفع بك على الله ونستشفع بالله عليك . قال رسول الله ﷺ « ويحك أتدرى ما تقول » وسبح رسول الله فما زال يسبح حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه . ثم قال « ويحك ، إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه ، شأن الله أعظم من ذلك . ويحك أتدرى ما الله ، إنّ عرشه على سمواته لهكذا » وقال بأصبعه مثل القبة عليه « وإنه ليئط به أطيط الرحل بالراكب » قال ابن بشار في حديثه « إن الله فوق عرشه وعرشه فوق سمواته » وساق الحديث . وله عن العباس بن المطلب رضى الله عنه قال : كنت في البطحاء في عصابة فيهم رسول الله ﷺ فمرت بهم سحابة فنظر إليها فقال « ما تسمون هذه » قالوا : السحاب . قال « والمزن » قالوا : والمزن . قال « والعنان » قالوا : والعنان . قال أبو داود : ولم أتقن العنان جيدا ، قال « هل تدرون ما بعد ما بين السماء والأرض ؟ » قالوا : لا ندرى ، قال « إن بعد ما بينهما إما واحدة أو اثنتان أو ثلاث وسبعون سنة ، ثم السماء فوقها كذلك ـ حتى عد سبع سموات ـ ثم فوق السماء السابعة بحر بين أسفله وأعلاه مثل ما بين سماء إلى سماء ، ثم فوق ذلك ثمانية أوعال بين أظلافهم وركبهم مثل ما بين سماء إلى سماء ، ثم على ظهورهم العرش بين أسفله وأعلاه مثل ما بين سماء إلى سماء ، ثم الله تبارك وتعالى فوق ذلك » زاد أحمد « وليس يخفى عليه شيء من أعمال بنى آدم » . وفي سنن ابن ماجه من حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « بينا أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع لهم نور ، فرفعوا رءوسهم فاذا الرب قد أشرف عليهم من فوقهم فقال: السلام عليكم يا أهل الجنة . قال : وذلك قول الله عز وجل ﴿ **سلام قولا من رب**

(١) انظر هذا الموضوع في سيرة ابن هشام ، من تحقيقنا وانظر فتح البارى شرح صحيح البخارى ، من تحقيقنا ح ٣٨٩٥ ، ٣٨٩٦ .

(٢) انظر فتح البارى شرح صحيح البخارى ، من تحقيقنا ح ٤٥٠٩ .

رحيم ﴾ قال فينظر إليهم وينظرون إليه فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه حتى يحتجب عنهم ويبقى نوره وبركته عليهم في ديارهم » وفي إسناده الرقاشي ضعيف ، ومعناه ثابت في الكتاب والسنة . وفي حديث الشفاعة الطويل عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال « فأدخل على ربي تبارك وتعالى وهو على عرشه » وذكر الحديث ، وفي بعض ألفاظ البخاري في صحيحه[1] « فأستأذن على ربي في داره فيؤذن لي عليه » قال عبد الحق في الجمع بين الصحيحين : هكذا قال « في داره » في المواضع الثلاثة يريد مواضع الشفاعات الثلاث التي يسجد فيها ثم يرفع رأسه . وعن عمر بن عبد الملك قال : خطبنا علي رضي الله عنه فقال : إن رسول الله ﷺ حدثني عن ربه عز وجل فقال « وعزتي وجلالي وارتفاعي فوق عرشي ما من أهل قرية ولا بيت ولا رجل وبادية كانوا على ما كرهت من معصيتي فتحولوا عنها إلى ما أحببت من طاعتي إلا تحولت لهم عما يكرهون من عذابي إلى ما يحبون من رحمتي » رواه ابن أبي شيبة في كتاب العرش والعسال في المعرفة وضعفه الذهبي . وعن جابر بن سليم قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « إن رجلا ممن كان قبلكم لبس بردين فتبختر ، فنظر الله إليه من فوق عرشه فمقته، فأمر الأرض فأخذته فهو يتجلجل فيها » رواه الدارمي ، وله شاهد في البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه . وفي حديث عمران بن حصين في بدء الخلق : « كان الله عز وجل على العرش وكان قبل كل شيء ، وكتب في اللوح المحفوظ كل شيء يكون » حديث صحيح أصله في البخاري[2] . وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال «إن العبد ليهم بالأمر من التجارة أو الإمارة حتى ييسر له نظر الله له من فوق سبع سموات فيقول للملائكة اصرفوه عنه فان يسرته له أدخلته النار » رواه البغوي وسكت الذهبي عنه . وعنه رضي الله عنه قال « العرش فوق الماء والله فوق العرش لا يخفى عليه شيء من أعمالكم » قال الذهبي رواه عبد الله بن أحمد في السنة وأبو بكر بن المنذر وأبو أحمد العسال وأبو القاسم الطبراني وأبو الشيخ وأبو القاسم اللالكائي وأبو عمرو والطلمنكي وأبو بكر البيهقي وأبو عمر بن عبد البر في تواليفهم ، وإسناده صحيح . وأخرج ابن أبي شيبة أن حسان بن ثابت رضي الله عنه أنشد النبي ﷺ :

شهدت بإذن الله أن محمدا ... رسول الذي فوق السموات من علُ

وأن أخا الأحقاف إذ قام فيهمو ... يقول بذات الله فيهم ويعدل

وأن أبا يحيى كلاهما ... له عمل من ربه متقبل

(١) انظر حديث الشفاعة بطولة في فتح الباري شرح صحيح البخاري من تحقيقنا ح ٧٠٠٢ ، ٧٠٧٢ .

(٢) انظر كتاب بدء الخلق ، فتح الباري شرح صحيح البخاري من تحقيقنا ج ٣٠١٩ .

ومن ذلك التصريح بأنه تعالى فى السماء قال الله تعالى ﴿ **أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هى تمور . أم أمنتم من فى السماء أن يرسل عليكم حاصبا فستعلمون كيف نذير** ﴾ وفى الصحيحين عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : بعث على بن أبى طالب رضى الله عنه إلى رسول الله ﷺ من اليمن بذهيبة فى أديم مقروض لم تحصل من ترابها قال فقسمها بين أربعة نفر : بين عيينة بن بدر ، وأقرع بن حابس ، وزيد الخيل ، والرابع إما علقمة وإما عامر بن الطفيل ، فقال رجل من أصحابه : كنا نحن أحق بهذا من هؤلاء ، قال فبلغ ذلك النبى ﷺ فقال « ألا تأمنونى وأنا أمين من فى السماء ، يأتينى خبر السماء صباحا ومساء » قال فقام رجل غائر العينين مشرف الوجنتين ناشز الجبهة كث اللحية محلوق الرأس مشمر الإزار فقال : يا رسول الله اتق الله . فقال ﷺ « ويلك ، أولست أحق أهل الأرض أن يتقى الله ؟ قال فلما ولى الرجل قال خالد بن الوليد : يا رسول الله ألا أضرب عنقه ؟ قال « لا ، لعله أن يكون يصلى » فقال خالد : وكم من مصل يقول بلسانه ما ليس فى قلبه . قال رسول الله ﷺ « إنى لم أومر أن أنقب قلوب الناس ولا أشق بطونهم » قال ثم نظر إليه وهو مقف فقال « إنه يخرج من ضئضىء هذا قوم يتلون كتاب الله رطبا لا يجاوز حناجرهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية » وأظنه قال « لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل ثمود »[1] . وعن معاوية بن الحكم فى حديث طويل قال : وكانت لى جارية ترعى غنما قبل أحد والجوانية ، فاطلعت ذات يوم فاذا الذئب قد ذهب بشاة من غنمها ، وأنا رجل من بنى آدم آسف كما يأسفون، لكنى صككتها صكة ، فأتيت رسول الله ﷺ فعظم ذلك على ، قلت : يا رسول الله أفلا أعتقها ؟ قال « ائتنى بها » فأتيته بها فقال لها « أين الله » قالت : فى السماء . قال« من أنا » قالت : أنت رسول الله ﷺ . قال « أعتقها فانها مؤمنة » أخرجه مسلم[2] وأبو داود والنسائى وغير واحد من الأئمة فى تصانيفهم . وعن أبى الدرداء رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « من اشتكى منكم أو اشتكاه أخ له فليقل : ربنا الله الذى فى السماء ، تقدس اسمك ، أمرك فى السماء والأرض ، كما رحمتك فى السماء فاجعل رحمتك فى الأرض ، اغفر لنا حوبنا وخطايانا أنت رب الطيبين ، أنزل رحمة من رحمتك وشفاء من شفائك على هذا الوجع . فيبرأ » رواه أبو داود . وعن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء . الرحم شجنة من الرحمن ، فمن وصلها وصله

---

(١) انظر فتح البارى شرح صحيح البخارى من تحقيقنا ح ٦٩٩٥ .

(٢) انظر ح ٥٣٧ من صحيح مسلم بشرح النووى ط دار الغد العربى .

الله ، ومن قطعها قطعه الله » رواه الترمذى وقال : هذا حديث حسن صحيح . وله عن عمران بن حصين رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ لأبى « يا حصين كم تعبد اليوم إلها » قال أبى : سبعة ، ستة فى الأرض وواحد فى السماء . قال ﷺ « فأيهم تعد لرغبتك ورهبتك » قال الذى فى السماء . قال « يا حصين أما إنك لو أسلمت علمتك كلمتين تنفعانك » قال فلما أسلم حصين قال : يا رسول الله علمنى الكلمتين اللتين وعدتنى . فقال ﷺ « قل اللهم ألهمنى رشدى ، وأعذنى من شر نفسى » قال الترمذى هذا حديث حسن غريب ، وقد روى هذا الحديث عن عمران بن حصين من غير هذا الوجه . وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « والذى نفسى بيده ما من رجل يدعو امرأته إلى فراشه فتأبى عليه إلا كان الذى فى السماء ساخطا عليها حتى يرضى عنها » رواه مسلم(١) فى صحيحه .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : كنا جلوسا ذات يوم بفناء رسول الله ﷺ إذ مرت امرأة من بناته ، فقال أبو سفيان : ما مثل محمد فى بنى هاشم إلا كمثل الريحانة فى وسط الزبل . فسمعت فأبلغته رسول الله ﷺ فخرج فصعد على منبره وقال « ما بال أقوام تبلغنى عن أقوام ، إن الله خلق سموات سبعا فاختار العليا فسكنها ، وأسكن سمواته من شاء من خلقه ، ثم اختار خلقه فاختار بنى آدم فاختار العرب فاختار مضر فاختار قريشا فاختار بنى هاشم فاختارنى ، فلم أزل خيارا من خيار ، فمن أحب قريشا فبحبى أحبهم ومن أبغض العرب فببغضى أبغضهم » . قال الذهبى هو حديث منكر رواه جماعة فى كتب السنة وأخرجه ابن خزيمة فى كتاب التوحيد . وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « الميت تحضره الملائكة ، فاذا كان الرجل الصالح قالوا اخرجى أيتها النفس المطمئنة كانت فى الجسد الطيب ، اخرجى حميدة وأبشرى بروح وريحان ورب غير غضبان . فيقولون ذلك حتى يعرج بها إلى السماء التى فيها الله عز وجل » وذكر باقى الحديث رواه أحمد والنسائى وابن ماجه وابن جرير واللفظ له ، وفى الباب أحاديث تأتى إن شاء الله تعالى فى ذكر الموت وفتنة القبر . وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال « لما أسرى بى مررت برائحة طيبة ، فقلت يا جبريل ما هذه الرائحة الطيبة ؟ قال : هذه رائحة ماشطة ابنة فرعون وأولادها كانت تمشطها فوقع المشط من يدها ، فقالت باسم الله تعالى ، فقالت ابنته : أبى ؟ قالت لا ، ولكن ربى ورب أبيك الله . فقالت أخبر بذلك أبى ؟ قالت نعم : فأخبرته فدعا بها فقال : من ربك ، هل لك رب غيرى ؟ قالت ربى وربك الله الذى فى السماء . فأمر ببقرة من نحاس فأحميت ثم دعاب ها وبولدها فألقاهما

---

(١) انظر ح ١٤٣٦ من صحيح مسلم بشرح النووى ط دار الغد العربى .

فيها » وساق الحديث بطوله ، رواه الدارمي وأبو يعلى الموصلي وقال الذهبي : هذا حديث حسن الاسناد . وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « لما ألقي إبراهيم عليه السلام في النار قال : اللهم إنك واحد في السماء وأنا واحد في الأرض أعبدك » رواه الدارمي في النقض وقال الذهبي حسن الاسناد . وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ « إذا أحب الله العبد نادى جبريل إن الله يحب فلانا فأحبه فيحبه جبريل فينادي جبرائيل في أهل السماء إن الله يحب فلانا فأحبوه فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض » رواه البخاري[1] . وعن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إذا أراد الله أن يوحي بالأمر تكلم بالوحي أخذت السموات منه رجفة أو قال رعدة شديدة خوفا من الله عز وجل ، فاذا سمع ذلك أهل السموات صعقوا وخروا لله سجدا فيكون أول من يرفع رأسه جبريل عليه السلام فيكلمه الله تعالى من وحيه بما أراد ، ثم يمر جبريل على الملائكة كلما مر بسماء سأله ملائكتها : ماذا قال ربنا ياجبريل ؟ فيقول : قال الحق وهو العلي الكبير ، فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل ، فينتهي جبريل بالوحي إلى حيث أمره الله عز وجل » رواه ابن جرير وابن خزيمة والطبراني وابن أبي حاتم واللفظ له .

ومن ذلك التصريح باختصاص بعض الأشياء بأنها عنده ، قال الله تبارك وتعالى ﴿ **إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون** ﴾ وقال تبارك وتعالى ﴿ **وله من في السموات والأرض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون** ﴾ وقال تبارك وتعالى ﴿ **فان استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون** ﴾ وقال تبارك وتعالى ﴿ **ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون** ﴾ وقال تبارك وتعالى ﴿ **وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأت فرعون إذ قالت رب ابن لي عندك بيتا في الجنة ونجني من فرعون وعمله** ﴾ الآية . وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال « إن الله لما قضى الخلق كتب عنده فوق عرشه إن رحمتي سبقت غضبي »[2] . ولمسلم عنه في حديث طويل « وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله في من عنده » . وفيهما عنه رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ « يقول الله تعالى : أنا عند ظن عبدي بي فأنا معه إذا ذكرني فان ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم وإن تقرب إلى شبرا تقربت

---

(١) انظر فتح الباري شرح صحيح البخاري من تحقيقنا في كتاب التوحيد .

(٢) انظر ح ٣٠٢٢ فتح الباري شرح صحيح البخاري ، وح ٢٧٥١ صحيح مسلم شرح النووي .

إليه ذراعا وإن تقرب إلى ذراعا تقربت إليه باعا وإن أتانى يمشى أتيته هرولة » وفى صحيح مسلم عن جابر بن سمرة رضى الله عنه قال : خرج علينا رسول الله ﷺ ... ، وذكر الحديث إلى أن قال : ثم خرج علينا فقال « ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها » فقلنا : يا رسول الله وكيف تصف الملائكة عند ربها ؟ قال « يتمون الصفوف الأول ويتراصون فى الصف » . ولهما عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ «احتج آدم وموسى عند ربهما عز وجل ، فحج آدم موسى » وذكر الحديث ، وسيأتى إن شاء الله بتمامه .

ومن ذلك الرفع والصعود والعروج إليه وهو أنواع : منها رفعه عيسى عليه السلام ، قال الله تعالى ﴿ **وما قتلوه يقينا . بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا حكيما** ﴾ وقال تبارك وتعالى ﴿ **يا عيسى إنى متوفيك ورافعك إلى ومطهرك من الذين كفروا** ﴾ وسيأتى إن شاء الله تعالى ذكر الاحاديث الواردة فى نزوله إلى الأرض حكما عدلا فى آخر هذه الأمة بشريعة نبيهم محمد ﷺ فى أشراط الساعة . ومنها صعود الأعمال إليه كما قال تعالى ﴿ **إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه** ﴾ وفى صحيح البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ « من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ـ ولا يصعد إلى الله إلا الطيب ـ فان الله تعالى يتقبلها بيمينه ، ثم يربيها لصاحبها كما يربى أحدكم فلوه حتى تكون مثل الجبل » ورواه مسلم أيضا والنسائى والترمذى وابن ماجه وابن خزيمة فى صحيحه . وعن النعمان بن بشير رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « الذين يذكرون من جلال الله عز وجل من تسبيحه وتكبيره وتحميده وتهليله يتعاطفن حول العرش لهن دوىّ كدوى النحل يذكرن بصاحبهن . ألا يحب أحدكم أن لا يزال له عند الله شىء يذكر به » رواه أحمد وابن ماجه . وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « اتقوا دعوة المظلوم فانها تصعد إلى الله عز وجل كأنها شرارة » قال الذهبى غريب وإسناده جيد . وفى الصحيحين من حديث معاذ بن جبل رضى الله عنه مرفوعا « واتق دعوة المظلوم فانه ليس بينها وبين الله حجاب » . وعن أبى موسى الاشعرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إن الله لا ينام ولا ينبغى له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار وعمل النهار قبل الليل ، حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه » وفى ذلك أحاديث لا تحصى فى الصحيحين وغيرهما .

ومنها صعود الأرواح إلى الله عز وجل أعنى أرواح المؤمنين ، قال الله تبارك وتعالى ﴿ **إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى**

يلج الجمل في سم الخياط ﴾ . وروى الامام أحمد من حديث البراء بن عازب الطويل في قبض الروح ـ وفيه قال « إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس معهم كفن من أكفان الجنة وحنوط من حنوط الجنة حتى يجلسوا منه مد البصر ، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول : أيتها النفس الطيبة اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان ، قال فتخرج فتسيل كما تسيل القطرة من في السقاء فيأخذها ، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الحنوط ويخرج منها كأطيب نفحة مسك على وجه الأرض ، قال فيصعدون بها فلا يمرون على ملأ من الملائكة إلا قالوا ما هذه الروح الطيبة ، فيقولون فلان ابن فلان بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه في الدنيا حتى ينتهوا إلى سماء الدنيا فيستفتحون له فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها حتى ينتهوا إلى السماء السابعة فيقول الله تعالى : اكتبوا كتاب عبدي في عليين وأعيدوه إلى الأرض ، فاني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى » وذكر الحديث ، وسيأتي إن شاء الله بطوله . وقد تقدم حديث أبي هريرة في ذلك وفيه أحاديث جمة سنذكر منها ما يسره الله تعالى في بابه إن شاء الله .

ومنها عروج الملائكة والروح إليه قال الله تبارك وتعالى ﴿ **من الله ذي المعارج. تعرج الملائكة والروح إليه** ﴾ وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون في صلاة العصر وصلاة الفجر ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم بهم فيقول : كيف تركتم عبادي ، فيقولون تركناهم وهم يصلون وأتيناهم وهم يصلون » . وعنه رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال « إن لله تبارك وتعالى ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر فاذا وجدوا قوما يذكرون الله تعالى تنادوا هلموا إلى حاجتكم . قال فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا، قال فيسألهم ربهم عز وجل وهو أعلم منهم : ما يقول عبادي . قال يقولون : يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك ، قال فيقول تعالى : هل رأوني ؟ قال فيقولون لا والله ما رأوك . قال فيقول وكيف لو رأوني ، قال يقولون لو رأوك كانوا لك أشد عبادة وأشد لك تمجيدا وأكثر لك تسبيحا ، قال يقول فما يسألوني ؟ قال يسألونك الجنة ، قال يقول : وهل رأوها ؟ قال يقولون لا والله يارب ما رأوها ، قال يقول : فكيف لو أنهم رأوها ، قال يقولون لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصا وأشد لها طلبا وأعظم فيها رغبة ، قال فهم يتعوذون ؟ قال يقولون : من النار ، قال يقول : وهل رأوها ، قال يقولون : لا والله ما رأوها، قال يقول : فكيف لو رأوها ، قال يقولون : لو رأوها كانوا أشد منها فرارا وأشد لها

مخافة ، قال فيقول : فأشهدكم أنى قد غفرت لهم . قال يقول ملك من الملائكة : فيهم فلان ليس منهم ، إنما جاء لحاجة ، قال : هم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم » متفق عليه ، وهذا لفظ البخارى . وعنه رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « كان ملك الموت يأتى الناس عيانا ، فأتى موسى عليه الصلاة والسلام فلطمه فذهب بعينه ، فعرج إلى ربه عز وجل فقال : يارب بعثتنى الى موسى فلطمنى فذهب بعينى ، ولولا كرامته عليك لشققت عليه . قال ارجع إلى عبدى فقل له فليضع يده على ثور فله بكل شعرة وارت كفه سنة يعيشها ، فأتاه فبلغه ما أمره فقال ثم ماذا بعد ذلك ، قال الموت ، قال الآن ، فشمه شمة قبض فيها روحه ، ورد الله على ملك الموت بصره» وفى لفظ « فلطم عينه ففقأها فرجع فقال أرسلتنى إلى عبد لا يريد الموت ، فرد الله عليه عينه وقال ارجع إلى عبدى فقل له إن كنت تريد الحياة فضع يدك على متن ثور... » . وفيه « قال يارب فالآن، وقال رب أدننى من الأرض المقدسة رمية بحجر ، قال رسول الله ﷺ : لو كنت ثم لأريتكم قبره إلى جانب الطريق عند الكثيب الأحمر » متفق عليه .

ومن ذلك معراج نبينا محمد ﷺ إلى سدرة المنتهى وإلى حيث شاء الله عز وجل كما ثبتت به الأحاديث الصحيحة المشهورة فى الصحيحين وغيرهما ، قال البخارى رحمه الله تعالى : باب المعراج . حدثنا هدبة بن خالد حدثنا همام بن يحيى حدثنا قتادة عن أنس ابن مالك رضى الله عنه عن مالك بن صعصعة رضى الله عنه أن نبى الله ﷺ حدثهم عن ليلة أسرى به قال : بينما أنا نائم فى الحطيم ـ وربما قال فى الحجر مضطجعا ـ إذ أتانى آت فقد قال وسمعته يقول فشق ما بين هذه إلى هذه . فقلت للجارود وهو إلى جنبى قال من ثغرة نحره إلى شعرته وسمعته يقول من قصه إلى شعرته فاستخرج قلبى ثم أتيت بطست من ذهب مملوءة إيمانا فغسل قلبى ثم حشى ثم أعيد . ثم أتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار أبيض فقال له الجارود هو البراق يا أبا حمزة فقال أنس نعم يضع خطوه عند أقصى طرفه . فحملت عليه فانطلق بى جبريل حتى أتى السماء الدنيا فاستفتح فقيل من هذا قال جبريل قيل ومن معك قال محمد وقد أرسل إليه ، قال نعم قيل مرحبا به فنعم المجىء جاء . ففتح فلما خلصت فإذا فيها آدم فقال هذا أبوك آدم فسلم عليه فسلمت عليه فرد السلام ثم قال مرحبا بالابن الصالح والنبى الصالح . ثم صعد حتى أتى السماء الثانية فاستفتح ، قيل من هذا ، قال جبريل ، قيل ومن معك ، قال محمد ﷺ ، قيل وقد أرسل إليه ، قال نعم ، قيل مرحبا به فنعم المجىء . ففتح فلما خلصت إذا بيحيى وعيسى وهما ابنا الخالة ، قال هذا يحيى وعيسى فسلم عليهما ، فسلمت فردا ثم قالا مرحبا بالأخ الصالح والنبى الصالح . ثم صعدت إلى السماء الثالثة فاستفتح ، قيل من هذا ، قال جبريل ، قيل ومن معك ،

قال محمد ﷺ ، قيل وقد أرسل إليه ، قال نعم ، قيل مرحبا به فنعم المجيء جاء . ففتح فلما خلصت إذا يوسف ، قال هذا يوسف فسلم عليه ، فسلمت عليه فرد ، ثم قال مرحبا بالأخ الصالح والنبي الصالح . ثم صعد بي حتى أتى السماء الرابعة فاستفتح ، قيل من هذا ، قال جبريل ، قيل ومن معك ، قال محمد ﷺ ، قيل وقد أرسل إليه ، قال نعم، قيل مرحبا به فنعم المجيء جاء ففتح فلما خلصت إذا إدريس ، قال هذا إدريس فسلم عليه، فسلمت عليه فرد ، ثم قال مرحبا بالأخ الصالح والنبي الصالح . ثم صعد بي حتى أتى السماء الخامسة فاستفتح ، قيل من هذا ، قال جبريل ، قيل ومن معك ، قال محمد ﷺ، قيل وقد أرسل إليه ، قال نعم ، قيل مرحبا به فنعم المجيء جاء . فلما خلصت فاذا هارون، فقال هذا هارون فسلم عليه ، فسلمت عليه فرد ، ثم قال مرحبا بالأخ الصالح والنبي الصالح . ثم صعد بي حتى أتى السماء السادسة فاستفتح قيل من هذا قال جبريل ، قيل ومن معك ، قال محمد ﷺ ، قيل وقد أرسل إليه ، قال نعم ، قيل مرحبا به فنعم المجيء جاء . فلما خلصت فاذا موسى ، قال هذا موسى فسلم عليه ، فسلمت عليه فرد ثم قال مرحبا بالأخ الصالح والنبي الصالح . فلما تجاوزت بكى ، قيل له ما يبكيك ، قال أبكي لأن غلاما بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتي . ثم صعد بي إلى السماء السابعة فاستفتح جبريل ، قيل من هذا ، قال جبريل ، قيل ومن معك ، قال محمد قيل وقد أرسل إليه ، قال نعم ، قال مرحبا به فنعم المجيء جاء . فلما خلصت فإذا إبراهيم ، قال هذا أبوك فسلم عليه ، قال فسلمت عليه فرد السلام . قال مرحبا بالابن الصالح والنبي الصالح ، ثم رفعت إلى سدرة المنتهى فاذا نبقها مثل قلال هجر ، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة ، قال هذه سدرة المنتهى ، وإذا أربعة أنهار نهران ظاهران ونهران باطنان ، فقلت ما هذان يا جبريل ، قال أما الباطنان فنهران في الجنة، وأما الظاهران فالنيل والفرات، ثم رفع لي البيت المعمور ، ثم أتيت باناء من خمر وإناء من لبن وإناء من عسل ، فأخذت اللبن فقال هي الفطرة أنت عليها وأمتك . ثم فرضت على الصلوات خمسين صلاة كل يوم ، فرجعت فمررت على موسى فقال بما أمرت ، قال أمرت بخمسين صلاة كل يوم ، قال إن أمتك لا تستطيع خمسين صلاة كل يوم ، وإني والله قد جربت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة ، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك ، فرجعت فوضع عني عشرا فرجعت إلى موسى فقال مثله ، فرجعت فوضع عني عشرا ، فرجعت إلى موسى فقال مثله ، فرجعت فوضع عني عشرا ، فرجعت إلى موسى فقال مثله ، فرجعت فأمرت بعشر صلوات كل يوم ، فرجعت فقال مثله ، فرجعت فأمرت بخمس صلوات كل يوم ، فرجعت إلى موسى فقال بما أمرت ، قلت أمرت بخمس صلوات كل

يوم قال ان أمتك لا تستطيع خمس صلوات كل يوم وإنى قد جربت الناس قبلك وعالجت بنى إسرائيل أشد المعالجة فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك . قال سألت ربى حتى استحييت ولكنى أرضى وأسلم ، قال فلما جاوزت نادانى مناد أمضيت فريضتى وخففت عن عبادى .

ومن ذلك التصريح بنزوله تبارك وتعالى كما فى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول: من يدعونى فأستجب له ، من يسألنى فأعطيه ، من يستغفرنى فأغفر له » وقد ثبت فى ذلك أحاديث كثيرة عن نحو ثلاثين صحابيا ، وقد ثبت أيضا نزوله تبارك وتعالى ليلة النصف من شعبان ، وعشية عرفة ، وعند فناء الخلق « حين ينزل إلى السماء لدنيا فينادى: لمن الملك اليوم ... لله الواحد القهار » وكذا نزوله تعالى لفصل القضاء بين عباده كما يشاء وعلى ما يليق بجلاله وعظمته ، وسيأتى إن شاء الله تعالى بسط ذلك كله فى آخر هذا الفصل من المتن .

ومن ذلك تنزل الملائكة ، ونزول الأمر من عنده ، وتنزيل الكتاب منه تبارك وتعالى ، قال الله عز وجل ﴿ **ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده** ﴾ وقال حكاية عنهم ﴿ **وما نتنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك** ﴾ وقال تعالى ﴿ **يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه** ﴾ الآية ، وقال تعالى ﴿ **الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن** ﴾ وقال تعالى ﴿ **يا أيها الذين آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل ، ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا** ﴾ وقال تعالى ﴿**نزل عليك الكتاب بالحق** ﴾ ، ﴿ **كتاب أنزلناه إليك** ﴾ ، ﴿ **وهذا ذكر مبارك أنزلناه** ﴾ ، ﴿**تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين** ﴾ ، ﴿ **تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم**﴾، ﴿ **إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصا له الدين** ﴾[1] ، ﴿ **تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم** ﴾ ، ﴿ **تنزيل من الرحمن الرحيم** ﴾ ، ﴿ **تنزيل من حكيم حميد** ﴾ ، ﴿**وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا** ﴾ ، ﴿ **وإنه لتنزيل رب العالمين، نزل به الروح الأمين ، على قلبك لتكون من المنذرين** ﴾ وغير ذلك من الآيات . وفى الصحيح عن ابن عباس رضى الله عنهما « بلغ أبا ذر مبعث النبى ﷺ فقال لأخيه : اعلم لى علم هذا الرجل الذى يزعم أنه يأتيه الخبر من السماء »[2] . وقد تقدم فى حديث

---

(١) الآية : ٢ من سورة الزمر ، وقد وردت فى الأصل : « إنا أنزلنا عليك ...» والصواب هو المثبت .

(٢) انظر ح ٣٣٢٨ ، ٣٦٤٨ من فتح البارى شرح صحيح البخارى ، من تحقيقنا .

الذهبية قوله ﷺ « يأتيني خبر السماء صباحا ومساء » . وفي الصحيح قال المغيرة رضي الله عنه «أخبرنا نبينا محمد ﷺ عن رسالة ربنا تبارك وتعالى أنه من قتل منا صار إلى الجنة » . وفيه : قالت عائشة رضي الله عنها من حدثك أن النبي ﷺ كتم شيئا من الوحي فلا تصدقه ، إن الله تعالى يقول ﴿ **ياأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس** ﴾ . وفيه من حديث ابن مسعود رضي الله عنه : قال رجل يا رسول الله أى الذنب أعظم ـ وذكر الحديث إلى أن قال ـ فأنزل الله تصديقها ﴿ **والذين لا يدعون مع الله إلها آخر** ﴾ الآيات ، وغير ذلك من نصوص الكتاب والسنة .

ومن ذلك رفع الأيدى إليه والأبصار كما في أحاديث القنوت وأحاديث الاستسقاء . وحديث دعائه ﷺ على النفر الذين طرحوا على ظهره الشريف سلا الجزور وهو ساجد ، وحديث استغاثته ربه ببدر ومناشدته إياه حتى سقط رداؤه ، وكذا في أحد والخندق وحنين واستغفاره لرفيق أبي موسى يومئذ وغير ذلك ، فكتب السنة مملوءة بهذا النوع ، وقد ورد في رفع اليدين في الدعاء أكثر من مائة حديث في وقائع متفرقة ، وذلك معلوم بالفطر ، فكل من حزَبه أمر من المؤمنين رفع يديه إلى العلو يدعو الله عز وجل . وكذلك رفع البصر ثبت في الدعاء بعد الوضوء في سنن أبي داود وهو في الصحيح بدون رفع البصر . عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « ما طرف صاحب الصور من وكل به مستعدا ينظر نحو العرش مخافة أن يؤمر قبل أن يرتد إليه طرفه كأن عينيه كوكبان دريان» أخرجه الحاكم وصححه . وأخرج البغوى عن ثابت البناني قال : كان داود عليه السلام يطيل الصلاة ثم يركع ثم يرفع رأسه إلى السماء ثم يقول « إليك رفعت رأسي يا عامر السماء نظر العبيد إلى أربابها يا ساكن السماء » قال الذهبي إسناده صالح . وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : يحشر الناس حفاة عراة مشاة قياما أربعمائة سنة شاخصة أبصارهم إلى السماء ينتظرون فصل القضاء . قد ألجمهم العرق من شدة الكرب ، وينزل الله تعالى في ظلل من الغمام من العرش إلى الكرسي أخرجه أبو أحمد العسال في كتاب المعرفة . وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال « يجمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم أربعين سنة شاخصة أبصارهم إلى السماء ينتظرون فصل القضاء، وينزل الله في ظلل من الغمام من العرش إلى الكرسي » الحديث بطوله ، قال الذهبي إسناده حسن . وفيه أحاديث غير ما ذكرنا .

ومن ذلك إشارة النبي ﷺ إلى العلو في خطبته في حجة الوداع باصبعه وبرأسه ، كما في حديث جابر الطويل عند مسلم وفيه « وقد تركت فيكم ما لن تضلوا إن اعتصمتم به

كتاب الله ، وأنتم تسألون عنى فما أنتم قائلون ؟ قالوا : نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت ، فقال بأصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس : اللهم اشهد ، اللهم اشهد » ثلاث مرات . وذكر الحديث . وللبخارى من حديث ابن عباس فى خطبته ﷺ يوم النحر ـ وفيه ـ ثم رفع رأسه فقال « اللهم هل بلغت ، اللهم هل بلغت » الحديث.

ومن ذلك النصوص الواردة فى ذكر العرش وصفته وإضافته غالبا إلى خالقه تبارك وتعالى وأنه تعالى فوقه ، قال الله تعالى ﴿ **الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم** ﴾ وقال تعالى ﴿ **فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم** ﴾ وقال تعالى ﴿ **وكان عرشه على الماء** ﴾ وقال تعالى ﴿ **رفيع الدرجات ذو العرش** ﴾ وقال تعالى ﴿ **وهو الغفور الودود ذو العرش المجيد** ﴾ إلى غير ذلك . وفى الصحيح عن ابن عباس رضى الله عنهما : كان النبى ﷺ يقول عند الكرب « لا إله إلا الله العليم الحليم . لا إله إلا الله رب العرش العظيم. لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض رب العرش الكريم » وفيه من حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « إن فى الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين فى سبيله كل درجتين ما بينهما كما بين السماء والأرض ، فإذا سألتم الله فسلوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة »[1] . وفيه عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال النبى ﷺ « فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق ، فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش » الحديث . وفيه عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « يد الله ملأى لا يغيضها نفقة ، سحاء الليل والنهار » وقال « أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض فانه لم يغض مافى يمينه ، وعرشه على الماء ، وبيده الأخرى الفيض أو القبض ، يرفع ويخفض » وفى رواية «وبيده الأخرى الميزان يخفض ويرفع » . وفيه عنه رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « سبعة يظلهم الله تعالى فى ظله يوم لا ظل إلا ظله » قال الذهبى إسناده صالح وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال « أذن لى أن أحدث عن ملك من ملائكة الله تعالى من حملة العرش أن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائه عام » رواه أبو داود وابن أبى حاتم ولفظه « أذن لى أن أحدثكم عن ملك من حملة العرش بعد ما بين شحمة أذنه وعنقه مخفق الطير سبعمائة عام » وإسناده جيد رجاله كلهم ثقات ، وفيه جملة أحاديث غير ما ذكرنا وقد تقدم منها جملة وافية .

(١) رواه البخارى ومسلم والترمزى والنسائى .

ومن ذلك ما قصه الله تعالى عن فرعون لعنه الله فى تكذيبه موسى عليه السلام فى أن إلهه الله عز وجل العلى الأعلى خالق كل شيء وإلهه . قال الله تعالى فى سورة القصص **﴿وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى فأوقد لى ياهامان على الطين فاجعل لى صرحا لعلى أطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه من الكاذبين ﴾** وقال تعالى فى سورة المؤمن[1] **﴿ وقال فرعون يا هامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب ، أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه كاذبا ، وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل وما كيد فرعون إلا فى تباب ﴾** ففرعون لعنه الله تعالى كذب موسى فى أن رب السموات والأرض ورب المشرق والمغرب وما بينهما هو الله الذى فى السماء فوق جميع خلقه مباين لهم لا تخفى عليه منهم خافية ، فكل جهمى ناف لعلو الله عز وجل فهو فرعونى وعن فرعون أخذ دينه ، وكل سنى يصف الله تعالى بما وصف به نفسه أنه استوى على عرشه بائن من خلقه فهو موسوى محمدى متبع لرسل الله وكتبه .

ومن ذلك ما قصه الله تعالى فى قصة تكليمه موسى حين تجلى للجبل فاندك الجبل قال الله عز وجل **﴿ ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرنى أنظر إليك قال لن ترانى ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى ، فلما تجلى ربُّه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا ﴾** الآية . قال الترمذى فى جامعه فى تفسير سورة الأعراف : حدثنا عبد الله بن عبد الرحمن أخبرنا سليمان بن حرب أخبرنا حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس رضى الله عنه أن النبى ﷺ قرأ هذه الآية **﴿ فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا﴾** قال حماد : هكذا ــ وأمسك سليمان بطرف إبهامه على أنملة إصبعه اليمنى ــ قال فساخ الجبل وخر موسى صعقا . هذا حديث حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من حديث حماد ابن سلمة . ورواه أيضا من طريق معاذ بن معاذ العنبرى عن حماد نحوه ، ومن طريق معاذ أيضا رواه أحمد حدثنا حماد بن سلمة حدثنا ثابت البنانى عن أنس بن مالك رضى الله عنه عن النبى ﷺ فى قوله تعالى **﴿ فلما تجلى ربه للجبل ﴾** قال قال هكذا ــ يعنى أنه أخرج طرف الخنصر ــ قال أحمد : أرانا معاذ ، فقال له حميد الطويل : ما تريد إلى هذا يا أبا محمد ؟ قال فضرب صدره ضربة شديدة وقال : من أنت يا حميد ، وما أنت يا حميد؟ يحدثنى به أنس بن مالك عن النبى ﷺ وتقول ما تريد إليه ؟ ورواه أبو جعفر بن جرير الطبرى فى تفسير هذه الآية من طريق هدبة بن خالد حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس رضى الله عنه قال : قرأ رسول الله ﷺ **﴿ فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا﴾**

(١) من أسماء سورة غافر ، لقول الله تعالى فيها : « وقال رجل مؤمن من آل فرعون ... » وذكر قصة ذلك المؤن .

قال « ووضع الابهام قريبا من طرف خنصره » قال فساخ الجبل ، قال حميد لثابت يقول هكذا ؟ فرفع ثابت يده فضرب صدر حميد وقال يقوله رسول الله ﷺ ويقول أنس وأنا أكتمه ؟ ورواه الحاكم فى مستدركه من طرق عن حماد بن سلمة وقال : هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجه ، ورواه الخلال من طريق هدبة بن خالد عن حماد ابن سلمة فذكره وقال هذا إسناد صحيح لا علة فيه ، ورواه ابن خزيمة فى كتاب التوحيد من طريق عبد الوارث بن عبد الصمد حدثنا أبى حدثنا حماد بن سلمة ومن طريق عفان ابن مسلم قال حدثنا حماد بن سلمة ، ومن طريق الهيثم بن جميل قال حدثنا حماد بن سلمة ، ومن طريق مسلم بن إبراهيم قال حدثنا حماد ، ومن طريق حجاج يعنى ابن منهال عن حماد بن سلمة ، ومن طريق سليمان بن حرب عن حماد بن سلمة ، قال أبو بكر بن خزيمة رحمه الله تعالى على هذه الاية قبل سياق الحديث بهذه الطرق : أفليس العلم محيطا يا ذوى الالباب أن الله عز وجل لو كان فى كل موضع ومع كل بشر وخلق كما زعمت المعطلة لكان متجليا لكل شيء ، وكذلك جميع ما فى الأرض لو كان الله تعالى متجليا لجميع أرضه سهلها ووعرها وجبالها وبراريها ومفاوزها ومدنها وقراها وعمارتها وخرابها وجميع ما فيها من نبات وبناء لجعلها دكا كما جعل الله الجبل الذى تجلى له دكا قال الله تعالى ﴿ **فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا** ﴾ انتهى . وبالجملة فجميع رسل الله عليهم الصلاة والسلام وجميع كتبه المنزلة وجميع أهل السموات ومؤمنى أهل الأرض من الجن والإنس أتباع رسل الله وجميع الفطر السليمة والقلوب المستقيمة التى لم تجتلها الشياطين عن دينها جميعها شاهدة حالا ومقالا أن خالقها وفاطرها ومعبودها الذى تألهه وتفزع إليه وتدعوه رغبا ورهبا هو فوق كل شيء عال على جميع خلقه استوى على عرشه بائنا من مخلوقاته وهو يعلم أعمالهم ويسمع أقوالهم ويرى حركاتهم وسكناتهم وجميع تقلباتهم وأحوالهم لا يخفى عليه منهم خافية ، ولهذا ترى جميع المؤمنين عالمهم وعاميهم وحرهم ومملوكهم وذكرهم وأنثاهم وصغيرهم وكبيرهم كل منهم إذا دعا الله تبارك وتعالى فى جلب خير أو كشف مكروه إنما يرفع يديه ويشخص ببصره إلى السماء إلى جهة العلو إلى من يعلم سره ونجواه متوجها إليه بقلبه وقالبه يعلم أن معبوده فوقه وأنه إنما يدعى من أعلى ، لا من أسفل كما يقوله الجهمية قبحهم الله تعالى وتنزه عما يقولون علوا كبيرا .

ذكر أقوال أصحاب رسول الله ﷺ ورضى عنهم

روى ابن أبى شيبة عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : لما قبض رسول الله ﷺ قال أبو بكر رضى الله عنه : أيها الناس ، إن كان محمد إلهكم الذى تعبدونه فان إلهكم قد مات ، وإن كان إلهكم الله الذى فى السماء فان إلهكم لم يمت ثم تلا ﴿ **وما محمد**

إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ﴾ حتى ختم الآية . وللبخارى فى تاريخه عنه رضى الله عنه قال : لما قبض رسول الله ﷺ دخل أبو بكر رضى الله عنه عليه فأكب عليه وقبل جبهته وقال : بأبى أنت وأمى ، طبت حيا وميتا . وقال : من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ، ومَن كان يعبد الله فان الله فى السماء حى لا يموت . ولابن أبى شيبة عن قيس ابن أبى حازم قال : لما قدم عمر رضى الله عنه الشام استقبله الناس وهو على بعيره ، فقالوا لو ركبت برذونا يلقاك عظماء الناس ووجوههم ، فقال عمر رضى الله عنه : ألا أراكم ههنا ، إنما الأمر من ههنا فأشار بيده إلى السماء . قال الذهبى إسناده كالشمس . وروى الزهرى عن سالم أن كعبا قال لعمر : ويل لسلطان الأرض من سلطان السماء ، فقال عمر: إلا من حاسب نفسه . فقال كعب : إلا من حاسب نفسه . فكبر عمر ثم خر ساجدا وعن عبد الرحمن بن غنم قال سمعت عمر بن الخطاب يقول : ويل لديان الأرض من ديان السماء يوم يلقونه ، إلا من أمر بالعدل فقضى بالحق ولم يقض على هوى ولا على قرابة ولا على رغبة ولا رهب ، وجعل كتاب الله مرآة بين عينيه ، قال ابن غنم : فحدثت بهذا عثمان ومعاوية ويزيد وعبد الملك . رواه أبو نعيم . وعن أبى يزيد المدنى قال : لقيتْ عمرَ امرأة يقال لها خولة بنت ثعلبة ، فقال عمر : هذه امرأة سمع الله شكواها من فوق سبع سموات . قال الذهبى هذا إسناد صالح فيه انقطاع ، أبو يزيد لم يلحق عمر رضى الله عنه ، وفى لفظ عن عمر رضى الله عنه أنه مرَّ بعجوز فاستوقفته فوقف يحدثها ، فقال رجل : يا أمير المؤمنين حبست الناس على هذه العجوز ، فقال : ويلك أتدرى من هى، هذه امرأة سمع الله شكواها من فوق سبع سموات ، هذه خولة التى أنزل الله فيها ﴿قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها ﴾ وهذا الحديث رواه عثمان بن سعيد الدارمى ، وقال ابن عبد البر : حدثنا من وجوه عن عمر رضى الله عنه ، فذكره . ومن شعر عبد الله ابن رواحة رضى الله عنه :

شهدتُ بأن وعد الله حق ... وأن النار مثوى الكافرينا

وأن العرش فوق الماء طاف ... وفوق العرش رب العالمينا

وتحمله ملائكة كرام ... ملائكة الإله مسومينا

قال ابن عبد البر فى الاستيعاب : رويناه من وجوه صحاح . وروى الدارمى عن ابن مسعود رضى الله عنه قال « ما بين السماء الدنيا والتى تليها خمسمائة عام ، وبين كل سماء مسيرة خمسمائة عام ، وبين السماء السابعة وبين الكرسى خمسمائة عام ، وبين الكرسى إلى الماء مسيرة خمسمائة عام ، والعرش على الماء ، والله تعالى فوق العرش ، وهو

يعلم ما أنتم عليه » وروى الأعمش عن خيثمة عنه « إن العبد ليهم بالأمر من التجارة أو الإمارة حتى إذا تيسر له نظر الله إليه من فوق سبع سموات فيقول للملائكة : اصرفوه عنه ، فانه إن يسرته له أدخلته النار » أخرجه اللالكائي باسناد قوى . وعنه رضى الله عنه قال « إن الله تعالى يبرز لأهل جنته في كل جمعة وكثب من كافور أبيض فيحدث لهم من الكرامة ما لم يروا مثله ويكونون فى الدنو منه كمسارعتهم إلى الجمع » أخرجه ابن بطة فى الابانة الكبرى باسناد جيد . وعن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : البحر المسجور يجرى تحت العرش . وتقدم حديث أبى هريرة رضى الله عنه وفيه « وينزل الله تعالى فى ظلل من الغمام من العرش إلى الكرسى » . وعن أم سلمة رضى الله عنها فى قوله تعالى ﴿ **الرحمن على العرش استوى** ﴾ قالت : الكيف غير معقول والاستواء غير مجهول والاقرار به إيمان والجحود به كفر . قال الذهبى : هذا القول محفوظ عن جماعة كربيعة الرأى ، ومالك الامام ، وأبى جعفر الترمذى ، فأما عن أم سلمة فلا يصح لأن أبا كنانة ليس بثقة وأبو عمير لا أعرفه . وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : قالت الملائكة يا ربنا منا الملائكة المقربون ومنا حملة العرش ومنا الكرام الكاتبون وذكر الحديث ، قال الذهبى إسناده صالح . وعن عائشة رضى الله عنها قالت « وايم الله إنى لأخشى لو كنت أحب قتله لقتلته ـ يعنى عثمان رضى الله عنه ـ ولكن علم الله من فوق عرشه أنى لم أحب قتله » رواه الدارمى . وعن أسماء بنت عميس أن جعفرا رضى الله عنه جاءها إذ هم بالحبشة يبكى فقالت قال « رأيت فتى مترفا من الحبشة شابا جسيما مر على امرأة فطرح دقيقا كان معها فنسفته الريح فقالت أكلك إلى يوم يجلس الملك على الكرسى فيأخذ للمظلوم من الظالم » رواه ابن ماجه وغيره . وعن أبى أمامة الباهلى رضى الله عنه قال « لما لعن الله إبليس وأخرجه من سمواته وأخزاه قال : رب أخزيتنى ولعنتنى وطردتنى عن سمواتك وجوارك ، فوعزتك لأغوين خلقك ما دامت الأرواح فى أجسادهم، فأجابه الرب تبارك وتعالى فقال : وعزتى وجلالى وارتفاعى على عرشى لو أن عبدى أذنب حتى ملأ السموات والأرض خطايا ثم لم يبق من عمره إلا نفس واحد فندم على ذنوبه لغفرتها وبدلت سيئاته كلها حسنات » وقد روى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال «إن الشيطان قال : وعزتك لا أبرح أغوى عبادك ما دامت أرواحهم فى أجسادهم ، فقال الرب : وعزتى وجلالى وارتفاع مكانى ، لا أزال أغفر ما استغفرونى» وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال « إن الكرسى الذى وسع السموات والأرض لموضع قدميه ، وما يقدر قدر العرش إلا الذى خلقه ، وإن السموات فى خلق الرحمن عز وجل مثل قبة فى صحراء » رواه عبد

الله ابن أحمد فى كتاب السنة وللدارمى عنه رضى الله عنه أنه استأذن على عائشة رضى الله عنها وهى تموت فقال « كنت أحب نساء النبى ﷺ إليه ، ولم يكن رسول الله ﷺ يحب إلا طيبا ، وأنزل الله تعالى براءتك من فوق سبع سموات جاء بها الروح الأمين ، فأصبح ليس مسجد من مساجد الله تعالى يذكر فيها إلا وهو يتلى فيها آناه الليل وآناء النهار» . وذكر الطبرانى فى شرح السنة عن مجاهد قال : قيل لابن عباس إن ناسا يكذبون بالقدر ، قال « يكذبون بالكتاب ، لئن أخذت شعر أحدهم لا ينبتونه ، إن الله تعالى كان على عرشه قبل أن يخلق شيئا فخلق الخلق فكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة ، فانما يجرى الناس على أمر قد فرغ منه » . ولإسحق بن راهويه عن عكرمة فى قوله تعالى **﴿ ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ﴾** قال ابن عباس رضى الله عنهما : لم يستطع أن يقول من فوقهم ، علم أن الله تعالى من فوقهم . وليحيى بن سعيد الأموى عن عدى بن عميرة رضى الله عنه قال: خرجت مهاجرا إلى النبى ﷺ ، فذكر قصة طويلة وقال فيها : فاذا هو ومن معه يسجدون على وجوههم ويزعمون أن إلههم فى السماء ، فأسلمت وتبعته . وأقوال الصحابة فى هذا الباب وتفاسيرهم أكثر من أن تحصر ، وفيما ذكرنا كفاية .

ذكر أقوال التابعين رحمهم الله تعالى
ومن بعدهم من أهل السنة والجماعة

عن كعب الأحبار رضى الله عنه قال : قال الله عز وجل فى التوراة « أنا الله فوق عبادى ، وعرشى فوق جميع خلقى ، وأنا على عرشى أدبر أمور عبادى . ولا يخفى علىَّ شىء فى السماء ولا فى الارض » قال الذهبى رواته ثقات . وعنه رحمه الله قال : إن الله تعالى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن ثم جعل بين كل سماءين كما بين السماء الدنيا والأرض ، وجعل كثفها مثل ذلك ، ثم رفع العرش فاستوى عليه . وذكر الأثر . رواه أبو الشيخ فى كتاب العظمة ، قال الذهبى إسناده نظيف ، وأبو صالح لينوه وما هو بمتهم بل سيئ الاتقان . وعن مسروق رحمه الله تعالى أنه كان إذا حدث عن عائشة رضى الله عنهما قال : حدثتنى الصديقة بنت الصديق حبيبة الله المبرأة من فوق سبع سموات ، قال الذهبى إسناده صحيح . ويروى عن عطاء بن يسار رحمه الله أن موسى عليه السلام قال : يارب من أهلك الذين هم أهلك الذين تظلهم فى ظل عرشك ؟ قال : هم الذين يأوون إلى مساجدى كما تأوى النسور إلى أوكارها . وعن عبيد بن عمير قال : ينزل الرب عز وجل شطر الليل إلى سماء الدنيا فيقول : من يسألنى فأعطيه من يستغفرنى فأغفر له ، حتى إذا كان الفجر صعد الرب عز وجل وأخرجه عبد الله ابن الامام أحمد فى رده على

الجهمية . وعن شريح بن عبيد الله أنه كان يقول : ارتفع إليك ثغاء التسبيح ، وصعد إليك وقار التقديس ، سبحانك ذا الجبروت ، بيدك الملك والملكوت والمفاتيح والمقادير . إسناده صحيح . وعن أبي قلابة رحمه الله تعالى قال « أهبط الله تعالى آدم . قال : يا آدم إني مهبط معك بيتا يطاف حوله كما يطاف حول عرشي ويصلى عنده كما يصلى عند عرشي » وذكر الأثر ، قال الذهبي هو ثابت عن أبي قلابة . وعن عمرو بن ميمون قال « لما تعجل موسى إلى ربه رأى في ظل العرش رجلا يغبطه ، فسأل الله تعالى أن يخبره باسمه فقال : لا ولكني أحدثك بشيء من فعله ، كان لا يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله ، ولا يعق والديه ، ولا يمشي بالنميمة » قال الذهبي إسناده قوى . وعن مجاهد رحمه الله تعالى قال : ما أخذت السموات والأرض من العرش إلا كما تأخذ الحلقة من أرض الفلاة . وعنه رحمه الله تعالى في قول الله عز وجل ﴿ **عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا** ﴾ قال : يجلسه أو يقعده على العرش . قال الذهبي لهذا القول طرق خمسة . وأخرجه ابن جرير في تفسيره ، وعمل فيه المروزى مصنفا . وعن نوف البكالي « أن موسى عليه السلام لما سمع الكلام قال : من أنت الذى يكلمني قال : أنا ربك الأعلى » قال الذهبي إسناده صحيح . وعنه قال : إني أجد في التوراة لو أن السموات والأرض كن طبقا من حديد فقال رجل لا إله إلا الله لخرقتهن حتى تنتهي إلى الله عز وجل » رواه حماد بن سلمة . وعن أبي عيسى يحيى بن رافع رحمه الله تعالى أن ملكا لما استوى الرب على كرسيه سجد فلا يرفع رأسه حتى تقوم الساعة فيقول : لم أعبدك حق عبادتك . وعن قتادة رحمه الله تعالى قال : قالت بنو إسرائيل « يارب أنت في السماء ونحن في الأرض فكيف لنا أن نعرف رضاك وغضبك ؟ قال : إذا رضيت عنكم استعملت عليكم خياركم وإذا غضبت استعملت عليكم شراركم » قال الذهبي هذا ثابت عن قتادة . وعن عكرمة رحمه الله تعالى قال : بينما رجل في الجنة اشتهى الزرع ، فيقول للملائكة ابذروا فيخرج أمثال الجبال فيقول الرب عز وجل من فوق عرشه « كل يا بن آدم فان ابن آدم لا يشبع » قال الذهبي إسناده ليس بذاك . وصح في السنة للالكائي عن ثابت البناني قال : كان داود عليه السلام يطيل الصلاة ، ثم يرفع رأسه إلى السماء ثم يقول إليك رفعت رأسي نظر العبيد إلى أربابها يا ساكن السماء . وفي الحلية باسناد صحيح عن مالك بن دينار أنه كان يقول : خذوا ، فيقرأ ثم يقول : اسمعوا إلى قول الصادق من فوق عرشه . وعن مجاهد في قوله تعالى ﴿**وقربناه نجيا** ﴾ قال : بين السماء السابعة وبين العرش سبعون ألف حجاب ، فما زال يقرب موسى حتى كان بينه وبينه حجاب ، فلما رأى مكانه وسمع صريف القلم قال ﴿**رب أرني أنظر إليك** ﴾ هذا ثابت عن مجاهد إمام التفسير أخرجه البيهقي في كتاب الاسماء

والصفات . وعن سفيان قال : كنت عند ربيعة بن أبى عبد الرحمن فسأله رجل فقال **﴿الرحمن على العرش استوى﴾** كيف استوى ؟ فقال « الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول . ومن الله الرسالة وعلى الرسول البلاغ وعلينا التصديق » . وعن حسان بن عطية قال : حملة العرش أقدامهم ثابتة فى الأرض السابعة ورءوسهم قد جاوزت السماء السابعة وقرونهم مثل طولهم عليها العرش . وذكر أيوب السختيانى المعتزلة وقال : إنما مدار القوم على أن يقولوا ليس فى السماء شيء . قال الذهبى : هذا إسناد كالشمس وضوحا وكالأسطوانه ثبوتا عن سيد أهل البصرة وعالمهم رحمه الله تعالى . وقرأ ابن محيصن رفيق ابن كثير بمكة **﴿ وفى السماء رزقكم وما توعدون ﴾** . وعن الضحاك فى قوله تعالى **﴿ ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ﴾** قال : هو على عرشه وعلمه معهم أينما كانوا ، وفى لفظ : هو فوق العرش وعلمه معهم أين ما كانوا . أخرجه العسال وابن بطة وابن عبد البر باسناد جيد . وعن سليمان التيمى رحمه الله تعالى قال : لو سألت أين الله لقلت فى السماء . وعن حبيب بن أبي حبيب قال شهدت خالد بن عبد الله القسرى وخطبهم بواسط فقال « أيها الناس ضحوا تقبل الله ضحاياكم ، فانى مضح بالجعد بن درهم فانه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا ولم يكلم موسى تكليما سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا » ثم نزل فذبحه . قال الذهبى والمعتزلة تقول هذا وتحرف نص التنزيل فى ذلك ، وزعموا أن الرب منزه عن ذلك . وقال أبو عمر بن عبد البر رحمه الله فى التمهيد : وعلماء الصحابة والتابعين الذين حمل عنهم التأويل قالوا فى تأويل قوله تعالى **﴿ ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ﴾** هو على العرش وعلمه فى كل مكان ، وما خالفهم أحد فى ذلك يحتج به.

طبقة أخرى

عن نوح الجامع قال : كنت عند أبى حنيفة أول ما ظهر جهم ، إذ جاءته امرأة من ترمذ كانت تجالس جهما فدخلت الكوفة فأظننى أقل ما رأيت عليها عشرة آلاف نفس ، فقيل لها : إن ههنا رجلا قد نظر فى المعقول يقال له أبو حنيفة ، فأتيه . فأتته فقالت : أنت الذى تعلم الناس المسائل وقد تركت دينك ، أين إلهك الذى تعبده ؟ فسكت عنها ثم مكث سبعة أيام لا يجيبها ثم خرج إلينا وقد وضع كتابا إن الله عز وجل فى السماء دون الأرض ، فقال له رجل : أرأيت قول الله عز وجل **﴿ وهو معكم ﴾** قال : هو كما تكتب إلى الرجل إنى معك ، وأنت غائب عنه . رواه البيهقى ثم قال : لقد أصاب أبو حنيفة رحمه الله فيما نفى عن الله عز وجل من الكون فى الأرض . وأصاب فيما ذكر من تأويل الاية وتبع مطلق السمع بأن الله تعالى فى السماء ، قلت وإنما أراد بقوله هو كما

تكتب إلى الرجل الخ نفى الحلول ، وإلا فربنا تبارك وتعالى سواء عنده الغيب والشهادة والسر والعلانية . وعن أبى مطيع الحكم بن عبد الله البلخى قال « سألت أبا حنيفة عمن يقول لا أعرف ربى فى السماء أو فى الأرض ، قال : إذا أنكر أنه فى السماء أو فى الأرض فقال قد كفر ، لأن الله تعالى يقول ﴿ **الرحمن على العرش استوى** ﴾ وعرشه فوق سمواته . فقلت إنه يقول : أقول على العرش استوى ، ولكن قال لا يدرى العرش فى السماء أو فى الأرض ، قال إذا أنكر أنه فى السماء فقد كفر » رواه شيخ الاسلام الأنصارى فى الفاروق . وروى المقدسى عنه رحمه الله تعالى أنه قال : من أنكر أن الله عز وجل فى السماء فقد كفر . وعن ابن جريج رحمه الله تعالى قال : كان عرشه على الماء قبل أن يخلق الخلق . وروى الحاكم عن الأوزاعى رحمه الله تعالى قال « كنا ـ والتابعون متوافرون ـ نقول : إن الله عز وجل فوق عرشه ، ونؤمن بما وردت به السنة من صفاته . وأخرجه البيهقى فى الأسماء والصفات . وللثعلبى عنه فى قوله تعالى ﴿ **ثم استوى على العرش** ﴾ قال : هو على عرشه كما وصف نفسه . وسئل رحمه الله تعالى عن أحاديث الصفات فقال : أمرّها كما جاءت . وعن مقاتل بن حيان فى قوله تعالى ﴿ **ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم** ﴾ قال : هو على عرشه وعلمه معهم ، رواه عبد الله بن أحمد فى السنة . وللبيهقى عنه قال : بلغنا والله أعلم فى قوله تعالى ﴿ **هو الأول والآخر والظاهر والباطن** ﴾ : هو الأول قبل كل شىء والآخر بعد كل شىء وظاهر فوق كل شىء والباطن أقرب من كل شىء ، وإنما قربه بعلمه وهو فوق عرشه . وعن سفيان الثورى فى قوله ﴿ **وهو معكم أينما كنتم** ﴾ قال علمه . وقال فى جميع أحاديث الصفات أمرّوها كما جاءت . وعن الامام مالك بن أنس رحمه الله تعالى قال : الله فى السماء وعلمه فى كل مكان لا يخلو منه شىء ، وسأله رجل فقال : يا أبا عبد الله ﴿ **الرحمن على العرش استوى** ﴾ كيف استوى؟ فأطرق مالك وأخذته الرحضاء ، ثم رفع رأسه فقال : الرحمن على العرش استوى كما وصف نفسه ، ولا يقال كيف ، وكيف عنه مرفوع ، وأنت صاحب بدعة ، أخرجوه . وفى رواية قال : الكيف غير معقول ، والاستواء منه غير مجهول ، والايمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ، وإنى أخاف أن تكون ضالا ، وأمر به فأخرج . وقال سلام بن أبى مطيع : ويلكم ما تنكرون هذا الأمر ، والله ما فى الحديث شىء إلا وفى القرآن ما هو أثبت منه ، قول الله تعالى إن الله سميع بصير ـ ويحذّركم الله نفسه ـ تعلم ما فى نفسى ولا أعلم مافى نفسك ـ ثم استوى على العرش والسموات مطويات بيمينه ـ ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى ـ وكلم الله موسى تكليما ـ يا موسى إننى أنا الله ﴾ فما زال فى ذلك من العصر إلى المغرب . وصح عن ابن الماجشون أنه سئل عما جحدت به الجهمية

فقال : أما بعد فقد فهمت ما سألت عنه فيما تتابعته الجهمية فى صفة الرب العظيم الذى فاتت عظمته الوصف والتقدير ، وكلت الألسن عن تفسير صفته ، وانحسرت العقول دون معرفة قدره ، فلم تجد العقول مساغا فرجعت خاسئة حسيرة ، وإنما أمروا بالنظر والتفكر فيما خلق ، وإنما يقال « كيف » لما لم يكن مرة ثم كان ، أما من لا يحول ولا يزول ولم يزل وليس له مثل فانه لا يعلم كيف هو إلا هو . وساق فصلا طويلا فى هذا المعنى ، وذكر جملة من نصوص الصفات رحمه الله . وقال حماد بن زيد : إنما يدورون على أن يقولوا ليس فى السماء إله ، يعنى الجهمية ، رواه ابن أبى حاتم الرازى . وقال محمد بن إسحق إمام أهل المغازى : كان الله تعالى كما وصف نفسه إذ ليس إلا الماء عليه العرش، وعلى العرش ذو الجلال والاكرام ، الظاهر فى علوه على خلقه فليس شيء فوقه ، الباطن لإحاطته بخلقه فليس شيء دونه ، الدائم الذى لا يبيد ، وكان أول ما خلق النور والظلمة ثم السموات السبع من دخان ، ثم دحى الأرض ، ثم استوى إلى السماء فحبكهن وأكمل خلقهن فى يومين ، ففرغ من خلق السموات والأرض فى ستة أيام ، ثم استوى على العرش .

طبقــــة أخــــــرى

روى ابن أبى حاتم عن جرير بن عبد الحميد قال : كلام الجهمية أوله عسل وآخره سم ، وإنما يحاولون أن يقولوا ليس فى السماء إله . وصح عن على بن الحسن بن شقيق قال : قلت لعبد الله بن المبارك كيف نعرف ربنا عز وجل ؟ قال : فى السماء السابعة على عرشه ، ولا نقول كما تقول الجهمية إنه ها هنا فى الأرض . فقيل هذا لأحمد بن حنبل فقال : هكذا هو عندنا . وعنه رضى الله عنه أن رجلا قال له : يا أبا عبد الرحمن قد خفت الله من كثرة ما أدعو على الجهمية ، قال : لا تخف فانهم يزعمون أن إلهك الذى فى السماء ليس بشيء . رواه عبد الله بن أحمد . وقال نوح الجامع وسأله رجل عن الله عز وجل فى السماء هو ؟ فحدث بحديث النبى ﷺ حين سأل الأمة أين الله قالت فى السماء قال « أعتقها فانها مؤمنة » ثم قال : سماها النبى ﷺ مؤمنة أن عرفت أن الله عز وجل فى السماء . رواه عبد الله بن أحمد أيضا . وقال عباد بن العوام كلمت بشرا المريسى وأصحابه فرأيت آخر كلامهم ينتهى أن يقولوا ليس فى السماء شيء ، أرى أن لا يناكحوا ولا يوارثوا. وثبت عن أبى يوسف رحمه الله قال : من طلب الدين بالكلام تزندق، ومن طلب المال بالكيمياء أفلس ، ومن تتبع غريب الحديث كذب . وقد ضرب عليا الأحول وطوف به فى شأن الكلام وضرب آخر كان معه . وقال محمد بن الحسن : اتفق الفقهاء كلهم

من المشرق إلى المغرب على الإيمان بالقرآن والأحاديث التي جاء بها الثقات عن رسول الله ﷺ في صفة الرب عز وجل من غير تفسير ولا وصف ولا تشبيه . فمن فسر شيئا من ذلك فقد خرج مما كان عليه النبي ﷺ وفارق الجماعة لأنه وصفه بصفة لا شيء . وكتب بشر المريسي قبحه الله تعالى إلى منصور بن عمار رحمه الله تعالى يسأله عن قوله **﴿الرحمن على العرش استوى﴾** كيف استوى ؟ فكتب إليه : استواؤه غير محدود والجواب فيه تكلف ومسألتك عن ذلك بدعة والايمان بجملة ذلك واجب قال الله تعالى **﴿ فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ﴾** . وقيل ليزيد بن هارون : من الجهمي ؟ قال : من زعم أن قوله تعالى **﴿الرحمن على العرش استوى﴾** على خلاف ما يقر في قلوب العامة فهو جهمي رواه عبد الله بن أحمد . وقال سعيد بن عامر الضبعي وذكر الجهمية فقال : هم شر قولا من اليهود والنصارى ، قد اجتمع اليهود والنصارى وأهل الأديان مع المسلمين على أن الله عز وجل على العرش ، وقالوا هم ليس على العرش . وقال أحمد بن حنبل رضي الله عنه : حدثنا وكيع عن إسرائيل بحديث « إذا جلس الرب جل جلاله على الكرسي » فاقشعر رجل عند وكيع ، فغضب وكيع وقال : أدركنا الأعمش والثوري يحدثون بهذه الأحاديث ولا ينكرونها . وقال مرة : نسلم هذه الأحاديث كما جاءت ولا نقول كيف كذا ولا لم كذا . وقال عبد الرحمن بن مهدي : إن الجهمية أرادوا أن ينفوا أن يكون الله تعالى كلم موسى وأن يكون على العرش ، أرى أن يستتابوا فان تابوا وإلا ضربت أعناقهم . وقال وهب بن جرير : إياكم ورأى جهم فانهم يحاولون أنه ليس شيء في السماء ، وما هو إلا من وحي إبليس ، ما هو إلا الكفر . وقال الأصمعي لما قدمت امرأة جهم فقال رجل عندها : الله على عرشه ، فقالت : محدود على محدود . قال الاصمعي : هي كافرة بهذه المقالة . وقال الخليل بن أحمد في قوله **﴿ ثم استوى إلى السماء ﴾** يقول ارتفع . وقال الفراء صعد . وعن عبد الله بن أبي جعفر الرازي أنه ضرب رأس قرابة له كان يرى رأي جهم وكان يضرب بالنعل على رأسه ويقول : لا . حتى تقول الرحمن على العرش استوى ، بائن من خلقه .

طبقة الشافعي وأحمد رضي الله عنهما

روى الحافظ المقدسي عن محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله تعالى : القول في السنة التي أنا عليها ورأيت عليها الذين رأيتهم مثل سفيان ومالك وغيرهما إقرار بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ﷺ ، وأن الله تعالى على عرشه في سمائه يقرب من خلقه كيف شاء ، وينزل إلى السماء الدنيا كيف شاء ، وذكر سائر الاعتقاد . وقال عبد الله بن مسلمة القعنبي : من لا يوقن أن الرحمن على العرش استوى كما يقر في قلوب العامة

فهو جهمي . وقال عاصم بن على شيخ البخارى رحمهما الله تعالى : ناظرت جهما فتبين من كلامه أنه لا يؤمن أن في السماء ربا . وقال عبد الله بن الزبير الحميدى : نقف على ما وقف عليه القرآن والسنة ، نقول ﴿ **الرحمن على العرش استوى** ﴾ ومن زعم غير هذا فهو مبطل جهميّ . وقال هشام بن عبيد الله الرازى وحبس رجل في التجهم فجيء به إليه ليمتحنه فقال له : أتشهد أن الله على عرشه بائن من خلقه ؟ فقال : لا أدرى ما بائن من خلقه ، فقال : ردوه فانه لم يتب بعد . وقال محمد بن مصعب العابد : من زعم أنك لا تتكلم ولا ترى في الآخرة فهو كافر بوجهك ، أشهد أنك فوق العرش فوق سبع سموات ، ليس كما تقول أعداء الله الزنادقة . وقال أبو عمران الطرسوسى قلت لسنيد بن داود : هو عز وجل على عرشه بائن من خلقه ؟ قال نعم . وقال نعيم بن حماد في قوله ﴿ **وهو معكم** ﴾ قال معناه أنه لا يخفى عليه خافية بعلمه ، ألا ترى قوله تعالى ﴿**ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم** ﴾ الآية ، وقال رحمه الله تعالى : من شبه الله بخلقه فقد كفر ، ومن أنكر ما وصف به نفسه فقد كفر ، وليس ما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيها . وقال بشر الحافى : والإيمان بأن الله تعالى على عرشه استوى كما شاء وأنه عالم بكل ما كان وأنه يقول ويخلق ، فقوله كن ليس بمخلوق ، ومن دعائه : اللهم إنك تعلم فوق عرشك أن الذل أحب إلي من الشرف ، اللهم إنك تعلم فوق عرشك أن الفقر أحب إلي من الغنى ، اللهم إنك تعلم فوق عرشك أني لا أوثر على حبك شيئا . وقال أبو عبيد القاسم بن سلام فى أحاديث الرؤية ، والكرسى موضع القدمين ، وضحك ربنا ، وحديث أين كان ربنا ، فقال : هذه أحاديث صحاح حملها أصحاب الحديث بعضهم عن بعض ، وهى عندنا حق لا نشك فيها ، ولكن إذا قيل لنا كيف وضع قدمه وكيف يضحك قلنا : لا نفسر هذا ولا سمعنا أحدا يفسره . وقال أحمد بن نصر وسئل عن علم الله ـ فقال : علم الله معنا وهو على عرشه . وقال مكى بن إبراهيم : دخلت امرأة جهم على زوجتى فقالت يا أم إبراهيم هذا زوجك الذى يحدث عن العرش من نجره ؟ قالت : نجره الذى نجر أسنانك . قال وكانت بادية الأسنان . وقال قتيبة بن سعيد : قول الأئمة في الاسلام والسنة والجماعة ـ نعرف ربنا فى السماء السابعة على عرشه كما قال جل جلاله ﴿ **الرحمن على العرش استوى** ﴾ . وقال أبو معمر إسماعيل بن إبراهيم القطيعى : آخر كلام الجهمية أنه ليس فى السماء إله . وقال يحيى بن يحيي بن معين : إذا قال لك الجهمى وكيف ينزل ؟ فقل كيف يصعد ؟ قلت : الكيف فى الحالين منفى عن الله تعالى لا مجال للعقل فيه . وعن على بن المدينى أنه سئل : ما قول أهل الجماعة ؟ قال يؤمنون بالرؤية وبالكلام وأن الله عز وجل فوق السموات على عرشه استوى . فسئل عن قوله تعالى

﴿ ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ﴾ فقال : اقرأ ما قبله ﴿ ألم تر أن الله يعلم ﴾ . وسئل أبو عبد الله أحمد بن حنبل إمام أهل السنة : الله فوق السماء السابعة على عرشه بائن من خلقه ، وقدرته وعلمه بكل مكان ؟ قال : نعم هو على عرشه ، ولا يخلو شيء من علمه . وقيل له : ما معنى ﴿ وهو معكم ﴾ قال : علمه محيط بالكل ، وربنا على العرش بلا حد ولا صفة وقال حرب بن اسماعيل الكرمانى : قلت لاسحاق بن راهويه قوله تعالى ﴿ ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ﴾ كيف تقول فيه ؟ قال : حيث ما كنت فهو أقرب إليك من حبل الوريد وهو بائن من خلقه ، ثم ذكر عن ابن المبارك قوله هو على عرشه بائن من خلقه ، ثم قال : أعلى شيء فى ذلك وأبينه قوله تعالى ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ رواه الخلال فى السنة . وقال اسحاق بن راهويه : دخلت على ابن طاهر فقال : ما هذه الأحاديث يروون أن الله تعالى ينزل إلى السماء الدنيا ؟ قلت : نعم رواها الثقات الذين يروون الأحكام . فقال : ينزل ويدع عرشه ؟ فقلت يقدر أن ينزل من غير أن يخلو منه العرش ؟ قال نعم . قلت فلم تتكلم فى هذا ؟ وروى الخلال عنه قال : قال الله تعالى ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ إجماع أهل العلم أنه فوق العرش استوى ويعلم كل شيء فى أسفل الارض السابعة . وقال رجل لابن الأعرابى رحمه الله تعالى : يا أبا عبد الله ما معنى قوله ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ ؟ قال : هو على عرشه كما أخبر . فقال الرجل : ليس كذلك ، ، إنما معناه استولى . فقال : اسكت ما يدريك ما هذا، العرب لا تقول للرجل استولى على الشيء حتى يكون له فيه مضاد ، فأيهما غلب قيل استولى ، والله تعالى لا مضاد له وهو على عرشه كما أخبر ، ثم قال : الاستيلاء بعد المغالبة ، قال النابغة :

إلا لمثلك أو ما أنت سابقه   سبق الجواد إذا استولى على الأمد

وقال ذو النون المصرى رحمه الله : أشرق لنور وجهه السموات ، وأنار لوجهه الظلمات، وحجب جلاله عن العيون ، وناجاه على عرشه ألسنه الصدور .

طبقة أخرى

وقال المزنى فى عقيدته : الحمد لله أحق ما بدى وأولى من شكر وعليه أثنى ، الواحد الصمد ، ليس له صاحبة ولا ولد ، جل عن المثل فلا شبيه له ولا عديل ، السميع البصير العليم الخبير المنيع الرفيع عال على عرشه فهو دان بعلمه من خلقه ، والقرآن كلام الله ومن الله ، ليس بمخلوق فيبيد ، وقدرة الله ونعته وصفاته كلمات غير مخلوقات . دائمات أزليات ، ليس محدثات فتبيد ، ولا كان ربنا ناقصا فيزيد ، جلت صفاته عن شبه المخلوقين،

عال على عرشه ، بائن من خلقه . وذكر ذلك المعتقد . وقال : لا يصح لأحد توحيد حتى يعلم أن الله على عرشه بصفاته . قلت : مثل أى شيء ؟ قال : سميع بصير عليم قدير ، رواه ابن منده . وسئل محمد بن يحيى الذهلى رحمه الله تعالى عن حديث عبد الله بن معاوية عن النبى ﷺ « ليعلم العبد أن الله معه حيث كان » فقال : يريد أن الله علمه محيط بكل ما كان والله على العرش . وقال أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى رحمه الله تعالى فى آخر الجامع الصحيح فى كتاب الرد على الجهمية : باب قول الله تعالى ﴿ **وكان عرشه على الماء** ﴾ قال أبو العالية : استوى على عرشه ارتفع، وقال مجاهد فى استوى : علا على العرش . وقالت زينب أم المؤمنين رضى الله عنها : زوجنى الله من فوق سبع سموات . ثم إنه بوب رحمه الله تعالى على أكثر ما تنكره الجهمية من الصفات محتجا بالآيات والأحاديث . وقال أبو زرعة الرازى وسئل عن تفسير ﴿ **الرحمن على العرش استوى** ﴾ فغضب وقال : تفسيره كما تقرأ ، هو على عرشه ، وعلمه فى كل مكان ، من قال غير هذا فعليه لعنة الله . وقال عبد الرحمن بن أبى حاتم : سألت أبى وأبا زرعة رحمهما الله تعالى عن مذهب أهل السنة والجماعة فى أصول الدين وما أدركا عليه العلماء فى جميع الأمصار حجازا وعراقا ومصرا وشاما ويمنا ، فكان من مذهبهم أن الله تبارك وتعالى على عرشه بائن من خلقه كما وصف نفسه بلا كيف ، أحاط بكل شيء علما . وقال محمد بن إدريس بن المنذر الحنظلى أبو حاتم الرازى . ونعتقد أن الله عز وجل على عرشه بائن من خلقه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير . رواه أبو القاسم الطبرى. وقال يحيى بن معاذ الرازى : إن الله على العرش بائن من خلقه أحاط بكل شيء علما ، لا يشذ عن هذه المقالة إلا جهمى يمزج الله بخلقه رواه صاحب الفاروق . وعن محمد بن أسلم الطوسى رحمه الله تعالى قال : قال لى عبد الله بن طاهر : بلغنى أنك لا ترفع رأسك إلى السماء . فقلت : وهل أرجو الخير إلا ممن هو فى السماء . رواه الحاكم فى ترجمته . وقال عبد الوهاب الوراق : من زعم أن الله ههنا فهو جهمى خبيث ، إن الله عز وجل فوق العرش وعلمه محيط بالدنيا والآخرة . وكتب حرب الكرمانى إلى عبد الرحمن بن محمد الحنظلى : ان الجهمية أعداء الله ، وهم الذين يزعمون أن القرآن مخلوق ، وأن الله لم يكلم موسى ، ولايرى فى الآخرة ، ولا يعرف لله مكان ، وليس على العرش ، ولا كرسى ، وهم كفار فاحذرهم . وقال عثمان بن سعيد الدارمى الامام فى كتاب النقض : قد اتفقت الكلمة من المسلمين أن الله فوق عرشه فوق سمواته يعلم ويسمع من فوق العرش لا تخفى عليه خافية من خلقه ولا يحجبهم عنه شيء . وقال أبو محمد بن قتيبة رحمه الله تعالى : كيف يسوغ لأحد أن يقول إن الله سبحانه بكل مكان على الحلول فيه مع قوله ﴿ **الرحمن**

على العرش ﴾ ومع قوله ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ﴾ كيف يصعد إليه شيء هو معه ، وكيف تعرج الملائكة والروح إليه وهو معه ، قال : لو أن هؤلاء رجعوا إلى فطرتهم وما ركبت عليه ذواتهم من معرفة الخالق لعلموا أن الله عز وجل هو العلى الأعلى وأن الايدى ترفع بالدعاء إليه والأمم كلها عجميها وعربيها تقول إن الله فى السماء ما تركت على فطرها . وقال أبو بكر بن أبى عاصم الشيبانى : جميع ما فى كتابنا ـ كتاب السنة الكبير ـ من الأخبار التى ذكرنا أنها توجب العلم فنحن نؤمن بها لصحتها وعدالة ناقليها ، ويجب التسليم لها على ظاهرها، وترك تكلف الكلام فى كيفيتها . فذكر من ذلك النزول إلى السماء الدنيا والاستواء على العرش . وقال أبو عيسى محمد بن سورة الترمذى رحمه الله فى جامعه لما روى حديث أبى هريرة وهو خبر منكر عند أهل الحديث «لو أنكم أدليتم بحبل إلى الأرض السفلى لهبط على الله » فقال : قال أهل العلم أراد لهبط على علم الله وهو على العرش كما وصف نفسه فى كتابه . وقال أبو داود سليمان بن الأشعث السجستانى فى كتاب السنة من سننه ـ باب فى الجهمية ـ وساق فى ذلك حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « لا يزال الناس يتساءلون حتى يقال هذا الله خلق الخلق ، فمن خلق الله ؟ فمن وجد من ذلك شيئا فليقل آمنت بالله » وفى رواية «فاذا قالوا ذلك فقولوا : الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ، ثم ليتفل عن يساره ثلاثا وليستعذ من الشيطان » وذكر حديث الأوعال وحديث جبير بن مطعم وحديث أذن لى أن أحدث عن ملك ، الحديث وقد ترجم قبل ذلك وبعده على معتقدات أهل السنة وما ورد فيها من الأحاديث رحمه الله تعالى كالرؤية والنزول وطى السموات والأرض وتكلم الله عز وجل والشفاعة والبعث وخلق الجنة والنار وفتنة القبر وعذابه والحوض والميزان وغير ذلك وردّ على طوائف الجهمية والمرجئة والخوارج والروافض رحمه الله تعالى . وقال ابن ماجه رحمه الله تعالى فى سننه : باب ما أنكرت الجهمية ، فساق حديث الرؤية وحديث أبى رزين وحديث جابر : بينا أهل الجنة فى نعيمهم إذ سطع لهم نور ، الحديث تقدم ، وحديث الأوعال وغيرها . وكذلك مسلم فى صحيحه والنسائى فى سننه وغيرهم من أهل السنن ساقوا أحاديث الصفات وأمرّوها كما جاءت لم يتعرضوا لها بكيف ولا تأويل . وقال ابن أبى شيبة رحمه الله تعالى : ذكروا أن الجهمية يقولون ليس بين الله وبين خلقه حجاب ، وأنكروا العرش وأن يكون الله فوقه وقالوا إنه فى كل مكان ففسرت العلماء وهو معكم يعنى علمه ثم تواترت الأخبار أن الله خلق العرش فاستوى عليه فهو فوق العرش متخلصا من خلقه بائنا منهم . وقال سهل بن عبد الله التسترى رحمه الله تعالى : لا يجوز لمؤمن أن يقول كيف الاستواء لمن خلق الاستواء ولنا

عليه الرضا والتسليم لقول النبى ﷺ « إنه تعالى على العرش » قال : وإنما سمى الزنديق زنديقا لأنه وزن دق الكلام بمخبول عقله ، وترك الأثر وتأول القرآن بالهوى فعند ذلك لم يؤمن بأن الله تعالى على عرشه .

طبقـــــة أخـــــرى

قال زكريا بن يحيى الساجى رحمه الله : القول فى السنة التى رأيت عليها أصحابنا أهل الحديث الذين لقيناهم إن الله على عرشه فى سمائه يقرب من خلقه كيف شاء . وساق سائر الاعتقاد . وقال أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى إمام المفسرين رحمه الله فى عقيدته : وحسب امرئ أن يعلم أن ربه هو الذى على العرش استوى ، فمن تجاوز ذلك فقد خاب وخسر . ونقل فى تفسير ﴿ **ثم استوى على العرش** ﴾ فى المواضع كلها أى علا وارتفع ، وتفسيره مشحون بأقوال السلف على الاثبات . وقال حماد بن هناد البوشنجى : هذا ما رأينا عليه أهل الأمصار وما دلت عليه مذاهبهم فيه وإيضاح منهاج العلماء وصفة السنة وأهلها ، إن الله فوق السماء السابعة على عرشه بائن من خلقه وعلمه وسلطانه وقدرته بكل مكان . وقال إمام الأئمة محمد بن إسحاق بن خزيمة : من لم يقر بأن الله على عرشه استوى فوق سبع سمواته بائن من خلقه فهو كافر يستتاب ، فان تاب وإلا ضربت عنقه وألقى على مزبلة لئلا يتأذى برائحته أهل القبله وأهل الذمة . وقال أبو العباس بن سريج : قد صح عن جميع أهل الديانة والسنة إلى زماننا أن جميع الآى والأخبار الصادقة عن رسول الله ﷺ يجب على المسلمين الإيمان بكل واحد منها كما ورد وأن السؤال عن معانيها بدعة ، والجواب كفر وزندقة ، مثل قوله ﴿ **هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام** ﴾ وقوله ﴿ **الرحمن على العرش استوى** ﴾ وذكر الاعتقاد . وقال ثعلب إمام العربية ﴿ **على العرش استوى** ﴾ : علا . وقال أبو جعفر الترمذى وسأله سائل عن حديث نزول الرب : فالنزول كيف هو يبقى فوقه علو ؟ فقال : النزول معقول والكيف مجهول والايمان به واجب والسؤال عنه بدعة . وقال الطحاوى الامام فى عقيدته : والعرش والكرسى حق كما بين فى كتابه ، وهو مستغن عن العرش وما دونه ، محيط بكل شيء وفوقه . وقال أبو الحسن الأشعرى فى ذكر مقالة أهل السنة وأصحاب الحديث : وأن الله على عرشه كما قال تعالى ﴿ **الرحمن على العرش استوى** ﴾ . قال : ورأينا المسلمين جميعا يرفعون أيديهم إذا دعوا نحو السماء ، لأن الله تعالى مستو على العرش الذى هو فوق السموات ، فلولا أن الله على العرش لم يرفعوا أيديهم نحو العرش . وقال أبو محمد البربهارى رحمه الله تعالى : الكلام فى الرب محدثة وبدعة وضلالة ، فلا يتكلم فى الله إلا بما وصف به نفسه ، ولا نقول فى صفاته لم ولا كيف ، يعلم السر وأخفى وعلى عرشه

استوى وعلمه بكل مكان .

طبقة أخرى من أئمة الإسلام وعلماء السنة

قال أبو أحمد العسال في باب تفسير قوله تعالى ﴿ **الرحمن على العرش استوى** ﴾ فساق ما ورد فيه من أقوال السلف وأئمتهم وحديث ابن مسعود وقد مر . وقال أبو بكر الصبغي في قوله تعالى ﴿ **من في السماء** ﴾ أى من على العرش كما صحت الأخبار عن رسول الله ﷺ . وقال أبو القاسم الطبراني في كتاب السنة : باب ما جاء في استواء الله على عرشه بائنا من خلقه ، فساق في الباب حديث أبي رزين العقيلي وحديث الأوعال وغيرهما من أحاديث العلو . وقال أبو بكر الآجرى : الذى يذهب إليه أهل العلم أن الله تعالى على عرشه فوق سمواته وعلمه محيط بكل شيء قد أحاط بجميع ما خلق في السموات العلى وبجميع ما خلق في سبع أرضين يرفع إليه أعمال العباد . وقال أبو الشيخ في كتاب العظمة له : ذكر عرش الرب تبارك وتعالى وكرسيه وعظم خلقهما وعلو الرب فوق عرشه . وساق جملة أحاديث في ذلك . وقال أبو بكر الاسماعيلي : استوى على العرش بلا كيف فانه انتهى إلى أنه استوى على العرش ولم يذكر كيف كان استواؤه . وقال الاستاذ أبو منصور الأزهرى : الله تعالى على العرش . وقال أبو الحسن بن مهدى رحمه الله في قوله تعالى ﴿ **الرحمن على العرش استوى** ﴾ : اعلم أن الله تعالى في السماء فوق كل شيء مستو على العرش بمعنى أنه عال عليه ، ومعنى الاستواء الاعتلاء . وإنما أمرنا الله تعالى برفع أيدينا قاصدين إليه برفعها نحو العرش الذى هو مستو عليه . وقال ابن بطة رحمه الله : باب الايمان بان الله تعالى على عرشه بائن من خلقه وعلمه محيط بخلقه، أجمع المسلمون من الصحابة والتابعين أن الله على عرشه فوق سمواته بائن من خلقه . وقال الدارقطني رحمه الله تعالى :

حديث الشفاعة في أحمد إلى أحمد المصطفى نسنده
وأمـــا حـــــديث باقعاده على العرش أيضا فلا نجحده
أمرّوا الحديث على وجهه ولا تدخلـــوا فيه ما يفسده

وقال ابن منده رحمه الله تعالى : فهو تعالى موصوف غير مجهول ، وموجود غير مدرك ، ومرئي غير محاط به لقربه كأنك تراه ، وهو يسمع ويرى ، وهو بالمنظر الأعلى ، وعلى العرش استوى ، فالقلوب تعرفه والعقول لا تكيفه وهو بكل شيء محيط . وقال محمد بن أبي زيد المغربي : وأنه تعالى فوق عرشه المجيد بذاته ، وأنه في كل مكان بعلمه . قلت : وقد أطلق هذه العبارة أعنى قوله « بذاته » أبو جعفر بن أبي شيبة والدارمي ويحيى بن عمار

وأبو نصر السجزى وابن عبد البر وشيخ الاسلام الأنصارى وأبو الحسن الكرجى وأحمد بن ثابت الطرقى وعبد العزيز القحيطى ، وعبد القادر الجيلى وطائفة . وقال ابن فورك رحمه الله : استوى بمعنى علا . وقال فى قوله ﴿ **أأمنتم من فى السماء** ﴾ أى من فوق السماء . وقال ابن الباقلانى فى إبانته : فان قيل فهل تقولون إنه فى كل مكان ؟ قيل معاذ الله بل هو مستو على عرشه كما أخبر فى كتابه فقال تعالى ﴿ **الرحمن على العرش استوى** ﴾ وقال ﴿ **إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه** ﴾ وقال ﴿**أأمنتم من فى السماء** ﴾ إلى آخر كلامه . وقال أبو أحمد القصاب فى عقيدته : كان ربنا عز وجل وحده لا شيء معه ولا مكان يحويه ، فخلق كل شيء بقدرته وخلق العرش لا لحاجة إليه فاستوى عليه استواء استقرار كيف شاء وأراد ، لا استقرار راحة كما يستريح الخلق . قلت : تفسير الاستواء بالاستقرار لم يرد فى الكتاب ولا السنة ، ونحن لا نصف الله إلا بما ثبت فى الكتاب والسنة ، لا نزيد عليه ولا ننقص منه . وقال الحافظ أبو نعيم رحمه الله تعالى : طريقتنا طريقة السلف المتبعين للكتاب والسنة وإجماع الأمة ، ومما اعتقدوه أن الله لم يزل كاملا بجميع صفاته القديمة لا يزول ولا يحول لم يزل عالما بعلم بصيرا ببصر سميعا بسمع متكلما بكلام . إلى أن قال : وأن الأحاديث التى ثبتت فى العرش واستواء الله عليه يقولون بها ويثبتونها من غير تكييف ولا تمثيل ، وأن الله بائن من خلقه والخلق بائنون منه لا يحل فيهم ولا يمتزج بهم ، وهو مستو على عرشه فى سمائه دون أرضه . وقال معمر بن زياد فى أثناء وصيته : وأن الله استوى على عرشه بلا كيف ولا تشبيه ولا تمثيل ولا تأويل ، والاستواء معقول والكيف مجهول ، وأنه بائن من خلقه والخلق بائنون منه . وذكر سائر الاعتقاد . وقال أبو القاسم اللالكائى فى قوله تعالى ﴿ **الرحمن على العرش استوى** ﴾ وأن الله على عرشه : قال الله عز وجل ﴿ **إليه يصعد الكلم الطيب** ﴾ وقال ﴿ **أأمنتم من فى السماء** ﴾ وقال ﴿ **وهو القاهر فوق عباده** ﴾ فدلت هذه الايات أنه فى السماء وعلمه فى كل مكان ، روى ذلك عن عمر وابن مسعود وابن عباس وأم سلمة ، ومن التابعين ربيعة وسليمان التيمى ومقاتل بن حيان ، وبه قال مالك والثورى وأحمد . وقال يحيى بن عمار : هو بذاته على العرش وعلمه محيط بكل شيء وعلمه وسمعه وبصره وقدرته مدركة لكل شيء ، وذلك معنى قوله تعالى ﴿ **وهو معكم أينما كنتم** ﴾ فهذا الذى قلناه هو كما قال الله تعالى وقاله رسول الله ﷺ ، قلت لفظة « بذاته » مستغنى عنها بصريح النصوص الكافية الوافية . وقال القادر بالله أمير المؤمنين فى معتقده المشهور : وأنه خلق العرش لا لحاجة ، واستوى عليه كيف شاء لا استواء راحة ، وكل صفة وصف بها نفسه أو وصفه بها رسوله ﷺ فهى صفة حقيقة لا صفة مجاز . وقال أبو عمرو الطلمنكى رحمه الله

أجمع المسلمون من أهل السنة على أن معنى قوله تعالى **﴿ وهو معكم أينما كنتم﴾** ونحو ذلك من القرآن أنه علمه ، وأن الله تعالى فوق السموات بذاته ، مستو على عرشه كما نطق به كتابه ، وعلماء الأمة وأعيان الأئمة من السلف لم يختلفوا أن الله على عرشه فوق سمواته . وقال أبو نصر السجزى : أئمتنا كسفيان الثورى ومالك وحماد بن سلمة وحماد ابن زيد وسفيان بن عيينة والفضيل وابن المبارك وأحمد وإسحاق متفقون على أن الله سبحانه بذاته فوق العرش وعلمه بكل مكان . وقال أبو عمرو الدانى فى أرجوزته التى فى عقود الديانة :

كلامـــــه وقولـــه قديـــم وهـــو فـــوق عرشـه العظيـم

وقال أبو عمر بن عبد البر في شرح حديث النزول : هذا حديث صحيح لم يختلف أهل الحديث فى صحته ، وفيه دليل أن الله تعالى فى السماء على العرش فوق سبع سموات كما قالت الجماعة . وقال أيضا : أجمع علماء الصحابة والتابعين الذين حمل عنهم التأويل قالوا فى تأويل قوله تعالى **﴿ ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ﴾** : هو على العرش وعلمه فى كل مكان ، وما خالفهم فى ذلك أحد يحتج بقوله . وقال أبو يعلى رحمه الله بعد أن ذكر حديث الجارية : الكلام فى هذا الخبر فى فصلين أحدهما جواز السؤال عن الله سبحانه بأين هو ؟ والثانى جواز الإخبار عنه بأنه فى السماء . وقد أخبرنا تعالى أنه فى السماء فقال **﴿ أأمنتم من فى السماء ﴾** وهو على العرش . وقال أبو بكر البيهقى رحمه الله تعالى فى كتاب المعتقد له : باب القول فى الاستواء . قال الله تعالى **﴿الرحمن على العرش استوى ﴾** وقال **﴿ ثم استوى على العرش ﴾** ، **﴿ وهو القاهر فوق عباده ﴾** ، **﴿ يخافون ربهم من فوقهم ﴾** ، **﴿ إليه يصعد الكلم الطيب ﴾** ، **﴿ أأمنتم من فى السماء ﴾** وأراد من فوق السماء كما قال تعالى **﴿ فى جذوع النخل ﴾** وقال **﴿فسيحوا فى الأرض ﴾** أى على الأرض ، وكل ما علا فهو سماء ، والعرش أعلى السموات، فمعنى الآية أأمنتم من على العرش كما صرح به فى سائر الآيات .

طبقـــة أخـــــرى

قال أبو الفتح نصر المقدسى : وأن الله مستو على عرشه بائن من خلقه كما قال فى كتابه . وقال شيخ الاسلام الأنصارى صاحب منازل السائرين فى التصوف ، قال فى كتاب له : باب استواء الله على عرشه فوق السماء السابعة بائنا من خلقه من الكتاب والسنة ، فساق الحجة من الآيات والأحاديث إلى أن قال : وفى أخبار شتى أن الله سبحانه وتعالى فى السماء السابعة على العرش بنفسه وهو ينظر كيف تعملون ، وعلمه وقدرته

واستماعه ونظره ورحمته في كل مكان . وقال البغوى رحمه الله تعالى في قول الله عز وجل ﴿ ثم استوى على العرش ﴾ قال الكلبي ومقاتل : استقر ، وقال أبو عبيدة : صعد . وأوّلت المعتزلة الاستواء بالاستيلاء ، فأما أهل السنة فانهم يقولون : الاستواء على العرش صفة لله تعالى بلا كيف ، يجب على الرجل الايمان به ويكل العلم فيه إلى الله عز وجل . ثم ذكر قول مالك المتقدم ، وقال : وروى عن سفيان الثورى والأوزاعى والليث بن سعد وسفيان بن عيينة وعبد الله بن المبارك وغيرهم من علماء السنة فى هذه الايات التى جاءت فى الصفات المتشابهات : أمرّوها كما جاءت بلا كيف . وقال أبو الحسن الكرجى فى بائيته :

عقائدهــم أن الإلــه بذاتــه على عرشــه مع علمــه بالغوائب

وأن استواء الرب يعقل كونه ويجهل فيه الكيف جهل الشهارب

وقال الشيخ عبد القادر الجيلى رحمه الله تعالى فى كتاب الغنية : أما معرفة الصانع بالآيات والدلائل على وجه الاختصار فهو أن يعرف ويتيقن أن الله واحد أحد . إلى أن قال: وهو مستو على العرش ، محتو على الملك ، محيط بالأشياء ، إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ، ولا يجوز وصفه بأنه فى كل مكان بل يقال : إنه فى السماء على العرش ، كما قال ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ وينبغى إطلاق ذلك من غير تأويل . وكونه تعالى على العرش مذكور فى كل كتاب أنزل ، على كل نبى أُرسل ، بلا كيف . وقال أبو عبد الله القرطبى : وقد كان السلف الأول رضى الله عنهم لا يقولون بنفى الجهة ولا ينطقون بذلك بل نطقوا هم والكافة باثباتها لله تعالى كما نطق كتابه وأخبرت رسله ، ولم ينكر أحد من السلف الصالح أن استواءه على عرشه حقيقة ، وخص عرشه بذلك لأنه أعظم مخلوقاته ، وإنما جهلوا كيفية الاستواء فانه لا يعلم حقيقة كيفيته . قلت : أراد بالجهة إثبات العلو لله تعالى ، أما لفظ الجهة فلم يرد فى الكتاب ولا السنة ، ولا يلزم من إثبات العلو إثباتها ، لأن العرش سقف جميع المخلوقات فما فوقه لا يسمى جهة ، ولو سلمنا أنه يلزم من إثبات العلو إثبات الجهة فلازم الحق حق ، فما استلزمه صريح الايات والأحاديث فهو حق بلا خلاف عند أهل السنة . وقال شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى فى العقيدة الواسطية بعد سرد الايات والأحاديث فى الصفات : فصل وقد دخل فيما ذكرنا من الإيمان بالله الايمان بما أخبر به فى كتابه وتواتر عن رسول الله ﷺ وأجمع عليه سلف الأمة من أنه سبحانه فوق سمواته على عرشه عليٌّ على خلقه ، وهو سبحانه معهم أينما كانوا يعلم ما هم عاملون ، كما جمع بين ذلك فى قوله تعالى ﴿ **هو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج فى الأرض وما**

يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم إينما كنتم والله بما تعملون بصير ﴾ وليس معنى قوله ﴿ وهو معكم ﴾ أنه مختلط بالخلق فإن هذا لا توجبه اللغة ، وهو خلاف ما أجمع عليه سلف الامة وخلاف ما فطر الله عليه الخلق ، بل القمر آية من آيات الله من أصغر مخلوقاته وهو موضوع في السماء وهو مع المسافر وغير المسافر أينما كان ، والله سبحانه فوق العرش رقيب على خلقه مهيمن عليهم مطلع عليهم إلى غير ذلك من معاني ربوبيته ، وكل هذا الكلام الذى ذكر الله تعالى من أنه فوق العرش وأنه معنا حق على حقيقته ، لا يحتاج إلى تحريف ، ولكن يصان عن الظنون الكاذبة مثل أن يظن أن ظاهر قوله ﴿ في السماء ﴾ أن السماء تقله أو تظله ، وهذا باطل باجماع أهل العلم والايمان فان الله تعالى قد وسع كرسيه السموات والأرض ، وهو الذى يمسك السموات والأرض أن تزولا ، ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا باذنه ، ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ا هـ . ومصنفات هذا الامام وتلميذه ابن القيم رحمهما الله تعالى في الانتصار لمعتقد أهل السنة والجماعة قد طبقت المشارق والمغارب ، ولو ذهبنا نذكر أقوال أهل العلم والدين من السلف والخلف لاحتجنا إلى عدة أسفار بل إلى عدة أحمال ، وفيما ذكرناه كفاية . ونحن نشهد الله تعالى وحملة عرشه وجميع ملائكته وأنبياءه ورسله وجميع خلقه أنا نثبت لربنا عز وجل ما أثبته لنفسه في كتابه وأثبته رسوله ﷺ وأجمع عليه أهل السنة والجماعة سلفا وخلفا ممن ذكرنا وممن لم نذكر من أن ربنا وإلهنا فوق سمواته على عرشه بائن من خلقه ، وهو يعلم ما هم عليه لا يخفى عليه منهم خافية ، واستواؤه على عرشه كما أخبر وعلى الوجه الذى عناه وأراده كما يليق بجلال ربنا وعظمته ، لا نتكلف لذلك تأويلا ولا تكييفا بل نقول آمنا بالله وبما جاء عن الله على مراد الله ، وآمنا برسول الله وبما جاء عن رسول الله على مراد رسول الله ﷺ ، ولا نطلب إماما غير الكتاب والسنة ، ولا نتخطاهما إلى غيرهما ولا نتجاوز ما جاء فيهما ، فننطق بما نطقا به ونسكت عما سكتا عنه ونسير سيرهما حيث سارا ونقف معهما حيث وقفا ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم .

﴿ ومعَ ذا مطلعٌ إليهمو بعلمه مهيمنٌ عليه كلو ﴾
﴿ وذكره للقرب والمعيّه لم ينفِ للعلوّ والفوقيه ﴾
﴿ فإنه العليُّ في دنوّه وهو القريب جلَّ في علوّه ﴾

(ومع ذا) الاتصاف بالعلو والاستواء على العرش والمباينة منه لخلقه تبارك وتعالى فهو (مطلع) سبحانه وتعالى (إليهمو) الواو للاشباع (بعلمه) المحيط بجميع المعلومات لا

تخفى عليه منهم خافية ، كما جمع تبارك وتعالى بين ذلك فى قوله عز وجل ﴿**الرحمن على العرش استوى . له ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى . وإن تجهر بالقول فانه يعلم السر وأخفى**﴾ فجمع تعالى بين استوائه على عرشه وبين علمه السر وأخفى ، وكذلك جمع عز وجل بينهما فى قوله تعالى ﴿ **هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم** ﴾ وهو الأول فليس قبله شيء والآخر فليس بعده شيء والظاهر فليس فوقه شيء والباطن فليس دونه شيء ، هكذا فسره رسول الله ﷺ في حديث أبى هريرة عند مسلم[1] . وكذلك جمع تعالى بينهما فى الآية التى تليها فقال عز وجل ﴿ **هو الذى خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير** ﴾ وكذلك جمع النبى ﷺ بين هذين المعنيين فى حديث الأوعال إذ يقول « والله فوق العرش وهو يعلم ما أنتم عليه » وغير ذلك من الآيات والأحاديث ، وهو إجماع المؤمنين . (مهيمن) رقيب (عليهمو) بواو الاشباع (وذكره) تبارك وتعالى (للقرب) في قوله عز وجل ﴿ **وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان** ﴾ وقوله تعالى ﴿ **إنه سميع قريب** ﴾ وقولة النبى ﷺ فى حديث الصحيحين « إن الذى تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته » . (و) كذلك ذكره (المعية) العامة فى قوله تعالى ﴿ **ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا** ﴾ وقوله عز وجل ﴿**وهو معكم أينما كنتم** ﴾ وكذا المعية الخاصة في قوله عز وجل ﴿ **إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون** ﴾ وقوله ﴿ **واصبروا إن الله مع الصابرين** ﴾ وقوله لموسى وهارون ﴿**إننى معكما أسمع وأرى** ﴾ وقوله فى قصة نبينا ﷺ مع الصديق رضى الله عنه ﴿ **إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا** ﴾ كل ذلك لم ينف العلو المذكور فى النصوص السابقة من الكتاب والسنة وإجماع الأمة من أنه تعالى مستو على عرشه بائن من خلقه ـ إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ـ تعرج الملائكة والروح إليه ـ يدبر الأمر من السماء إلى الأرض . (والفوقية) عطف على العلو وهو رديفه فى المعنى أى ولم ينف قوله عز وجل ﴿ **وهو القاهر فوق عباده** ﴾ وقوله ﴿ **يخافون ربهم من فوقهم** ﴾ وقول النبى ﷺ ﴿ والله فوق العرش وهو يعلم ما أنتم عليه ﴾ بل كل ذلك حق على حقيقته ولا منافاة بين قربه عز وجل وبين علوّه (فانه) هو (العليّ) المتصف بجميع معانى العلو ذاتا وقهرا وشأنا (فى دنوه) فيدنو تعالى من خلقه كيف شاء . وينزل إلى السماء الدنيا فى

---

(١) انظر صحيح مسلم بشرح النووى ح ٢٧٠٤ .

آخر كل ليلة وعشية عرفة وغير ذلك كيف شاء ويأتي لفصل القضاء بين عباده كيف شاء ، وليس ذلك منافيا لفوقيته فوق عباده واستوائه على عرشه فانه ليس كمثله شيء في ذاته ولا صفاته ولا أفعاله ومعيته العامة في قوله تعالى ﴿وهو معكم أينما كنتم﴾ معناها إحاطته بهم علما وقدرة كما يدل عليه أول السياق وآخره ، وهو إجماع الصحابة والتابعين كما تقدم نقل إجماعهم على ذلك . وأما معيته الخاصة لاحبابه وأوليائه فتلك غير المعية العامة، فهو معهم بالاعانة والرعاية والكفاية والنصر والأيد والهداية والتوفيق والتسديد وغير ذلك مما تجفو عبارة المخلوق عنه ، ويقصر تعريفه دونه ، وكفاك قول الله عز وجل فيما رواه عنه نبيه ﷺ إذ يقول « ولا يزال عبدى يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فاذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها » وفي بعض الروايات « وقلبه الذى يعقل به، ولسانه الذى ينطق به » وليس معنى ذلك أن يكون جوارحَ للعبد تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا . وإنما المراد أن من اجتهد بالتقرب إلى الله عز وجل بالفرائض ثم بالنوافل قربه إليه ورقاه من درجة الايمان إلى درجة الإحسان ، فيصير يعبد الله على الحضور والمراقبة كأنه يراه فيمتلئ قلبه بمعرفة الله تعالى ومحبته وعظمته وخوفه ومهابته وإجلاله والأنس به والشوق إليه حتى يصير هذا الذى في قلبه من المعرفة مشاهداً له بعين البصيرة . وإلى هذا المعنى أشار ﷺ بقوله « أحبوا الله من كل قلوبكم » فمتى امتلأ القلب بعظمة الله تعالى محا ذلك من القلب كل ما سواه ، ولم يبق للعبد شيء من نفسه وهواه ، ولا إرادة إلا لما يريد منه مولاه . فحينئذ لا ينطق العبد إلا بذكره ولا يتحرك إلا بأمره ، فان نطق نطق بالله ، وإن سمع سمع به ، وإن نظر نظر به ، وإن بطش بطش به، فهذا هو المراد بقوله عز وجل « كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها » . ومن أشار إلى غير هذا فانما يشير إلى الالحاد من الحلول والاتحاد ، والله ورسوله بريئان منه .

(وهو القريب جل في علوه) فهو سبحانه وتعالى مستو على عرشه عال على جميع خلقه وهو قريب يجيب دعوة الداع إذا دعاه . ويعلم سره ونجواه ، وهو أقرب إلى داعيه من عنق راحلته . ويعلم ما توسوس به نفس الانسان وهو أقرب إليه من حبل الوريد ، فان الذى عند عنق راحلته أو عند حبل وريده لا يعلم ما خفي عليه من كلامه ، والله عز وجل على عرشه ويعلم السر وأخفى ، ويعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو مع خلقه بعلمه وقدرته لا تخفى عليه منهم خافية وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ، فهو على كل شيء شهيد وبكل شيء محيط ، فهو سبحانه القريب في علوه ، العلي في دنوه وهو الأول

والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم .

﴿ حـــيّ وقيـوم فـلا ينـام وجـل أن يشبهــه الأنــام ﴾

﴿ لا تبلــغ الاوهام كنه ذاته ولا يكيف الحجا صفاته ﴾

(حيّ) لا يموت كما قال تعالى ﴿ **وتوكل على الحى الذى لا يموت** ﴾ وقال تعالى ﴿ **هو الحى لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين** ﴾ فهو الحي الذى لم تسبق حياته بالعدم ولم تعقب بالفناء ، هو الأول فليس قبله شيء والآخر فليس بعده شيء ، وفى الصحيحين عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى ﷺ كان يقول « أعوذ بعزتك الذى لا إله إلا أنت الذى لا يموت والجن والانس يموتون » .

(وقيوم) فهو القيوم بنفسه القيم لغيره فجميع الموجودات مفتقرة إليه وهو غنى عنها ولا قوام لها إلا به ولا قوام لها بدون أمره كما قال تعالى ﴿ **ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره** ﴾ وهو القائم على كل شيء والقائم بجميع أمور عباده والقائم على كل نفس بما كسبت . وفى الصحيحين من دعائه ﷺ فى صلاة الليل « اللهم لك الحمد أنت رب السموات والأرض ، ولك الحمد أنت قيم السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت نور السموات والأرض » الحديث . وقد جمع تعالى بين هذين الاسمين « الحى القيوم » فى ثلاثة مواضع من كتابة : الأول آية الكرسى من سورة البقرة ﴿ **الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السموات وما فى الأرض من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يئوده حفظهما وهو العلى العظيم** ﴾ ، الثانى أول سورة آل عمران ﴿ **آلم . الله لا إله إلا هو الحى القيوم** ﴾ ، الثالث فى سوره طه ﴿**وعنت الوجوه للحى القيوم وقد خاب من حمل ظلما** ﴾ وروى ابن مردويه عن أبى أمامة مرفوعا قال « اسم الله الأعظم الذى إذا دعى به أجاب في ثلاث سور : سورة البقرة وآل عمران وطه » . (فلا ينام) أى لا يعتريه نقص ولا غفلة ولا ذهول عن خلقه فان ذلك نقص فى حياته وقيوميته ، ولهذا أردف هذين الاسمين بنفى السِّنة والنوم فقال ﴿ **الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم** ﴾ أى لا تغلبه سنة وهو الوسن والنعاس ، ولا نوم ونفيه من باب أولى لأنه أقوى من السنة ، بل هو قائم على كل نفس بما كسبت شهيد على كل شيء ولا يغيب عنه شيء ولا تخفى عليه خافية . وفى الصحيحين عن أبى موسى رضى الله عنه قال : قام فينا رسول الله ﷺ بأربع كلمات فقال « إن الله لا ينام ولا ينبغى له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار وعمل

النهار قبل عمل الليل ، حجابه النور ـ أو النار ـ لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه» . (وجل) عن (أن يشبهه الأنام) في ذاته أو أسمائه أو صفاته أو أفعاله لأن الصفات تابعة لموصوفها فكما أن ذاته لا تشبه الذوات فكذلك صفاته لا تشبه صفات المخلوقات ، ولو اهتدى المتكلمون لهذا المعنى الذى هدى الله إليه أهل السنة والجماعة لما نفوا عن الله ما وصف به نفسه ووصفه به رسول الله ﷺ ولما عطلوه عن صفات كماله ونعوت جلاله فرارا بزعمهم من التشبيه فوقعوا فى أعظم من ذلك ولزمهم أضداد ما نفوه من الصفات الثابتة بالكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة ، وسبب ضلالهم أنهم تقدموا بين يدى الله ورسوله واتهموا الوحيين فيما نطقا به ووزنوهما بعقولهم السخيفة وأذهانهم البعيدة وقوانينهم الفاسدة التى هى ليست من الله فى شىء ، ولا من علوم الاسلام فى ظل ولا فىء ، وإنما هى أوضاع مختلفة أدخلها الأعادى على أهل الاسلام لقصد إظهار الفساد ، ولغرس شجرة الالحاد ، المثمرة تعطيل البارى عز وجل عن صفات كماله وعلوه واعتقاد الحلول والاتحاد .

جـــاءوا بها فى قالب التنزيه ... لله كـى يغـوون كل سفيه

قالـــوا صفات كماله منفيه ... عنه مخافـة موجب التشبيـــه

تعطيلهم سموه « تنزيها » له ... ليروّجوا فاعجب لذا التمويـــه

والوحـى قالـوا نصه لا يـوجـب ... العلـم اليقـين فـأى ديـن فيه

وما الدين إلا ما عـن اليونـان قد ... جئنا بـه طـــوبى لمـن يحـويه

نبذوا كتاب الله خلف ظهورهم ... وبقـوا حيـارى فى ضلال التيه

فسموا النور الذى أنزله الله عز وجل على رسوله ﷺ تفصيل كل شىء وتبيانا لكل شىء ولم يفرط فيه من شىء وبيان النبى ﷺ من جوامع كلمه التى اختصه الله بها ، فسموا ذلك كله « آحادا ظنية لا تفيد اليقين » ، وسموا زخارف أذهانهم ووساوس شيطانهم «قواطع عقلية » ، لا والله ما هى إلا خيالات وهمية ووساوس شيطانية ، هى من الدين بريئة وعن الحق أجنبية ، توجب الحيرة وتعقب الحسرة كثيرة المبانى قليلة المعانى كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء ، وياليته إذا جاءه لم يجده شيئا لكن وجده السم النقيع والداء العضال ، فخاخ هلكة نصبها الاعداء لاصطياد الأغبياء ، وخدعة ماكر فى صورة ناصح فعل عدو الله اللعين فى قصته مع الأبوين عليهما السلام فى دلالتهما على الشجرة التى نهاهما ربهما عنها ﴿ **وقاسمهما إنى لكما لمن الناصحين ، فدلاهما بغرور** ﴾ إلى

آخر الايات ، وكذلك كتب الكلام والمنطق اليونانى أدخله الأعداء علينا وسموه علم التوحيد تلبيسا وتمويها وما هو إلا سلم الالحاد والزندقة ، وجحدوا صفات البارى عز وجل وسموا ذلك تنزيها ليغروا الجهال بذلك ، وإنما هو محض التعطيل . وسموا أولياء الله المؤمنين الذين عرفوه بأسمائه وصفاته مشبهة لينفروا الناس عنهم مكرا وخديعة ، فأصبح المغرور بقولهم المخدوع بمكرهم حائرا مخذولا لأنهم لما عزلوا كتاب الله عن البيان وحكموا عقولهم السخيفة فى نصوص صفات الديان لم يفهموا إلا ما يقوم بالمخلوق من الجوارح والأدوات التى منحه الله إياها ومتى شاء سلبه ، ولم ينظروا المتصف بها من هو ، فلذلك نفوها عن الله عز وجل لئلا يلزم من إثباتها التشبيه ، فشبهوا أولا وعطلوا ثانيا ، فلما نفوا عن الله صفات كماله لزمهم إثبات ضدها وهو النقائص ، فمن نفى عن الله كونه سميعا بصيرا فقد شبهه بما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى شيئا وكذلك سائر الصفات وماذا عليهم لو أثبتوا لله عز وجل ما أثبته لنفسه وأثبته له رسوله ﷺ كما شاء الله تعالى وعلى الوجه الذى أراد ، فجميع صفاته صفات كمال وجلال تليق بعظمة ذاته ونفيها ضد ذلك ، ولا يلزم من اتفاق التسمية اتفاق المسميات فان الله تعالى قد سمى نفسه سميعا بصيرا ، وأخبرنا أنه جعل الانسان سميعا بصيرا ، وسمى نفسه الرءوف الرحيم ، وأخبر أن نبيه ﷺ بالمؤمنين رءوف رحيم ، وسمى نفسه الملك فقال ﴿ **ملك**[1] **يوم الدين** ﴾ و ﴿ **ملك الناس**﴾ وسمى بعض خلقه ملكا فقال ﴿ **وقال الملك ائتونى به أستخلصه لنفسى** ﴾ وهو العزيز وسمى بعض عباده عزيزا وغير ذلك ، فلا يلزم من اتفاق التسمية اتفاق الأسماء ومقتضياتها ، فليس السمع كالسمع ولا البصر كالبصر ولا الرأفة كالرأفة ولا الرحمة كالرحمة ولا العزة كالعزة ، كما أنه ليس المخلوق كالخالق ولا المحدث الكائن بعد أن لم يكن كالأول الآخر الظاهر الباطن ، وليس الفقير العاجز عن القيام بنفسه كالحى القيوم الغنى عما سواه وكل ما سواه فقير إليه ، فصفات الخالق الحى القيوم قائمة به لائقة بجلاله أزلية بأزليته دائمة بديموميته ، لم يزل متصفا بها ولا يزال كذلك ، لم تسبق بضد ولم تعقب به ، بل له تعالى الكمال المطلق أولا وأبدا ﴿ **ليس كمثله شىء وهو السميع البصير** ﴾ ، فمن شبه الله تعالى بخلقه فقد كفر ومن نفى عنه ما وصف به نفسه فقد كفر وليس فيما وصف الله به نفسه ورسوله تشبيه . (لا تبلغ الأوهام كنه ذاته) أى نهاية حقيقتها كما قال تعالى ﴿ **يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما** ﴾ وقال تعالى ﴿ **ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء** ﴾ وإنما نعرفه تعالى بما وصف به نفسه فى كتبه المنزلة على رسله بأنه أحد صمد ﴿ **لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا**

---

(١) على قراءة من قرأ « ملك » بدون الألف .

أحد﴾ ، ﴿ الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم ﴾ الى آخر الاية ، ﴿ هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم ، هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون ، هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ ، ﴿ هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم ﴾ إلى غير ذلك من آيات الأسماء والصفات . (ولا يكيف الحجا) أى العقل (صفاته) لأنه لا يعلم كيف هو إلا هو ، فالواجب علينا أيها العبيد الإيمان بالله وأسمائه وصفاته وإمرارها كما جاءت واعتقاد أنها حق كما أخبر الله عز وجل وأخبر رسوله ﷺ ، وعدم التكييف والتمثيل لأن الله عز وجل أخبرنا بأسمائه وصفاته وأفعاله ولم يبين كيفيتها فنصدق الخبر ونؤمن به ونكل الكيفية إلى الله عز وجل ، فصفات ذاته تعالى من الحياة والعلم والسمع والبصر والقدرة والارادة وغيرها وكذلك صفات أفعاله من الاستواء على العرش والنزول إلى سماء الدنيا والمجيء لفصل القضاء بين عباده وغير ذلك كلها حق على حقيقتها ، علمنا اتصافه تعالى بها بما علمنا فى كتابه وسنة رسوله ﷺ ، وغاب عن جميع المخلوقين كيفيتها ولم يحيطوا بها علما كما قالت أم سلمة رضى الله عنها وربيعة الرأى ومالك بن أنس وغيرهم رحمهم الله تعالى : الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول والايمان به واجب والسؤال عنه بدعة ومن الله الرسالة وعلى الرسول البلاغ وعلينا التصديق والتسليم ، وكذلك القول فى جميع صفاته عز وجل ، وإنا والله لكالون حائرون فى كيفية سراية الدم فى أعضائنا وجريان الطعام والشراب فينا وكيف يدبر الله تعالى قوت كل عضو فيه بحسب حاجته ، وفى استقرار الروح التى هى بين جنبينا وكيف يتوفاها الله فى منامها وتعرج إلى حيث شاء الله عز وجل ويردها إذا شاء ، وفى كيفية إقعاد الميت فى القبر وعذابه ونعيمه ، وكيفيه قيام الأموات من القبور حفاة عراة غرلا وكيفية الملائكة وعظم خلقهم فكيف العرش الذى لا يقدر قدره إلا الله عز وجل ، كل ذلك نجهل كيفيته ونحن مؤمنون به كما أخبرنا الله عز وجل عنه على ألسنة رسله عليهم الصلاة والسلام إيمانا بالغيب وإن لم نعلم الكيفية ، فكيف بالخالق عز وجل وأسمائه الحسنى وصفاته العلى ، ولله المثل الأعلى فى السموات والأرض وله الحمد فى الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون ، آمنا بالله واشهد بانا مسلمون ، آمنا به كل من عند ربنا، ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين .

﴿ باق فلا يفنى ولا يبيد ولا يكـــون غير ما يريـــد ﴾

﴿ منفرد بالخلق والإراده وحاكم ـ جل ـ بما أراده ﴾

(باق) كما أنه الأول بلا ابتداء فهو الباقي بلا انتهاء ، فكما لا ابتداء لأوليته كذلك لا انتهاء لآخريته (فلا يفنى ولا يبيد) بل هو المفنى المبيد ، وهو المبدئ المعيد ، قال الله عز وجل **﴿ ولا تدعُ مع الله إلها آخر لا إله إلا هو كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون ﴾** وقـال تعـالى **﴿ كل من عليـهـا فـان ، ويبـقى وجـه ربك ذو الجـلال والاكرام﴾** . (ولا يكون) فى الكون (غيـر مـا يريد) والمراد بالارادة هنا الإرادة القـدرية الكونية التى لا بد لكل شيء منها ولا محيص ولا محيد لأحد عنها وهى مشيئة الله الشاملة وقدرته النافذة ، فما شاء الله تعالى كان وما لم يشأ لم يكن ، فهو سبحانه الفعال لما يريد، ولا نفوذ لإرادة أحد إلا أن يريد، وما من حركة ولا سكون فى السموات ولا فى الأرض إلا بارادته ومشيئته ، ولو شاء عدم وقوعها لم تقع ، وورود ذلك فى نصوص الكتاب والسنة معلوم كقوله تبارك وتعالى **﴿ فعال لما يريد ﴾** ، **﴿ فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ﴾** ، **﴿ واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا ﴾** وهذا الأمر القدرى الكونى غير الأمر الشرعي ، فان الله لا يأمر بالفسق شرعا ولا يحب الفاسقين وإنما هو أمـر تكوين ، ألا ترى أن الفسـق علة **﴿ حق القول عليـهم ﴾** و **﴿ حق القـول عليهم ﴾** علة لتدميرهم وهكذا الأمر سبب لفسقهم ومقتض له وذلك هو أمر التكوين ، وقال **﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾** ، **﴿ إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ﴾** ، **﴿ ومن يردِ الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا ﴾** ، **﴿ أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم ﴾** وقول نوح لقومه **﴿ ولا ينفعكم نصحى إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون ﴾** وقوله تعالى **﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء ﴾** وقوله تعالى **﴿ واذا أراد الله بقوم سوءا فلا مردّ له ﴾** وقوله تعالى **﴿وأن الله يهدى من يريد ﴾** ، **﴿ قل فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعا ﴾** ، **﴿ قل من ذا الذى يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءا أو أراد بكم رحمة ﴾** وقوله تعالى **﴿ قل فمن يملك لكم من الله شيئا إن أراد بكم ضرا أو أراد بكم نفعا ﴾** وقوله **﴿ يريد الله ألا يجعل لهم حظا فى الآخرة ﴾** وقوله **﴿ من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ﴾** وقول صاحب يس **﴿ أأتخذ من**

دونه آلهة إن يردنى الرحمن بضر لا تغنى عنى شفاعتهم شيئا ولا ينقذون ﴾ ، وقال تعالى ﴿ قل أرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادنى برحمة هل هن ممسكات رحمته ﴾ وقول النبى ﷺ « من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين » ، « من يرد الله به خيرا يصب منه » ، « إذا أراد الله رحمة أمة قبض نبيها قبلها وإذا أراد هلكة أمة عذبها ونبيها حى فأقر عينه بهلاكها » ، «إذا أراد الله بعبد خيرا عجل له العقوبة فى الدنيا وإذا أراد الله بعبد شرا أمسك عنه بذنوبه حتى يوافى به يوم القيامة » ، «إذا أراد الله قبض عبد بأرض جعل له إليها حاجة » ، إذا أراد الله بأهل بيت خيرا أدخل عليهم باب الرفق » ، « إذا أراد الله بقوم عذابا أصاب من كان فيهم ثم بعثوا على نياتهم » .

والآثار النبوية فى ذلك كثيرة ، وكذلك لفظ «المشيئة» فى الكتاب والسنة وروده معلوم كقوله تعالى ﴿ ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد ﴾ وقال تعالى ﴿ كذلك يفعل الله ما يشاء ﴾ وقال ﴿ ولو شاء ربك ما فعلوه ﴾ ، ﴿ ولو شاءربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا ﴾ ، ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة﴾، ﴿ أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا ﴾[1] ، ﴿ولو شاء الله لجمعهم على الهدى ﴾ ، ﴿ ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ﴾ ، ﴿ ولو شاء الله لانتصر منهم ﴾ ، ﴿ ولو شئنا لنذهبن بالذى أوحينا إليك ﴾ ، ﴿ فإن يشأ الله يختم على قلبك ﴾ ، ﴿ إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديرا ﴾ ، ﴿ لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين ﴾ ، ﴿ إنما يأتيكم به الله إن شاء﴾ وقوله عن إمام الحنفاء ﴿ ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربى شيئا وسع ربى كل شىء علما ﴾ وقوله عن الذبيح ﴿ ستجدنى إن شاء الله من الصابرين ﴾ وقوله عن شعيب عليه السلام ﴿ وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا وسع ربنا كل شىء علما﴾ وقوله عن يوسف ﴿ ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين ﴾ وقوله عن موسى ﴿ ستجدنى إن شاء الله صابرا ﴾ وقوله عن قوم موسى ﴿ وإنا إن شاء الله لمهتدون ﴾ وقوله لنبيه ﷺ ﴿ ولا تقولن لشىء إنى فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله ﴾ ، ﴿ قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله ﴾ وقال ﴿خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك ﴾ وعن النار مثل ذلك ، وقال ﴿ ربكم أعلم بكم إن يشأ يرحمكم أو إن يشأ يعذبكم ﴾ وقال ﴿ يغفر لمن يشاء ويعذب

(١) الآية : ٣١ من سورة الرعد ، وقد وردت فى الأصل : « ولو شاء الله ... » وهو تحريف .

من يشاء ﴾ وقال ﴿ ولكن ينزل بقدر ما يشاء ﴾ وقال ﴿إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾ وقال ﴿ يمحو الله ما يشاء ويثبت ﴾ وقال ﴿ قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به ﴾ وقال ﴿ نحن خلقناهم وشددنا أسرهم وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا ﴾ وقال ﴿ وما يذكرون إلا أن يشاء الله ﴾ وقال ﴿ وما تشاءون إلا أن يشاء الله ﴾ فأخبر أن مشيئتهم وفعلهم موقوفان على مشيئته لهم هذا وهذا . وقال ﴿قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير ﴾ وقال ﴿ ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم ﴾ وقال ﴿ يختص برحمته من يشاء ﴾ وقال ﴿ ولكن الله يزكى من يشاء ﴾ وقال ﴿ والله يضاعف لمن يشاء ﴾ وقال ﴿نصيب برحمتنا من نشاء ﴾ وقال ﴿ نرفع درجات من نشاء ﴾ وقال ﴿ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ﴾ وقال ﴿ ولكن الله يمن على من يشاء من عباده ﴾ وقال ﴿ فنُجىَ من نشاء ولا يُردُّ بأسُنا عن القوم المجرمين ﴾ وقال ﴿ الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه فى السماء كيف يشاء ﴾[1] وقال ﴿ إن ربى لطيف لما يشاء ﴾ وقال ﴿ يؤتى الحكمة من يشاء ﴾ وقال ﴿ ولو نشاء لطمسنا على أعينهم ﴾ ، ﴿ ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم ﴾ وقال ﴿ ان يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره ﴾ وقال ﴿ولو نشاء لجعلناه حطاما ﴾ ، ﴿ لو نشاء جعلناه أجاجا ﴾ وقال ﴿ فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء ﴾ وقال ﴿ إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد ﴾ ، ﴿ إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء ﴾ ، ﴿ ولو شاء الله لأعنتكم ﴾ ، ﴿ الله يجتبى إليه من يشأ ﴾ ، ﴿والله يضاعف لمن يشاء﴾، ﴿ وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة ﴾ ﴿ لله ملك السموات والأرض يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور، أو يزوجهم ذكرانا واناثا ويجعل من يشاء عقيما ﴾ ، ﴿ ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم صراط الله ﴾ ﴿ هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء ﴾ ، ﴿ فى أى صورة ما شاء ركبك ﴾ ﴿ ولكن الله يمنُّ على من يشاء من عباده ﴾ ، ﴿ الله لطيف بعباده يرزق من يشاء ﴾ ، ﴿ ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر ﴾ وغير ذلك من الآيات . قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى بعد أن ساق نحوا من هذه الايات : وهذه الآيات ونحوها تتضمن الرد على طائفتي الضلال نفاة المشيئة بالكلية ونفاة مشيئة أفعال العباد وحركاتهم وهداهم وضلالهم، وهو سبحانه يخبر تارة أن كل ما فى الكون بمشيئته ، وتاره أن ما لم يشأ لم يكن ، وتارة

(١) الآية : ٤٨ من سورة الروم ، ولفظة « الذى » ساقطة من الأصل .

أنه لو شاء لكان خلاف الواقع وأنه لو شاء لكان خلاف القدر الذى قدره وكتبه وأنه لو شاء ما عصى وأنه لو شاء لجمع خلقه على الهدى وجعلهم أمة واحدة ، فتضمن ذلك أن الواقع بمشيئته ، وأن ما لم يقع فهو لعدم مشيئته ، وهذا حقيقة الربوبية وهو معنى كونه ﴿رب العالمين﴾ وكونه القيوم القائم بتدبير أمور عباده ، فلا خلق ولا رزق ولا عطاء ولا منع ولا قبض ولا بسط ولا موت ولا حياة ولا ضلال ولا هدى ولا سعادة ولا شقاوة إلا بعد إذنه ، وكل ذلك بمشيئته وتكوينه إذ لا مالك غيره ولا مدبر سواه ولا رب غيره . اهـ.

والأحاديث من السنة النبوية فى إثبات المشيئة كثيرة جدا ، منها قوله ﷺ فى شأن الجنين « فيقضى ربك ما شاء ويكتب الملك » وقوله « اشفعوا تؤجروا ، ويقضى الله على لسان نبيه ما يشاء »[(١)] ، « إن الله قبض أرواحكم حين شاء وردها حين شاء »[(٢)] ، « إن الله لو شاء لم تناموا عنها ، ولكنه أراد ليكون لمن بعدكم » ، « قولوا ما شاء الله وحده » ، «قلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفها كيف يشاء » ، « ما من قلب إلا بين إصبعين من أصابع الرحمن إن شاء أقامه وإ شاء أزاغه » وكان ﷺ يقول « اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك » وقوله عن الله عز وجل « فذلك فضلى أوتيه من أشاء »[(٣)] وقوله « مثل الكافر كمثل الارزة صماء معتدلة حتى يقصمها الله إذا شاء »[(٤)]، وقوله « تعرّضوا لنفحات رحمة الله ، فان لله عز وجل سحائب من رحمته يصيب بها من يشاء من عباده » وقوله فى حديث البيعة « ومن أصاب من ذلك شيئا فستره الله فهو إلى الله عز وجل ، إن شاء عذبه وإن شاء غفر له » وفى حديث احتجاج الجنة والنار قوله تعالى للجنة « أنت رحمتى أرحم بك من أشاء » وللنار « أنت عذابى أعذب بك من أشاء » وقوله ﷺ « لا يقل أحدكم اللهم اغفر لى إن شئت اللهم ارحمنى إن شئت وارزقنى إن شئت ، ليعزم المسألة ، فان الله تعالى لا مكره له » وقوله « ولكن قل قدر الله وما شاء فعل» ، وقوله عن الله عز وجل « ذلك بأنى أفعل ما أشاء ، عطائى كلام وعذابى كلام ، إنما أمرى لشىء إذا أردته أن أقول له كن فيكون » وقوله « ما أنعم الله على عبد من نعمة من أهل وولد فيقول ما شاء الله لا قوة إلا بالله فيرى فيه آية دون الموت» وفى حديث الشفاعة « فيدعنى ما شاء الله أن يدعنى » وفى حديث آخر أهل الجنة دخولا الجنة « فيسكت ما شاء الله أن يسكت» وفيه قوله تعالى « لا أهزأ بك ولكنى على ما أشاء قدير» وقال «فأريد إن شاء الله أن أختبئ دعوتى شفاعة لأمتى» وقال «لا يدخل النار إن شاء

(١) انظر الفتح من تحقيقنا ح ٧٠٣٨ .
(٢) انظر الفتح ح ٧٠٣٣ .
(٣) فتح البارى ح ٧٠٩٥ .
(٤) الفتح ح ٧٠٢٨ .

الله من أصحاب الشجرة الذين بايعوا تحتها أحد » ، وقال إني لأطمع أن يكون حوضي إن شاء الله ما بين أيلة إلى كذا » وقال في المدينة « لا يدخلها الطاعون ولا الدجال إن شاء الله تعالى»[١] وفي زيارة القبور « وإنا إن شاء الله بكم لاحقون » وفي حصار الطائف « إنا قافلون غدا إن شاء الله »[٢] ، وفي قدومه مكة « منزلنا غدا إن شاء الله بخيف بني كنانة»[٣] وفي قصة بدر « هذا مصرع فلان غدا إن شاء الله وهذا مصرع فلان إن شاء الله» وفي بعض أسفاره « إنكم تأتون الماء غدا إن شاء الله » وقال « من حلف فقال إن شاء الله فان شاء مضى وإن شاء رجع غير حنث » وقال « لأغزون قريشا » ثم قال في الثانية « إن شاء الله» . وقال « ألا مشمرٌ للجنة » فقال الصحابة نحن المشمرون لها يا رسول الله ، فقال «قولوا إن شاء الله » قالوا إن شاء الله ، وغير ذلك من الاحاديث الثابتة .

(منفرد) ربنا عز وجل (بالخلق) فما من مخلوق في السموات والأرض إلا الله خالقه سبحانه لا خالق غيره ولا رب سواه فهو خالق كل صانع وصنعته وخالق الكافر وكفره والمؤمن وإيمانه والمتحرك وحركته والساكن وسكونه كما قال تعالى ﴿ **الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل** ﴾ وقال تعالى ﴿ **هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض لا إله إلا هو فأنى تؤفكون** ﴾[٤] وقال تعالى ﴿ **هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن والله بما تعملون بصير** ﴾ ﴿ **خلق السموات والأرض بالحق وصوركم فأحسن صوركم وإليه المصير** ﴾ وقال تعالى ﴿ **والله خلقكم وما تعملون** ﴾ وقال تعالى ﴿**الله الذى خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء** ﴾ وقال تعالى ﴿ **والله جعل لكم من بيوتكم سكنا وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حين ، والله جعل لكم مما خلق ظلالا وجعل لكم من الجبال أكنانا وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم** ﴾ وقال تعالى ﴿ **أفرأيتم ما تمنون أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون ، ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون . أفرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ، لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون . إنا لمغرمون بل نحن محرومون أفرأيتم الماء الذى تشربون أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ، لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون أفرأيتم النار التى تورون ، أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون . نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين فسبح باسم ربك العظيم** ﴾ وفي الصحيح من حديث الأشعريين ما أنا أحملكم ولكن الله حملكم . وفيه من حديث المصورين « ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي ، فليخلقوا ذرة أو ليخلقوا حبة

---

(١) انظر الفتح ح ١٧٨٢ (٢) انظر الفتح ح ٧٠٤٢ . (٣) انظر الفتح ح ٧٠٤١ .

(٤) الآية : ٣ كم سورة فاطر ، وقد وردت مضطربة بالأصل .

أو ليخلقوا شعيرا » وفيه « من صور صورة كلف أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ » وغير ذلك من الأحاديث الثابتة الصحيحة ، فلله الخلق والأمر وله الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير . (والارادة) أي ومنفرد بالارادة فلا مراد لأحد معه ولا إرادة لأحد إلا بعد إرادته عز وجل ومشيئته كما قال تعالى ﴿ **كلا إنه تذكرة فمن شاء ذكره ، وما تشاءون إلا أن يشاء الله هو أهل التقوى وأهل المغفرة** ﴾ وقال تعالى ﴿ **إن هو إلا ذكر للعالمين لمن شاء منكم أن يستقيم ، وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين** ﴾ وقال تعالى ﴿ **إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا ، وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليما حكيما يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعد لهم عذابا أليما** ﴾ فللعباد قدرة على أعمالهم ولهم مشيئة والله خالقهم وخالق قدرتهم ومشيئتهم ، ولا قدرة لهم ولا مشيئة إلا بإقدار الله عز وجل إذا شاء وأراد .

(وحاكم جل بما أراده) فلا معقب لحكمه ولا راد لإرادته ولا مناقض لقضائه وقدره ﴿ **وما كان الله ليعجزه من شيء في السموات ولا في الأرض** ﴾ بل هو فعال لما يريد ، ﴿**وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة ـ بديع السموات والأرض وإذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون** ﴾ ﴿ **إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون** ﴾ ﴿ **إن الله يحكم ما يريد** ﴾ ويفعل ما يشاء ويخلق ما يشاء لا ناقض لما أبرم ولا معارض لما حكم ولا يقال لم فعل كذا وهلا كان كذا لأنه ﴿ **لا يسأل عما يفعل وهم يسألون** ﴾ وفي حديث أبي ذر عند الترمذي وغيره وفي آخره قال « ذلك بأني جواد واجد ماجد أفعل ما أريد عطائي كلام وعذابي كلام ، إنما أمري لشيء إذا أردته أن أقول له كن فيكون » .

﴿ فمن يشأ وفقه بفضله ومن يشأ أضله بعدله ﴾

﴿ فمنهم الشقي والسعيد وذا مقرب وذا طريد ﴾

قال الله عز وجل ﴿ **من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم** ﴾ وقال تعالى ﴿ **من يهد الله فهو المهتدى ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون** ﴾ وقال تعالى ﴿**من يضلل الله فلا هادى له ويذرهم في طغيانهم يعمهون** ﴾ وقال تعالى ﴿ **ومن يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد لهم من دونه أولياء** ﴾[1] وقال تعالى ﴿ **من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا** ﴾ وقال تعالى ﴿ **أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا فان الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات**﴾ وقال تعالى ﴿ **فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء** ﴾ وقال تعالى ﴿ **قل إن الله يضل من يشاء ويهدى**

(١) الآية : ٩٧ من سورة الإسراء ، وقد وردت مضطربة للأصل .

إليه من أناب ﴾ وقال تعالى ﴿ **إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين** ﴾ وقال تعالى ﴿ **ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين** ﴾ وقال تعالى ﴿ **قل هل من شركائكم من يهدى إلى الحق ، قل الله يهدى للحق أفمن يهدى إلى الحق أحق أن يتبع أم من لا يهدى إلا أن يهدى فما لكم كيف تحكمون** ﴾ وقال تعالى ﴿ **قل إن هدى الله هو الهدى** ﴾ وقل تعالى ﴿ **قل إن الهدى هدى الله** ﴾ وقال تعالى ﴿ **ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها** ﴾ وقل النبى ﷺ فى خطبته « من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له »[1] وقال ﷺ « اللهم آت نفسى تقواها ، زكها أنت خير من زكاها . انك إنت وليها ومولاها »

(فمنهم) أى من عباده (الشقى) وهو من أضله بعدله (و) منهم (السعيد) وهو من وفقه وهداه بفضله ، فالسعيد من سعد بقضاء الله والشقى من شقى بقضاء الله ، فلله الحمد على فضله وعدله (وذا مقرب) بتقريب الله إياه إليه وهو السعيد (وذا طريد) بابعاد الله إياه وهو الشقى البعيد ، فبيده تعالى الهداية والاضلال والاشقاء والاسعاد ، فهدايته العبد وإسعاده فضل ورحمة ، وإضلاله وإبعاده عدل منه وحكمة ، وهو أعلم بمواقع فضله وعدله ، وهو الحكيم العليم الذى يضع الأشياء مواضعها ، وهو أعلم بمن هو محل الهداية فيهديه ، ومن هو محل الإضلال فيضله وهو أحكم الحاكمين ، وهو عليم بالمتقين ، وعليم بالظالمين ، وعليم بالمهتدين ، وهو أعلم بالشاكرين وأعلم بما فى صدور العالمين ، وهو أعلم حيث يجعل رسالته ، وهو أعلم بمن ضل عن سبيله ، وهو أعلم بمن اهتدى ، وله فى ذلك الحكمة البالغة والحجة الدامغة ولذا نقول :

﴿ لحكمة بالغة قضاها يستوجب الحمد على اقتضاها ﴾

أى إن جميع أفعاله من هدايته من يشاء وإضلاله من يشاء وإسعاد من يشاء وإشقاء من يشاء وجعله أئمة الهدى يهدون إلى الحق بأمره وأئمة الضلالة يهدون إلى النار ، وإلهامه كل نفس فجورها وتقواها ، وجعله المؤمن مؤمنا والكافر كافرا عاصيا مع قدرته التامة الشاملة وأنه لو شاء لجعل الناس أمة واحدة ولو شاء لجمعهم على الهدى ، ولو شاء لآمن من فى الأرض كلهم جميعا ولكن هذا الذى فعله بهم من قسمتهم إلى ضال ومهتد وشقى وسعيد ومقرب وطريد وطائع وعاص ومؤمن وكافر وغير ذلك هو مقتضى حكمته وموجب ربوبيته ، وحكمته حكمة حق وهى صفته القائمة به كسائر الصفات ، وهى متضمن اسمه « الحكيم » ، وهى الغاية المحبوبة له ولأجلها خلق فسوى ، وقدر فهدى ، وأسعد وأشقى ، ومنع وأعطى ، وخلق السموات والأرض والآخرة والأولى ، فهو سبحانه الحكيم فى خلقه وتكوينه الحكيم فى قضائه وقدره الحكيم فى أمره ونهيه وجميع شرعه ،

(١) انظر الفتح ، من تحقيقنا ، كتاب المغازى .

فإن أسماءه وصفاته صفات كمال وجلال ، وأفعاله كلها عدل وحكمة ، والفعل لغير حكمة عبث ، والعبث من صفات النقص ، والله تعالى منزه بجميع أسمائه وصفاته وأفعاله عن جميع النقائص ، فجميع ما خلقه وقضاه وقدره خير وحكمة من جهة إضافته إليه سبحانه وتعالىٰ ، وكذلك جميع ما شرعه وأمر به كله حكمة وعدل ، وما كان من شرّ في قضائه وقدره فمن جهة إضافته إلى فعل العبد لأنها معصية مذمومة مكروهة للرب غير محبوبة ، وأما من جهة إضافته إلى الرب عز وجل فخير محض ولحكمة بالغة وعدل تام وغاية محمودة لا شر فيها البتة ، ولهذا قال تعالى فيما قصه عن الجن ﴿ **وأنا لا ندرى أشر أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا** ﴾ فبنى الفعل فى إرادة الشر للمفعول لأنه لا شر فى حقه تعالى وقال النبى ﷺ فى دعاء الافتتاح من صلاة الليل « لبيك اللهم وسعديك ، والخير كله فى يديك ، والشر ليس إليك » فنفى أن يضاف الشر إلى الله بوجه من الوجوه وإن كان هو خالقه ، لأنه ليس شرا من جهة إضافته إليه عز وجل ، وإنما كان شرا من جهة إضافته إلى العبد . وذلك لأن الشر ليس إلا السيئات وعقوبتها ، وموجب السيئات شر النفس وجهلها ، ولهذا قال النبى ﷺ « الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا » وقال ﷺ فى سيد الاستغفار الذى علمه أمته « اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت ، خلقتنى وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك على ، وأبوء بذنبى فاغفر لى لا يغفر الذنوب إلا أنت » ، وقال تعالى فى حكايته استغفار الملائكة للمؤمنين ﴿ **وقهم السيئات ، ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته ، وذلك هو الفوز العظيم** ﴾ ومن وقاه الله السيئات وأعاذه منها فقد وقاه عقوباتها من باب الاستلزام ، فاذا علم أن موجب السيئات هو الظلم والجهل وذلك من نفس العبد وهى أمور ذاتية لها ، وأن السيئات هى موجب العقوبة والعقوبة من الله عدل محض ، وإنما تكون شرا فى حق العبد لما يلحقه من ألمها ، وذلك بما كسبت يداه جزاء وفاقا كما قال تعالى ﴿ **وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير** ﴾ وقال تعالى ﴿ **وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين** ﴾ وقال تعالى ﴿ **إن الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون** ﴾ فأفعال الله عز وجل كلها خير بصدورها عن علمه وحكمته وعدله وغناه التى هى من صفات ذاته ، فإذا أراد بعبده الخير أعطاه من فضله علما وعدلا وحكمة فيصدر منه الاحسان والطاعة والبر والخير ، وإذا أراد به شرا أمسكه عنه وخلاه ودواعى نفسه وطبعه وموجبها ، فصدر منه موجب الجهل والظلم من كل شر وقبيح ، وليس ذلك ظلما منه سبحانه فانه فضله يؤتيه من يشاء ، وليس من منع فضله ظالما ولا سيما إذا منعه عن محل لا يستحقه ولا يليق به ، وأيضا

فان هذا الفضل هو توفيقه وإرادته تعالى أن يلطف بعبده ويعينه ويوفقه ولا يخلي بينه وبين نفسه ، وهذا محض فعله وفضله وهو أعلم بمن يصلح لذلك ، ولهذا قال تعالى ﴿ وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء منَّ الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين ﴾ وقال تعالى ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذى فى الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ، ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم أوليس الله بأعلم بما فى صدور العالمين ، وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين ﴾ وقال تعالى ﴿ وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله ، الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ وقال تعالى ﴿ وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون ، إن ربك هو أعلم من يضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ﴾ وقال تعالى ﴿ إن تحرص على هداهم ، فان الله لا يهدى من يضل وما لهم من ناصرين ﴾ وقال تعالى ﴿ فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ، ذلك مبلغهم من العلم إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى ﴾ وقال تعالى ﴿ ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ وقال تعالى ﴿ فما يكذبك بعد بالدين أليس الله بأحكم الحاكمين ﴾ بلى ونحن على ذلك من الشاهدين وقال تعالى ﴿قل إن الهدى هدى الله أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ـ إلى قوله ـ قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ وقال تعالى ﴿ هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة فى بطون أمهاتكم فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى ﴾ وقال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم . ليعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شيء من فضل الله وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ اللهم إنا نسألك من فضلك العظيم أن تهدينا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ، آمين ياحى ياقيوم يا ذا الجلال والاكرام يا بديع السموات والأرض برحمتك نستغيث ، اللهم رحمتك نرجو فلا تكلنا إلى أنفسنا ولا إلى أحد من خلقك طرفة عين وأصلح لنا شأننا كله لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين .

(يستوجب) يستحق (الحمد على اقتضاها) الضمير للحكمة ، فله الحمد على مقتضى حكمته في جميع خلقه وأمره ، فجميع ما يفعله ويأمر به هو موجب ربوبيته ومقتضى أسمائه وصفاته وله الحمد على جميع أفعاله وله الحمد على خلقه وأمره وهو

المحمود على طاعة العباد ومعاصيهم وإيمانهم وكفرهم ، وهو المحمود على خلقه الأبرار والفجار ، وعلى خلقه الملائكة والشياطين ، وعلى خلقه الرسل وأعداءهم ، وهو المحمود على عدله وحكمته فى أعدائه ، كما هو المحمود على فضله ورحمته على أوليائه ، وكل ذرة من ذرات الكون شاهدة بحكمته وحمده كما قال تعالى ﴿ **تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن ، وإن من شيء إلا يسبح بحمده** ﴾ وقال ﴿ **يسبح لله ما فى السموات وما فى الأرض له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير** ﴾ وقال تعالى ﴿ **وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحانه وتعالى عما يشركون** ﴾ ، ﴿ **وربك يعلم ما تكنُّ صدورهم وما يعلنون . وهو الله لا إله إلا هو له الحمد فى الأولى والآخرة وله الحكم واليه ترجعون** ﴾ وعلمنا النبى ﷺ فى ذكر الاعتدال من الركوع « ربنا لك الحمد ملء السموات والأرض وملء ما بينهما وملء ما شئت من شيء بعد » وفى الذكر عقب الصلوات « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير » ، وفى التلبية « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك » ، وفى الدعاء المأثور « اللهم لك الحمد كله ولك الملك كله وبيدك الخير كله وإليك يرجع الأمر كله ، أسألك الخير كله وأعوذ بك من الشر كله » وفى دعاء الافتتاح من صلاة الليل « اللهم لك الحمد أنت رب السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت الحق ووعدك الحق ولقاؤك حق والساعة حق والجنة حق والنار حق والنبيون حق ومحمد ﷺ حق » الحديث ، والآيات والأحاديث فى هذا الباب كثيرة ، والمقصود أن الرب عز وجل لا يكون إلا محمودا كما لا يكون إلا ربا وإلها ، فله الحمد كله وله الملك كله لا شريك له فى حمده كما لا شريك له فى ملكه ، وإن كان بعض خلقه محمودا كالرسل والعلماء فمرجع ذلك الحمد إليه ، كما أن مصدره وموجبه منه تعالى وهو الذى جعلهم كذلك ، وهذا كما أنه الملك لا شريك له فى ملكه ويرزق بعض عباده إذا شاء ملكا وهو مالكه وملكه وكما أنه العليم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء فيعلم بعض عباده من علمه ما شاء . وقال فى ذكر عبده يعقوب عليه السلام ﴿ **وإنه لذو علم لما علمناه** ﴾ ، وكذلك ما من محمود فى السموات ولا فى الأرض إلا وذلك الحمد راجع إلى الله عز وجل فى الحقيقة ، فحمد كل محمود داخل فى حمده ، كما أن كل ملك داخل فى ملكه ، وكل شيء فمنه وله وإليه ، فله الحمد رب السموات والأرض رب العالمين ، وله الكبرياء فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم .

(مسألة) : فان قيل قد أخبرنا الله عز وجل فى كتابه وعلى لسان رسوله وبما علمنا من صفاته أنه يحب المحسنين ، ويحب المتقين ، ويحب الصابرين ، ويرضى عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، ولا يحب الكافرين ولا يحب الظالمين ولا يرضى لعباده الكفر ولا يحب الفساد مع كون ذلك بمشيئته وإرادته وأنه لو شاء لم يكن ذلك فانه لا يكون فى ملكه ما لا يريد ، فما الجواب ؟ قلنا : إن الارادة والقضاء والأمر كل منها ينقسم إلى كونى وشرعى ، ولفظ المشيئة لم يرد إلا فى الكونى كقوله تعالى ﴿ **وما تشاءون إلا أن يشاء الله** ﴾ ، ومثال الارادة الكونية قوله تعالى ﴿ **وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مردّ له** ﴾ وقوله تعالى ﴿ **إنما قولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون** ﴾[1] . ومثال القضاء الكونى قوله تعالى ﴿ **وإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون** ﴾ ومثال الأمر الكونى قوله تعالى ﴿ **وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا** ﴾ فهذا القسم من الارادة والقضاء والأمر هو مشيئته الشاملة وقدرته النافذة وليس لأحد خروج منها ولا محيد عنها . ولا ملازمة بينهما وبين المحبة والرضا ، بل يدخل فيها الكفر والايمان والسيئات والطاعات ، والمحبوب المرضى له والمكروه المبغض كل ذلك بمشيئته وقدره وخلقه وتكوينه ، ولا سبيل إلى مخالفتها ولا يخرج عنها مثقال ذرة . ومثال الارادة الشرعية قوله تعالى ﴿ **يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر** ﴾ وقوله تعالى ﴿**يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم** ﴾ وقوله تعالى ﴿**والله يريد أن يتوب عليكم ، ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما** ﴾ . ومثال القضاء الشرعى قوله تعالى ﴿ **وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا** ﴾ ومثال الأمر الشرعى قوله تعالى ﴿ **إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون** ﴾ وهذه الارادة والقضاء والأمر الكونى القدرى هو المستلزم لمحبه الله تعالى ورضاه ، فلا يأمر إلا بما يحبه ويرضاه ولا ينهى إلا عما يكرهه ويأباه . ولا ملازمة بين هذا القسم وما قبله إلا فى حق المؤمن المطيع ، وأما الكافر فينفرد فى حقه الإرادة والقضاء والأمر الكونى القدرى ، فالله سبحانه وتعالى يدعو عباده إلى طاعته ومرضاته وجنته ويهدى لذلك من يشاء فى الكون والقدر هدايته ولهذا قال تعالى ﴿ **والله يدعو إلى دار السلام ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم** ﴾ فعمم الدعوة إلى جنته التى هى دار السلام وأنه يدعو إلى ذلك جميع عباده وهو أعلم بمن يستجيب ممن لا يستجيب ، وخص الهداية بمن يشاء هدايته كما قال تعالى ﴿ **يهدى الله لنوره من يشاء** ﴾ .

(١) الآية : ٤٠ من سورة النحل ، ووردت خطأ بالأصول .

(مسألة) فان قيل أليس بممكن فى قدرته تعالى أن يجعلهم كلهم طائعين مؤمنين مهتدين ؟ قلنا : بلى وقد قدمنا لك جملة وافية من الآيات والأحاديث فى ذلك ، ولكن قدمنا لك أيضا أن هذا الذى فعله بهم هو مقتضى حكمته وأسمائه وصفاته وموجب ربوبيته وإلهيته وهو أعلم بمواقع فضله وعدله ، فحينئذ قول القائل لم كان من عباده الطائع والعاصى ؟ كقول من قال لم كان من أسمائه الضار النافع والمعطى المانع والخافض الرافع والمنعم والمنتقم ونحو ذلك إذ أفعاله تعالى هى مقتضى أسمائه وآثار صفاته ، فالاعتراض عليه فى أفعاله اعتراض على أسمائه وصفاته بل وعلى إلهيته وربوبيته ، فسبحان رب العرش عما يصفون ، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون .

(مسألة) واعلم أنه قد يوسوس الشيطان لبعض الناس فيقول : ما الحكمة في تقدير السيئات مع كراهة الله تعالى إياها ، وهل يأتى المكروه بمحبوب ؟ فنقول : الحمد لله إيمانا بالهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته ، واستسلاما لأقداره وإرادته ، وتسليما لعدله وحكمته . اعلم يا أخى وفقنا الله وإياك أن الواجب على العبد أمر أهم من ذلك البحث وهو الايمان بالله وأسمائه وصفاته والتسليم لأقداره واليقين بعدله وحكمته والفرح بفضله ورحمته ، ونحن لا نعلم من حكمة الله وسائر أسمائه وصفاته إلا ما علمناه ولا يحيط بكنه شيء منها ونهايته إلا الذى اتصف بها وهو الله الذى لا إله إلا هو ، ومما علمناه من ذلك بما علمنا الله تبارك وتعالى أن السيئة لذاتها لا محبوبة لله ولا مرضية كما قال تعالى بعد أن نهى عباده عن الكبائر المذكورة فى سورة الاسراء ﴿ **كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها** ﴾ ولكن يترتب عليها من محابه ومرضاته ما هو أعلم به إما فى حق فاعلها من التوبة والإنابة والإذعان والاعتراف بقدرة الله عليه والخوف من عقابه ورجاء مغفرته ونفى العجب المحبط للحسنات عنه ودوام الذل والانكسار وتمحض الافتقار وملازمة الاستغفار وغير ذلك من الفرائض والطاعات المحبوبة للرب عز وجل التى أثنى فى كتابه على المتصفين بها غاية الثناء. وفى الصحيحين « لله أشدُّ فرحا بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع فى ظلها قد أيس من راحلته ، فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها فقال من شدة الفرح : اللهم أنت عبدى وأنا ربك ، أخطأ من شدة الفرح »[1] أخرجاه عن أنس رضى الله عنه عن النبى ﷺ . فالواجب على العبد كراهة ما يكرهه ربه وإلهه وسيده ومولاه من السيئات وعدم محبتها والنفرة منها ، والاجتهاد فى كف النفس عنها ، وأطرها على محابّ الله وأن لايصدر عنها شيء يكرهه الله عز وجل ، فان غلبته نفسه بجهلها وشرارتها

(١) انظر فتح البارى بشرح صحيح البخارى ، من تحقيقنا ، ح ٥٩٤٩

فصدر عنه شيء من ذلك المكروه فليبادر إلى دواء ذلك وليتداركه بمحابّ الله عز وجل ومرضاته من التوبه والانابة والاستغفار والادّكار وعدم الاصرار ، فان الله تعالى قد أرشد إلى ذلك وأثنى على من اتصف به ، قال الله عز وجل ﴿ **وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ، الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين . والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون . أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين** ﴾ وغير ذلك من الآيات . وفى الحديث « لو لم تذنبوا الأتى الله بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم » أو كما قال . فان ترتب على فعل السيئة من فاعلها هذه الأمور المحبوبة للرب عز وجل فذلك غاية مصلحة العبد وسعادته وفلاحه ، وإن لم يقع منه ذلك فلخبث نفسه وعدم صلاحيتها للملأ الأعلى ومجاورة المولى والله أعلم بالمهتدين ، وحينئذ يترتب عليها فرائض الله عز وجل على أوليائه المؤمنين من الدعوة إلى الله عز وجل التى هى من وظائف الرسل عليهم السلام والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر الذى هو من أعظم فرائض الله تعالى والجهاد فى سبيله هو ذروة سنام الاسلام ، وعليه يترتب لأوليائه الفتح أو الشهادة ويكفيك فى فضل ذلك قول الله عز وجل ﴿ **إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم . التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين** ﴾ ولو سردنا ما فى هذا الباب من الايات والأحاديث لطال الفصل ، ونحن نستغفر الله العظيم من الخوض فى هذا الباب ولسنا من الراسخين فى العلم ، وسيأتى إن شاء الله مزيد بحث فى هذا فى باب الايمان بالقدر ، وهناك نذكر مراتبه ومذاهب من خالف فيه أهل السنة والجماعة إن شاء الله تعالى والله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

﴿ وهو الذى يرى دبيب الذر   فى الظلمات فوق صم الصخر ﴾

﴿ وسامع للجهر والإخفات   بسمعه الواسع للأصوات ﴾

فى هذين البيتين إثبات البصر لله تعالى المحيط بجميع المبصرات ، وإثبات السمع له المحيط بجميع المسموعات ، وهاتان الصفتان من صفات ذاته تعالى وهما متضمن اسميه « السميع البصير » قال الله عز وجل ﴿ **إن الله يأمركم أن تؤدّوا الأمانات إلى أهلها وإذا**

حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعمّا يعظكم به إن الله كان سميعا بصيرا﴾ وقال تعالى ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ وقال تعالى ﴿ ذلك بأن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وأن الله سميع بصير ﴾ وقال تعالى ﴿ قل الله أعلم بما لبثوا له غيب السموات والأرض أبصر به وأسمع ﴾ قال ابن جرير وذلك فى معنى المبالغة في المدح كأنه قيل ما أبصره وأسمعه ، وتأويل الكلام ما أبصر الله لكل موجود وأسمعه لكل مسموع لا يخفى عليه من ذلك شيء ، ثم روى عن قتادة فى قوله تعالى ﴿ أبصر به وأسمع ﴾ : فلا أحد أبصر من الله ولا أسمع ، وقال ابن زيد ﴿ أبصر به وأسمع ﴾ : يرى أعمالهم ويسمع ذلك منهم إنه كان سميعا بصيرا ، وقال البغوى رحمه الله تعالى : أى ما أبصر الله بكل موجود وأسمعه لكل مسموع أى لا يغيب عن سمعه وبصره شيء . وقال تعالى لموسى وهرون عليهما السلام ﴿ إننى معكما أسمع وأرى ﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما : أسمع دعاءكما فأجيبه وأرى ما يراد بكما فأمنعه لست بغافل عنكما فلا تهتما . وقال تعالى لهما فى موضع آخر ﴿ كلا فاذهبا بآياتنا إنا معكم مستمعون ﴾ وقال تعالى ﴿ أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم ، بلى ورسلنا لديهم يكتبون ﴾ وقال تعالى ﴿ وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ﴾ وقال تعالى ﴿ ألم يعلم بأن الله يرى ﴾ وقال تعالى ﴿ الذى يراك حين تقوم ، وتقلبك فى الساجدين . إنه هو السميع العليم ﴾ وقال تعالى ﴿ لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا ﴾ وقال تعالى ﴿ قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير ﴾ وعن عائشة رضى الله عنها قالت : الحمد لله الذى وسع سمعه الأصوات ، لقد جاءت المجادلة إلى النبى ﷺ تكلمه وأنا فى ناحية البيت ما أسمع ما تقول ، فأنزل الله عز وجل ﴿ قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير ﴾ رواه البخارى فى كتاب التوحيد تعليقا(١) وأخرجه النسائى وابن ماجه وابن جرير وابن أبى حاتم ، وفى رواية له عنها رضى الله عنها أنها قالت : تبارك الذى أوعى سمعه كل شيء ، إنى لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ويخفى علىّ بعضه وهى تشتكى زوجها إلى رسول الله ﷺ وهى تقول : يا رسول الله أكل مالى وأفنى شبابى ونثرت له بطنى حتى إذا كبرت سنى وانقطع ولدى ظاهر منى ، اللهم إنى أشكو إليك . قالت : فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الاية ﴿ قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله والله يسمع تحاوركما ﴾ قالت : وزوجها أوس بن الصامت . وقال البخارى رحمه الله تعالى فى كتاب التوحيد : باب قول الله تعالى ﴿ وكان

(١) أنظر ٦٩٥١ فتح البارى شرح صحيح البخارى من تحقيقنا .

الله **سميعا بصيرا ﴾** وذكر خبر عائشة هذا معلقا . وروى عن أبى موسى رضى الله عنه قال : كنا مع النبى ﷺ فى سفر فكنا إذا علونا كبرنا فقال « اربعوا على أنفسكم ، فانكم لا تدعون أصم ولا غائبا ، تدعون سميعا بصيرا قريبا » ثم أتى على وأنا أقول فى نفسى : لا حول ولا قوة إلا بالله ، فقال « يا عبد الله بن قيس ، قل لا حول ولا قوة إلا بالله فإنها كنز من كنوز الجنة » وعن عائشة رضى الله عنها قالت : قال النبى ﷺ « إن جبريل عليه السلام ناداني قال : إن الله قد سمع قول قومك وما ردوا عليك »[1] . وروى فى باب قول الله تعالى **﴿ وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون ﴾** عن عبد الله رضى الله عنه قال اجتمع عند البيت ثقفيان وقرشي أو قرشيان وثقفى كثيرة شحم بطونهم قليلة فهم قلوبهم ، فقال أحدهم : أترون أن الله يسمع ما نقول ؟ قال الآخر : يسمع إن جهرنا ولا يسمع إن أخفينا، وقال الآخر : إن كان يسمع إذا جهرنا فانه يسمع إذا أخفينا . فأنزل الله تعالى **﴿وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ﴾** الآية . وروى أبو داود عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قرأ هذه الاية **﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ﴾** إلى قوله تعالى **﴿ سميعا بصيرا ﴾** قال : رأيت رسول الله ﷺ يضع إبهامه على أذنه والتى تليها على عينه ، قال أبو هريرة رضى الله عنه : رأيت رسول الله ﷺ يقرأها ويضع إصبعيه . وقال ابن يونس قال المقرئ يعنى **﴿ إن الله سميع بصير ﴾** يعنى أن لله سمعا وبصرا : قال أبو داود رحمه الله تعالى ، وهذا رد على الجهمية ا هـ . قلت : يعنى أبو داود رحمه الله أن الجهمية لا يثبتون لله تعالى اسما ولا صفة مما سمى ووصف نفسه تعالى به وأثبته له رسول الله ﷺ فلا يثبتون أن الله هو السميع البصير ، ولا أنه يسمع ويرى بسمع وببصر ، فرارا بزعمهم من التشبيه بالمخلوقين فنزهوه عن صفات كماله التى وصف بها نفسه وهو أعلم بنفسه وبغيره ، وشبهوه بالأصنام التى لا تسمع ولا تبصر ، قال الله عز وجل عن خليله إبراهيم عليه السلام فى دعوته أباه إلى الله عز وجل **﴿ يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا ﴾** وقد أثبت الجهمية قبحهم الله حجة لعباد الأصنام وجوابا لانكار خليل الله وجميع رسله عليهم ، فكان للكفار أن يقولوا : ومعبودكم أيضا لا يسمع ولا يبصر ، تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون علوا كبيرا ، وقالت المعتزلة : سميع بلا سمع بصير بلا بصر واطردوا جميع أسمائه هكذا فأثبتوا أسماء ونفوا ما تتضمنه من صفات الكمال وهو عبارة عن اثبات الألفاظ دون المعانى ، وقولهم فى الحقيقة راجع إلى قول الجهمية مخالف كل منهما للكتاب والسنة والعقول الصحيحة والفطر

(١) أنظر الفتح ح ٦٩٥٤

السليمة . وهدى الله تعالى بفضله أهل السنة لفهم كتابه وآمنوا بما وصف به نفسه وأقروا به كما أخبر ونفوا عنه التشبيه ، كما جمع تعالى بينهما فى قوله عز وجل ﴿ **ليس كمثله شيء وهو السميع البصير** ﴾ .

﴿ وعلمه بما بدا وما خفى أحاط علما بالجلى والخفى ﴾

أى ومما أثبته الله عز وجل لنفسه وأثبته له رسوله ﷺ أنه عليم بعلم وأن علمه محيط بجميع الأشياء من الكليات والجزئيات وهو من صفاته الذاتية ، وعلمه أزلى بأزليته ، وكذلك جميع صفاته ، فقد علم تعالى فى الأزل جميع ما هو خالق وعلم جميع أحوال خلقه وأرزاقهم وآجالهم وأعمالهم وشقاوتهم وسعادتهم ومن هو منهم من أهل الجنة ومن هو منهم من أهل النار ، وعلم عدد أنفاسهم ولحظاتهم وجميع حركاتهم وسكناتهم أين تقع ومتى تقع وكيف تقع كل ذلك بعلمه وبمرأى منه ومسمع لا تخفى عليه منهم خافية سواء فى علمه الغيب والشهادة والسر والجهر والجليل والحقير لا يغرب عن علمه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ولا فى الدنيا ولا فى الآخرة قال الله تعالى ﴿**واعلموا أن الله يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه واعلموا أن الله غفور حليم** ﴾ وقال تعالى ﴿ **وما تفعلوا من خير يعلمه الله** ﴾ وقال تعالى ﴿ **وما تفعلوا من خير فان الله به عليم** ﴾ وقال تعالى ﴿ **وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله** ﴾ وقال تعالى ﴿ **إن الله لا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء** ﴾ وقال تعالى ﴿ **وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين** ﴾ وقال تعالى ﴿ **علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم** ﴾ وقال تعالى ﴿ **وما تكون فى شأن وما تتلوا منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين** ﴾ وقال تعالى ﴿ **ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه عليم بذات الصدور** ﴾ وقال تعالى ﴿ **والله بكل شيء عليم** ﴾ وقال تعالى ﴿ **الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار . عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال سواء منكم من أسرّ القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار** ﴾ وقال عن نبيه شعيب ﴿ **وسع ربنا كل شيء علما** ﴾ وقال تعالى عن خليله ﴿ **ربنا إنك تعلم ما نخفى وما نعلن وما يخفى على الله من شيء فى الأرض ولا فى السماء** ﴾ وقال تعالى ﴿ **لا جرم أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون** ﴾ وقال تعالى ﴿ **وربك أعلم بمن فى السموات والأرض** ﴾ وقال تعالى ﴿ **وإن تجهر بالقول**

فانه يعلم السر وأخفى ﴾ وقال تعالى ﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما ﴾ وقال تعالى ﴿ قال ربى يعلم القول فى السماء والأرض وهو السميع العليم ﴾(١) وقال تعالى ﴿ إنه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون ﴾ وقال تعالى ﴿ ألم تعلم أن الله يعلم ما فى السماء والأرض إن ذلك فى كتاب إن ذلك على الله يسير ﴾ وقال تعالى ﴿ألا إن لله مافى السموات والأرض قد يعلم ما أنتم عليه ويوم يرجعون إليه فينبئهم بما عملوا والله بكل شىء عليم ﴾ وقال تعالى ﴿ وإن ربك ليعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون . وما من غائبة فى السماء والأرض إلا فى كتاب مبين ﴾ وقال تعالى ﴿إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير ﴾ وقال تعالى ﴿ ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم ﴾ وقال تعالى ﴿ إن تبدوا شيئا أو تخفوه فإن الله كان بكل شىء عليما ﴾ وقال تعالى ﴿ عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين ﴾ وقال تعالى ﴿ وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا فى كتاب إن ذلك على الله يسير ﴾ وقال تعالى ﴿ إن الله عالم غيب السموات والأرض إنه عليم بذات الصدور ﴾ وقال تعالى ﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ﴾ وقال تعالى ﴿ إنه بكل شىء محيط ﴾ وقال تعالى ﴿ولتعرفنهم فى لحن القول والله يعلم أعمالهم ﴾ وقال تعالى ﴿ قل أتعلمون الله بدينكم والله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض والله بكل شىء عليم ﴾ وقال تعالى ﴿ إن الله يعلم غيب السموات والأرض والله بصير بما تعملون ﴾ وقال تعالى ﴿ ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ﴾ وقال تعالى ﴿نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار﴾ وقال تعالى ﴿ إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى ﴾ وقال تعالى ﴿ هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنّة فى بطون أمهاتكم فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى ﴾ وقال تعالى ﴿ يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير ﴾ وقال تعالى ﴿ ألم تر أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبؤهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شىء عليم ﴾ وقال تعالى ﴿ تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما

(١) الآية : ٤ من سورة الأنبياء ، وقد وردت فى الأصل : « قل » بصيغة الأر ، وهى صحيحة على بعض القراءات الأخرى مثل قراءة الإمام نافع ، رحمة الله تعالى .

أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل ﴾ وقال تعالى ﴿ يعلم ما فى السموات والأرض ويعلم ما تسرون وما تعلنون والله عليم بذات الصدور ﴾ وقال تعالى ﴿ عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة ﴾ وقال تعالى ﴿ عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم ﴾ وقال تعالى ﴿ لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما ﴾ وقال تعالى ﴿ وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور ، ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾ وقال تعالى ﴿ إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ﴾ وقال تعالى ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا ، ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عددا ﴾ وقال تعالى ﴿ إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك ﴾ الآية وقال تعالى ﴿إنه يعلم الجهر وما يخفى ﴾ وقال ﴿ قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا ﴾ وقال تعالى ﴿ إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير ﴾ وقال تعالى ﴿ لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون ﴾ وقال تعالى ﴿ إليه يرد علم الساعة وما تخرج من ثمرات من أكمامها وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه ﴾ وقال تعالى ﴿ فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أن ما أنزل بعلم الله ﴾ وقال تعالى ﴿ إن الله سميع عليم ـ إن الله عليم حكيم ـ إن الله عليم خبير ـ إن الله كان عليما حكيما ـ إن الله كان عليما خبيرا ـ إنه عليم بذات الصدور ﴾ ولو ذهبنا نسوق جميع الايات فى إثبات علم الله عز وجل لطال الفصل وفيما ذكرنا كفاية .

وفى الصحيحين عن جابر رضى الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يعلّم أصحابه الاستخارة فى الأمور كلها كما يعلم السورة من القرآن يقول « إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ، ثم ليقل : اللهم إنى أستخيرك بعلمك ، وأستقدرك بقدرتك ، وأسألك من فضلك العظيم ، فانك تقدر ولا أقدر ، وتعلم ولا أعلم ، وأنت علام الغيوب . اللهم فان كنت تعلم هذا الأمر (ثم يسميه بعينه) خيرا لى فى عاجل أمرى وآجله ـ أو قال فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى ـ فاقدره لى ويسره لى ثم بارك لى فيه . اللهم وإن كنت تعلم أنه شر لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى ـ أو قال فى عاجل أمرى وآجله ـ فأصرفنى عنه واقدر لى الخير حيث كان ثم أرضنى به » وفيهما من حيث تعاقب الملائكة بأطراف النهار « فيسألهم وهو أعلم بهم » وفيهما من دعاء الكرب « لا إله إلا الله العليم الحليم » وفيهما من حديث الذى أوصى أن يحرق ويذرى ثم قال « لم

فعلت ؟ قال : من خشيتك وأنت أعلم » وفيهما من حديث قصة موسى والخضر « ان موسى قام خطيبا فى بنى إسرائيل ، فسئل أى الناس أعلم ؟ فقال أنا فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إلى الله » وفى رواية « إليه » وفيه قول الخضر عليه السلام « يا موسى إنك على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه ، وأنا على علم من علم الله علمنيه الله لا تعلمه » إلى أن قال «فركبا فى السفينة قال : ووقع عصفور على حرف السفينة فغمس منقاره فى البحر فقال الخضر لموسى : ما علمك وعلمى وعلم الخلائق فى علم الله إلا مقدار ما غمس هذا العصفور منقاره » وفى رواية « إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر » . وفيهما عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال « مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله : لا يعلم ما فى غد إلا الله ، ولا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله ، ولا يعلم متى يأتى المطر أحد إلا الله ، ولا تدرى نفس بأى أرض تموت ، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله »[1] وفيهما من حديث أبى موسى الأشعرى « اللهم اغفر لى خطيئتى وجهلى وإسرافى فى أمرى وما أنت أعلم به منى » إلى غير ذلك من الأحاديث . وكما أخبر الله تعالى عن علمه بما كان وما سيكون كذلك أخبر عما لم يكن من الممكنات والمستحيلات لو كان كيف يكون فقال تعالى فى الممكن على تقدير وقوعه ﴿ **وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون ، ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون** ﴾ وقال تعالى ﴿ **ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته أأعجمى وعربى** ﴾ الآية ، وقال تعالى ﴿ **وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها ، قل إنما الآيات عند الله وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون، ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرّة ونذرهم فى طغيانهم يعمهون** ﴾ وقال تعالى ﴿ **ولو نزلناه على بعض الأعجمين فقرأه عليهم ما كانوا به يؤمنين** ﴾[2] إلى غير ذلك . وقال تعالى فى المستحيلات لو قدر إمكانها ﴿ **لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون** ﴾ وقال تعالى ﴿ **ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون ، عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون** ﴾ وقال تعالى ﴿ **قل لو كان فيهما آلهة كما يقولون إذا لابتغوا إلى ذى العرش سبيلا سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا** ﴾ إلى غير ذلك . وأنكرت الجهمية والمعتزلة أن يكون لله علم أضافه إلى نفسه إضافة

---

(١) انظر الفتح ح ٦٩٤٤ من تحقيقنا .

(٢) الآيتان : ١٩٧ ، ١٩٨ من سورة الشعراء ، وقد وردت فى الأصل : « ما كانوا به يومنون » وهو تحريف

الصفة إلي الموصوف ، فأنكروا أن يكون أنزل القرآن بعلمه وأن أنثى لا تحمل ولا تضع إلا بعلمه ، وجحدوا أن يكون قد أحاط بكل شيء علما ، وحاربوا نصوص الكتاب والسنة وجميع سلف الأمة ، فليس معبودهم هو العليم الخبير الذى هو بكل شيء عليم ، وإنما يعبدون العدم المحض الذى لا حقيقة له ولا وجود ، فليصفوه بما شاءوا فبعداً للقوم الظالمين

﴿ وهو الغنى بذاته سبحانه   جل ثناؤه تعالى شانه ﴾

﴿ وكـل شيء رزقه عليه   وكلنا مفتقـر إليـه ﴾

(وهو الغنى بذاته) فله الغنى المطلق فلا يحتاج إلى شيء (سبحانه) وبحمده تنزيها له وتحميدا (جل ثناؤه تعالى شأنه) تعظيما له وتمجيدا (وكل شيء رزقه عليه) لا رازق له سواه ولا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا إلا ما شاء الله (وكلنا) معشر المخلوقات (مفتقر إليه) لا غنى لنا عنه طرفة عين ، فكما أن جميع المخلوقات مفتقرة إليه تعالى فى وجودها فلا وجود لها إلا به فهى مفتقرة إليه فى قيامها فلا قوام لها إلا به فلا حركة ولا سكون إلا باذنه فهو الحى القيوم القائم بنفسه فلا يحتاج إلى شيء ، القيم لغيره فلا قوام لشيء إلا به ، فللخالق مطلق الغنى وكماله ، وللمخلوق مطلق الفقر إلى الله وكماله ، قال الله عز وجل ﴿ **يأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد . إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد ، وما ذلك على الله بعزيز** ﴾ وقال تعالى ﴿ **ألم يأتكم نبأ الذين كفروا من قبل فذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم ، ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا أبشر يهدوننا فكفروا وتولوا واستغنى الله والله غنى حميد** ﴾ وقال تعالى ﴿ **ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة إن الله لطيف خبير ، له ما فى السموات وما فى الأرض وإن الله لهو الغنى الحميد** ﴾ وقال تعالى ﴿ **قل أغير الله أتخذ وليا فاطر السموات والأرض وهو يُطعم ولا يُطعم** ﴾ وقال تعالى ﴿ **وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون . ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون . إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين** ﴾ وقال تعالى ﴿ **ولله ما فى السموات وما فى الأرض ولقد وصينا الذين من قبلكم واياكم أن اتقوا الله وإن تكفروا فان لله ما فى السموات وما فى الأرض وكان الله غنيا حميدا** ﴾ وقال تعالى ردا على اليهود ﴿ **لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا** ﴾ وقال رد عليهم أيضا ﴿ **وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء** ﴾ وقال تعالى ردا على المنافقين ﴿ **هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ولله خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون** ﴾ وقال تعالى ﴿ **قل لو أنتم تملكون خزائن**

رحمة ربى إذا لأمسكتم خشية الإنفاق وكان الإنسان قتورا ﴾ والآيات فى هذا الباب كثيرة جدا ، يخبر تعالى بكمال غناه عن خلقه وأنه لا يزيد فى غناه طاعة من أطاع ولا ينقصه معصية من عصى ، وأنه لم يخلق الخلق لحاجة إليهم وأنه لو شاء لم يخلقهم ولو شاء لذهب بهم وجاء بغيرهم ويخبر أنهم كلهم فقراء إليه لا غنى لهم عنه فى نفس من الأنفاس، وهم يعلمون ذلك من أنفسهم ، وأنهم لم يكونوا موجودين حتى أوجدهم ، ولا قدرة لهم على شىء من أنفسهم ولا غيرها إلا بما أقدرهم عليه الغنى الحميد الفعال لما يريد. وقال تعالى فيما رواه عنه رسوله محمد ﷺ « يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا يا عبادى كلكم ضال إلا من هديته فاستهدونى أهدكم ، يا عبادى كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعمونى أطعمكم ، يا عبادى كلكم عار إلا من كسوته فاستكسونى أكسكم ، يا عبادى تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعا فاستغفرونى أغفر لكم ، يا عبادى إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئا ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكى شيئا ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد فسألونى فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر ، ولو أن أولكم وآخركم وحيكم وميتكم ورطبكم ويابسكم اجتمعوا على أتقى قلب عبد من عبادى ما زاد ذلك فى ملكى جناح بعوضة ، يا عبادى إنما هى أعمالهم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » رواه مسلم عن أبى ذر عن النبى ﷺ فيما يرويه عن ربه . وفى رواية الترمذى « يقول الله عز وجل : يا عبادى كلكم ضال إلا من هديت فسلونى الهدى أهدكم . وكلكم فقير إلا من أغنيت فسلونى أرزقكم . وكلكم مذنب إلا من عافيت ، فمن علم منكم أنى ذو قدرة على المغفرة فاستغفرنى غفرت له ولا أبالى . ولو أن أولكم وآخركم وحيكم وميتكم ورطبكم ويا بسكم اجتمعوا على أشقى قلب عبد من عبادى ما نقص ذلك من ملكى جناح بعوضة . ولو أن أولكم وآخركم وجنكم وإنسكم وحيكم وميتكم ورطبكم ويابسكم اجتمعوا فى صعيد واحد فسأل كل إنسان منكم ما بلغت أمنيته فأعطيت كل سائل منكم ما سأل ما نقص ذلك من ملكى إلا كما لو أن أحدكم مر بالبحر فغمس فيه إبرة ثم رفعها إليه ، ذلك بأنى جواد واجد ماجد أفعل ما أريد ، عطائى كلام وعذابى كلام ، وإنما أمرى لشىء إذا أردته أن أقول له كن فيكون » وفى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال «يد

الله مـلأى لا تغيـضـهـا نفـقـة ، سحّاء الليل والنهـار ، وأفـرأيتم مـا أنفق ربكم منذ خلق السموات والأرض ، فإنه لم يغض ما في يمينه » وروى أبو داود باسناد جيد من حديث عائشة رضى الله عنها في الاستسقاء وفيه قول رسول الله ﷺ « الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين ، لا إله إلا الله يفعل ما يريد ، اللهم أنت الله لا إله إلا أنت ، أنت الغنى ونحن الفقراء أنزل علينا الغيث واجعل ما أنزلت علينا قوة وبلاغا إلى حين » وفي بعض الاسرائيليات يقول الله عز وجل : أيؤمل غيرى للشدائد والشدائد بيدى وأنا الحي القيوم ، ويرجى غيرى ويطرق بابه بالبكرات وبيدى مفاتيح الخزائن وبابى مفتوح لمن دعانى . من ذا الذى أملنى لنائبة فقطعت به ، أو من ذا الذى رجانى لعظيم فقطعت به ، أو من ذا الذى طرق بابى فلم أفتحه له ، أنا غاية الآمال فكيف تنقطع الآمال دونى ، أبخيل أنا فيبخلنى عبدى ، أليس الدنيا والآخرة والكرم والفضل كله لى فما يمنع المؤملين أن يؤملونى ، لو جمعت أهل السموات والأرض ثم أعطيت كل واحد منهم ما أعطيت الجميع وبلغت كل واحد منهم أمله لم ينقص ذلك من ملكى عضو ذرة . كيف ينقص ملك أنا قيمه ، فيابؤسا للقانطين من رحمتى ، ويابؤسا لمن عصانى وتوثب على محارمى . انتهى . وجاء في بعض ألفاظ حديث النزول « من يقرض غير عديم ولا ظلوم » . والأحاديث في هذا الباب كثيرة جدا لو أردنا استقصاءها لطال الفصل وفيما ذكرنا كفاية ، فسبحان من وسع خلقه بغناه ، وافتقر كل شيء إليه وهو الغنى عما سواه **﴿ من شكر فانما يشكر لنفسه ومن كفر فان الله غنى حميد ﴾** .

﴿ كلم موسى عبده تكليما   ولـم يزل بخلقه عليمـا ﴾

أى ومما أثبته ربنا عز وجل لنفسه وأثبته له رسوله ﷺ تكليمه عبده ورسوله موسى بن عمران بدون واسطة رسول بينه وبينه بل أسمعه كلامه الذى هو صفته اللائقة بذاته كما شاء وعلى ما أراد ، قال الله عز وجل في سورة البقرة **﴿ تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات ﴾** وقال في سورة النساء **﴿ وكلم الله موسى تكليما ﴾** فأكده بالمصدر مبالغة في البيان والتوضيح ، وقال تعالى في سورة الأعراف **﴿ ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرنى أنظر إليك ، قال لن ترانى ولكن انظر إلى الجبل فان استقر مكانه فسوف ترانى ، فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين . قال يا موسى إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين . وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها سأريكم دار الفاسقين ﴾** وقال تعالى في سورة مريم **﴿ واذكر في الكتاب موسى**

إنه كان مخلصا وكان رسولا نبيا . وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا . ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيا ﴾ وقال تعالى فى سورة طه ﴿ وهل أتاك حديث موسى إذ رأى نارا فقال لأهله امكثوا إنى آنست ناراً لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى . فلما أتاها نودى يا موسى إنى أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى. وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى . إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى . إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى . فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى . وما تلك بيمينك يا موسى ـ إلى قوله « ألقها يا موسى﴾ إلى قوله ﴿ قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى ﴾ إلى آخر الايات . وقال فى سورة الشعراء ﴿ وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين ، قوم فرعون ألا يتقون ﴾ الآيات . وقال تعالى فى سورة النمل ﴿ إذ قال موسى لأهله إنى آنست نارا سآتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون . فلما جاءها نودى أن بورك من فى النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين . يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم . وألق عصاك ، فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب ، يا موسى لا تخف إنى لا يخاف لدى المرسلون . إلا من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء فإنى غفور رحيم . وأدخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء فى تسع آيات إلى فرعون وقومه ﴾ الايات . وقال تعالى فى سورة القصص ﴿ فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا قال لأهله امكثوا إنى آنست ناراً لعلى آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون . فلما أتاها نودى من شاطئ الواد الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إنى أنا الله رب العالمين . وأن ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين . وأدخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء واضمم إليك جناحك من الرهب فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملإه إنهم كانوا قوما فاسقين ﴾ الايات . والقرآن ممتلئ بذلك . وفى الصحيحين من حديث احتجاج آدم وموسى عليهما السلام عند ربهما وفيه قول آدم لموسى « أنت موسى الذى اصطفاك الله تعالى برسالاته وبكلامه » الحديث . وفيهما من حديث الشفاعة قول إبراهيم عليه السلام « ولكن عليكم بموسى فإنه كليم الله » وفى رواية «ولكن ائتوا موسى عبد آتاه الله التوراة وكلمه تكليما » وفى رواية « ولكن ائتوا موسى عبدا آتاه الله التوراة وكلمه وقرّبه نجيا » . فقد أخبرنا الله عز وجل أنه اصطفى عبده موسى بكلامه واختصه بإسماعه إياه بدون واسطة وأنه ناداه وناجاه وكلمه تكليما . وأخبرنا تعالى بما كلمه به ، وبالموضع الذى كلمه فيه ، وبالميقات الذى كلمه فيه ، وأخبر عنه رسوله

محمد ﷺ بذلك فى أصح الروايات ، فأى كلام أفصح من كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ ، وأى بيان أوضح من بيان الله ورسوله ، وبأى برهان يقنع من لم يقنع بذلك ﴿ **فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون** ﴾ وفى هذا أعلى دلالة وأبينها وأوضحها على ثبوت صفة الكلام لربنا عز وجل وأنه يتكلم إذا شاء بما يشاء وكيف يشاء بكلام يسمعه من يشاء ، أسمعه موسى عليه السلام كيف شاء وعلى ما أراد ، وقد ثبت بالكتاب والسنة نداؤه الأبوين عليهما السلام إذ يقول ﴿ **وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين** ﴾ وأن الملائكة تسمع كلام الله بالوحى كما قال تعالى ﴿**حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلى الكبير** ﴾ وفى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : إن نبى الله ﷺ قال « إذا قضى الله الأمر فى السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله كأنه سلسلة على صفوان ، فاذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلى الكبير » الحديث وفيهما عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إن الله تبارك وتعالى إذا أحب عبدا نادى جبريل : إن الله قد أحب فلانا فأحبه ، فيحبه جبريل . ثم ينادى جبريل فى السماء : إن الله قد أحب فلانا فأحبوه ، فيحبه أهل السماء ، ويوضع له القبول فى الأرض » وثبت بالكتاب والسنة كلامه مع الرسل والملائكة وغيرهم يوم القيامة كما قال تعالى ﴿ **يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم ، قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب** ﴾ وقال تعالى ﴿ **ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون . قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون** ﴾ وقال تعالى ﴿ **ويوم نحشر من كل أمة فوجا ممن يكذب بآياتنا فهم يوزعون . حتى إذا جاءوا قال أكذبتم بآياتى ولم تحيطوا بها علما أم ماذا كنتم تعملون ، ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون** ﴾ وقال تعالى ﴿ **ويوم يناديهم فيقول أين شركائى الذين كنتم تزعمون** ﴾ وقال تعالى ﴿**ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين** ﴾ وأنه يقول لأهل الجنة سلام عليكم كما قال تعالى ﴿ **سلام قولا من رب رحيم** ﴾ وأنه يقول لأهل النار ﴿ **اخسأوا فيها ولا تكلمون** ﴾ والقرآن ممتلىء بذلك . وفى الصحيح عن عدى بن حاتم رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان » الحديث وفيه عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « يقول الله تعالى : يا آدم . فيقول : لبيك وسعديك . فينادى بصوت : إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثا إلى النار » وفيه تعليقا عن جابر عن عبد الله بن أنيس رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « يحشر الله العباد ، فيناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من

قرب : أنا الملك أنا الديان »[١] وفيه عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « قال الله تعالى : أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»[٢] وفيه عنه رضى الله عنه قال «يقول الله تعالى : ما لعبدى المؤمن عندى جزاء إذا أنا قبضت صفيه من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنة » وفيه من حديث الشفاعة « يقول الله عز وجل : من كان فى قلبه مثقال حبة من إيمان فأخرجوه » الحديث ، وفيه من حديث آخر أهل الجنة دخولا الجنة « فيقول الله تعالى : اذهب فادخل الجنة فان لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها » وفيه من كلامه تعالى مع أهل الموقف قوله تعالى « لتتبع كل أمة ما كانت تعبد » وقوله عز وجل للمؤمنين « أنا ربكم » ، وفيه فى باب كلام الرب عز وجل مع أهل الجنة عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال النبى ﷺ « إن الله تعالى يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة ، فيقولون : لبيك ربنا وسعديك والخير فى يديك . فيقول هل رضيتم ؟ فيقولون وما لنا لا نرضى يارب وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون : يارب وأى شىء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبدا » وفيه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال الله تعالى « أنا مع عبدى حيثما ذكرنى وتحركت بى شفتاه » وفيهما من حديث أبى هريرة رضى الله عنه : يقول الله عز وجل «إذا أراد عبدى أن يعمل سيئة فلا تكتبوها عليه حتى يعملها » الحديث . وفيهما من حديثه أيضا أن رسول الله ﷺ قال «خلق الله الخلق فلما فرغ منه قامت الرحم ، فقال مه ؟ قالت هذا مقام العائذ بك من القطيعة ، فقال ألا ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك »[٣] الحديث . وفيه من حديثه أن رسول الله ﷺ قال « قال الله عز وجل : إذا أحب عبدى لقائى أحببت لقاءه ، وإذا كره لقائى كرهت لقاءه » . وفيه من حديثه أن رسول الله ﷺ قال « قال الله تعالى : أنا عند ظن عبدى بى » وفيه من حديثه أيضا فى قصة المذنب المستغفر الحديث وفيه «فقال ربه : علمَ عبدى أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به ، غفرت لعبدى » وذكر الحديث وفيه من حديث عبد الله بن زيد رضى الله عنه قال : مطر النبى ﷺ فقال « قال الله عز وجل : أصبح من عبادى كافر بى ومؤمن بى » . وفيه من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه فى ذكر طى الله تعالى السموات والأرض ، وفيه « ثم يهزهز ثم يقول « أنا الملك ، أنا الملك » الحديث . وفيه من حديث عبد الله عن عمر رضى الله عنهما أن رجلا سأله كيف سمعت النبى ﷺ يقول فى النجوى ؟ قال « يدنو أحدكم من ربه حتى يضع عليه

---

(١) انظر الفتح ح ٧٠٤٢ من تحقيقنا

(٢) انظر الفتح ح ٧٠٢٩ من تحقيقنا

(٣) انظر فتح البارى شرح صحيح البخارى ح ٧٠٦٣ من تحقيقنا

كنفه فيقول تعالى أعملت كذا وكذا ؟ فيقول نعم ، ويقول أعملت كذا وكذا ؟ فيقول نعم ، فيقرره ثم يقول : إني سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم »[1] وفي صحيح مسلم من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال « يقول الله تبارك وتعالى لأهون أهل النار عذابا لو كانت لك الدنيا وما فيها أكنت مفتديا بها ؟ فيقول نعم فيقول قد أردت منك أهون من هذا وأنت في صلب آدم ألاّ تشرك ـ أحسبه قال ولا أدخلك النار ـ فأبيت إلا الشرك » . وعن أبي هريرة وأبي سعيد رضى الله عنهما قالا قال رسول الله ﷺ « يؤتى بالعبد يوم القيامة فيقول له : ألم أجعل لك سمعا وبصرا ومالا وولدا وسخرت لك الأنعام والحرث وتركتك ترأس وتربع ، فكنت تظن أنك ملاقي يومك هذا ؟ فيقول لا ، فيقول له اليوم أنساك كما نسيتني » رواه مسلم والترمذي وقال هذا حديث صحيح غريب، ومعنى قوله « اليوم أنساك كما نسيتني » اليوم أتركك في العذاب ا هـ . وفي الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها في قصة الافك[2] قالت : ولكن والله ما كنت أظن أن الله ينزل في براءتي وحياً يتلى ، ولشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيّ بأمر يتلى ولكن كنت أرجو أ يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله بها ، فأنزل الله تعالى ﴿ **إن الذين جاءوا بالإفك** ﴾ العشر الايات . ولو ذهبنا ننقل الأحاديث في قال الله ويقول ويتكلم وينادي ونحو ذلك لطال الفصل ، وفيما ذكرنا كفاية . وهذه الايات والأحاديث مما ذكرنا ومما لم نذكر كلها شاهدة بأن الله تعالى لم يزل متكلما بمشيئته وإرادته ، يتكلم بما شاء كيف شاء متى شاء بكلام حقيقة يسمعه من يشاء من خلقه وأن كلامه قول حقيقة كما أخبر وعلى ما يليق بعظمته كما قال تعالى ﴿**والله يقول الحق** ﴾ وقال ﴿ **سلام قولا من رب رحيم** ﴾ وقال ﴿ **إنه لقول فصل وما هو بالهزل** ﴾ والقرآن كلامه تعالى تكلم به حقيقة كما شاء وهو من فاتحته إلى خاتمته شاهد بذلك ، وسيأتي إن شاء الله تعالى بحثه قريبا ، وكلامه تعالى صفة من صفاته من لوازم ذاته والصفة تابعة لموصوفها ، فصفات الباري تبارك وتعالى قائمة به أزلية بأزليته باقية ببقائه لم يزل متصفا بها ولا يزال كذلك لم تجدد له صفة لم يكن متصفا بها ، ولا تنفد صفة كان متصفا ، بل هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم .

﴿ كلامه جل عن الإحصاء   والحصر والنفاد والفناء ﴾
﴿ لو صار أقلاما جميع الشجر   والبحر تلقى فيه سبعة أبحر ﴾
﴿ والخلق تكتبه بكل آن   فنت وليس القول منه فان ﴾

---

(١) انظر قصة الإفك في فتح الباري ح ٧٠٦١ .
(٢) انظر الفتح ح ٧٠٧٦ .

قال الله تبارك وتعالى ﴿ **قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا** ﴾ وقال تعالى ﴿ **ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم** ﴾ قال ابن كثير رحمه الله تعالى : يقول الله تعالى مخبرا عن عظمته وكبريائه وجلاله وأسمائه الحسنى وصفاته العلى وكلماته التامة التى لا يحيط بها أحد ولا اطلاع لبشر على كنهها وإحصائها كما قال سيد البشر وخاتم الرسل « لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » فقال تعالى ﴿ **ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله** ﴾ أى ولو أن جميع أشجار الأرض جعلت أقلاما وجعل البحر مدادا وأمده سبعة أبحر معه فكتبت بها كلمات الله تعالى الدالة على عظمته وصفاته وجلاله لتكسرت الأقلام ونفد ماء البحر ولو جاء أمثالها مددا ، وإنما ذكرت السبعة على وجه المبالغة ولم يرد الحصر ، ولا أن ثم سبعة أبحر موجودة محيطة بالعالم كما يقوله من تلقاه من الاسرائيليات التى لا تصدَّق ولا تكذَّب بل كما قال تعالى فى الآيات الأخرى ﴿**قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا** ﴾ فليس المراد بقوله ﴿ **بمثله** ﴾ آخر فقط بل بمثله ثم بمثله ثم بمثله وهلم جرّا لأنه لا حصر لآيات الله وكلماته ، قال الحسن البصرى : لو جعل شجر الأرض أقلاما وجعل البحر مدادا ، وقال الله تعالى : إن من أمرى كذا ومن أمرى كذا ، لنفد ماء البحر وتكسرت الأقلام . وقال قتادة : قال المشركون إنما هذا كلام يوشك أن ينفد فقال الله تعالى ﴿ **ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام** ﴾ أى لو كان شجر الأرض أقلاما ومع البحر سبعة أبحر ما كانت لتنفد عجائب ربى وحكمته وخلقه وعلمه ، وقال الربيع بن أنس رحمه الله : إن مثل علم العباد كلهم فى علم الله كقطرة من ماء البحور كلها ، وقد أنزل الله ذلك ﴿ **ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام** ﴾ الاية يقول : لو كان البحر مداداً لكلمات الله والأشجار كلها أقلاما لانكسرت الأقام وفنى ماء البحر وبقيت كلمات الله قائمة لا يفنيها شيء لأن أحدا لا يستطيع أن يقدره قدره ولا يثنى عليه كما ينبغى حتى يكون هو الذى يثنى على نفسه ، إن ربنا كما يقول وفوق ما نقول . قال وقد روى أن هذه الاية نزلت جوابا لليهود ، قال ابن إسحاق رحمه الله تعالى : حدثنى محمد بن أبى محمد عن سعيد بن جبير ـ أو عكرمة ـ عن ابن عباس رضى الله عنهما أن أحبار يهود قالوا لرسول الله ﷺ بالمدينة : يا محمد أرأيت قولك ﴿ **وما أوتيتم من العلم إلا قليلا** ﴾ إيانا تريد أم قومك ؟ فقال رسول الله ﷺ : كلاكما . قالوا ألست تتلو فيما جاءك أنا قد أوتينا التوراة فيها تبيان لكل شيء ؟ فقال رسول الله ﷺ « إنها فى علم الله قليل وعندكم من

ذلك ما يكفيكم » وأنزل الله فيما سألوه عنه من ذلك ﴿ **ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام** ﴾ الآية . وهكذا روى عن عكرمة وعطاء بن يسار ، وهذا يقتضى أن هذه الآية مدنية لا مكية والمشهور أنها مكية والله أعلم . وقوله ﴿ **إن الله عزيز حكيم** ﴾ أى عزيز قد عز كل شيء وقهره وغلبه ، فلا مانع لما أراد ولا مخالف لأمره ولا معقب لحكمه ، حكيم فى خلقه وأمره وأقواله وأفعاله وشرعه وجميع شؤونه انتهى . وعن جويرية رضى الله عنها أن النبى ﷺ خرج من عندها ثم رجع بعد أن أضحى وهي جالسة ، فقال « مازلت على الحال التى فارقتك عليها » ؟ قالت نعم ، قال النبى ﷺ « لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن : سبحان الله وبحمده عدد خلقه ، ورضا نفسه ، وزنة عرشه ، ومداد كلماته » رواه مسلم والأربعة . وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال جاء رجل الى النبى ﷺ فقال يارسول الله مالقيت من عقرب لدغتنى البارحة ؟ قال «أما لو قلت حين أمسيت أعوذ بكلمات الله التامات التى لا يجاوزهن جبار ولا متكبر » والأحاديث فى الباب كثيرة ، والمقصود أن كلمات الله باقية لا تنفد أبدا تامة لا تنقص أبدا، وذلك لأن كلامه صفته وليس من صفاته شيء ينفد ، ولذا أخبرنا تعالى أن جميع أشجار الأرض لو كانت أقلاما والبحار وأضعافها مدادا يكتب بها كلماته لنفدت كلها وكلماته باقية لا تنفد ، وذلك لأن الأشجار والبحار مخلوقة والمخلوقات من لازمها النفاد والفناء ، وكلمات الله صفته وليس من صفاته شيء يفنى ، بل هو الباقى بأسمائه وصفاته أزلا وأبدا ﴿ **كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم واليه ترجعون** ﴾ .

﴿ والقـــول فى كتابـــه المفصـــل ۞ بأنـــه كلامـــه المنزل ﴾

﴿ على الرسول المصطفى خير الورى ۞ ليس بمخلوق ولا بمفترى ﴾

(والقول) الذى نعتقده وندين الله به (فى) شأن (كتابه المفصل) بسكون اللام للروى وهو القرآن وصفه الله تعالى بذلك فقال ﴿ **كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير** ﴾ وقال تعالى ﴿ **كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا** ﴾ وقال تعالى ﴿ **أفغير الله أبتغى حكما وهو الذى أنزل إليكم الكتاب مفصلا** ﴾[(١)] وغير ذلك من الايات (بأنه كلامه) حقيقة حروفه ومعانيه ليس كلامه الحروف دون المعانى ولا المعانى دون الحروف قال الله تعالى ﴿ **وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله** ﴾ وقال تعالى ﴿ **سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ذرونا نتبعكم يريدون أن يبدلوا كلام الله ، قل لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل** ﴾ وعن أبى ذر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إنكم لا ترجعون إلى الله بشيء أفضل مما خرج منه » يعنى القرآن رواه

(١) الآية : ١١٤ من سورة الأنعام ، وقد وردت فى الأصل « نزل » وهو خطأ .

أبو داود والحاكم وصححه . وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « يقول الرب تبارك وتعالى : من شغله القرآن عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين ، وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه » رواه الترمذي وقال حديث حسن غريب . وروى ابن خزيمة عن نيار بن مكرم الأسلمي صاحب رسول الله ﷺ ورضي الله عنه قال : لما نزلت ﴿ **آلم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون** ﴾ إلى آخر الآيتين خرج رسول الله ﷺ فجعل يقول ﴿ **بسم الله الرحمن الرحيم آلم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون . في بضع سنين** ﴾ فقال رؤساء مشركي مكة : يا بن أبي قحافة ، هذا مما أتى به صاحبك ؟ قال : لا والله ، لكنه كلام الله وقوله ، وذكر الحديث . وكان ابن مسعود رضي الله عنه يقبل المصحف ويقول : كلام ربي، كلام ربي . وعن عمر رضي الله عنه قال إن هذا القرآن كلام الله فضعوه على مواضعه . وقال خباب صاحب رسول الله ﷺ : تقرب إلى الله بما استطعت فانك لن تقرب إلى الله بشيء أحب إليه من كلامه . وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : القرآن كلام الله ، فمن رد منه شيئا فانما يرد على الله . وعنه رضي الله عنه قال : إن أحسن الكلام كلام الله . ويروى ذلك عنه مرفوعا إلى النبي ﷺ وهو صحيح في الصحيح . وقل عثمان بن عفان رضي الله عنه : ما أحب أن يأتي على يوم وليلة ولا أنظر في كلام الله . يعني القراءة في المصحف . وقل ابن مسعود رضي الله عنه : من كان يحب أن يعلم أنه يحب الله فليعرض نفسه على القرآن ، فان أحب القرآن فهو يحب الله ، فإنما القرآن كلام الله . فهذه النصوص من الكتاب والسنة وإجماع الأمة على أن القرآن كلام الله تكلم به حقيقة وأنه هو الذي قال تبارك وتعالى ﴿ **آلم ، المص ، الر ، آلمر كهيعص ، طه ، طسم ، حم عسق** ﴾ وليس كلام الله المعاني دون الحروف ولا الحروف دون المعاني ، بل حروفه ومعانيه عين كلام الله .

(المنزل) من عند الله عز وجل (على الرسول المصطفى خير الورى) محمد ﷺ قال الله تبارك وتعالى ﴿ **قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل الى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون** ﴾ وقال تعالى ﴿ **هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ، فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله ، والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا** ﴾ وقال تعالى ﴿ **إنا أنزلنا عليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله** ﴾ وقال تعالى ﴿ **ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل**

إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ﴾ وقال تعالى ﴿ ياأيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل ، ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا ﴾ وقال تعالى ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله ﴾ وقال تعالى ﴿ قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين﴾ وقال تعالى ﴿ ياأيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم من قبل أن نطمس وجوها فنردّها على أدبارها ﴾ الآية وقال تعالى ﴿ وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله ﴾ الاية وقال تعالى ﴿ لكن الراسخون فى العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ﴾ وقال تعالى ﴿ لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيدا ﴾ وقال تعالى ﴿ ياأيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نورا مبينا ﴾ وقال تعالى ﴿واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به ﴾ وقال تعالى ﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه ﴾[1] وقال تعالى ﴿ قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل ﴾ وقال تعالى ﴿ يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس ﴾ وقال تعالى ﴿ وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذى بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها ﴾ وقال تعالى ﴿ أفغير دين الله أبتغى حكما وهو الذى أنزل إليكم الكتاب مفصلا فالذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين ﴾ وقال تعالى ﴿ وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه ﴾ وقال تعالى ﴿ المص كتاب أنزلناه إليك فلا يكن فى صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين . اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ما تذكرون ﴾ وقال تعالى ﴿ وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ﴾[2] وقال تعالى ﴿ وإذا أنزلت سورة أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله استأذنك أولوا الطول منهم﴾ وقال تعالى ﴿ وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا ﴾ وقال تعالى ﴿ وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد ثم انصرفوا ﴾ وقل تعالى ﴿ فان لم يستجيبوا لكم فاعلم أن ما أنزل

---

(١) الآية : ٤٨ من سورة المائدة ، وقد وردت فى الأصل « وأنزلنا إليك » والصواب ما أثبتناه .

(٢) الآية : ٢٣ من سورة البقرة ، ووردت فى الأصل « وإن كنتم فى شك » .

بعلم الله ﴾ وقال تعالى ﴿ الر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد ﴾ وقال تعالى ﴿ الر تلك آيات الكتاب المبين ، إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون ﴾ وقال تعالى ﴿ آلمر تلك آيات الكتاب والذى أنزل إليك من ربك هو الحق ﴾ وقال تعالى ﴿ وكذلك أنزلناه حكما عربيا ﴾ وقال تعالى ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ وقال تعالى ﴿ ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون ﴾ وقال تعالى ﴿ ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء ﴾ وقال تعالى ﴿ وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه ﴾ وقال تعالى ﴿ ونزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ﴾[1] وقال تعالى ﴿ وإذا بدلنا آية مكان والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون . قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمؤمنين ﴾ وقال تعالى ﴿وبالحق أنزلناه وبالحق نزل وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا . وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا ﴾ وقال تعالى ﴿ الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا ، قيما ﴾ وقال تعالى ﴿ لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم أفلا تعقلون ﴾ وقال تعالى ﴿ وهذا ذكر مبارك أنزلناه أفأنتم له منكرون ﴾ وقال تعالى ﴿وكذلك أنزلناه آيات بينات وأن الله يهدى من يريد ﴾ وقال تعالى ﴿ وكذلك أنزلناه قرآنا عربيا وصرفنا فيه من الوعيد ﴾ وقال تعالى ﴿ ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات ومثلا من الذين من قبلكم وهدى وموعظة للمتقين ﴾ وقال تعالى ﴿ لقد أنزلنا إليكم آيات مبينات والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ وقال تعالى ﴿ تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا ﴾ وقال تعالى ﴿ قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض إنه كان غفورا رحيما ﴾ وقال تعالى ﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين ، نزل به الروح الأمين ، على قلبك لتكون من المنذرين ، بلسان عربى مبين ﴾ الآيات وقال تعالى ﴿وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم ﴾ وقال تعالى ﴿ طسم ، تلك آيات الكتاب المبين ، نتلو عليك من نبإ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون ﴾ وقال تعالى ﴿ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا ﴾ وقال تعالى ﴿ الم تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين ، أم يقولون افتراه بل هو الحق من ربك ﴾ وقال تعالى ﴿ واتبع ما يوحى إليك من ربك ﴾ وقال تعالى ﴿ ويرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل إليك من ربك هو الحق ﴾ وقال تعالى ﴿ تنزيل العزيز الرحيم ﴾ وقال تعالى ﴿ تنزيل الكتاب من الله

(١) الآية : ٤٤ من سورة النحل ، ووردت فى الأصل « وأنزلنا عليك الكتاب » .

العزيز الحكيم ، إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق ﴾[1] وقال تعالى ﴿ إنا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق ﴾ وقال تعالى ﴿ واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم ﴾ وقال تعالى ﴿حم، تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ﴾ وقال تعالى ﴿ حم ، تنزيل من الرحمن الرحيم ، كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يؤمنون ﴾ وقال تعالى ﴿ إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وإنه لكتاب عزيز ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾ وقال تعالى ﴿ وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه ﴾ وقال تعالى ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب ﴾ وقال تعالى ﴿ حم ، والكتاب المبين ، إنا أنزلناه فى ليلة مباركة ﴾ وقال تعالى ﴿ حم ، تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ﴾ وقال تعالى ﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم . إنه لقرآن كريم . فى كتاب مكنون ، لا يمسه إلا المطهرون . تنزيل من رب العالمين ﴾ وقال تعالى ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ﴾ وقال تعالى ﴿ هو الذى ينزل على عبده آيات بينات ﴾ وقال تعالى ﴿ فآمنوا بالله ورسوله والنور الذى أنزلنا﴾ وقال تعالى ﴿ وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون . وما هو إلا ذكر للعالمين ﴾ وقال تعالى ﴿ فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون . إنه لقول رسول كريم . وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ، ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون، تنزيل من رب العالمين ﴾ وقوله تعالى فى هذه الاية ﴿ إنه لقول رسول كريم ﴾ يعنى به محمدا ﷺ ، وفى سورة التكوير يعنى به جبريل . ومعنى الاضافة فى كلا الآيتين إنما هو التبليغ لأن من حق الرسول أن يبلغ عن المرسل . لا أن القرآن كلام الرسول الملكى ولا البشرى كما بين تعالى ذلك بقوله ﴿ تنزيل من رب العالمين ﴾ وقال تعالى ﴿ إنا أنزلناه فى ليلة القدر ﴾ وقال تعالى ﴿ الرحمن علم القرآن ﴾ وقال تعالى ﴿نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن ﴾ وقال تعالى ﴿وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ﴾ والايات فى هذا الباب كثيرة جدا بل القرآن كله من فاتحته إلى خاتمته يشهد بأنه كلام الله وتنزيله وقصصه وتعليمه وألفاظه ومعانيه ، وإيجازه وإعجازه يرشد إلى أنه كلام الخالق عز وجل وصفته ، وأنه لا يستطيع البشر الاتيان بسورة من مثله ، وقد أقر بذلك كل عاقل حتى المشركون كما قال أكفر قريش الوليد بن المغيرة لما قرأ عليه رسول الله ﷺ القرآن ، فرجع إلى قومه فقال أبو جهل : قل فيه قولا يبلغ قومك أنك منكر له . قال : وماذا أقول فيه ؟ فوالله ما منكم رجل أعرف بالأشعار منى ولا أعلم برجزه ولا بقصيده منى ولا بأشعار الجن . والله ما يشبه الذى يقول شيئا من هذا . ووالله إن لقوله

(١) الآيتان : ١ ، ٢ . من سورة الزمر . وقد وردت الآية الثانية : « أنزلنا عليك » وهو خطأ .

الذى يقوله حلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمثمر أعلاه ، مغدق أسلفه ، وإنه ليعلو ولا يعلى ، وإنه ليحطم ما تحته . قال : لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه . قال : قف حتى أفكر فيه ، فلما فكر قال : إن هذا إلا سحر يؤثر ، يأثره عن غيره ، فنزلت ﴿ **ذرنى ومن خلقت وحيدا ، وجعلت له مالا ممدودا ، وبنين شهودا** ﴾[1] الآيات رواه البيهقى وغيره . ويروى عن عتبة حين قرأ عليه رسول الله ﷺ حم السجدة نحو ذلك . وكذا أبو جهل قبحهم الله . فتبين بهذا أن قولهم فيه : سحر ، شعر ، كهانة ، وغير ذلك من مفترياتهم إنما قالوه عنادا ومكابرة ، وإلا فقد استيقنوا أنه لا يدخل تحت طوق أحد من البشر .

ونحن وجميع أهل السنة والجماعة نشهد الله الذى أنزله بعلمه وشهد به ، ونشهد ملائكته الذين شهدوا بذلك ، ونشهد رسوله الذى أنزل عليه وبلغه إلى الأمة ، ونشهد جميع المؤمنين الذين صدقوه وآمنوا به أنا مؤمنون مصدقون شاهدون بأنه كلام الله عز وجل وتنزيله ، وأنه تكلم به قولا وأنزله على رسوله وحيا . ولا نقول إنه حكاية عن كلام الله عز وجل أو عباده بل هو عين كلام الله حروفه ومعانيه ، نزل به من عنده الروح الأمين، على محمد خاتم المرسلين ، وكل منهما مبلغ عن الله عز وجل . والكلام إنما يضاف حقيقة إلى من قاله مبتدئاً لا إلى من قاله مبلغا مؤديا ، قال الله تعالى ﴿ **يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس** ﴾ وقال تعالى ﴿ **وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين** ﴾ وقال تعالى ﴿ **فان تولوا فانما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم وإن تطيعوه تهتدوا وما على الرسول إلا البلاغ المبين** ﴾ وقال تعالى ﴿ **فان أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا إن عليك إلا البلاغ** ﴾ وقال تعالى ﴿ **قل إنى لن يجيرنى من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا إلا بلاغا من الله ورسالاته** ﴾ والآيات فى هذا كثيرة جدا ، يخبر تعالى عن رسوله أنه مبلغ عنه مؤدّ لما أرسله به ، وهذا يعرفه كل أحد يعقل لفظة «رسول» ، فان الرسول لابد له من مرسل برسالته . فالمرسل الله عز وجل ، والرسالة هى القرآن ، والمرسِل محمد ﷺ المبلغ رسالة ربه . وقال أنس : بعث النبى ﷺ خاله حراما إلى قومه وقال أتؤمنونى أبلغ رسالة رسول الله ﷺ ؟ فجعل يحدثهم . وقال المغيرة رضى الله عنه : أخبرنا نبينا عن رسالة ربنا أنه من قتل منا صار إلى الجنة . وعن عائشة رضى الله عنها

---

(١) الآيات : ١١ ـ ١٣ من سورة المدثر ، وردت فى الأصل « فذرنى » .

قالت من حدثك أن النبى ﷺ كتم شيئا من الوحى فلا تصدقه ، إن الله تعالى يقول **﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ﴾** . وفى خطبته فى موقف الحج الأكبر[1] قال ﷺ « وأنتم تسألون عنى فما أنتم قائلون ؟ قالوا نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت » وفيها إشارته ﷺ بيده إلى السماء قائلا « اللهم هل بلغت ؟ اللهم اشهد » قالها مرارا . وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال قام فينا رسول الله ﷺ ذات يوم فذكر الغلول فعظمه وعظم أمره ثم قال « لا ألفين أحدكم يجىء يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء يقول : يا رسول الله أغثنى ، فأقول لا أملك لك شيئا قد أبلغتك . لا ألفين أحدكم يجىء يوم القيامة على رقبته فرس له حمحمة فيقول : يا رسول الله أغثنى ، فأقول لا أملك لك شيئا قد أبلغتك . لا ألفين أحدكم يجىء يوم القيامة على رقبته شاة لها ثغاء يقول : يا رسول الله أغثنى ، فأقول لا أملك لك شيئا قد أبلغتك ، لا ألفين أحدكم يجىء يوم القيامة على رقبته نفس لها صياح فيقول : يا رسول الله أغثنى ، فأقول لا أملك لك شيئا قد أبلغتك ، لا ألفين أحدكم يجىء يوم القيامة على رقبته رقاع تخفق فيقول : يا رسول الله أغثنى ، فأقول لا أملك لك من الله شيئا قد أبلغتك ، لا ألفين أحدكم يجىء يوم القيامة على رقبته صامت فيقول : يا رسول الله أغثنى ، فأقول لا أملك لك من شيئا قد أبلغتك » متفق عليه . وكان ﷺ يعرض نفسه على القبائل فى المواسم ويقول « إنى رسول الله وآتيكم لتمنعونى حتى أبلغ رسالة ربى » وغير ذلك من الأحاديث ، يخبر ﷺ أنه مخبر عن الله ومبلغ رسالته وأن ما أمر به ونهى عنه وأخبر به هو تبليغ لأمر الله ونهيه وخبره ، وأنه لم يقل شيئا من عند نفسه فيقول هو من عند الله ، ومن اعتقد ذلك فهو كافر من حزب أبى جهل والوليد بن المغيرة وملإهم ، قال الله عز وجل **﴿ ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل . لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين ، فما منكم من أحد عنه حاجزين . وانه لتذكرة للمتقين . وانا لنعلم أن منكم مكذبين . وانه لحسرة على الكافرين ، وإنه لحق اليقين . فسبح باسم ربك العظيم ﴾** .

(ليس بمخلوق) كما يقول الزنادقة من الحلولية والاتحادية والجهمية والمعتزلة وغيرهم تعالى الله عز وجل عن أن يكون شىء من صفاته مخلوقا ، قال الله عز وجل **﴿وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ﴾** وقال تعالى **﴿ ألا له الخلق والأمر ﴾** وقال تعالى **﴿إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ﴾** فأخبر تعالى أن الخلق غير الأمر وأن القرآن من أمره لا من خلقه وقال **﴿ إنما قولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴾**[2] فكن من

(١) انظر خطبة حجة الوداع فى فتح البارى شرح صحيح البخارى ح : ١٦٥٤ ، ١٦٥٥

(٢) الآية ٤٠ من سورة النحل ووردت فى الأصل « إنما أمرنا »

كلامه الذى هو صفته ليس بمخلوق . والشيء المراد المقول له « كن » مخلوق ، وقال تعالى **﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ﴾** فعيسى وآدم مخلوقان بكن و « كن » قول الله صفة من صفاته ، وليس الشيء المخلوق هو كن ، ولكنه كان بقول الله له كن ، وقد انعقد إجماع سلف الأمة الذين قضوا بالحق وبه كانوا يعدلون على تكفير من قال بخلق القرآن ، وذلك لأنه لا يخلو قوله من إحدى ثلاث: إما أن يقول إنه خلقه فى ذاته ، أو فى غيره ، أو منفصلا مستقلا وكل الثلاث كفر صريح، لأنه إن قال خلقه فى ذاته فقد جعل ذاته محلا للمخلوقات . وإن قال إنه خلقه فى غيره فهو كلام ذلك الغير فيكون القرآن على هذا كلام كل تال له وهذا قول الوليد بن المغيرة فيما حكى الله عنه حيث قال تعالى **﴿ إنه فكر وقدر . فقتل كيف قدر ، ثم قتل كيف قدر ، ثم نظر . ثم عبس وبسر ، ثم أدبر واستكبر . فقال إن هذا إلا سحر يؤثر ، إن هذا إلا قول البشر ، سأصليه سقر ، وما أدراك ما سقر ، لا تبقى ولا تذر لواحة للبشر﴾** الايات . وإن قال إنه خلقه منفصلا مستقلا فهذا جحود لوجوده مطلقا إذ لا يعقل ولا يتصور كلام يقوم بذاته بدون متكلم ، كما لا يعقل سمع بدون سميع ولا بصر بدون بصير ولا علم بدون عالم ولا إرادة بدون مريد ولا حياة بدون حى إلى عير ذلك تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون علوا كبيرا ، فهذه الثلاث لا خروج لزنديق منها ولا جواب له عنها فبهت الذى كفر والله لا يهدى القوم الظالمين ، وقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين .

أصل القول بخلق القرآن

وأول ما اشتهر القول بخلق القرآن فى آخر عصر التابعين لما ظهر جهم بن صفوان شقيق إبليس لعنهما الله وكان ملحدا عنيدا وزنديقا زائغا مبتغيا غير سبيل المؤمنين لم يثبت أن فى السماء ربا ولا يصف الله تعالى بشيء مما وصف به نفسه وينتهى قوله إلى جحود الخالق عز وجل . ترك الصلاة أربعين يوما يزعم يرتاد دينا ، ولما ناظره بعض السمنية فى معبوده قال قبحه الله : هو هذا الهواء فى كل مكان ، وافتتح مرة سورة طه فلما أتى على هذه الاية **﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾** قال : لو وجدت السبيل إلى حكها لحككتها، ثم قرأ حتى أتى على آيه أخرى فقال ما كان أظرف محمدا حين قالها ، ثم افتتح سورة القصص فلما أتى على ذكر موسى جمع يديه ورجليه ثم رفع المصحف ثم قال أى شيء هذا ذكره ههنا فلم يتم ذكره ، وذكره ههنا فلم يتم ذكره وقد روى عنه عير هذا من

الكفريات ، وهو أذل وأحقر من أن نشتغل بترجمته . وقد يسر الله تعالى ذبحه على يد سالم بن أحوز بأصبهان وقيل بمرو ، وهو يومئذ نائبها رحمه الله تعالى وجزاه عن المسلمين خيرا . وقد تلقى هذا القول عن الجعد بن درهم لكنه لم يشتهر فى أيام الجعد كما اشتهر عن الجهم ، فان الجعد لما أظهر القول بخلق القرآن تطلبه بنو أمية فهرب منهم فسكن الكوفة فلقيه فيها الجهم بن صفوان فتقلد هذا القول عنه ولم يكن له كثير أتباع غيره ، ثم يسر الله تعالى قتل الجعد على يد خالد بن عبد الله القسرى الأمير ، قتله يوم عيد الأضحى بالكوفة ، وذلك لأن خالدا خطب الناس فقال فى خطبته تلك : أيها الناس ضحوا تقبل الله ضحاياكم ، فانى مضح بالجعد بن درهم ، إنه نعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا ولم يكلم موسى تكليما ، تعالى الله عما يقول الجعد علوا كبيرا . ثم نزل فذبحه فى أصل المنبر ، روى ذلك البخارى فى كتابه خلق أفعال العباد ، ورواه ابن أبى حاتم فى كتاب السنة له وغيرهما ، وهو مشهور فى كتب التواريخ ، وذلك سنة أربع وعشرين ومائة . وقد أخذ الجعد بدعته هذه عن بيان بن سمعان ، وأخذها بيان عن طالوت ابن أخت لبيد بن الأعصم ، وأخذها طالوت عن خاله لبيد بن الأعصم اليهودى الذى سحر النبى ﷺ وأنزل الله تعالى فى ذلك سورة المعوذتين . ثم تقلد هذا المذهب المخذول عن الجهم بشر بن غياث بن أبى كريمة المريسى المتكلم ، شيخ المعتزلة وأحد من أضل المأمون وجدد القول بخلق القرآن ويقال إن أباه كان يهوديا صباغا بالكوفة وروى عنه أقوال شنيعة فى الدين من التجهم وغيره مات سنة ثمانى عشرة ومائتين . ثم تقلد عن بشر ذلك المذهب الملعون قاضى المحنة أحمد بن أبى دؤاد وأعلن بمذهب الجهمية وحمل السلطان على امتحان الناس بالقول بخلق القرآن وعلى أن الله لا يُرى فى الآخرة ، وكان بسببه ما كان على أهل الحديث والسنة من الحبس والضرب والقتل وغير ذلك ، وقد ابتلاه الله تعالى بالفالج قبل موته بأربع سنين حتى أهلكه الله تعالى سنة أربعين ومائتين . ومن أراد الاطلاع على ذلك وتفاصيله فليقرأ كتب التواريخ ير العجب .

ذكر ما قاله أئمة السنة فى مسألة القرآن وحكم الجهمية

قال إمام أهل السنة أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى : من قال القرآن مخلوق فهو عندنا كافر لأن القرآن من علم الله وفيه أسماء الله ، وقال : إذا قال الرجل العلم مخلوق فهو كافر لأنه يزعم أنه لم يكن لله علم حتى خلقه ، وقال رحمه الله تعالى من قال القرآن مخلوق فهو عندنا كافر لأن القرآن من علم الله قال الله تعالى ﴿ **فمن حاجّك فيه من بعد**

ما جاءك من العلم ﴾ ، وقال تعالى **﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل ان هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم ما لك من الله من ولى ولا نصير ﴾** وقال تعالى **﴿ ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض ، ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين ﴾** وقال تعالى **﴿ ألا له الخلق والأمر ﴾** وقال تعالى **﴿ ومن يكفر به من الأحزاب ﴾** قال سعيد بن جبير : والأحزاب الملل كلها **﴿فالنار موعده ﴾** وقال تعالى **﴿ ومن الأحزاب من ينكر بعضه قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به ، إليه أدعو وإليه مآب ﴾** وقال تعالى **﴿ وكذلك أنزلناه حكما عربيا ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم ما لك من الله من ولى ولا واق ﴾** وقال رحمه الله تعالى : من قال ذاك القول لا يصلى خلفه الجمعة ولا غيرها فان صلى خلفه أعاد الصلاة . يعنى من قال القرآن مخلوق . وقال رحمه الله تعالى : إذا كان القاضى جهميا فلا تشهد عنده ، وقال إبراهيم : الجهمية كفار والقدرية كفار . وقال سليمان التيمى رحمه الله تعالى : ليس قوم أشد بغضا للاسلام من الجهمية والقدرية ، فأما الجهمية فقد بارزوا الله ، وأما القدرية فانهم قالوا فى الله ، وقال سلام بن أبى مطيع : الجهمية كفار لا يصلى خلفهم ، وقال خارجة : الجهمية كفار بلغوا نساءهم أنهن طوالق وأنهن لا يحللن لأزواجهن . لا تعودوا مرضاهم ولا تشهدوا جنائزهم . ثم تلا **﴿ طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى إلا تذكرة لمن يخشى ﴾** إلى قوله **﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾** وقال ملك رحمه الله « من قال القرآن مخلوق يوجع ضربا ويحبس حتى يتوب » وقال سفيان الثورى رحمه الله : من زعم أن قول الله **﴿ يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم ﴾** مخلوق فهو كافر زنديق حلال الدم ، وقال أيضا : من قال إن **﴿ قل هو الله أحد الله الصمد ﴾** مخلوق فهو كافر وقال أبو يوسف القاضى : صنفان ما على وجه الأرض شر منهما الجهمية والمقاتلية. قلت : وأظنه يعنى بالمقاتلية أتباع مقاتل بن سليمان البلخى فانه رماه الامام أبو حنيفة بالتشبيه فانه قال أفرط جهم فى نفى التشبيه حتى قال إنه تعالى ليس بشىء ، وأفرط مقاتل فى معنى الإثبات حتى جعله مثل خلقه ، وتابع أبا حنيفة على ذلك جماعة من أئمة الجرح والتعديل من أقرانه كأبى يوسف وغيره فمن بعدهم حتى قال ابن حبان : كان يأخذ من اليهود والنصارى من علم القرآن الذى

يوافق كتبهم ، وكان يشبه الرب بالمخلوق ، وكذبه وكيع وغيره والله أعلم بحاله ، قال وكيع : مات مقاتل بن سليمان سنة خمسين ومائة ا هـ . وقال عبد الله بن المبارك : الجهمية كفار ، وقال : ليس تعبد الجهمية شيئا . وقال : من قال القرآن مخلوق فهو زنديق . وقال : إنا نستجيز أن نحكى كلام اليهود والنصارى ولا نستجيز أن نحكى كلام الجهمية . وقال سفيان بن عيينة : القرآن كلام الله ، من قال مخلوق فهو كافر ، ومن شك فى كفره فهو كافر . وقال : من قال القرآن مخلوق يحتاج أن يصلب على ذياب ، يعنى جبل . وقال عبد الله بن إدريس رحمه الله وقد سئل : ما تقول فى الجهمية يصلى خلفهم ؟ فقال : أمسلمون هؤلاء ، أمسلمون هؤلاء ؟ لا ولا كرامة ، لا يصلى خلفهم . وقال له رجل : يا أبا محمد إن قبلنا ناسا يقولون القرآن مخلوق . فقال من اليهود ؟ قال لا ، قال فمن النصارى ؟ قال لا ، قال فمن المجوس ؟ قال لا ، قال فمن ؟ قال من الموحدين . قال كذبوا ليس هؤلاء بموحدين هؤلاء زنادقة هؤلاء زنادقة . وقرأ ابن إدريس ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم**﴾ فقال : آلله مخلوق ؟ والرحمن مخلوق ؟ والرحيم مخلوق ؟ هؤلاء زنادقة . وسئل عن قوم يقولون القرآن مخلوق ، فاستشنع ذلك وقال : سبحان الله ، شيء منه مخلوق ؟ وقال وكيع فانى أستتيبه ، فان تاب وإلا قتلته ، وقال من زعم أن القرآن مخلوق فقد زعم أنه محدث ، ومن زعم أنه محدث فقد كفر ، وقيل له : إن فلانا يقول إن القرآن محدث . فقال : سبحان الله ، هذا الكفر . قال السويدى وسألت وكيعا عن الصلاة خلف الجهمية ، فقال : لا تصل خلفهم . وقال : من زعم أن القرآن مخلوق فقد زعم أنه محدث يستتاب فان تاب وإلا ضربت عنقه . وقال زهير بن حرب : اختصمت أنا ومثنى فقال مثنى : القرآن مخلوق . وقلت أنا : كلام الله . فقال وكيع وأنا أسمع : هذا كفر ، وقال من قال القرآن مخلوق هذا كفر . فقال مثنى : يا أبا سفيان قال الله ﴿ **ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث** ﴾ فأيش هذا ؟ فقال وكيع : من قال القرآن مخلوق هذا كفر ، وقال : من قال القرآن مخلوق فهو كافر ، وقال رحمه الله : القرآن كلام الله أنزله جبريل على محمد ﷺ ، كل صاحب هو يعرف الله ويعرف من يعبد ، إلا الجهمية لا يدرون من يعبدون ، بشر المريسى وأصحابه . وقيل لوكيع فى ذبائح الجهمية ، قال لا توكل هم مرتدون . وقال : من قال إن كلامه ليس منه فقد كفر ، وقال : من قال إن منه شيئاً مخلوقا فقد كفر . وقال فطر بن حماد سألت معتمر بن سليمان فقلت : يا أبا محمد إمام لقوم يقول القرآن مخلوق أصلى خلفه ؟ فقال : ينبغى أن تضرب عنقه . قال فطر : وسألت حماد بن زيد فقلت يا أبا اسماعيل إمام لنا يقول القرآن مخلوق أصلى خلفه ؟ فقال صل خلف مسلم أحب إلى . وسألت يزيد بن زريع فقلت : يا أبا معاوية إمام لقوم يقول القرآن

مخلوق أصلي خلفه ؟ قال لا ولا كرامة . وقال عبد الرحمن بن مهدى : من زعم أن الله لم يكلم موسى يستتاب ، فان تاب وإلا ضربت عنقه . وقال مرة : لا أرى أن أستتيب الجهمية . وقل رحمة الله : لو كان لي من الأمر شيء لقمت على الجسر فلا يمر بي أحد من الجهمية إلا سألته عن القرآن فان قال مخلوق ضربت رأسه ورميت به في الماء . وقال أبو بكر بن الأسود : لو أن رجلا جهميا مات وأنا وارثه ما استحللت أن آخذ من ميراثه . وقال أبو يوسف القاضي : جيئوني بشاهدين يشهدان على المريسي ، والله لأملأن ظهره وبطنه بالسياط ، يقول في القرآن ، يعني مخلوق . وقال يزيد بن هارون وذكر الجهمية فقال : هم والله زنادقة ، عليهم لعنة الله . وقال رحمه الله : والله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة من قال القرآن مخلوق فهو زنديق . وسئل عن الصلاة خلفهم قال لا . وقال معاذ بن معاذ : من قال القرآن مخلوق فهو كافر . وقال شبابة بن سوار : اجتمع رأيي ورأى أبي النضر هاشم بن القاسم وجماعة من الفقهاء على أن المريسي كافر جاحد نرى أن يستتاب فان تاب وإلا ضربت عنقه . وكان أبو توبة الحلبي ونعيم بن حماد وإبراهيم بن مهدى يكفرون الجهمية . وقال بشر بن الحارث : لا تجالسوهم ولا تكلموهم ، وإن مرضوا فلا تعودوهم ، وإن ماتوا فلا تشهدوهم ، كيف يرجعون وأنتم تفعلون بهم هذا ؟ قال يعنى الجهمية . وقال ابن أبي مريم : من زعم أن القرآن مخلوق فهو كافر . وقال أبو الأسود النضر بن عبد الجبار : القرآن كلام الله ، من زعم أنه مخلوق فهو كافر . هذا كلام الزنادقة . وقال عباد بن العوّام : كلمت بشرا المريسي وأصحابه فرأيت آخر كلامهم ينتهى أن يقولوا : ليس في السماء شيء . وقال عمرو بن الربيع بن طارق : القرآن كلام الله من زعم أنه مخلوق فهو كافر . وقال هارون أمير المؤمنين : بلغني أن بشرا المريسي يزعم أن القرآن مخلوق ، لله عليّ أن أظفرني الله به إلا قتلته قتلة ما قتلتها أحداً قط . وقال هارون ابن معروف : من قال القرآن مخلوق فهو يعبد صنما . وقال يحيي بن معين رحمه الله : من قال القرآن مخلوق فهو كافر . وقال رجل لهشيم : إن فلانا يقول القرآن مخلوق ، فقال : اذهب إليه فاقرأ عليه أول الحديد وآخر الحشر ، فان زعم أنهما مخلوقان فاضرب عنقه . وقال أبو هاشم الغساني مثله . وقال أبو عبيد : من قال القرآن مخلوق فقد افترى على الله وقال عليه ما لم تقله اليهود والنصارى . وقال إسحاق بن البهلول لأنس بن عياض أبي ضمرة : أصلي خلف الجهمية ؟ قال لا **﴿ ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾** وسئل عيسى بن يونس رحمه الله عمن يقول : القرآن مخلوق، فقال : كافر ، أو كفر . فقيل له : تكفرهم بهذه الكلمة ؟ قال : إن هذا من أيسر أو أحسن ما يظهرون . وكان يحيي بن معين رحمه الله يعيد صلاة الجمعة مذ أظهر عبد

الله بن هارون المأمون ما أظهر . يعني القول بخلق القرآن . وقال الحسين بن إبراهيم بن أشكاب وعاصم بن على بن عاصم وهارون الفروى وعبد الوهاب الوراق وسفيان بن وكيع: القرآن كلام الله وليس بمخلوق . وسئل جعفر بن محمد رحمه الله عن القرآن فقال : ليس بخالق ولا مخلوق ، ولكنه كلام الله . وروى عن أبيه على بن الحسين أنه قال فى القرآن : ليس بخالق ولا مخلوق ، ولكنه كلام الله . وقال الزهرى : سألت على بن الحسين عن القرآن فقال : كتاب الله وكلامه . وعن إبراهيم بن سعد وسعيد بن عبد الرحمن الجمحى ووهب بن جرير وأبى النضر هاشم بن القاسم وسليمان بن حرب قالوا : القرآن كلام الله ليس بمخلوق . وقال سفيان بن عيينة : لا نحسن غير هذا ، القرآن كلام الله ﴿ **فأجره حتى يسمع كلام الله** ﴾ ، ﴿ **يريدون أن يبدلوا كلام الله** ﴾ وقال الامام مالك بن أنس وجماعة من العلماء بالمدينة وذكروا القرآن فقالوا : كلام الله وهو منه ، وليس من الله شيء مخلوق . وقال حماد بن زيد رحمه الله : القرآن كلام الله أنزله جبريل من عند رب العالمين . وقال أبو بكر بن عياش : من زعم أن القرآن مخلوق فقد افترى على الله . وقال وكيع : القرآن من الله ، منه خرج وإليه يعود . وقال يحيي بن سعيد : كيف يصنعون بقل هو الله أحد ، كيف يصنعون بهذه الآية ﴿ **إنى أنا الله** ﴾ يكون مخلوقا ؟ وقال وهب بن جرير ومحمد بن يزيد الواسطى وابن أبى إدريس وأبو بكر بن أبى شيبة وأخوه عثمان بن أبى شيبة وأبو عمر الشيبانى ويحيي بن أيوب وأبو الوليد وحجاج الأنماطى ويحيي بن معين وأبو خيثمة وإسحاق بن أبى إسرائيل وأبو معمر : القرآن كلام الله ليس بمخلوق . وقال أبو عمرو الشيبانى لاسماعيل بن حماد بن أبى حنيفة ـ وقال القرآن مخلوق ـ فقال الشيبانى : خلقه قبل أن يتكلم به أو بعد ما تكلم به ؟ قال فسكت . وقال حسن بن موسى الأشيب أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ **إياك نعبد وإياك نستعين** ﴾ فقال حسن : أمخلوق هذا ؟ وقال محمد بن سليمان لوين : القرآن كلام الله غير مخلوق ، ما رأيت أحدا يقول القرآن مخلوق ، أعوذ بالله ا هـ . من كتاب السنة .

وقال الشافعى رحمه الله تعالى فى وصيته : القرآن كلام الله غير مخلوق . وقال عفان ابن مسلم أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿ **يريدون أن يبدلوا كلام الله ـ الله لاإله إلا هو الحى القيوم ـ قل هو الله أحد** ﴾ أمخلوق هذا ؟ أدركت شعبة وحماد بن سلمة وأصحاب الحسن يقولون : القرآن كلام الله ليس مخلوقا . وقال يحيى بن يحيى : من زعم أن من القرآن من أوله إلى آخره آية مخلوقة فهو كافر . وقال هشام بن عبيد الله : القرآن كلام الله غير مخلوق . فقال له رجل : أليس الله تعالى يقول ﴿ **ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث** ﴾ ؟ فقال : محدث إلينا ، وليس عند الله بمحدث . وقال إسحاق بن ابراهيم

الحنظلى رحمه الله : ليس بين أهل العلم اختلاف أن القرآن كلام الله ليس بمخلوق ، فكيف يكون شيء خرج من الرب عز وجل مخلوقا . وقال أبو جعفر النفيلى : من قال إن القرآن مخلوق فهو كافر ، فقيل له : يا أبا جعفر الكفر كفران ، كفر نعمة وكفر بالرب عز وجل ؟ قال لا بل كفر بالرب عز وجل ، ما تقول فيمن يقول ﴿ **الله أحد ، الله الصمد** ﴾ مخلوق ، أليس كافرا هو ؟ وقال عبد الله بن محمد العيشى : يستحيل فى صفة الحكيم أن يخلق كلاما يدعى الربوبية ، يعنى قوله تعالى ﴿ **إننى أنا الله** ﴾ وقوله ﴿ **أنا ربك** ﴾ قلت : والمعتزلة يقولون إن كلام الله لموسى خلقه فى الشجرة ، فعلى هذا تكون الشجرة هى القائلة ﴿ **إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى** ﴾ قبحهم الله فى الدنيا والآخرة . وقال محمد ابن يحيى الذهلى : الإيمان قول وعمل ، يزيد وينقص . والقرآن كلام الله غير مخلوق بجميع صفاته وحيث تصرف وأما كلام البخارى رحمه الله تعالى ومتانته فى هذه المسألة فأشهر من أن يحتاج إلى تعريف ، وله فى ذلك (كتاب خلق أفعال العباد) وقد بوّب فى صحيحه على جملة وافية تدل على غزارة علمه وجلالة شأنه . وقال أبو حاتم وأبو زرعة : أدركنا العلماء فى جميع الأمصار فكان من مذاهبهم أن الإيمان قول وعمل ، يزيد وينقص ، والقرآن كلام الله غير مخلوق بجميع جهاته ، والقدر خيره وشره من الله تعالى ، وأن الله تعالى على عرشه بائن من خلقه كما وصف نفسه فى كتابه وعلى لسان رسوله بلا كيف ، أحاط بكل شيء علما ، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير . وقال محمد ابن أسلم الطوسى : القرآن كلام الله غير مخلوق أينما تلى وحيثما كتب لا يتغير ولا يتحول ولا يتبدل . ا هـ . من العلو للذهبى .

وقال إمام الأئمة محمد بن إسحاق بن خزيمة رحمه الله تعالى فى كتاب التوحيد بعد تبويبه على تكليم الله موسى عليه السلام : وتكلم الله بالوحى وصفة نزول الوحى وتكليم الله عباده يوم القيامة وتقرير البحث فى ذلك ، ثم قال : باب ذكر البيان من كتاب ربنا المنزل على نبيه المصطفى ﷺ ومن سنة محمد ﷺ على الفرق بين كلام الله عز وجل الذى به يكون خلقه وبين خلقه الذى يكون بكلامه وقوله ، والدليل على نبذ قول الجهمية الذين يزعمون أن كلام الله تعالى مخلوق ، جل ربنا وعز عن ذلك . قال الله سبحانه وتعالى ﴿ **ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين** ﴾ ففرق الله تعالى بين الخلق والأمر الذى به يخلق الخلق بواو الاستئناف وأعلمنا الله جل وعلا فى محكم تنزيله أنه يخلق الخلق بكلامه وقوله ﴿ **إنما أمرنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون** ﴾ فأعلمنا جل وعلا أنه يكون كل مكون من خلقه بقوله كن فيكون وقوله « كن » هو كلامه الذى به يكون الخلق ، وكلامه عز وجل الذى به يكون الخلق غير الخلق الذى يكون مكونا

بكلامه فافهم ولا تغلط ولا تغالط ، ومن عقل عن الله خطابه علم أن الله سبحانه لما أعلم عباده المؤمنين أنه يكون الشيء بقوله كن أن القول الذى هو كن غير المكون بكن المقول له كن ، وعقل عن الله أن قوله كن لو كان خلقا على ما زعمت الجهمية المفترية على الله أنه إنما يخلق الخلق ويكونه بخلق لو كان قوله كن خلقا : فيقال لهم : يا جهلة ، فالقول الذى يكون به الخلق على زعمكم لو كان خلقا بم يكونه ؟ أليس قود مقالتكم التى تزعمون أن قوله كن إنما يخلقه بقول قبله وهو عندكم خلقه وذلك القول يخلقه بقول قبله وهو خلق حتى يصير إلى مالا غاية ولا عدد ولا أول ، وفى هذا إبطال تكوين الخلق وإنشاء البرية وإحداث ما لم يكن قبل ، بحدث الله الشيء ونشئه ، وهذا قول لا يتوهمه ذو لب لو تفكر فيه ووفق لادراك الصواب والرشاد ، قال الله سبحانه وتعالى ﴿ **والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره** ﴾ فهل يتوهم مسلم أن الله تعالى سخر الشمس والقمر والنجوم مسخرات بخلقه ، أليس مفهوما ـ عند من يعقل عن الله خطابه ـ أن الأمر الذى سخر به غير المسخر بالأمر وأن القول غير المقول له ؟ فتفهموا يا ذوى الحجا عن الله خطابه ، وعن النبى المصطفى ﷺ بيانه ، لا تصدوا عن سواء السبيل فتضلوا كما ضلت الجهمية عليهم لعائن الله ، فاسمعوا الآن الدليل الواضح البين غير المشكل من سنة النبى ﷺ بنقل العدل عن العدل موصولا إليه على الفرق بين خلق الله وبين كلام الله تعالى . ثم ساق الأحاديث فى ذكر كلمات الله تعالى إلى حديث « أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق » ثم قال : أفليس العلم محيطا يا ذوى الحجا أنه غير جائز أن يأمر النبى ﷺ بالتعوذ بخلق الله من شر خلقه ، هل سمعت عالما يجيز أن يقول أعوذ بالكعبة من شر خلق الله ، أو يجيز أن يقول أعوذ بالصفا والمروة أو أعوذ بعرفات ومنى من شر ما خلق الله، هذا لا يقوله ولا يجيز القول به مسلم يعرف دين الله ، محال أن يستعيذ مسلم بخلق الله من شر خلقه . ثم ساق بحثا طويلا فليراجع منه . وقال أبو معاوية بن خازم الضرير رحمه الله : الكلام فيه بدعة وضلالة . ما تكلم فيه النبى ﷺ ولا الصحابة رضى الله عنهم ولا التابعون ولا الصالحون رحمهم الله تعالى . يعنى قول القرآن مخلوق . وذكر عند أبى نعيم هو الفضل بن دكين من يقول القرآن مخلوق ، فقال : والله والله ما سمعت بشيء من هذا حتى خرج ذاك الخبيث جهم . وكلام أئمة السنة فى هذا الباب يطول ذكره ولو أردنا استيعابه لطال الفصل . وقد تكرر نقل الإجماع منهم على إثبات ما أثبت الله عز وجل لنفسه وأثبته رسوله ﷺ والصحابة فمن بعدهم ونفى التكييف عنها ، لا سيما فى مسألة للعلو وفى هذه المسألة مسألة القرآن وتكليم الله تعالى موسى ، لأنها أول ما جحده الزنادقة قبحهم الله تعالى ، وفى ذكر من سمينا كفاية ، ومن لم نسم منهم أضعاف ذلك ، ولم

يختلف منهم اثنان فى أن القرآن كلام الله تعالى ليس بمخلوق ، من الله بدأ وإليه يعود . وتقلدوا كفر من قال بخلق القرآن ومنعوا الصلاة خلفه وأفتوا بضرب عنقه وبتحريم ميراثه على المسلمين وحرموا ذبيحته وجزموا بأنها ذبيحة مرتد لا تحل للمسلمين . فانظرأيها المنصف أقوالهم ثم اعرضها على نصوص الكتاب والسنة هل تجدهم حادوا عنها قيد شبر، أو قدموا عليها قول أحد من الناس كائنا من كان ؟ حاشا وكلا ومعاذ الله ، بل بها اقتدوا ومنها تضلعوا ، وبنورها استضاءوا وإياها اتبعوا ، فهداهم الله بذلك لما اختلفت فيه من الحق بإذنه ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

هذا مقال المؤمنين جميعهم ... وعصابة التوحيد أعلام الهدى
الكاشفين عوار كل مشبه ... والقامعين لكل من قد ألحدا
زن قولهم بالوحى وانظر هل ترى ... ميلا لهم عما إليه أرشدا
حاشاهم عن أن يميلوا خطوة ... عما إليه الله إياهم هدى
بل أثبتوا لله ما قد أثبتت ... آى الكتاب وكل نص أسندا
ومن النفاة تبرأوا وكذاك من ... قول الممثل إذ تغالى واعتدى
جعلوا إمامهم الكتاب وسنة ... المختار يا طوبى لمن بهما اهتدى
ولذاك أعلى الله جل منارهم ... والملحدون بناءهم قد هدا
وأتم نورهم الإله وغيرهم ... فى ظلمة إذ لم يكن بهم اقتدى
يارب ألحقنا بهم واجعل لنا ... نورا نميز به الضلال من الهدى

وقضى السلف الصالح رحمهم الله تعالى على الطائفة الواقفة وهم القائلون لا نقول القرآن مخلوق ولا غير مخلوق بأن من كان منهم يحسن الكلام فهو جهمى ومن لم يحسن الكلام منهم بل علم أنه كان جاهلا جهلا بسيطا فهو تقام عليه الحجة بالبيان والبرهان ، فان تاب وآمن أنه كلام الله تعالى وإلا فهو شر من الجهمية ، وسيأتى إن شاء الله الكلام على اللفظية قريبا وسنذكر إن شاء الله تعالى فى آخر الفصل سائر الفرق المخالفين للسنة فى القرآن وغيره من الصفات ، لأنا أحببنا تجريد مذهب أهل السنة على حدته لقصد التيسير وبالله التوفيق .

(ولا بمفترى) أى وليس القرآن بمفترى كما قاله كفار قريش وغيرهم من أعداء الله تعالى حيث قالوا فيه ﴿ **إن هذا إلا سحر يؤثر** ﴾ ، وقالوا ﴿ **إن هذا إلا إفك افتراه** ﴾ ،

﴿ وقالوا أساطير الأولين اكتتبها ﴾ ، و ﴿ يقولون إنما يعلمه بشر ﴾ وقالوا شعر ، وقالوا كهانة ، وقالوا ﴿ إن هذا إلا اختلاق ﴾ . وقالوا ﴿ لو نشاء لقلنا مثل هذا ﴾ ، وغير ذلك من مفترياتهم وإفكهم ، وكل ذلك إنما قالوه عنادا ومكابرة ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا ﴾ وقد كشف الله تعالى شبههم وأدحض حججهم وبهتهم وقطعهم وفضحهم على رءوس الأشهاد وبين عجزهم وكشف عوارهم فى جميع ما انتحلوا فقال تعالى لمن قال ﴿ إن هذا إلا سحر يؤثر ، إن هذا إلا قول البشر ﴾ قال الله تعالى ﴿سأصليه سقر ، وما أدراك ما سقر . لا تبقى ولا تذر ، لوّاحة للبشر ، عليها تسعة عشر﴾ إلى آخر الايات وقال تعالى ﴿ وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون ﴾ فرد الله ذلك عليهم بقوله ﴿ فقد جاءوا ظلما وزورا ﴾ ، ﴿ وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا ﴾ فرد الله ذلك عليهم بقوله تعالى ﴿ قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض إنه كان غفورا رحيما ﴾ وقال تعالى ﴿ وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر ﴾ فرد الله ذلك عليهم بقوله عز وجل ﴿بل أكثرهم لا يعلمون . قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمؤمنين . ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر ﴾ قال المفسرون إن المشركين يشيرون بهذا إلى رجل أعجمى كان بين أظهرهم غلام لبعض بطون قريش قيل اسمه بلعام، وقيل يعيش وقيل عائش ، وقيل جبر وقيل يسار وقيل غير ذلك ، وربما كان رسول الله ﷺ يجلس إليه ويكلمه بعض الشيء ، فرد الله عز وجل عليهم ذلك الافتراء بقوله تعالى ﴿ لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين ﴾ أى فكيف يتعلم من جاء بهذا القرآن فى فصاحته وبلاغته ومعانيه التامة الشاملة التى هى أكمل من معانى كل كتاب نزل على بنى إسرائيل ، كيف يتعلم من رجل أعجمى ؟ لا يقول هذا من له أدنى مسكة من عقل ، وقال فى رد قولهم شعر وكهانة ﴿ وما علمناه الشعر وما ينبغى له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين . لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين ﴾ وقال تعالى ﴿فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون ، أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون. قل تربصوا فإنى معكم من المتربصين . أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طاغون ، أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون ﴾ الايات وقال تعالى ﴿ وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ، ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون . تنزيل من رب العالمين . ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل . لأخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين . فما منكم من أحد عنه حاجزين . وإنه لتذكرة للمتقين ﴾ إلى آخر الايات . وقال تعالى لمن قال ﴿إن هذا إلا اختلاق ، أأنزل عليه الذكر من بيننا ﴾ فرد الله تعالى ذلك عليهم بقوله عز

وجل ﴿ **بل هم في شك من ذكرى بل لما يذوقوا عذاب ، أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب** ﴾ إلى آخر الآيات . ورد عليهم تعالى في قولهم ﴿ **لو نشاء لقلنا مثل هذا** ﴾ بقوله عز وجل ﴿ **قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا** ﴾ وقد تحداهم تعالى على أن يأتوا بمثله أو بعشر سور من مثله أو بسورة من مثله فعجزوا عن ذلك كله وبان كذبهم قال الله عز وجل ﴿ **أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون . فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين** ﴾ وقال تعالى وتقدس ﴿ **أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من** دون الله إن كنتم صادقين . **فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله** إلا هو ، **فهل أنتم مسلمون** ﴾ وقال تعالى ﴿ **وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين . فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين** ﴾(1) فعجزوا عن ذلك كله ولم يطمعوا في شيء منه ، مع أنهم فحول اللغة وفرسان الفصاحة وأهل البلاغة وأعلم الناس بنثر الكلام ونظمه وهجزه ورجزه ، مع شدة معاندتهم لرسول الله ﷺ وما جاء به وحرصهم على معارضته بكل ممكن ، ولكن جاءهم مالا قبل لهم به وأتاهم مالا يطيقون، كلام ذي الملكوت والجبروت والعظمة والكبرياء والعزة والجلال والكمال رب الأرض والسماء ورب الآخرة والأولى من له الأسماء الحسنى والصفات العلى والمثل الأعلى ، الذي لا سمي له ولا كفو له وليس كمثله شيء وهو السميع البصير . فلما رأوا وجوه إيجازه وإعجازه ومبانيه الكاملة ومعانيه الشاملة ، وإخباره عن الأمم الماضية والغيوب المستقبلة، والأحكام الواقعة ، ونبأ الوعد والوعيد والترغيب والترهيب والتهديد وغير ذلك على أكمل وجه وأوضح بيان وأعلى قصص وأعظم برهان ، علموا أنه ليس بكلام المخلوقين ولا يشبه كلام المخلوقين وعلموا أنه الحق ، وإنما رموه بالافك والبهتان بقولهم كاهن شاعر مجنون وغير ذلك إنما هو مكابرة وعناد مع الاعتراف بذلك فيما بينهم كما تقدم عن الوليد وعتبة وأبي جهل قبحهم الله وغيرهم ، ولو كان تقوله كما زعموا هم لاستطاعوا معارضته ولم ينقطعوا عن مقاومته لأنهم عرب فصحاء مثله عارفون بوجوه البلاغة كلها لا يجهلون منها شيئا ، ولما عدلوا إلى المكابرة والتبجح بالقول دون الفعل الذي هو أمقت شيء عند العقلاء. ولكنه كلام رب العالمين ، نزل به الروح الأمين على قلب محمد خاتم المرسلين ، وسيد ولد آدم أجمعين هدى وبشرى للمسلمين . وتبيانا لكل شيء وتفصيل كل شيء وذكرى للمؤمنين ﴿ **لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد** ﴾ فلا يأتي

---

(1) الآيات : ٢٣ ، ٢٤ من سورة البقرة ، وردت في الأصل : « وإ كنتم في شك » وهو تحريف .

مبطل بشبهة إلا وفيه إزهاق باطله وكشف شبهته وإدحاض حجته كما هو معلوم عند من عرف مواقع النزول ، ويكفيك في ذلك قول الله عز وجل ﴿ **ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا** ﴾

﴿ يُحفـــظ بالقلـب وباللســـان	يتلـى كمـا يسمـع بالآذان ﴾
﴿ كـذا بالأبصـار إليـــه ينظــر	وبالأيـادى خطـه يسطــر ﴾
﴿ وكـــل ذى مخلـوقـة حقيقـة	دون كـــلام بارىء الخليقة ﴾
﴿ جلـــت صفـات ربنا الرحمـن	عن وصفها بالخلق والحدثان ﴾
﴿ فالصوت والالحان صوت القارى	لكنمـــا المتلوُّ قـول البارى ﴾
﴿ ما قالـــه لا يقبـــل التبديـــلا	كـلا ولا أصـــدق منـه قيلا ﴾

(يحفظ) بالبناء للمفعول أى القرآن (بالقلب) كما قال تبارك وتعالى ﴿ **نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين** ﴾ وقال تعالى ﴿ **بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون** ﴾ وقال ﴿**سنقرئك فلا تنسى** ﴾ وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « إن الذى ليس فى جوفه شيء من القرآن كالبيت الخراب » قال الترمذى هذا حديث حسن صحيح ، وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال بعث رسول الله ﷺ بعثا وهم ذوو عدد ، فاستقرأهم فاستقرأ كل رجل منهم – يعنى ما معه من القرآن ـ فأتى على رجل من أحدثهم سنا فقال « ما معك يا فلان » فقال . معى كذا وكذا وسورة البقرة ، فقال « أمعك سورة البقرة » قال نعم ، قال « اذهب فأنت أميرهم » فقال رجل من أشرافهم : والله ما منعنى أن أتعلم البقرة إلا خشية أن لا أقوم بها ، فقال رسول الله ﷺ « تعلموا القرآن واقرأوه ، فان مثل القرآن لمن تعلمه فقرأه وقام به كمثل جراب محشوّ مسكا يفوح ريحه فى كل مكان . ومثل من تعلمه فيرقد وهو فى جوفه كمثل جراب أوكى على مسك » قال الترمذى هذا حديث حسن وفى حديث سهل بن سعد رضى الله عنه المتفق عليه فى قصة الواهبة نفسها وفيه قال « ما معك من القرآن » قال معى سورة كذا وسورة كذا عددها ، فقال «تقرأهن عن ظهر قلبك » ؟ قال نعم ، قال « اذهب فقد ملكتكها بما معك من القرآن » ولأبى داود قال : سورة البقرة والتى تليها ، قال « قم فعلمها عشرين آية» . وفى الصحيحين عن ابن عمر رضى الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ « مثل القرآن إذا عاهد عليه صاحبه فقرأه بالليل والنهار كمثل رجل له إبل فإن عقلها حفظها وإن أطلق عقالها

ذهبت ، فكذلك صاحب القرآن » . ولهما عن عائشة رضى الله عنها قالت : سمع رسول الله ﷺ رجلا يقرأ فى سورة بالليل فقال « يرحمه الله لقد أذكرنى كذا وكذا آية كنت أنسيتها من سورة كذا وكذا »[1] والأحاديث فى هذا كثيرة جدا . (وباللسان يتلى) قال الله تبارك وتعالى ﴿ **اتل ما أوحى إليك من كتاب ربك لا مبدل لكلماته** ﴾ وقال تعالى ﴿**وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث** ﴾ وقال تعالى ﴿ **وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا** ﴾ وقال تعالى ﴿ **إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية يرجون تجارة لن تبور . ليوفيهم أجورهم**﴾ إلى آخر الآية ، وقال تعالى ﴿ **لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه ، فاذا قرأناه فاتبع قرآنه . ثم إن علينا بيانه** ﴾ وقال تعالى ﴿ **ورتل القرآن ترتيلا** ﴾ وقال تعالى ﴿ **ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا**﴾ وغير ذلك من الآيات . وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « لا حسد إلا فى اثنتين : رجل علمه الله القرآن فهو يتلوه آناء الليل والنهار فسمعه جار له » إلى آخر الحديث رواه البخارى[2] . وأخرج أبو عبيد القاسم بن سلام عن فضالة بن عبيد عن النبى ﷺ قال « لله أشد أذنا إلى الرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلى قينته » رواه ابن ماجه . وله عن المهاجر بن حبيب قال : قال رسول الله ﷺ « يا أهل القرآن لا توسّدوا القرآن ، واتلوه حق تلاوته آناء الليل والنهار وتغنوه وتقنوه واذكروا ما فيه لعلكم تفلحون » والأحاديث فى هذا كثيرة جدا سيأتى ما تيسر منها فى ذكر الصوت .

(كما يسمع بالآذان) قال الله تبارك وتعالى ﴿ **وان أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله** ﴾ ، وقال تبارك وتعالى ﴿ **وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق** ﴾ ، وقال تعالى ﴿ **وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون** ﴾ ، وقال تعالى ﴿ **وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين . قالوا ياقومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم** ﴾ الايات ، وقال تعالى ﴿ **قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا** « إلى قوله تعالى » **وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به** ﴾ الايات ، وقال تعالى ﴿ **الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه**﴾ وغير ذلك من الايات . وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال لى النبى ﷺ « اقرأ علىّ القرآن » قلت أقرأ عليك وعليك أنزل ؟ قال « إنى أحب أن أسمعه

---

(١) انظر الفتح ح ٤٧٥٥ (٢) انظر الفتح ح ٤٧٣٧ ، ٤٧٣٨

من عيرى » الحديث متفق عليه وعن أبى موسى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « يا أبا موسى ، لو رأيتنى وأنا أستمع لقراءتك البارحة » فقال : أما والله لو أعلم أنك تسمع قراءتي لحبّرتها لك تحبيرا . رواه مسلم . ولأبى عبيد عن عائشة رضى الله عنها قالت : أبطأت على رسول الله ﷺ ليلة بعد العشاء ثم جئت ، فقال « أين كنت » قلت : كنت أسمع قراءة رجل من أصحابك لم أسمع مثل قراءته وصوته من أحد ، قالت فقام رسول الله ﷺ وقمت معه حتى استمع له ، ثم التفت إليّ فقال « هذا سالم مولى أبى حذيفة ، الحمد لله الذى جعل فى أمتى مثل هذا » إسناده جيد ، والاحاديث فى هذا كثيرة .

(كذا بالأبصار إليه) متعلقان بـ (ينظر) أى إلى القرآن في المصحف وهو من أفضل العبادات وأجلها . وروى أبو عبيد باسناد فيه ضعف عن بعض أصحاب النبى ﷺ قال : قال النبى ﷺ « فضل قراءة القرآن نظرا على من يقرأه ظهرا كفضل الفريضة على النافلة »

وقال ابن مسعود رضى الله عنه : أديموا النظر فى المصحف . وعن ابن عباس رضى الله عنهم أنه كان إذا دخل نشر المصحف فقرأ فيه . وكان ابن مسعود رضى الله عنه إذا اجتمع إليه إخوانه نشروا المصحف فقرأوا وفسر لهم . وقال ابن عمر رضى الله عنهما : إذا رجع أحدكم من سوقه فلينشر المصحف وليقرأ . وذهب كثير من السلف أن قراءة القرآن فى المصحف أفضل من على ظهر قلب ، لأنه يشتمل على التلاوة والنظر فى المصحف وكرهوا أن يمضى على الرجل يومان لا ينظر فى مصحفه . (وبالأيادى خطه يسطر) كما قال تعالى **﴿ إنه لقرآن كريم . فى كتاب مكنون ، لا يمسه إلا المطهرون ﴾** وقال تعالى **﴿رسول من الله يتلو صحفا مطهرة ، فيها كتب قيمة ﴾** وقال تعالى **﴿ كلا إنها تذكرة ، فمن شاء ذكره ، في صحف مكرمة ، مرفوعة مطهرة ﴾** وقد كتبه الصحابة فى عهد النبى ﷺ بأمره ، وفى خلافة أبى بكر وعثمان ، وإلى الآن يكتبة المسلمون ، وقال ابن عباس رضى الله عنهما ما ترك النبى ﷺ إلا ما بين الدفتين ، وقال على بن أبى طالب نحو ذلك ، وقال أبو بكر رضى الله عنه معنى ذلك فى محضر الصحابة لم يقل أحد خلافه . ولو لم يكن الذى فى المصحف كلام الله لم يحرم مسه على أحد ولم يكن من شأنه أن **﴿ لا يمسه إلا المطهرون ﴾** بل ولا كان يحرم توسده ، ولذا أجاز الزنادقة ذلك حيث لم يؤمنوا أن فيه كتاب الله ، وهذا من أسفل دركات الكفر قبحهم الله . (وكل ذى) المذكورات من القلب وحافظته وذاكرته واللسان وحركته والآذان وأسماعها والأبصار ونظرها والأيادى وكتابها وأدوات الكتابة من أوراق وأقلام ومداد ، كلها (مخلوقة حقيقة) ليس فى ذلك توقف ، (دون) القرآن الذى هو (كلام) الله تعالى (بارئ الخليقة) . قال الامام أحمد رحمه الله تعالى يتوجه العبد لله تعالى بالقرآن بخمسة أوجه وهو فيها

غير مخلوق : حفظ بقلب ، وتلاوة بلسان ، وسمع بأذن ، ونظره ببصر ، وخط بيد فالقلب مخلوق والمحفوظ غير مخلوق ، والتلاوة مخلوقة والمتلوّ غير مخلوق ، والسمع مخلوق والمسموع غير مخلوق ، والنظر مخلوق والمنظور إليه غير مخلوق ، والكتابة مخلوقة والمكتوب غير مخلوق . انتهى . فأعمال العباد مخلوقة والقرآن حيثما تصرف وأين كتب وحيث تلى كلام الله تعالى غير مخلوق .

جلت صفات ربنا الرحمن   عن وصفها بالخلق والحدثان

فليس من صفات الله تعالى شيء مخلوق ، تعالى الله عن ذلك وتعالى عن أن تكون ذاته محلا للمخلوقات ، بل هو الأول بأسمائه وصفاته قبل كل شيء ، والآخر بأسمائه وصفاته بعد كل شيء ، لم يسبق شيء من صفاته بالعدم ، ولم يعقب بالفناء ، تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون علوا كبيرا . (فالصوت) من جهورى وخفى (والألحان) من حسن وغيره (صوت القارى لكنما المتلو) المؤدّى بذلك الصوت هو (قول البارى) جل وعلا . وفى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه كان يقول : قال رسول الله ﷺ « لم يأذن الله لشيء ما أذن لنبى ﷺ يتغنى بالقرآن »(١) ولابن ماجه باسناد جيد عن فضالة بن عبيد قال : قال رسول الله ﷺ « لله أشد أذنا إلى الرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلى قينته » وعن سعد أبى وقاص رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « غنوا بالقرآن ليس منا من لم يغن بالقرآن وابكوا فان لم تقدروا على البكاء فتباكوا » رواه البغوى ، ولأبى داود نحوه ، وله عن أبى أمامة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « ليس منا من لم يتغن بالقرآن »(٢) وله وللنسائى وابن ماجه باسناد جيد عن البراء بن عازب رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ « زينوا القرآن بأصواتكم » وفى الصحيحين عن جبير بن مطعم رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقرأ فى المغرب بالطور ، فما سمعت أحدا أحسن صوتا ـ أو قراءة ـ منه » الحديث، ولابن ماجه عن جابر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إن من أحسن الناس صوتا بالقرآن الذى إذا سمعتموه يقرأ حسبتموه يخشى الله » ولأبى عبيد عن حذيفة بن اليمان قال : قال رسول الله ﷺ « اقرأوا القرآن بلحون العرب وأصواتها ، وإياكم ولحون أهل الفسق وأهل الكتابين . وسيجيء قوم من بعدى يرجّعون بالقرآن ترجيع الغناء والرهبانية والنوح ، لا يجاوز حناجرهم ، مفتونة قلوبهم وقلوب الذين يعجبهم شأنهم » وفى الصحيحين عن أبى موسى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « يا أبا موسى ، لقد أوتيت مزمارا من مزامير آل داود » . ففى جميع هذه الأحاديث التصريح باضافة الصوت والألحان والتغنى إلى العبد

(١) انظر الفتح ح ٤٧٣٦ ، ٧٠٤٤   (٢) انظر الفتح ح ٤٧٣٥ ٧٠٨٩

لأنه عمله ، والقرآن المؤدّى بذلك الصوت هو كلام الله حقيقة ، وكذلك المهارة بالقرآن والتتعتع فيه هو فعل العبد وسعيه لما فى الصحيح عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ « الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة ، والذى يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران » وهذا الفرق واضح ولله الحمد وعليه أهل السنة والحديث كأحمد بن حنبل وأبى عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى وغيرهما رحمهم الله تعالى ، ولو كان الصوت هو نفس المتلوّ المؤدّى به كما يقوله أهل الاتحاد لكان كل من سمع القرآن من أى تال وبأى صوت كليم الرحمن فلا مزية لموسى عليه السلام على غيره ، اللهم لك الحمد ربنا ، لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب .

(مسألة) . اشتهر عن السلف الصالح كأحمد بن حنبل وهارون الفروى وجماعة أئمة الحديث أن اللفظية جهمية ، واللفظية هم من قال : لفظى بالقرآن مخلوق ، قال أئمة السنة رحمهم الله تعالى : ومن قال لفظى بالقرآن غير مخلوق فهو مبتدع ، يعنون غير بدعية الجهمية ، وذلك لأن اللفظ يطلق على معنيين : أحدهما الملفوظ به وهو القرآن وهو كلام الله ليس فعلا للعبد ولا مقدورا له ، والثانى التلفظ وهو فعل العبد وكسبه وسعيه، فاذا أطلق لفظ الخلق على المعنى الثانى شمل الأول وهو قول الجهمية ، وإذا عكس الامر بأن قال لفظى بالقرآن غير مخلوق شمل المعنى الثانى وهى بدعة أخرى من بدع الاتحادية . وهذا ظاهر عند كل عاقل ، فانك إذا سمعت رجلا يقرأ **﴿ قل هو الله أحد ﴾** تقول هذا لفظ سورة الاخلاص ، وتقول هذا لفظ فلان بسورة الاخلاص ، إذ اللفظ معنى مشترك بين التلفظ الذى هو فعل العبد ، وبين الملفوظ به الذى هو كلام الله عز وجل . وهذا بخلاف ما ذكر السلف بقولهم : الصوت صوت القارى ، والكلام كلام البارى ، فان الصوت معنى خاص بفعل العبد لا يتناول المتلوّ المؤدّى بالصوت البتة ، ولا يصلح أن تقول هذا صوت قل هو الله أحد ولا يقول ذلك عاقل ، وإنما تقول هذا صوت فلان يقرأ قل هو الله أحد ونحو ذلك . نعم ، إذا سمع كلام الله عز وجل منه تعالى بدون واسطة كسماع موسى عليه الصلاة والسلام وسماع جبريل عليه السلام وسماع أهل الجنة كلامه منه عز وجل فحينئذ التلاوة والمتلو صفة البارى عز وجل ليس منها شيء مخلوق . تعالى الله علوا كبيرا .

(ما قاله لا يقبل التبديلا) قال الله تعالى **﴿ ما يبدل القول لدى ﴾** وقال تعالى **﴿ واتل ما أوحى إليك من كتاب ربك لا مبدل لكلماته ﴾** وقال تعالى **﴿ وتمت كلمات ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم ﴾** وقال تعالى **﴿ لا تبديل لكلمات الله ﴾**.

(كلا) أى لا يكون ذلك (ولا أصدق منه) أى من الله تعالى (قيلا) أى قولا

وهو تمييز محول عن اسم لا ، والتقدير لا قيل أصدق من قيله ، قال الله تبارك وتعالى ﴿الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ومن أصدق من الله حديثا ﴾ وقال تعالى في الآية الأخرى ﴿ ومن أصدق من الله قيلا ﴾ أى من أصدق من الله تعالى في حديثه وخبره ووعده ووعيده ؟ والجواب : لا أحد . وفي خطبة رسول الله ﷺ قال « إن أصدق الحديث كلام الله ، وخير الهدى هدى محمد ﷺ » الحديث .

﴿ وقد روى الثقات عن خير الملا	بأنــه عــزَّ وجــلَّ وعـلا ﴾
﴿ فـــى ثلث الليل الأخير ينزل	يقـول هل من تائـب فيقبل ﴾
﴿ هل من مسيء طالـب للمغفره	يجـد كريما قابلا للمعذره ﴾
﴿ يمـنُّ بالخيـرات والفضائـل	ويستر العيـب ويعطى السائل ﴾

أى ومما يجب الإيمان به وإثباته وإمراره كما جاء صفة النزول للرب عز وجل كما ثبت في الأحاديث الصحيحة المشهورة عن فضلاء الصحابة كأبي بكر الصديق ، وعلى بن أبي طالب ، وأبي هريرة ، وأبي سعيد ، وجبير بن مطعم ، وجابر بن عبد الله ، وعبد الله بن مسعود ، وعمرو بن عبسة ، ورفاعة الجهني ، وعثمان بن أبي العاص الثقفي ، وأبي الدرداء ، وابن عباس ، وعبادة بن الصامت ، وأبي الخطاب ، وعمر بن عامر السلمي ، وغيرهم رضي الله عنهم .

فعن أبي بكر الصديق رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال « ينزل الله ليلة النصف من شعبان فيغفر لكل نفس إلا إنسان في قلبه شحناء أو شرك » رواه جماعة عن ابن وهب . وعن على بن أبي طالب رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « لو لا أن أشق على أمتى لأخرت العشاء الأخيرة إلى ثلث الليل ، فانه إذا مضى ثلث الليل هبط الله عز وجل إلى سماء الدنيا لم يزل بها حتى يطلع الفجر فيقول : ألا سائل يعطى ، ألا داع فيجاب ، ألا مذنب يستغفر فيغفر له ، ألا سقيم يستشفي فيشفي » رواه الطبراني في السنة . وعن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال « ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل فيقول من يدعوني فأستجيب له ، من يسألني فأعطيه ، من يستغفرني فأغفر له»[1] أخرجاه في الصحيحين . وفي رواية عن أبي هريرة وأبي سعيد رضى الله عنهما أنهما شهدا على رسول الله ﷺ أنه قال « إن الله يمهل ، حتى إذا كان ثلث الليل هبط إلى السماء الدنيا فنادى : هل من مذنب يتوب ، هل من مستغفر ، هل من سائل »[2] . وفي مسند أحمد رحمه الله تعالى عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ « ينزل الله كل

(١) رواه البخارى في التهجد   (٢) انظر الفتح ح ٧٠٥٦ .

ليلة إذا مضى ثلث الليل الأول فيقول: أنا الملك ، من ذا الذى يستغفرنى فأغفر له »
وحديث أبى هريرة رضى الله عنه فى النزول قد تعددت طرقه فى الصحيحين وسائر الأمهات ، وقد ساقه إمام الأئمة أبو بكر محمد بن اسحاق بن خزيمة فى كتاب التوحيد من أكثر من ثلاثين طريقا عن أبى هريرة رضى الله عنه إلى النبى ﷺ . وفى رواية عبد الرزاق عن معمر عن الزهرى عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « إن الله ينزل إلى السماء الدنيا وله فى كل سماء كرسى ، فاذا نزل إلى سماء الدنيا جلس على كرسيه ثم مد ساعديه فيقول : من ذا الذى يقرض غير عديم ولا ظلوم ، من ذا الذى يستغفرنى فأغفر له ، من ذا الذى يتوب فأتوب عليه . فاذا كان عند الصبح ارتفع فجلس على كرسيه » رواه ابن منده قال وله أصل مرسل . وعن جبير بن مطعم رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « ينزل الله إلى سماء الدنيا كل ليلة فيقول جل جلاله : هل من سائل فأعطيه ، هل من مستغفر فأغفر له » حديث صحيح رواه النسائى وأبو الوليد الطيالسى . وعن جابر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « إن الله ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا لثلث الليل فيقول : ألا عبد من عبيدى يدعونى فأستجيب له ، أو ظالم لنفسه يدعونى فأغفر له ، ألا مقتر عليه رزقه ، ألا مظلوم يستنصرنى فأنصره ، ألا عان يدعونى فأفك عنه ، فيكون ذلك مكانه حتى يفىء الفجر ، ثم يعلو ربنا عز وجل إلى السماء العليا على كرسيه» رواه الدارقطنى . وعن ابن مسعود رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « إن الله تعالى إذا كان ثلث الليل الآخر نزل إلى سماء الدنيا ثم بسط يده فقال : من يسألنى فأعطيه ، حتى يطلع الفجر » حديث حسن رواه أحمد فى مسنده ورجاله أئمة ، ورواه أبو معاوية بلفظ « إن تعالى يفتح أبواب السماء ، ثم يهبط إلى السماء الدنيا ، ثم يسط يده فيقول : ألا عبد يسألنى فأعطيه ، حتى يطلع الفجر » وعن رفاعه الجهنى قال : قال رسول الله ﷺ « إذا مضى نصف الليل أو ثلث الليل نزل الله إلى سماء الدنيا فقال : لا أسأل عن عبادى، من ذا الذى يستغفرنى فأغفر له ، من ذا الذى يدعونى فأستجيب له ، من ذا الذى يسألنى فأعطيه ، حتى ينفجر الفجر » حديث صحيح رواه أحمد فى مسنده . وعن عثمان بن أبى العاص الثقفى رضى الله عنه عن النبى ﷺ « ينزل الله إلى سماء الدنيا كل ليلة فيقول : هل من داع فأستجيب له ، هل من سائل فأعطيه ، هل من مستغفر فأغفر له. وأن داود خرج ذات ليلة فقال : لا يسأل الله شيئا إلا أعطاه ، إلا أن يكون ساحرا أو عشارا » رواه الامام أحمد بنحوه ، وعن أبى الدرداء رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « ينزل الله تبارك وتعالى فى آخر ثلاث ساعات بقين من الليل ينظر فى الساعة الأولى منهن فى الكتاب الذى لا ينظر فيه غيره ، فيمحو ما يشاء ويثبت . ثم ينظر فى الساعة الثانية فى جنة عدن وهى مسكنه الذى يسكن ، لا يكون معه فيها إلا الانبياء والشهداء والصديقون ،

وفيها ما لم ير أحد ولم يخطر على قلب بشر . ثم يهبط فى آخر ساعة من الليل يقول ألا مستغفر فأغفر له ، ألا سائل فأعطيه ، ألا داع فأستجيب له » رواه عثمان بن سعيد الدارمى. وروى موسى بن عقبة عن اسحاق بن يحيى بن الوليد عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « ينزل الله كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول : ألا عبد يدعونى فأستجيب له ، ألا ظالم لنفسه يدعونى فأقبله . فيكون كذلك إلى مطلع الصبح ويعلو على كرسيه » . وعن أبى الخطاب رضى الله عنه أنه قال وقد سئل عن الوتر : أحب أوتر نصف الليل ، فان الله يهبط من السماء السابعة إلى السماء الدنيا فيقول : هل من مذنب ، هل من مستغفر ، هل من داع ، حتى إذا طلع الفجر ارتفع » رواه محمد بن سعد فى طبقاته . وعن عمرو بن عامر السلمى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إذا ذهب ثلث الليل ـ أو قال نصف الليل ـ ينزل الله إلى سماء الدنيا فيقول : هل من عان فأفكه ، هل من سائل فأعطيه ، هل من داع فأستجيب له ، هل من مستغفر فأغفر له » رواه ابن منده . وعن عبيد بن السباق أنه بلغه أن رسول الله ﷺ قال « ينزل ربنا من آخر الليل فينادى مناد فى السماء العليا : ألا نزل الخالق العليم . فيخرج أهل السماء وينادى فيهم مناد بذلك ، فلا يمر بأهل سماء إلا وهم سجود » رواه أبو داود . وروى أبو اليمان ويحيى بن أبى بكر وعبد الصمد بن النعمان ويزيد بن هارون ـ وهذا سياق حديثه ـ أخبرنا جرير بن عثمان حدثنا سليمان بن عامر عن عمرو بن عبسة قال : أتيت النبى ﷺ فقلت : يا رسول الله جعلنى الله فداك ، شيء تعلمه وأجهله ينفعنى ولا يضرك ، ما ساعة أقرب من ساعة وما ساعة تبقى فيها ؟ يعنى الصلاة . فقال « يا عمرو ابن عبسة ، لقد سألتنى عن شيء ما سألنى عنه أحد قبلك . إن الرب تعالى يتدلى من جوف الليل فيغفر ، إلا ما كان من الشرك والبغى ، والصلاة مشهودة حتى تطلع الشمس فانها تطلع على قرن الشيطان وهى صلاة الكفار ، فأقصر عن الصلاة حتى ترتفع الشمس، فاذا استعلت الشمس فالصلاة مشهودة حتى يعتدل النهار ، فإذا اعتدل النهار فأخر الصلاة فانها حينئذ تسجر جهنم ، فاذا فاء الفيء فالصلاة مشهودة حتى تدلى للغروب فانها تغيب بين قرنى الشيطان فأقصر عن الصلاة حتى تجب الشمس » وهو فى مسلم مطولا . قلت وهذا فى معنى قوله تبارك وتعالى **﴿ أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا . ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا ﴾** وفى كتاب السنة للخلال عن ابن عباس رضى الله عنهما قال «ينزل الله كل ليلة إلى سماء الدنيا ثلث الليل الأوسط فيقول : من يدعونى فأستجيب له ، ومن يسألنى فأعطيه ، ويترك أهل الحقد لحقدهم » وعن أبى الدرداء رضى

الله عنه عن رسول الله ﷺ قال « إن الله عز وجل ينزل فى ثلاث ساعات بقين من الليل يفتح الذكر فى الساعة الأولى لم يره أحد غيره فيمحو ما يشاء ويثبت ما شاء ، ثم ينزل فى الساعة الثانية إلى جنة عدن التى لم ترها عين ولم تخطر على قلب بشر ولا يسكنها من بنى آدم غير ثلاثة : النبيين والصديقين والشهداء ، ثم يقول : طوبى لمن دخلك . ثم ينزل فى الساعة الثالثة إلى سماء الدنيا بروحه وملائكته فينتفض فيقول : قيومى بعزتى . ثم يطلع إلى عباده فيقول : هل من مستغفر أغفر له ، هل من داع أجيبه ، حتى تكون صلاة الفجر» وكذلك يقول ﴿ **وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا** ﴾ فيشهده الله وملائكة الليل والنهار » رواه ابن خزيمة فى كتاب التوحيد ، وقد تقدم قريبا بغير هذا اللفظ . وله عن القاسم بن محمد عن أبيه ـ أو عمه ـ عن جده عن رسول الله ﷺ أنه قال « ينزل الله عز وجل ليلة النصف فيغفر للمؤمنين » الحديث رواه ابن زنجويه . وعنه أبى أمامة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إذا كان ليلة النصف من شعبان هبط الله تعالى إلى سماء الدنيا فيغفر لأهل الأرض إلا لكافر أو مشاحن » رواه محمد بن الفضل البخارى . وعن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه سمعت النبى ﷺ يقول « ينزل ربنا إلى سماء الدنيا فى النصف من شعبان فيغفر لأهل الأرض إلا لكافر أو مشاحن » . قلت ولا منافاة بين أحاديث تخصيص النزول بليلة النصف من شعبان وبين الأحاديث القاضية أنه فى كل ليلة فان النزول فى ليلة النصف من شعبان مطلق والنزول فى كل ليلة مقيد بالنصف فى لفظ وبالثلث فى آخر ، على أنه ليس فى تخصيص النزول بنصف شعبان نفى له فيما عداها ، والأحاديث التى فيها النزول كل ليلة أكثر وأشهر وأصح بلا شك ولا مرية . وقد ثبت النزول أيضا فى عشية عرفة كما روى ابن أبى حاتم من حديث أبى الزبير عن جابر ابن عبد الله رضى الله عنهما عن النبى ﷺ « إذا كان يوم عرفة فان الله ينزل إلى سماء الدنيا فيباهى بهم الملائكة فيقول « انظروا إلى عبادى ، أتونى شعثا غبرا ، أشهدكم أنى قد غفرت لهم » . ورواه الخلال فى السنة من حديث أبى النضر عن أيوب عن أبى الزبير عنه يرفعه « أفضل أيام الدنيا أيام العشر » قالوا يا رسول الله ولا مثلهن فى سبيل الله قال «إلا من عفر وجهه فى التراب ، إن عشية عرفة ينزل الله إلى سماء الدنيا فيقول للملائكة «انظروا إلى عبادى هؤلاء شعثا غبرا جاءوا من كل فج عميق ضاحين يسألونى رحمتى . فلا يرى يوما أكثر عتيقا ولا عتيقة » وروى خلاد بن يحيى حدثنا عبد الوهاب عن مجاهد عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : كنت جالسا عند النبى ﷺ فجاء رجلان أحدهما أنصارى والآخر ثقفى فذكر الحديث وفيه « إن الله ينزل إلى السماء الدنيا فيقول للملائكة هؤلاء عبادى جاءونى شعثا غبرا من كل فج عميق ، اشهدوا أنى قد غفرت لهم ذنوبهم »

رواه طلحة بن مصرف عن مجاهد به . وقد روى النزول فى رمضان ، وليس هو نافياً له فى غيره . فروى على بن معبد عن عبيد الله بن عمر عن زيد بن أبى أنيسة عن طارق عن سعيد بن جبير سمعت ابن عباس رضى الله عنهما يقول « إن الله تبارك وتعالى ينزل فى شهر رمضان ، إذا ذهب الثلث الأول من الليل هبط إلى السماء الدنيا ثم قال : هل من سائل يعطى ، هل من مستغفر يغفر له ، هل من تائب يتاب عليه » . وروى عبيد الله بن موسى قال ابن أبى ليلى عن المنهال عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قوله تعالى **﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة﴾** قال : « ينزل الله إلى السماء الدنيا فى شهر رمضان يدبر أمر السنة فيمحو ما يشاء الشقاوة والسعادة والموت والحياة» وإسناده حسن . وهذا الموقوف له حكم المرفوع عند المحدثين لأنه لا يقال من قبل الرأى . وقد ثبت النزول لفصل القضاء وللتجلى لأهل الجنة كما ستأتى الأحاديث إن شاء الله تعالى فى ذلك .

ونحن نشهد شهادة مقر بلسانه مصدق بقلبه مستيقن بما فى هذه الأخبار من ذكر نزول الرب جل وعلا من غير أن نصف الكيفية ، لأن نبينا المصطفى ﷺ لم يصف كيفية نزول خالقنا إلى سماء الدنيا ، وأعلمنا أنه ينزل ، والله جل وعلا لم يترك ولا نبيه ﷺ بيان ما بالمسلمين إليه الحاجة من أمر دينهم ، فنحن قائلون مصدقون بما فى هذه الأخبار من ذكر النزول كما يشاء ربنا وعلى ما يليق بجلاله وعظمته عز وجل غير متكلفين القول بصفته أو بصفة الكيفية ، إذ النبى ﷺ لم يصف لنا كيفية النزول ، فنسير بسير النصوص حيث سارت ونقف معها حيث وقفت لا نعدوها إن شاء الله تعالى ولا نقصر عنها . وقد تكلفت جماعة من مثبتى المتكلمين فخاضوا فى معنى ذلك وفى ذلك الانتقال وعدمه ، وفى خلو العرش منه وعدمه نفيا وإثباتا وذلك تكلف منهم ، ودخول فيما لا يعنيهم ، وهو ضرب من التكييف لم يأت فى لفظ النصوص ولم يسأل الصحابة النبى ﷺ عن شىء من ذلك حين حدثهم بالنزول ، فنحن نؤمن بذلك ونصدق به كما آمنوا وصدقوا . فان قال لنا متعنت أو متنطع : يلزم من إثبات كذا كيت وكيت فى أى شىء من صفات الله ، قلنا له أنت لا تلزمنا نحن فيما تدعيه وإنما تلزم قائل ذلك وهو رسول الله ﷺ ، فان كان ذلك لازما لما قاله حقيقة وجب الايمان به إذ لازم الحق حق ، وإن لم يك ذلك لازما له فأنت معترض على النبى ﷺ كاذب عليه متقدم بين يديه وروى البيهقى عن الحاكم عن محمد ابن صالح بن هانى سمع أحمد بن سلمة سمعت إسحاق بن راهويه يقول: جمعنى وهذا المبتدع ـ يعنى إبراهيم بن صالح ـ مجلس الأمير عبد الله بن طاهر ، فسألنى الأمير عن أخبار النزول فسردتها ، فقال ابن أبى صالح كفرت برب ينزل من سماء إلى سماء . فقلت

آمنتُ برب يفعل ما يشاء . وقال إسحاق رحمه الله تعالى : دخلت على ابن طاهر فقال ما هذه الأحاديث يروون أن الله ينزل إلى السماء الدنيا ؟ قلت نعم رواها الثقات الذين يروون الأحكام . فقال : ينزل ويدع عرشه ؟ فقلت : يقدر أن ينزل من غير أن يخلو منه العرش ؟ قال نعم . قلت فلم تتكلم فى هذا ؟ وقال إسحق أيضا قال لى ابن طاهر : يا أبا يعقوب هذا الذى تروونه « ينزل ربنا كل ليلة » كيف ينزل ؟ قلت : أعز الله الأمير ، لا كيف ، إنما ينزل بلا كيف . وقال أحمد بن سعيد الرباطى : حضرت مجلس ابن طاهر وحضر إسحق ، فسئل عن حديث النزول أصحيح هو ؟ قال نعم ، فقال له بعض القواد : كيف ينزل ؟ فقال أثبته فوق حتى أصف لك النزول . فقال الرجل أثبته فوق ، فقال إسحاق قال الله تعالى ﴿ **وجاء ربك والملك صفا صفا** ﴾ فقال ابن طاهر : هذا يا أبا يعقوب يوم القيامة. فقال : ومن يجيء يوم القيامة من يمنعه اليوم ؟ ا هـ . من كتاب العلوّ .

وهذا الذى قاله إسحاق رحمه الله تعالى هو الذى عليه عامة أهل السنة والجماعة كما قدمنا عنهم فى جميع نصوص الصفات ، وأن مذهبهم إمرارها كما جاءت ، والايمان بلا كيف .

﴿ وأنه يجيء يوم الفصل كما يشاء للقضاء العدل ﴾

قال الله تبارك وتعالى ﴿ **هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام والملائكة وقضى الأمر وإلى الله ترجع الأمور** ﴾ وقال تبارك وتعالى ﴿ **هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتى ربك أو يأتى بعض آيات ربك** ﴾ وقال تعالى ﴿ **ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا** ﴾ وقال تعالى ﴿ **كلا إذا دكت الأرض دكا دكا ، وجاء ربك والملك صفا صفا** ﴾ وقال تعالى ﴿ **وأشرقت الأرض بنور ربها** ﴾ . وفى حديث الصور المشهور الذى ساقه غير واحد من أصحاب المسانيد وغيرهم عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ وفيه « إن الناس إذا اهتموا لموقفهم فى العرصات تشفعوا إلى ربهم بالانبياء واحدا واحدا من آدم فمن بعده ، فكلهم يحيد عنها حتى ينتهوا إلى محمد ﷺ ، فاذا جاءوا إليه قال : أنا لها أنا لها ، فيذهب فيسجد لله تعالى تحت العرش ويشفع عند الله فى أن يأتى لفصل القضاء بين العباد فيشفعه الله ويأتى فى ظلل من الغمام بعد ما تنشق السماء الدنيا وينزل من فيها من الملائكة ثم الثانية ثم الثالثة إلى السابعة ، وينزل حملة العرش والكروبيون . قال : وينزل الجبار عز وجل فى ظلل من الغمام ولهم زجل من تسبيحهم يقولون : سبحان ذى الملك والملكوت ، سبحان ذى العزة والجبروت ، سبحان الحى الذى لا يموت ، سبحان الذى يميت الخلائق ولا يموت ، سبوح قدوس رب الملائكة والروح ، سبوح قدوس سبحان ربنا الأعلى ، سبحان ذى السلطان والعظمة ،

سبحانه سبحانه أبدا أبدا » . وعن ابن مسعود رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « يجمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم أربعين سنة شاخصة أبصارهم إلى السماء ينتظرون فصل القضاء وينزل الله فى ظلل من الغمام من العرش إلى الكرسى » رواه ابن منده وقال الذهبى إسناده حسن . وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « إذا كان يوم القيامة نزل الرب إلى العباد » رواه مسلم . وعن أسماء بنت يزيد رضى الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول « يهبط الرب تعالى من السماء السابعة إلى المقام الذى هو قائمه ، ثم يخرج عنق من النار فيظل الخلائق كلهم فيقول : أمرت بكل جبار عنيد ، ومن زعم أنه عزيز كريم ، ومن دعا مع الله إلها آخر » رواه أبو أحمد العسال فى كتاب السنة . وفى الصحيحين من حديث الشفاعة عن أبى هريرة رضى الله عنه وفيه « يجمع الله الناس يوم القيامة فيقول : من كان يعبد شيئا فليتبعه ، فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس ويتبع من كان يعبد القمر القمر ويتبع من كان يتبع الطواغيت الطواغيت ، وتبقى هذه الأمة فيها شافعوها ـ أو منافقوها ، شك إبراهيم ، يعنى ابن سعد الراوى عن ابن شهاب ـ فيأتيهم الله تعالى فيقول : أنا ربكم . فيقولون هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا فاذا جاء ربنا عرفناه ، فيأتيهم الله فى صورته التى يعرفون فيقول : أنا ربكم ، فيقولون أنت ربنا فيتبعونه . ويضرب الصراط بين ظهرى جهنم » وذكر الحديث بطوله . ولهما نحوه من حديث أبى سعيد ، وفيه «حتى يبقى من كان يعبد الله من بر أو فاجر ، فيقال لهم : ما يحبسكم وقد ذهب الناس ؟ فيقولون فارقناهم ونحن أحوج منا إليهم اليوم ، وإنا سمعنا مناديا ينادى ليلحق كل قوم بما كانوا يعبدون وإنما ننتظر ربنا ، قال فيأتيهم الجبار فى صورة غير صورته التى رأوه فيها أول مرة فيقول : أنا ربكم فيقولون أنت ربنا . فلا يكلمه إلا الانبياء . فيقول : هل بينكم وبينه آية تعرفونه ؟ فيقولون الساق ، فيكشف عن ساقه فيسجد له كل مؤمن . ويبقى من كان يسجد لله رياء وسمعة فيذهب كيما يسجد فيعود ظهره طبقا واحدا » وذكر الحديث، والأحاديث فى هذا كثيرة ، قال الذهبى رحمه الله تعالى : أحاديث نزول البارى متواترة قد سقت طرقها وتكلمت عليها بما أسأل عنه يوم القيامة .

﴿ وأنـــــه يـُــرى بلا إنكـــار | فى جـــــنة الفـــردوس بالأنصار ﴾
﴿ كـل يـــراه رؤيـــة العيـــان | كمـــا أتى فـى محكـــم القـــرآن ﴾
﴿ وفـــى حديـــث سيد الأنام | مـــن غـــير ما شـــك ولا إيـــهام ﴾
﴿ رؤية حـــق ليـــس يمـترونهـا | كالشمـــس صحـوا لا سحلب دونهـا ﴾
﴿ وخـــص بالرؤيـــة إوليـــاؤه | فضيلـــة وحجبـــــوا أعـــداؤه ﴾

قال الله تبارك وتعالى ﴿ **وجوه يومئذ ناضرة . إلى ربها ناظرة** ﴾ وقال تعالى ﴿ **للذين أحسنوا الحسنى وزيادة** ﴾ وقال تعالى ﴿ **لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد** ﴾ وقال تعالى فى شأن الكفار ﴿ **كلا أنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون** ﴾ فاذا حجب أولياؤه فأى فضيلة لهم على أعدائه ، وقال تعالى ﴿ **إن أصحاب الجنة اليوم فى شغل فاكهون . هم وأزواجهم فى ظلال على الأرائك متكئون . لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون . سلام قولا من رب رحيم** ﴾ وقال تعالى ﴿ **إن الأبرار لفى نعيم . على الأرائك ينظرون** ﴾ وهذه الايات صريحة الدلالة على رؤية المؤمنين ربهم تبارك وتعالى لا تقبل تحريفا ولا تأويلا ولا يردها إلا مكابر قد ختم الله على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله .

وقد تواترت الأحاديث بمعنى ما تضمنته هذه الايات رواها أئمة السنة والحديث فى دواوين الإسلام عن فضلاء الصحابة وأجلائهم كأبى بكر الصديق ، وأبى هريرة ، وأبى سعيد، وجرير بن عبد الله ، وصهيب ، وابن مسعود ، وعلى بن أبى طالب ، وأبى موسى ، وأنس ، وبريدة بن الحصيب ، وأبى رزين ، وجابر بن عبد الله ، وأبى أمامة ، وزيد بن ثابت، وعمار بن ياسر ، وعائشة ، وعبد الله بن عمر ، وعمار بن رويبة . وسلمان الفارسى، وحذيفة بن اليمان ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وعبادة بن الصامت ، وأبى بن كعب ، وكعب بن عجزة ، وأبى الدرداء . وفضالةبن عبيد ، وعدى بن أرطاة ، وأبى موسى الأشعرى وغيرهم رضى الله عنهم . وهذا أوان سردها فألق سمعك وأحضر قلبك ، وتأملها تأمل طالب للحق لا نافر عنه ، وكن من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، وإياك وسوء الظن بكلام الله وكلام رسوله فذلك الهلكة وما ضل من ضل وهلك من هلك إلا لسوء ظنه بالكتاب والسنة والله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا به . فعن أبى بكر الصديق رضى الله عنه قال : أصبح رسول الله ﷺ ذات يوم فصلى الغداء فجلس حتى إذا كان من الضحى ضحك رسول الله ﷺ ثم جلس مكانه حتى صلى الأولى ، والعصر والمغرب كل ذلك لا يتكلم حتى صلى العشاء الأخيرة ثم قام إلى أهله ، فقال الناس لأبى بكر رضى الله عنه : ألا تسأل رسول الله ﷺ ما شأنه ، صنع اليوم شيئا لم يصنعه قط . قال فسأله فقال : نعم عُرِض علىّ ما هو كائن من أمر الدنيا والآخرة فجمع الأولون والآخرون فى صعيد واحد فقطع الناس بذلك حتى انطلقوا إلى آدم ﷺ والعرق يكاد يلجمهم فقالوا : يا آدم أنت أبو البشر وأنت اصطفاك الله عز وجل ، اشفع لنا إلى ربك عز وجل . قال لقد لقيت مثل الذى لقيتم ، انطلقوا إلى أبيكم بعد أبيكم ، إلى نوح ﴿ **إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين** ﴾ قال فينطلقون إلى نوح ﷺ فيقولون : اشفع لنا إلى ربك فأنت اصطفاك الله واستجاب لك

فى دعائك ولم يدع على الأرض من الكافرين ديارا ، فيقول : ليس ذلكم عندى ، انطلقوا إلى ابراهيم ﷺ فان الله اتخذه خليلا فينطلقون إلى إبراهيم ﷺ فيقول : ليس ذلكم عندى انطلقوا إلى موسى ﷺ فان الله عز وجل كلمه تكليما ، فيقول موسى ﷺ : ليس ذلكم عندى ، انطلقوا إلى عيسى ابن مريم ﷺ فانه كان يبرىء الأكمه والأبرص ويحيى الموتى ، فيقول عيسى : ليس ذلكم عندى انطلقوا إلى سيد ولد آدم ، انطلقوا إلى محمد ﷺ فليشفع لكم إلى ربكم عز وجل . قال فينطلق فيأتى جبريل ربه تبارك وتعالى فيقول الله عز وجل : ائذن له وبشره بالجنة ، فينطلق به جبريل ﷺ فيخر ساجدا قدر جمعة ويقول الله عز وجل : ارفع رأسك وقل يسمع واشفع تشفع ، قال فيرفع رأسه فاذا نظر إلى وجه ربه عز وجل خر ساجدا قدر جمعة أخرى فيقول الله عز وجل : ارفع رأسك وقل تسمع واشفع تشفع . قال فيذهب ليضع ساجدا فيأخذ جبريل بضبعيه فيفتح الله عليه من الدعاء شيئا لم يفتحه على بشر قط فيقول أى رب خلقتنى سيد ولد آدم ولا فخر ، وأول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة ولا فخر ، حتى إنه يرد على الحوض أكثر مما بين صنعاء وأيلة . ثم يقال ادعوا الصديقين فيشفعون ، ثم يقال ادعوا الانبياء قال فيجيء النبى ومعه العصابة والنبى ومعه الخمسة والستة ، والنبى وليس معه أحد ، ثم يقال ادعوا الشهداء فيشفعون لمن أرادوا قال فاذا فعلت الشهداء ذلك قال فيقول الله عز وجل : أنا أرحم الراحمين ، أدخلوا جنتى من كان لا يشرك بى شيئا . قال فيدخلون الجنة . قال ثم يقول الله عز وجل : انظروا فى أهل النار هل تلقون من عمل خيرا قط ؟ قال فيجدون فى النار رجلا فيقولون له هل عملت خيرا قط ؟ فيقول : لا ، غير أنى كنت أسامح الناس فى البيع . فيقول الله عز وجل : اسمحوا لعبدى بسماحته إلى عبيدى . ثم يخرجون من النار رجلا فيقولون له : هل عملت خيرا قط ؟ فيقول : لا ، غير أنى أمرت ولدى إذا مت فأحرقونى فى النار ثم اطحنونى حتى إذا كنت مثل الكحل فاذهبوا بى إلى البحر فاذرونى فى الريح فوالله لا يقدر علىّ رب العالمين أبدا . فقال الله عز وجل له : لم فعل ذلك ؟ قال من مخافتك . قال فيقول الله عز وجل انظر إلى ملك أعظم ملك فان لك مثله وعشرة أمثاله ، قال فيقول أتسخر بى وأنت الملك ؟ قال ﷺ وذلك الذى ضحكت منه الضحى » رواه الامام أحمد رحمه الله تعالى . وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن ناسا قالوا : يارسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ فقال رسول الله ﷺ « هل تضارون فى رؤية القمر ليلة البدر » قالوا لا يا رسول الله ، قال « هل تضارون فى رؤية الشمس ليس دونها سحاب» قالوا لا ، قل « فإنكم ترونه كذلك ، يجمع الله الناس يوم القيامة فيقول : من كان يعبد

شيئا فليتبعه ، فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس ، ومن كان يعبد القمر القمر ، ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت ، وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها ، فيأتيهم الله تعالى فى صورة غير صورته التى يعرفون فيقول : أنا ربكم . فيقولون نعوذ بالله منك ، هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا عز وجل ، فاذا جاء ربنا عرفناه . فيأتيهم الله عز وجل فى صورته التى يعرفون فيقول : أنا ربكم فيقولون أنت ربنا ، فيتبعونه ويضرب الصراط بين ظهرانى جهنم فاكون أنا وأمتى أول من يجيز ، ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل ، ودعوى الرسل يومئذ : اللهم سلم سلم ، وفى جهنم كلاليب مثل شوك السعدان ، هل رأيتم شوك السعدان ؟ قالوا نعم يا سول الله ، قال فانها مثل شوك السعدان غير أنه لا يعلم قدر عظمها إلا الله عز وجل تخطف الناس بأعمالهم ، فمنهم الموبق بعمله ومنهم المجازى . فإذا فرغ الله تعالى من القضاء بين العباد وأراد أن يخرج برحمته من أراد من أهل النار أمر الملائكة أن يخرجوا من النار من كان لا يشرك بالله شيئا ممن أراد الله أن يرحمه ممن يقول لا إله إلا الله . فيعرفونهم بأثر السجود وتأكل النار من ابن آدم كل شئ إلا أثر السجود ، حرم الله على النار أن تأكل أثر السجود ، فيخرجون من النار قد امتحشوا فيصب عليهم ماء الحياة فينبتون كما تنبت الحبة فى حميل السيل ، ثم يفرغ الله تعالى من القضاء بين العباد ويبقى رجل مقبل بوجهه على النار وهو آخر أهل الجنة دخولا الجنة فيقول : أى رب اصرف وجهى عن النار فانه قد قشبنى ريحها وأحدقنى ذكاؤها ، فيدعو الله ما شاء أن يدعوه ، ثم يقول الله تبارك وتعالى : هل عسيت إن فعلت ذلك أن تسأل غيره ؟ فيقول لا أسألك غيره ، فيعطى ربه من عهود ومواثيق ما شاء الله فيصرف وجهه عن النار ، فإذا أقبل على الجنة ورآها سكت ما شاء الله أن يسكت ، ثم يقول أى رب قدمنى إلى باب الجنة فيقول الله تعالى : أليس قد أعطيت عهودك ومواثيقك لا تسألنى غير الذى أعطيتك ، ويلك يا بن آدم ما أغدرك . فيقول أى رب فيدعو الله حتى يقول له : فهل عسيت إن أعطيتك ذلك أن تسألنى غيره ؟ فيقول لا وعزتك ، فيعطى ربه ما شاء من عهود ومواثيق ، فيقدمه إلى باب الجنة ، فإذا قام على باب الجنة انفهقت له الجنة فيرى ما فيها من الخير والسرور ، فسكت ما شاء الله أن يسكت ثم يقول : أى رب أدخلنى الجنة ، فيقول الله تبارك وتعالى : أليس قد أعطيت عهودك ومواثيقك أن لا تسألنى غير ما أعطيت ، ويلك يا بن آدم ما أغدرك . فيقول أى رب لا أكون أشقى خلقك . فلا يزال يدعو الله حتى يضحك الله منه ، فاذا ضحك الله منه قال : ادخل الجنة ، فاذا دخلها قال الله له : تمنّ . فيسأل ربه ويتمنى حتى إن الله ليذكّره فيقول له ممن كذا وكذا ، حتى إذا انقطعت به الأمانى قال الله عز وجل ذلك لك ومثله معه »[1] قال أبو سعيد وعشرة أمثاله معه . قال عطاء بن يزيد : وأبو سعيد مع أبى هريرة لا

(١) انظر فتح البارى شرح صحيح البخارى من تحقيقنا ح ٧٠٠٠

يرد عليه من حديثه شيئا ، حتى إذا حدث أبو هريرة قال : إن الله عز وجل قال لذلك الرجل ومثله ، قال أبو سعيد وعشرة أمثاله معه يا أبا هريرة ، قال أبو هريرة ما حفظت إلا قوله « ذلك لك ومثله معه » ، قال أبو سعيد : أشهد أني حفظت من رسول الله ﷺ قوله « ذلك لك وعشرة أمثاله » قال أبو هريرة : وذلك آخر أهل الجنة دخولا الجنة . ولهما عن أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه أن ناسا فى زمن رسول الله ﷺ قالوا : يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ قال رسول الله ﷺ « نعم هل تضارون في رؤية الشمس بالظهيرة صحوا ليس معها سحاب ، وهل تضارون فى رؤية القمر ليلة البدر صحوا ليس فيها سحاب» ؟ قالوا لا يا رسول الله . قال « ما تضارون فى رؤيته تبارك وتعالى يوم القيامة إلا كما تضارون فى رؤية أحدهما ، إذا كان يوم القيامة أذن مؤذن : لتتبع كل أمة ما كانت تعبد ، فلا يبقى أحد كان يعبد غير الله من الأصنام والأنصاب إلا يتساقطون في النار ، حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله من بر وفاجر وغبرات أهل الكتاب فتدعى اليهود فيقال لهم : ما كنتم تعبدون ؟ قالوا كنا نعبد عزير ابن الله . فيقال كذبتم ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد . فماذا تبغون . قالوا عطشنا يا ربنا فاسقنا . فيشار إليهم ألا تردون . فيحشرون إلى النار كأنها سراب يحطم بعضها بعضا فيتساقطون فى النار . ثم يقال للنصارى ما كنتم تعبدون ؟ فيقولون كنا نعبد المسيح ابن الله فيقال لهم كذبتم ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد . فيقال لهم ماذا تبغون . فيقولون عطشنا يا ربنا فاسقنا . فيشار إليهم ألا تردون . فيحشرون إلى جهنم كأنها سراب يحطم بعضها بعضا فيتساقطون في النار. حتى إذا لم يبقى إلا من كان يعبد الله من بر وفاجر أتاهم رب العالمين سبحانه وتعالى فى أدنى صورة من التى رأوه فيها . قال فما تنتظرون لتتبع كل أمة ما كانت تعبد . قالوا يا ربنا فارقنا الناس فى الدنيا أفقر ما كنا إليهم ولم نصاحبهم . فيقول أنا ربكم . فيقولون نعوذ بالله منك ولا نشرك بالله شيئا (مرتين أو ثلاثا) حتى إن بعضهم ليكاد أن ينقلب . فيقول هل بينكم وبينه آية تعرفونه بها ؟ فيقولون نعم ، فيكشف عن ساق فلا يبقى من كان يسجد لله من تلقاء نفسه إلا أذن الله له بالسجود ، ولا يبقى من كان يسجد اتقاء ورياء إلا جعل الله ظهره طبقة واحدة كلما أراد أن يسجد خر على قفاه ، ثم يرفعون رءوسهم وقد تحول فى صورته التى رأوه فيها أول مرة فيقول أنا ربكم ، فيقولون أنت ربنا . ثم يضرب لهم الجسر على جهنم وتحل الشفاعة . قيل يا رسول الله وما الجسر ؟ قال دحض مزلة وخطاطيف وكلاليب وحسكة تكون بنجد فيها شويكة يقال لها السعدان فيمر المؤمنون كطرف العين وكالبرق وكالريح وكالطير وكأجاويد الخيل والركاب ، فناج مسلم ومخدوش مرسل ومكدوس فى نار جهنم . حتى إذا خلص المؤمنون من النار فو الذى

نفسى بيده ما من أحد منكم بأشد مناشدة فى استيفاء الحق من المؤمنين لله تعالى يوم القيامة لاخوانهم الذين فى النار يقولون : ربنا كانوا يصومون معنا ويحجون ، فيقال لهم أخرجوا من عرفتم فيحرم صورهم على النار ، فيخرجون خلقا كثيرا قد أخذت النار إلى أنصاف ساقيه وإلى ركبتيه ، فيقولون : ربنا ما بقى فيها أحد ممن أمرتنا . فيقول : ارجعوا فمن وجدتم فى قلبه مثقال نصف دينار من خير فأخرجوه ، فيخرجون خلقا كثيرا . ثم يقولون : ربنا لم نذر فيها أحدا ممن أمرتنا ، ثم يقال : ارجعوا فمن وجدتم فى قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه ، فيخرجون خلقا كثيرا . ثم يقولون : ربنا لم نذر فيها أحدا ممن أمرتنا ، ثم يقال : ارجعوا فمن وجدتم فى قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه ، فيخرجون خلقا كثيرا . ثم يقولون : ربنا لم نذر فيها خيرا قط . وكان أبو سعيد رضى الله عنه يقول : إن لم تصدقونى بهذا الحديث فاقرأوا إن شئتم **﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما ﴾** فيقول الله عز وجل : شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين ، فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قوما لم يعملوا خيرا قط قد عادوا حمما فيلقيهم فى نهر فى أفواه الجنة يقال له نهر الحياة، فيخرجون كما تخرج الحبة فى حميل السيل ، ألا ترونها تكون إلى الحجر أو الشجر ما يكون منها إلى الشمس أصيفر وأخيضر ، وما يكون منها إلى الظل أبيض ؟ فقالوا يا رسول الله كأنك كنت ترعى بالبادية . قال فيخرجون كاللؤلؤ فى رقابهم الخواتيم يعرفهم أهل الجنة . فيقول الجنة هؤلاء عتقاء الله الذين أدخلهم الله الجنة بغير عمل عملوه ولا خير قدموه ، ثم يقول : ادخلوا الجنة فما رأيتموه فهو لكم ، فيقولون ربنا أعطيتنا ما لم تعط أحدا من العالمين ، فيقول : لكم عندى أفضل من هذا ، فيقولون يا ربنا وأى شيء أفضل من هذا ؟ فيقول تعالى رضائى فلا أسخط عليكم بعده أبدا »[(١)] . وفيهما عن جرير بن عبد الله رضى الله عنه قال : كنا جلوسا مع النبى ﷺ فنظر إلى القمر ليلة أربع عشرة فقال «إنكم سترون ربكم عيانا كما ترون هذا لا تضامون فى رؤيته ، فان استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروب الشمس فافعلوا » . وفى صحيح مسلم عن صهيب رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله عز وجل تريدون شيئا أزيدكم ؟ يقولون ألم تبيض وجوهنا ، ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار ؟ قال فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم»[(٢)] ثم تلا هذه الآية **﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾** . وللطبرانى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال « يجمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم

---

(١) انظر الفتح ح ٧٠٠٢ ، ٧٠٧٢ (٢) انظر الفتح ح ٧٠٠١

معلوم أربعين سنة شاخصة أبصارهم إلى السماء ينتظرون فصل القضاء ، وينزل الله عز وجل فى ظلل من الغمام من العرش إلى الكرسى ، ثم ينادى مناد : أيها الناس ألم ترضوا من ربكم الذى خلقكم ورزقكم وأمركم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا أن يولى كل أناس منكم ما كانوا يتولون ويعبدون فى الدنيا ، أليس ذلك عدلا من ربكم ؟ قالوا بلى ، قال فينطلق كل قوم إلى ما كانوا يعبدون ويتولون فى الدنيا ، قال فينطلقون ويمثل لهم أشباه ما كانوا يعبدون : فمنهم من ينطلق إلى الشمس ، ومنهم من ينطلق إلى القمر ، وإلى الأوثان من الحجارة وأشباه ما كانوا يعبدون ، قال ويمثل لمن كان يعبد عيسى شيطان عيسى ، ويمثل لمن كان يعبد عزيرا شيطان عزير ، ويبقى محمد ﷺ وأمته فيأتيهم الرب عز وجل فيقول ما بالكم لا تنطلقون كما انطلق الناس ؟ قال فيقولون : إن لنا إلها ما رأيناه بعد . فيقول : هل تعرفونه إن رأيتموه ؟ فيقولون إن بيننا وبينه علامة إذا رأيناها عرفناه . قال فيقول ما هى ؟ فيقولون يكشف عن ساق ، فعند ذلك يكشف عن ساق فيخرون له سجدا ، ويبقى قوم ظهورهم كصياصى البقر يريدون السجود فلا يستطيعون ، وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون ثم يقول : ارفعوا رءوسكم فيرفعون رءوسهم فيعطيهم نورهم على قدر أعمالهم ، فمنهم من يعطى نوره على قدر الجبل العظيم يسعى بين أيديهم ، ومنهم من يعطى نورا أصغر من ذلك ، ومنهم من يعطى نورا مثل النخلة بيمينه ، ومنهم من يعطى نورا أصغر من ذلك حتى يكون آخرهم رجلا يعطى نوره على إبهام قدمه، يضىء مرة ويطفأ مرة ، فاذا أضاء قدم قدمه ومشى وإذا طفىء قام ، والرب تبارك وتعالى أمامهم حتى يمر فى النار فيبقى أثره كحد السيف قال ويقول : مروا ، فيمرون على قدر نورهم ، منهم من يمر كطرف العين ، ومنهم من يمر كالبرق ، ومنهم من يمر كالسحاب ، ومنهم من يمر كانقضاض الكوكب ، ومنهم من يمر كالريح ، ومنهم من يمر كشد الفرس ، ومنهم من يمر كشد الرجل ، حتى يمر الذى أعطى نوره على قدر إبهام قدمه يحبو على وجهه ويديه ورجليه ، تجر وتعلق يد وتجر رجل وتعلق رجل ، وتصيب جوانبه النار ، فلا يزال كذلك حتى يخلص ، فاذا خلص وقف عليها ثم قال : الحمد لله لقد أعطانى الله ما لم يعط أحدا إذ نجانى منها بعد أن رأيتها ، قال فينطلق به إلى غدير عند باب الجنة فيغتسل فيعود إليه ريح أهل الجنة وألوانهم فيرى ما فى الجنة من خلال الباب فيقول : رب أدخلنى الجنة ، فيقول الله تبارك وتعالى له : أتسأل الجنة وقد نجيتك من النار؟ فيقول : يارب اجعل بينى وبينها حجابا لا أسمع حسيسها قال فيدخل الجنة . قال ويرى أو يرفع له منزل أمام ذلك كأنما الذى هو فيه إليه حلم ليدخله فيقول : رب أعطنى ذلك المنزل ، فيقول فلعلك إن أعطيتكه تسأل غيره ، فيقول لا وعزتك لا أسأل غيره ، وأى

منزل يكون أحسن منه . قال فيعطاه فينزله ، قال ويرى أو يرفع له أمام ذلك منزل اخر ليدخله فيقول : أى رب أعطنى ذلك المنزل ، فيقول الله عز وجل : فلعلك إن أعطيتكه تسأل غيره . قال : لا وعزتك لا أسأل غيره ، وأى منزل يكون أحسن منه . قال فيعطاه فينزله . قال ويرى أو يرفع له أمام ذلك منزل آخر كأنما الذى هو فيه إليه حلم فيقول : رب أعطنى ذلك المنزل . فيقول الله جل جلاله : فلعلك إن أعطيتكه تسأل غيره . قال لا وعزتك لا أسأل غيره ، وأى منزل يكون أحسن منه ؟ قال فيعطاه فينزله ثم يسكت . فيقول الله عز وجل : مالك لا تسأل ؟ فيقول : رب قد سألتك حتى استحييتك وأقسمت لك حتى استحييتك ، فيقول الله عز وجل : ألا ترضى أن أعطيك مثل الدنيا منذ خلقتها إلى يوم أفنيتها وعشرة أضعافه . فيقول : أتستهزىء بى وأنت رب العزة ؟ فيضحك الرب عز وجل من قوله . قال فرأيت عبد الله بن مسعود رضى الله عنه إذا بلغ هذا المكان من هذا الحديث ضحك . فقال له رجل : يا أبا عبد الرحمن قد سمعتك تحدث بهذا الحديث مرارا كلما بلغت هذا المكان من هذا الحديث ضحكت . فقال إنى سمعت رسول الله ﷺ يحدث بهذا الحديث مرارا كلما بلغ هذا المكان من هذا الحديث ضحك حتى تبدو أضراسه . قال فيقول الرب عز وجل : لا ولكنى على ذلك قادر ، سل ، فيقول : ألحقنى بالناس . فيقول الحق بالناس . قال فينطلق يرمل فى الجنة حتى إذا دنا من الناس رفع له قصر من درة فيخر ساجدا ، فيقال له : ارفع رأسك مالك ؟ فيقول : رأيت ربى ، أو تراءى لى ربى . فيقال : إنما هو منزل من منازلك . قال ثم يلقى فيها رجلا فيتهيأ للسجود فيقال له مه . فيقول رأيت أنك ملك من الملائكة ، فيقول : له : إنما أنا خازن من خزانك، عبد من عبيدك ، تحت يدى ألف قهرمان على مثل ما أنا عليه . قال فينطلق أمامه حتى يفتح له القصر ، قال وهو فى درة مجوفة سقائفها وأبوابها وأغلاقها ومفاتيحها منها ، تستقبله جوهرة خضراء مبطنة بحمراء كل جوهرة تفضى إلى جوهرة على غير لون الأخرى، فى كل جوهرة سرر وأزواج ووصائف أدناهن حوراء عيناء عليها سبعون حلة يرى مخ ساقها من وراء حللها كبدها مرآته وكبده مرآتها ، إذا أعرض عنها إعراضة ازدادت فى عينه سبعين ضعفا عما كانت قبل ذلك ، فيقول لها : والله لقد ازددت فى عينى سبعين ضعفا ، فتقول له : والله والله وأنت لقد ازددت فى عينى سبعين ضعفا . فيقال له : أشرف قال فيشرف ، فيقال له ملكك مسيرة مائة عام ينفذه بصره » قال فقال عمر رضى الله عنه: ألا تسمع إلى ما يحدثنا ابن أم عبد يا كعب عن أدنى أهل الجنة منزلا ، فكيف أعلاهم ؟ قال كعب : يا أمير المؤمنين فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ، إن الله عز وجل جعل دارا فيها ما شاء من الأزواج والثمرات والأشربة ، ثم أطبقها فلم يرها أحد من خلقه لا

جبريل ولا غيره من الملائكة . ثم قرأ كعب ﴿ **فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون** ﴾ قال : وخلق دون ذلك جنتين وزينهما بما شاء وأراهما من شاء من خلقه ، ثم قال من كان كتابه في عليين نزل تلك الدار التى لم يرها أحد ، حتى إن الرجل من أهل عليين ليخرج فيسير في ملكه فلا تبقى خيمة من خيام الجنة إلا دخلها من ضوء وجهه فيستبشرون بريحه فيقولون : واها لهذه الريح ، هذا رجل من أهل عليين قد خرج يسير في ملكه . فقال : ويحك يا كعب هذه القلوب قد استرسلت فاقبضها . فقال كعب : والذى نفسى بيده إن لجهنم يوم القيامة لزفرة ما يبقى من ملك مقرب ولا نبى مرسل إلا يخر لركبتيه ، حتى إن إبراهيم خليل الله يقول « رب نفسى نفسى » حتى لو كان لك عمل سبعين نبيا إلى عملك لظننت أنك لا تنجو » . قال ابن القيم رحمه الله تعالى : هذا حديث كبير حسن رواه المصنفون في السنة كعبد الله بن أحمد والطبرانى والدارقطنى رحمهم الله تعالى . وروى يعقوب بن سفيان عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « يزور أهل الجنة الرب تبارك وتعالى فى كل جمعة » وذكر ما يعطون قال « ثم يقول الله تبارك وتعالى : اكشفوا حجابا ، فيكشف حجاب ثم حجاب، ثم يتجلى لهم تبارك وتعالى عن وجهه فكأنهم لم يروا نعمة قبل ذلك ، وهو قوله تبارك وتعالى ﴿ **ولدينا مزيد** ﴾ وفى الصحيحين عن أبى موسى رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما ، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه فى جنة عدن » . ولأحمد عنه رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « يجمع الله عز وجل الأمم فى صعيد واحد يوم القيامة ، فإذا بدا لله عز وجل أن يحكم بين خلقه مثل لكل قوم ما كانوا يعبدون فيتبعونهم حتى يقحموهم النار ، ثم يأتينا ربنا عز وجل ونحن على مكان رفيع فيقول : من أنتم ؟ فنقول : نحن المسلمون ، فيقول ما تنتظرون ؟ فنقول ننتظر ربنا عز وجل ، فيقول وهل تعرفونه إن رأيتموه ؟ فنقول نعم إنه لا عدل له ، فيتجلى لنا ضاحكا فيقول : أبشروا يا معشر المسلمين، فانه ليس منكم أحد إلا جعلت فى النار يهوديا أو نصرانيا مكانه » وفى رواية «يتجلى لنا ربنا عز وجل ضاحكا يوم القيامة » . وللدارقطنى عنه رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « يبعث الله يوم القيامة مناديا بصوت يسمعه أولهم وآخرهم : إن الله عز وجل وعدكم الحسنى وزيادة ، فالحسنى الجنة والزيادة النظر إلى وجهه عز وجل » رواه الامام أحمد وابن وهب . وفى صحيح البخارى عن عدى بن حاتم رضى الله عنه قال : بينا أنا عند النبى ﷺ إذ أتى إليه رجل فشكا إليه الفاقة . ثم أتى إليه آخر فشكا إليه قطع السبيل . فقال يا عدى هل رأيت الحيرة ؟ قلت لم أرها وقد أنبئت عنها . قال فإن طالت بك حياة لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحدا إلا الله عز وجل ـ قلت

فيما بيني وبين نفسي : فأين دعّار طيّ الذين سعروا البلاد ـ ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى . قلت كسرى بن هرمز ؟ قال كسرى بن هرمز . ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يخرج ملء كفه من ذهب أو فضة يطلب من يقبله منه فلا يجد أحدا يقبله منه . وليلقين الله أحدكم يوم يلقاه وليس بينه وبينه حجاب ولا ترجمان يترجم له فيقولن ألم أبعث إليك رسولا فيبلغك ؟ فيقول بلى يارب . فيقول ألم أعطك مالا وأفضل عليك؟ فيقول بلى . فينظر عن يمينه فلا يرى إلا جهنم وينظر عن يساره فلا يرى إلا جهنم . قال عدى بن حاتم سمعت رسول الله ﷺ يقول : اتقوا النار ولو بشق تمرة ، فمن لم يجد شق تمرة فبكلمة طيبة . قال عدى : فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله ، وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز ، ولئن طالت بكم حياة لترون ما قال النبى ﷺ . وفى الصحيحين عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « يجمع الله الناس يوم القيامة فيهتمون لذلك ـ وفى لفظ فيلهمون لذلك ـ فيقولون : لو استشفعنا إلى ربنا عز وجل حتى يريحنا من مكاننا هذا ، فيأتون آدم فيقولون : أنت آدم أبو الخلق خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأمر الملائكة فسجدوا لك ، اشفع لنا عند ربنا حتى يريحنا من مكاننا هذا . فيقول : لست هناكم ، فيذكر خطيئته التي أصاب فيستحي ربّه منها . ولكن ائتوا نوحا أول رسول بعثه الله عز وجل . قال فيأتون نوحا فيقول: لست هناكم ، فيذكر خطيئته التى أصاب فيستحي ربّه منها ، ولكن ائتوا ابراهيم الذى اتخذه الله خليلا . فيأتون إبراهيم فيقول : لست هناكم ، ويذكر خطيئته التى أصاب فيستحي ربّه منها ، ولكن ائتوا موسى الذى كلمه الله تكليما وأعطاه التوراة . فيأتون موسى فيقول : لست هناكم ، ويذكر خطيئته التي أصاب فيستحي ربّه منها ، ولكن ائتوا عيسى روح الله وكلمته ، فيقول : لست هناكم ولكن ائتوا محمدا ﷺ عبدا غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . قال : قال رسول الله ﷺ فيأتونى فأستأذن على ربى فيأذن لى ، فإذا أنا رأيته فأقع له ساجدا فيدعنى ما شاء الله أن يدعني ، فيقال : يا محمد ارفع رأسك وقل تسمع وسل تعط واشفع تشفع ، فأرفع رأسى فأحمد ربى بتحميد يعلمنيه ربى ، ثم أشفع فيحد لى حدا فأخرجهم من النار وأدخلهم الجنة . ثم أعود فأقع ساجدا فيدعنى ما شاء الله أن يدعني ثم يقال : ارفع رأسك يا محمد ، قل تسمع وسل تعط واشفع تشفع ، فأرفع رأسى فأحمد ربى بتحميد يعلمنيه ربى ، ثم أشفع فيحد لى حدا فأخرجهم من النار وأدخلهم الجنة . قال فلا أدرى فى الثالثة أو الرابعة قال فأقول : يارب ما بقى فى النار إلا من حبسه القرآن » أى وجب عليه الخلود ، وفى رواية لابن خزيمة « يلقى الناس يوم القيامة ما شاء الله أن يلقوه من الحبس ، فيقولون انطلقوا بنا إلى آدم فيشفع لنا إلى ربنا ـ

فذكر الحديث إلى أن قال ـ فينطلقون إلى محمد ﷺ فأقول . أنا لها ، فأنطلق حتى أستفتح باب الجنة فيفتح لى فأدخل وربى على عرشه فأخر ساجدا » وذكر الحديث ، وفى رواية « فأستأذن على ربى فاذا رأيته وقعت ساجدا » وفى رواية « فآتى ربى وهو على سريره ـ أو كرسيه ـ فأخر له ساجدا » وساقه ابن خزيمة بسياق طويل وقال فيه « فأستفتح ، فإذا نظرت إلى الرحمن وقعت له ساجدا » وفى حديث أبى هريرة « آخذ بحلقة باب الجنة فيؤذن لى فيستقبلنى وجه الجبار جل جلاله فأخر له ساجدا » . وللدارقطنى عنه رضى الله عنه عن النبى ﷺ فى قول الله عز وجل ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ قال : « النظر إلى وجه الله عز وجل » . وله عنه رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « أتانى جبريل عليه السلام وفى كفه كالمرآة البيضاء يحملها فيها كالنكتة السوداء . فقلت ما هذه التى فى يدك يا جبريل ؟ قال هذه الجمعة . قلت وما الجمعة ؟ قال لكم فيها خير كثير ، قلت وما يكون لنا فيها ؟ قال يكون عيدا لك ولقومك من بعدك ، ويكون اليهود والنصارى تبعا لكم . قلت وما لنا فيها ؟ قال لكم فيها ساعة لا يسأل الله عبد فيها شيئا هو له قسم إلا أعطاه إياه ، أو ليس له بقسم إلا ذخر له فى آخرته ما هو أعظم منه . قلت ما هذه النكتة التي فيها ؟ قال هى الساعة ، ونحن ندعوه يوم المزيد . قلت وما ذاك يا جبريل ؟ قال إن ربك اتخذ فى الجنة واديا فيه كثبان من مسك أبيض فاذا كان يوم الجمعة هبط من عليين على كرسيه فيحف الكرسى بكراسى من نور فيجيء النبيون حتى يجلسوا على تلك الكراسى ويحف الكراسى بمنابر من نور ومن ذهب مكللة بالجواهر ، ثم يجيء الصديقون والشهداء حتى يجلسوا على تلك المنابر ، ثم ينزل أهل الغرف من غرفهم حتى يجلسوا على تلك الكثبان ، ثم يتجلى لهم الله عز وجل فيقول : أنا الذى صدقتكم وعدى ، وأتممت عليكم نعمتى ، وهذا محل كرامتى ، فسلونى . فيسألونه حتى تنتهى رغبتهم فيفتح لهم فى ذلك مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وذلك بمقدار منصرفكم من الجمعة . ثم يرتفع على كرسيه عز وجل ويرتفع معه النبيون والصديقون ويرجع أهل الغرف إلى غرفهم ، وهى لؤلؤة بيضاء وزبرجدة خضراء وياقوتة حمراء ، غرفها وأبوابها وأنهارها مطردة فيها وأزواجها وخدامها وثمارها متدليات فيها، فليسوا إلى شيء أحوج منهم إلى يوم الجمعة ليزدادوا نظرا إلى ربهم ويزدادوا منه كرامة » هذا حديث كبير عظيم الشأن رواه أئمة السنة وتلقوه بالقبول ، وجمل به الشافعى مسنده . ورواه محمد بن إسحاق وعمرو بن أبى قيس ، وفيه « فاذا كان يوم الجمعة نزل على كرسيه ثم حف الكراسى بمنابر من نور ، فيجيء النبيون حتى يجلسوا عليها ، ويجيء أهل الغرف حتى يجلسوا على الكثب . قال : ثم يتجلى لهم ربهم تبارك

وتعالى فينظرون إليه فيقول : أنا الذى صدقتكم وعدى ، وأتممت عليكم نعمتى ، وهذا محل كرامتى ، سلونى . فيسألونه الرضا . قال : رضاى أنزلكم دارى وأنالكم كرامتى . سلونى . فيسألونه الرضا قال فيشهدهم بالرضا . ثم يسألونه حتى تنتهى رغبتهم » . وذكر الحديث . ورواه على بن حرب والحسن بن عرفة وفى روايته « ثم يرتفع على كرسيه ويرتفع معه النبيون والصديقون والشهداء ، ويرجع أهل الغرف إلى غرفهم » ورواه الدارقطنى أيضا من طريق آخر عن أنس رضى الله عنه قال : بينا نحن حول رسول الله ﷺ إذ قال «أتانى جبريل فى يده كالمرآة البيضاء فى وسطها كالنكتة السوداء ، قلت يا جبريل ما هذا؟ قال: هذا يوم الجمعة يعرضه عليك ربك ليكون لك عيدا ولأمتك من بعدك . قال قلت : يا جبريل ما هذه النكتة السوداء ؟ قال : هى الساعة ، وهى تقوم يوم الجمعة وهو سيد أيام الدنيا ونحن ندعوه فى الجنة يوم المزيد . قال قلت : يا جبريل ولم تدعونه يوم المزيد قال: إن الله اتخذ فى الجنة واديا أفيح من مسك أبيض ، فاذا كان يوم الجمعة نزل ربنا عز وجل على كرسيه أعلى ذلك الوادى وقد حف الكرسى بمنابر من ذهب مكللة بالجوهر وقد حفت تلك المنابر بكراسى من نور ، ثم يؤذن لأهل الغرف فيقبلون يخوضون كثبان المسك إلى الركب عليهم أسورة الذهب والفضة وثياب السندس والحرير حتى ينتهوا إلى ذلك الوادى ، فإذا اطمأنوا فيه جلوسا بعث الله عز وجل عليهم ريحا يقال لها المثيرة فأثارت ينابيع المسك الأبيض فى وجوههم وثيابهم ، وهم يومئذ جرد مرد مكحلون أبناء ثلاث وثلاثين سنة على صورة آدم يوم خلقه الله عز وجل ، فينادى رب العزة تبارك وتعالى رضوانا ـ وهو خازن الجنة ـ فيقول : يا رضوان ارفع الحجب بينى وبين عبادى وزوارى . فاذا رفع الحجب بينه وبينهم فرأوا بهاءه ونوره هموا له بالسجود ، فيناديهم تبارك وتعالى بصوته : ارفعوا رءوسكم فإنما كانت العبادة فى الدنيا وأنتم اليوم فى دار الجزاء . سلونى ما شئتم ، فأنا ربكم الذى صدقتكم وعدى ، وأتممت عليكم نعمتى ، فهذا محل كرامتى ، فسلونى ما شئتم ، فيقولون : ربنا وأى خير لم تفعله بنا ، ألست أعنتنا على سكرات الموت، وآنست منا الوحشة فى ظلمات القبور ، وآمنت وحشتنا عند النفخة فى الصور ؟ ألست أقلت عثراتنا ، وسترت علينا القبيح من فعلنا ، وثبت على جسر جهنم أقدامنا ؟ ألست الذى أدنيتنا من جوارك ، وأسمعتنا لذاذة منطقك ، وتجليت لنا بنورك ؟ فأى خير لم تفعله بنا ؟ فنعوذ بالله عز وجل . فيناديهم بصوته : أنا ربكم الذى صدقتكم وعدى وأتممت عليكم نعمتى ، فسلونى . فيقولون : نسألك رضاك . فيقول تعالى : برضائى عنكم أقلتكم عثراتكم وسترت عليكم القبيح من أموركم وأدنيت منى جواركم وأسمعتكم لذاذة منطقى وتجليت لكم بنورى ، فهذا محل كرامتى ، فسلونى . فيسألونه حتى تنتهى

رغبتهم . ثم يقول عز وجل : سلوني ، فيقولون : رضينا ربنا وسلمنا ، فيزيدهم من مزيد فضله وكرامته ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ويكون ذلك مقدار تفرقهم من الجمعة . قال أنس رضى الله عنه فقلت : بأبى وأمى يا رسول الله ، وما مقدار تفرقهم ؟ قال : كقدر الجمعة إلى الجمعة . قال ثم يحمل عرش ربنا تبارك وتعالى معهم الملائكة والنبيون ، ثم يؤذن لأهل الغرف فيعودون إلى غرفهم وهما غرفتان من زمرتين خضراوين وليسوا إلى شيء أشوق منهم إلى الجمعة لينظروا إلى ربهم تبارك وتعالى وليزيدهم من مزيد فضله وكرامته » . قال أنس رضى الله عنه : سمعته من رسول الله ﷺ وليس بيني وبينه أحد . ورواه أيضا من طريق آخر . ورواه أبو بكر بن أبى شيبه وأبو بكر بن خزيمة وابن بطة فى الإبانة وغيرهم وقد جمع ابن أبى داود طرقه . وللإمام الأئمة محمد ابن إسحاق بن خزيمة عن بريدة بن الحصيب رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ « ما منكم من أحد إلا سيخلو الله به يوم القيامة ليس بينه وبينه ترجمان » . وللإمام أحمد وأبى داود عن أبى رزين رضى الله عنه قال : قلنا يا رسول الله أكلنا يرى ربه عز وجل يوم القيامة؟ قال « نعم » قلت وما آية ذلك فى خلقه قال « أليس كلكم ينظر إلى القمر ليلة البدر ؟ قلنا نعم ، قال « الله أكبر وأعظم » . وللامام أحمد عن جابر رضى الله عنه وقد سئل عن الورود فقال : نحن يوم القيامة على كذا وكذا . أى فوق الناس فتدعى الأمم بأوثانها وما كانت تعبد الأول فالأول ، ثم يأتينا ربنا بعد ذلك فيقول ومن تنتظرون ؟ فيقولون ننتظر ربنا عز وجل ، فيقول أنا ربكم فيقولون حتى ننظر إليك ، فيتجلى لهم تبارك وتعالى يضحك . قال فينطلق بهم ويتبعونه ويعطى كل إنسان منهم منافق أو مؤمن نورا ، ثم يتبعونه على جسر جهنم وعليه كلاليب وحسك تأخذ من شاء الله ، ثم يطفأ نور المنافق ثم ينجو المؤمنون فينجو أول زمرة وجوههم كالقمر ليلة البدر وسبعون ألفا لا يحاسبون ، ثم الذين يلونهم كأضوإ نجم فى السماء ، ثم كذلك ، ثم تحل الشفاعة حتى يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان فى قلبه من الخير ما يزن شعيرة ، فيجعلون بفناء الجنة ويجعل أهل الجنة يرشون عليهم الماء حتى ينبتون نبات الشيء فى السيل ويذهب حراقه ، ثم يسأل حتى يجعل الله له الدنيا وعشرة أمثالها معها » ورواه مسلم فى صحيحه . وفى رواية « نحن يوم القيامة على تل مشرفين على الخلائق » ذكرها عبد الحق فى الجمع بين الصحيحين . ولعبد الرزاق عنه رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ «يتجلى لهم الرب تبارك وتعالى ينظرون إلى وجهه فيخرون له سجدا فيقول : ارفعوا رءوسكم فليس هذا بيوم عبادة» وللدارقطنى عنه رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « يتجلى لنا ربنا عز وجل يوم القيامة ضاحكا » . ولأبى قرة عنه رضى الله عنه أنه سمع

النبى ﷺ يقول « إذا كان يوم القيامة جمعت الأمم » فذكر الحديث وفيه « فيقول أتعرفون الله عز وجل إن رأيتموه ؟ فيقولون نعم ، فيقول وكيف تعرفونه ولم تروه ؟ فيقولون نعلم أنه لا عدل له . قال فيتجلى تبارك وتعالى فيخرون له سجدا » . وفي سنن ابن ماجه عنه رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « بينا أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع لهم نور فرفعوا رءوسهم فاذا الرب جل جلاله قد أشرف عليهم من فوقهم فقال تعالى : السلام عليكم يا أهل الجنة ، وهو قوله عز وجل ﴿ سلام قولا من رب رحيم ﴾ فلا يلتفتون إلى شيء مما هم فيه من النعيم ما داموا ينظرون إليه حتى يحتجب عنهم وتبقى فيهم بركته ونوره . وللبيهقى عنه رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « بينا أهل الجنة في مجلس لهم إذ سطع لهم نور على باب الجنة ، فرفعوا رءوسهم فاذا الرب تبارك وتعالى قد أشرف ، فقال تعالى : يا أهل الجنة سلونى . قالوا : نسألك الرضا عنا . قال تعالى : رضائى أحلكم دارى، وأنالكم كرامتى ، هذا أوانها فسلونى . قالوا : نسألك الزيادة . قال فيؤتون بنجائب من ياقوت أحمر أزمتها زمرد أخضر وياقوت أحمر فجاءوا عليها تضع حوافرها عند منتهى طرفها ، فيأمر الله بأشجار عليها الثمار ، فتجيء جوارى الحور العين وهن يقلن : نحن الناعمات فلا نبأس ونحن الخالدات فلا نموت أزواج قوم مؤمنين كرام ، ويأمر الله عز وجل بكثبان من مسك أبيض أذفر فتثير عليهم ريحا يقال لها المثيرة حتى تنتهى بهم إلى جنة عدن وهى قصبة الجنة ، فتقول الملائكة : يا ربنا قد جاء القوم ، فيقول : مرحبا بالصادقين ومرحبا بالطائعين . قال فيكشف لهم الحجاب فينظرون إلى الله تبارك وتعالى ويتمتعون بنور الرحمن حتى لا يبصر بعضهم بعضا . ثم يقول : أرجعوهم إلى القصور بالتحف ، فيرجعون وقد أبصر بعضهم بعضا » فقال رسول الله ﷺ : فذلك قوله تعالى ﴿نزلا من غفور رحيم ﴾ رواه فى كتاب البعث والنشور وفى كتاب الرؤية . وللدارقطنى عنه رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إن الله عز وجل يتجلى للناس عامة ويتجلى لأبى بكر خاصة » . ولابن وهب والدارقطنى عن أبى أمامة رضى الله عنه قال : خطبنا رسول الله ﷺ يوما فكان أكثر خطبته ذكر الدجال يحذرنا منه ويحدثنا عنه ، حتى فرغ من خطبته ، فكان فيما قال لنا يومئذ « إن الله عز وجل لم يبعث نبيا إلا حذره أمته ، وإنى آخر الأنبياء وأنتم آخر الأمم ، وهو خارج فيكم لا محالة . فان يخرج وأنا بين أظهركم فأنا حجيج كل مسلم ، وإن يخرج فيكم بعدى فكل امرىء حجيج نفسه ، والله خليفتى على كل مسلم ، إنه يخرج من خلة بين العراق والشام عاث يمينا وعاث شمالا : يا عباد الله اثبتوا . وإنه يبدأ فيقول : أنا نبى ولا نبى بعدى . ثم يثنى فيقول : أنا ربكم ، ولن تروا ربكم حتى تموتوا ، وإنه مكتوب بين عينيه « كافر » يقرأه كل مؤمن ، فمن لقيه منكم فليتفل فى وجهه

وليقرأ فواتح سورة الكهف . وإنه يسلط على نفس من بني آدم فيقتلها ثم يحييها، وإنه لا يعدو ذلك ولا يسلط على نفس غيرها . وإن من فتنته أن معه جنة ونارا ، فناره جنة وجنته نار ، فمن ابتلى بناره فليغمض عينيه وليستغث بالله تكن بردا وسلاما كما كانت برداً وسلاما على إبراهيم ، وإن أيامه أربعون يوما : يوما كسنة ويوما كشهر ويوما كجمعة ويوما كالأيام وآخر أيامه كالسراب ، يصبح الرجل عند باب المدينة فيمسى قبل أن يبلغ بابها الآخر » قالوا فكيف نصلي يا رسول الله في تلك الأيام ؟ قال « تقدرون كما تقدرون في الأيام الطوال » . وللامام أحمد وأبى داود عن زيد بن ثابت رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ علمه دعاء وأمره أن يتعاهد به أهله كل يوم قال « قل حين تصبح : لبيك اللهم لبيك وسعديك ، والخير في يديك ، ومنك وإليك ، اللهم وما قلت من قول أو نذرت من نذر أو حلفت من حلف فمشيئتك بين يديه ، ما شئت كان وما لم تشأ لم يكن، ولا حول ولا قوة إلا بك إنك على كل شيء قدير . اللهم وما صليت من صلاة فعلى من صليت وما لعنت من لعنة فعلى من لعنت ، أنت وليي في الدنيا والآخرة ، توفني مسلما وألحقني بالصالحين . أسألك اللهم الرضا بعد القضاء وبرد العيش بعد الموت ولذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك من غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة . أعوذ بك اللهم أن أظلم أو أُظلم أو أعتدى أو يعتدى علىّ أو أكسب خطيئة محبطة أو ذنبا لا تغفره . اللهم فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ذا الجلال والاكرام ، فانى أعهد إليك في هذه الحياة الدنيا وأشهدك وكفى بك . شهيدا ، أنى أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك ، لك الملك ولك الحمد وأنت على كل شيء قدير ، وأشهد أن محمدا عبدك ورسولك ، وأشهد أن وعدك حق ، وأن لقاءك حق ، والجنة حق ، والساعة آتية لا ريب فيها ، وأنت تبعث من في القبور . وأشهد أنك إن تكلني إلى نفسى تكلني إلى ضيعة وعورة وذنب وخطيئة ، وإنى لا أثق إلا برحمتك ، فاغفر لى ذنبى إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت وتب على إنك أنت التواب الرحيم » . وللامام أحمد وابن حبان والحاكم في صحيحيهما عن أبي مجلز قال : صلى بنا عمار رضى الله عنه صلاة فأوجز فيها ، فأنكروا ذلك ، فقال : ألم أتم الركوع والسجود ؟ قالوا بلى . قال : أما إني قد دعوت فيها بدعاء كان رسول الله ﷺ يدعو به « اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق ، أحيني ما علمت الحياة خيرا لى ، وتوفني إذا علمت الوفاة خيرا لى ، وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة ، وكلمة الحق في الغضب والرضا ، والقصد في الفقر والغنى ، ولذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة . اللهم زينا بزينة الإيمان واجعلنا هداة مهتدين » . وأخرجه ابن خزيمة في كتاب التوحيد . وفي صحيح الحاكم عن عائشة رضى الله عنها

قالت : قال رسول الله ﷺ أبشرى يا جابر ، ألا أبشرك ؟ قال بلى بشرك الله بخير . قال شعرت أن الله أحيا أباك ، فأقعده بين يديه فقال : تمنّ عليّ عبدى ما شئت أعطكه . قال يارب ما عبدتك حق عبادتك ، أتمنى عليك أن تردنى إلى الدنيا فأقاتل مع نبيك فأقتل فيك مرة أخرى . قال تعالى : إنه قد سلف منى أنك إليها لا ترجع » وهو فى المسند من حديث جابر . وللترمذى عنه رضى الله عنه قال : لما قتل عبد الله بن عمرو بن حرام يوم أحد قال رسول الله ﷺ : يا جابر ألا أخبرك ما قال الله عز وجل لأبيك ؟ قال بلى . قال : ما كلم الله عز وجل أحدا إلا من وراء حجاب وكلم أباك كفاحا فقال : يا عبدى تمن على أعطك ، قال يارب تحيينى فأقتل فيك ثانية . قال إنه قد سبق منى أنهم إليها لا يرجعون . قال : يارب فأبلغ من ورائى . فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿ **ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا** ﴾ الآية . قال الترمذى هذا حديث حسن غريب . قلت وإسناده صحيح . وللترمذى والطبرانى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « إن أدنى أهل الجنة منزلة لرجل ينظر فى ملكه ألفى سنة يرى أقصاه كما يرى أدناه ينظر إلى أزواجه وسرره وخدمه ، وإن أفضلهم منزلة من ينظر إلى وجه الله تبارك وتعالى كل يوم مرتين » . وفى رواية ابن عرفة : ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿ **وجوه يومئذ ناضرة . إلى ربها ناظرة** ﴾ ، وفى رواية سعيد بن هشيم عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « يوم القيامة أول يوم نظرت فيه عين إلى الله تبارك وتعالى » ورواه الدارقطنى . وله عنه رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « ألا أخبركم بأسفل أهل الجنة » ؟ قالوا بلى يا رسول الله ، فذكر الحديث إلى أن قال « حتى إذا بلغ النعيم منهم كل مبلغ وظنوا أن لا نعيم أفضل منه أشرف الرب تبارك وتعالى عليهم فينظرون إلى وجه الرحمن عز وجل فيقول: يا أهل الجنة ، هللونى وكبرونى وسبحونى بما كنتم تهللونى وتكبرونى وتسبحونى فى دار الدنيا ، فيتجاوبون بتهليل الرحمن ، فيقول تبارك وتعالى لداود : يا داود قم فمجدنى ، فيقوم داود فيمجد ربه عز وجل » وروى عثمان بن سعيد الدارمى فى رده على المريسى عن ابن عمر رضى الله عنهما يرفعه إلى النبى ﷺ «إن أهل الجنة إذا بلغ النعيم منهم كل مبلغ وظنوا أن لا نعيم أفضل منه تجلى لهم الرب تبارك وتعالى فنظروا إلى وجه الرحمن عز وجل فنسوا كل نعيم عاينوه حين نظروا إلى وجه الرحمن عز وجل » . وقال الترمذى رحمه الله : حدثنا محمد بن إسماعيل أخبرنا هشام بن عمارأخبرنا عبد الحميد ابن حبيب بن أبى العشرين أخبرنا الأوزاعى حدثنا حسان بن عطية عن سعيد بن المسيب أنه لقى أبا هريرة رضى الله عنه فقال أبو هريرة : أتسأل الله تعالى أن يجمع بينى وبينك فى سوق الجنة . فقال سعيد : أفيها سوق ؟ قال : نعم ، أخبرنى رسول الله ﷺ « أن أهل

الجنةإذا دخلوها نزلوا فيها بفضل أعمالهم ، ثم يؤذن فى مقدار يوم الجمعة من أيام الدنيا فيزورون ربهم ويبرز لهم عرشه ويتبدى لهم فى روضة من رياض الجنة ، فتوضع لهم منابر من نور ومنابر من لؤلؤ ومنابر من ياقوت ومنابر من زبرجد ومنابر من ذهب ومنابر من فضة ، ويجلس أدناهم ـ وما فيهم من دنىء ـ على كثبان المسك والكافور . وما يرون أن أصحاب الكراسى بأفضل منهم مجلسا . قال أبو هريرة : قلت يا رسول الله ، وهل نرى ربنا . قل نعم ، هل تتمارون فى رؤية الشمس والقمر ليلة البدر ؟ قلنا لا . قال : كذلك لا تتمارون فى رؤية ربكم ، ولا يبقى فى ذلك المجلس رجل إلا حاضره الله تعالى محاضرة حتى يقول للرجل منهم : يا فلان ابن فلان أتذكر يوم قلت كذا وكذا ؟ فيذكره ببعض غدراته فى الدنيا ، فيقول : يارب أفلم تغفر لى ؟ فيقول: بلى ، فبسعة مغفرتى بلغت منزلتك هذه . فبينما على ذلك غشيتهم سحابة من فوقهم فأمطرت عليهم طيبا لم يجدوا مثل ريحه شيئا قط ، ويقول ربنا عز وجل : قوموا إلى ما أعددت لكم من الكرامة فخذوا ما اشتهيتم . فنأتى سوقا قد حفت به الملائكة فيه ما لم تنظر العيون إلى مثله ولم تسمع الآذان ولم يخطر على القلوب ، فيحمل إلينا ما اشتهينا ليس يباع فيها ولا يشترى . وفى ذلك السوق يلقى أهل الجنة بعضهم بعضا . قال فيقبل الرجل ذو المنزلة المرتفعة فيلقى من هو دونه ، وما فيهم دنىء ، فيروعه ما يرى عليه من اللباس ، فما ينقضى آخر حديثه حتى يتخيل إليه ما هو أحسن منه ، وذلك أنه لا ينبغى لأحد أن يحزن فيها . ثم ننصرف إلى منازلنا فتتلقانا أزواجنا فيقلن : مرحبا وأهلا ، لقد جئت وإن لك من الجمال أفضل مما فارقتنا عليه . فتقول : إنا جالسنا اليوم ربنا الجبار ، ويحقنا أن ننقلب بمثل ما انقلبنا » هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه . قلت : ابن أبى العشرين كاتب الأوزاعى . قل أحمد وأبو حاتم ثقة ، وقال النسائى ليس بذاك القوى ، وقال البخارى ربما يخالف فى حديثه ، وفى التقريب صدوق ربما أخطأ ، وأما بقية رجاله فلا يسأل عنهم . ورواه ابن ماجه وابن أبى الدنيا وابن أبى عاصم . ولابن بطة عن عمار بن روية رضى الله عنه قال : نظر النبى ﷺ إلى القمر ليلة البدر فقال « إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر ، لا تضارون فى رؤيته ، فان استطعتم على أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها فافعلوا » . وفى رواية له عنه قال : نظر رسول الله ﷺ إلى القمر ليلة البدر فقال « إنكم سترون ربكم تبارك وتعالى كما ترون هذا القمر لا تضامون فى رؤيتة ، فان استطعتم أن لا تغلبوا على ركعتين قبل طلوع الشمس وركعتين بعد غروبها فافعلوا » .

ولأبى معاوية عن سلمان الفارسى رضى الله عنه قال «يأتون النبى ﷺ فيقولون : يا نبى الله إن الله فتح بك وختم بك وغفر لك ، قم فاشفع لنا إلى ربك . فيقول : نعم أنا صاحبكم

، فيخرج يحوش الناس حتى ينتهي إلى باب الجنة فيأخذ بحلقة الباب فيقرع ، فيقال من هذا ، فيقول محمد ﷺ ، قال فيفتح له فيجيء حتى يقوم بين يدى الله عز وجل فيستأذن فى السجود فيؤذن له » الحديث . ولابن بطة والبزار عن حذيفة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « أتانى جبريل فإذا فى كفه مرآة كأصفى المرايا وأحسنها وإذا فى وسطها نكتة سوداء ، قال : قلت يا جبريل ما هذه ؟ قال : هذه الدنيا صفاؤها وحسنها . قل : قلت وما هذه اللمعة فى وسطها ؟ قال : هذه الجمعة . قال قلت وما الجمعة ؟ قال يوم من أيام ربك عظيم وسأخبرك بشرفه وفضله واسمه فى الآخرة . أما شرفه وفضله فى الدنيا فان الله تعالى جمع فيه أمر الخلق ، وأما ما يرجى فيه فان فيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم أو أمة مسلمة يسألان الله فيها خيرا إلا أعطاهما إياه ، وأما شرفه وفضله واسمه فى الآخرة فان الله تبارك وتعالى إذا صير أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار وجرت عليهم أيامها وساعاتها ليس بها ليل ولا نهار إلا قد علم الله مقدار ذلك وساعاته ، فاذا كان يوم الجمعة فى الحين الذى يبرز ـ أو يخرج ـ فيه أهل الجنة إلى جمعتهم نادى مناد : يا أهل الجنة اخرجوا إلى دار المزيد لا يعلم سعته وعرضه وطوله إلا الله تعالى فى كثبان من المسك . قال فيخرج غلمان الأنبياء بمنابر من نور . ويخرج غلمان المؤمنين بكراسى من ياقوت . قال فاذا وضعت لهم وأخذ القوم مجالسهم بعث الله تبارك وتعالى ريحا تدعى المثيرة تثير عليهم آثار المسك الأبيض تدخله من تحت ثيابهم وتخرجه إلى وجوههم وأشعارهم ، فتلك الريح أعلم كيف تصنع بذلك المسك من امرأة أحدكم لو دفع إليها ذلك الطيب بإذن الله تعالى . قال ثم يوحى الله سبحانه وتعالى إلى حملة العرش فيوضع بين ظهرانى الجنّة وبينه وبينهم الحجب ، فيكون أول ما يسمعون منه أن يقول : أين عبادى الذين أطاعونى فى الغيب ولم يرونى وصدقوا رسلى واتبعوا أمرى ؟ فسلونى فهذا يوم المزيد . قال فيجتمعون على كلمة واحدة : ربنا رضينا عنك فارض عنا . قال فيرجع الله تعالى فى قولهم أن يا أهل الجنة لو لم أرض عنكم لما أسكنتكم جنتى ، فهذا يوم المزيد فسلونى . قال فيجتمعون على كلمة واحدة : رب وجهك ، رب وجهك ، أرنا ننظر إليه . قال فيكشف الله تبارك وتعالى الحجب ويتجلى لهم فيغشاهم من نوره شيء لولا أنه قضى عليهم أن لايحترقوا لاحترقوا مما غشيهم من نوره . قال ثم يقال ارجعوا إلى منازلكم ، قال فيرجعون إلى منازلهم وقد خفوا على أزواجهم وخفين عليهم مما غشيهم من نوره ، فإذا صاروا إلى منازلهم يزاد النور وأمكن ، ويزاد وأمكن ، حتى يرجعوا إلى صورهم التى كانوا عليها . قال فيقول لهم أزواجهم : لقد خرجتم من عندنا على صورة ورجعتم على غيرها ، قال فيقولون : ذلك بأن الله تجلى لنا فنظرنا منه إلى ما خفينا به عليكن . قال فلهم فى كل سبعة أيام الضعف

... ما كانوا فيه قال وذلك قوله عز وجل ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴾ . ولابن مهدي عنه رضي الله عنه في قوله عز وجل ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ قال : النظر إلى وجه الله عز وجل . قال الحاكم رحمه الله تعالى وتفسير الصحابي عندنا في حكم المرفوع . ولابن خزيمة عن أبي نضرة قال : خطبنا ابن عباس رضى الله عنه فقال : قال رسول الله ﷺ « ما من نبي إلا وله دعوة تعجلها في الدنيا . وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة ، فآتي باب الجنة فآخذ بحلقة الباب فأقرع الباب فيقال : من أنت ؟ فأقول أنا محمد ، فآتي ربي وهو على كرسيه ـ أو على سريره ـ فيتجلى لي ربي فأخر له ساجدا » . ولأبي بكر بن أبي داود عن ابن عباس رضى الله عنهما أيضا عن النبي ﷺ قال « إن أهل الجنة يرون ربهم تبارك وتعالى في كل جمعة في رمال الكافور ، وأقربهم منه مجلسا أسرعهم إليه يوم الجمعة وأبكرهم غدوا » . وللصنعاني عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال : خلق الله الملائكة لعبادته أصنافا فإن منهم لملائكة قياما صافين من يوم خلقهم إلى يوم القيامة ، وملائكة ركوعا خشوعا من يوم خلقهم إلى يوم القيامة ، وملائكة سجودا منذ خلقهم إلى يوم القيامة . فإذا كان يوم القيامة وتجلى لهم تعالى ونظروا إلى وجهه الكريم قالوا : سبحانك ما عبدناك حق عبادتك » . وللدارمي عن أبي الدرداء رضى الله عنه أن فضالة ـ يعني ابن عبيد رضى الله عنه ـ كان يقول : اللهم إني أسألك الرضا بعد القضاء ، وبرد العيش بعد الموت ، ولذة النظر إلى وجهك ، والشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة .
وللامام أحمد عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال « قد حدثتكم عن الدجال حتى خشيت أن لا تعقلوا ، إن المسيح الدجال رجل قصير أفحج جعد أعور مطموس العين ليست بناتئة ولا حجراء ، فان التبس عليكم فاعلموا أن ربكم ليس بأعور ، وأنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا » . وقال الصنعاني حدثنا روح بن عبادة حدثنا عباد بن منصور قال : سمعت عدى بن أرطاة يخطب على المنبر بالمدائن ، فجعل يعظ حتى بكى وأبكى ثم قال : كونوا كرجل قال لابنه وهو يعظه : يا بني أوصيك أن لا تصلى صلاة إلا ظننت أنك لا تصلى بعدها غيرها حتى تموت ، وتعالى يا بني نعمل عمل رجلين كأنهما قد وقفا على النار ثم سألا الكرة ، ولقد سمعت فلانا ـ نسي عبّاد اسمه ـ ما بيني وبين رسول الله ﷺ غيره فقال : إن رسول الله ﷺ قال « إن لله ملائكة ترعد فرائصهم من مخافته ، ما منهم ملك تقطر دمعته من عينه إلا وقعت ملكا يسبح الله تعالى . قال : وملائكة سجود منذ خلق السموات والأرض لم يرفعوا رءوسهم ولا يرفعونها إلى يوم

القيامة، وصفوف لم ينصرفوا عن مصافهم ولا ينصرفون إلى يوم القيامة . فاذا كان يوم القيامة وتجلى لهم ربهم فنظروا إليه قالوا : سبحانك ما عبدناك كما ينبغى لنا أن نعبدك » . فثبت بهذه الأحاديث المتواترة الصحيحة الصريحة أن الله عز وجل يرى فى الآخرة كما يشاء ، وأن الشهداء بعد موتهم يرونه ، وأن الملائكة يرونه ، وأن النبى ﷺ يراه عند استئذانه فى الشفاعة ، وأن أمة محمد ﷺ برهم وفاجرهم يرونه فى عرصات القيامة ، وهى للفاجر والمنافق ابتلاء وامتحان ونوع من العقوبة وأما رؤية الفرح والسرور والتلذذ بالنظر إلى وجه الله عز وجل فهى خاصة لأوليائه المؤمنين الذين يؤذن لهم فى السجود ويعطون النور التام على الصراط فيتبعونه . ثم يتجلى لهم فى الجنة فيرونه كما يشاء ، وهى الزيادة فى يوم المزيد كما فى الآيات السابقة وما فى معناها من الأحاديث التى سردناها ، وقد جاءت أحاديث صحيحة فى تفسير الزيادة بالنظر إلى وجه الله عز وجل ، منها حديث أبى موسى وحديث أنس وحديث حذيفة وحديث صهيب ، وقد تقدم ذكرها قريبا . وللدارقطنى عن أبىّ بن كعب رضى الله عنه عن النبى ﷺ فى قوله تعالى ﴿ **للذين أحسنوا الحسنى وزيادة**﴾ قال : النظر إلى وجه الله عز وجل . ولابن جرير عنه رضى الله عنه قال : سألت رسول الله ﷺ عن « الزيادة » فى كتاب الله عز وجل فى قوله تعالى ﴿ **للذين أحسنوا الحسنى وزيادة** ﴾ قال ﷺ « الحسنى الجنة ، والزيادة النظر إلى وجه الله عز وجل » . ولابن جرير عن كعب بن عجرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ فى قوله تعالى ﴿ **للذين أحسنوا الحسنى وزيادة** ﴾ قال « الزيادة النظر إلى وجه الرحمن عز وجل جلاله » . ورواه ابن حميد عنه بلفظ «الزيادة النظر إلى وجه الله تبارك وتعالى » . وللحسن بن عرفة عن أنس رضى الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ عن هذه الاية ﴿ **للذين أحسنوا الحسنى وزيادة** ﴾ قال « للذين أحسنوا العمل فى الدنيا ، والحسنى وهى الجنة ، والزيادة وهى النظر إلى وجه الله عز وجل» وقد روى تفسير « الزيادة» بالنظر إلى وجه الله عز وجل عن أبى بكر رضى الله عنه وعلى بن أبى طالب وحذيفة بن اليمان وعبد الله بن عباس وأبى موسى، وعن عبادة بن الصامت وغيرهم من الصحابة رضى الله عنهم ، وعن التابعين عن سعيد بن المسيب وعبد الرحمن بن أبى ليلى ، وعبد الرحمن بن السابط ومجاهد وعكرمة وعامر بن سعد وعطاء والضحاك والحسن وقتادة والسدّى ومحمد بن إسحاق ومقاتل وغيرهم رحمهم الله من السلف والخلف ولولا خشية الإطالة لنقلنا أقوالهم بأسانيدها ، وفيما ذكرنا من المرفوع كفايه وبالله التوفيق .

ذكر المنقول عن أصحاب رسول الله ﷺ فى هذا الباب

قال أبو بكر رضى الله عنه وقرأ ﴿ **للذيـن أحسنـوا الحسنى وزيادة** ﴾ فقالوا : ما الزيادة

يا خليفة رسول الله ﷺ ؟ قال : النظر إلى وجه الله تبارك وتعالى . وقال على رضى الله عنه : من تمام النعمة دخول الجنة والنظر إلى وجه الله تبارك وتعالى فى جنته . وقال حذيفة رضى الله عنه : الزيادة النظر إلى وجه الله تبارك وتعالى . وقال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : والله ما منكم من إنسان إلا أن ربه سيخلو به يوم القيامة كما يخلو أحدكم بالقمر ليلة البدر ، قال فيقول : ما غرك بى يا ابن آدم (ثلاث مرات) . ماذا أجبت المرسلين (ثلاث مرات) . ماذا عملت فيما علمت ؟ . وقال رضى الله عنه : الزيادة النظر إلى وجه الله عز وجل . وقيل لابن عباس رضى الله عنهما : كل من دخل الجنة يرى ربه عز وجل؟ قال نعم . وقال معاذ بن جبل رضى الله عنه : يحشر الناس يوم القيامة فى صعيد واحد ، فينادى : أين المتقون ؟ فيقومون فى كنف واحد من الرحمن تعالى ، لا يحتجب الله منهم ولا يستتر . قال أبو عفيف وهو الراوى عنه : من المتقون ؟ قال : قوم اتقوا الشرك وعبادة الأوثان وأخلصوا لله فى العبادة ، فيمرون إلى الجنة . وكان أبو هريرة رضى الله عنه يقول : لن تروا ربكم حتى تذوقوا الموت . وقال ابن عمر رضى الله عنهما : إن أدنى أهل الجنة منزلة من ينظر إلى ملكه ألفى عام يرى أقصاه كما يرى أدناه ، وإن أفضلهم منزلة لمن ينظر إلى وجه الله جل جلاله فى كل يوم مرتين . وكان فضالة بن عبيد رضى الله عنه يقول : اللهم إنى أسألك الرضا بعد القضاء ، وبرد العيش بعد الموت ولذة النظر الى وجهك، وقد تقدم هذا الدعاء عنه ، وتقدم مرفوعا من حديث زيد بن ثابت وعبادة بن الصامت رضى الله عنهم . وقال أبو موسى رضى الله عنه ﴿ **للذين أحسنوا الحسنى** ﴾ قال : الجنة ، و « الزيادة » هى النظر إلى وجه الله عز وجل وكان رضى الله عنه يحدث الناس فشخصوا بأبصارهم ، فقال : ما صرف أبصاركم عنى ؟ قالوا الهلال . قال : فكيف بكم إذا رأيتم وجه الله تعالى جهرة ؟ وقال أنس بن مالك رضى الله عنه فى قوله عز وجل ﴿**ولدينا مزيد**﴾ : يظهر لهم الرب تبارك وتعالى يوم القيامة . وعن جابر رضى الله عنه قال: إذا دخل أهل الجنة الجنة وأديم عليهم بالكرامة جاءتهم خيول من ياقوت أحمر لا تبول ولا تروث لها أجنحة ، فيقعدون عليها ثم يأتون الجبار جل وعلا فاذا تجلى لهم خروا له سجدا فيقول : يا أهل الجنة ارفعوا رءوسكم ، فقد رضيت عنكم رضاء لا سخط بعده .

ذكر أقوال التابعين رحمهم الله تعالى فى ذلك

قال سعيد بن المسيب والحسن وعبد الرحمن بن أبى ليلى وعبد الرحمن بن سابط وعكرمة ومجاهد وقتادة والسدّى وكعب رحمهم الله تعالى : الزيادة النظر إلى وجه الله عز وجل . وكتب عمر بن عبد العزيز رحمه الله إلى بعض عماله : أما بعد فإنى أوصيك بتقوى الله عز وجل ولزوم طاعته ، والتمسك بأمره ، والمعاهدة على ما حمّلك الله من دينه

واستحفظك من كتابه ، فان بتقوى الله عز وجل ولزوم طاعته نجا أولياؤه من سخطه ، وبها وافقوا أنبياءه ، وبها نضرت وجوههم ونظروا إلى خالقهم ، وهي عصمة في الدنيا من الفتن ومن كرب يوم القيامة . وقال الحسن رحمه الله تعالى : لو علم العابدون في الدين أنهم لا يرون ربهم في الآخرة لذابت أنفسهم في الدنيا . وقال الأعمش وسعيد بن جبير رحمهما الله : إن أشرف أهل الجنة لمن ينظر إلى الله تبارك وتعالى غدوة وعشية . وقال كـ ـب رحمه الله تعالى : ما نظر الله عز وجل إلى الجنة قط إلا قال طيبي لأهلك ، فزادت ضعفا على ما كانت ، حتى يأتيها أهلها . وما من يوم كان لهم عيد في الدنيا إلا ويخرجون في مقداره في رياض الجنة ، فيبرز لهم الرب تبارك وتعالى فينظرون إليه وتسفي عليهم الريح المسك ، ولا يسألون الرب تبارك وتعالى شيئا إلا أعطاهم حتى يرجعوا وقد ازدادوا على ما كانوا من الحسن والجمال سبعين ضعفا ، ثم يرجعون إلى أزواجهم وقد ازددن مثل ذلك . وقال هشام بن حسان : إن الله سبحانه وتعالى يتجلى لأهل الجنة ، فاذا رآه أهل الجنة نسوا نعيم الجنة . وقال طاوس : أصحاب المراء والمقاييس لا يزال بهم المراء والمقاييس حتى يجحدوا الرؤية ويخالفوا أهل السنة . وقال شريك عن أبي إسحاق السبيعي : الزيادة النظر إلى وجه الرحمن تبارك وتعالى . وعن عبد الرحمن بن أبي ليلى أنه تلا هذه الآية ﴿ **للذين أحسنوا الحسنى وزيادة** ﴾ قل : إذا دخل أهل الجنة الجنة أعطوا فيها ما سألوا وما شاءوا ، فيقول الله عز وجل لهم : إنه قد بقي من حقكم شيء لم تعطوه، فيتجلى لهم تبارك وتعالى فلا يكون ما أعطوه عند ذلك بشيء ، فالحسنى الجنة والزيادة النظر إلى وجه ربهم تبارك وتعالى ﴿ **ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة** ﴾ بعد نظرهم إلى ربهم تبارك وتعالى . وقال على بن المديني : سألت عبد الله بن المبارك عن قوله تعالى ﴿**فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا** ﴾ قال عبد الله : من أراد النظر إلى وجه الله خالقه فليعمل عملا صالحا ولا يخبر به أحدا . وقال نعيم بن حماد : سمعت ابن المبارك يقول : ما حجب الله عز وجل أحدا عنه إلا عذبه ، ثم قرأ ﴿ **كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ، ثم إنهم لصالوا الجحيم ، ثم يقال هذا الذى كنتم به تكذبون** ﴾ قال: بالرؤية . وقال عباد بن العوام : قدم علينا شريك بن عبد الله منذ خمسين سنة فقلت: يا أبا عبد الله ، إن عندنا قوما من المعتزلة ينكرون هذه الأحاديث « إن الله ينزل إلى سماء الدنيا » و « إن أهل الجنة يرون ربهم » فحدّثني بنحو عشرة أحاديث في هذا ، وقال : أما نحن فقد أخذنا ديننا هذا عن التابعين عن أصحاب رسول الله ﷺ ، فهم عمن أخذوا ؟ وقال عقبة بن قبيصة : أتينا أبا نعيم يوما فنزل إلينا من الدرجة التى في داره فجلس وسطها كأنه مغضب فقال : حدثنا سفيان بن سعيد ومنذر الثورى وزهير بن معاوية، وحدثنا حسن بن

صالح بن حيّ ، وحدثنا شريك بن عبد الله النخعي ، هؤلاء أبناء المهاجرين يحدثوننا عن رسول الله ﷺ أن الله تبارك وتعالى يرى في الآخرة ، حتى جاء ابن يهودى صباغ يزعم أن الله تعالى لا يرى (يعني بشرا المريسي قبحه الله) .

ذكر أقوال الأئمة الأربعة وطبقاتهم ومشايخهم رحمهم الله تعالى

قال مالك بن الإمام رحمه الله تعالى : الناس ينظرون إلى ربهم عز وجل يوم القيامة بأعينهم . وسئل رحمه الله عن قوله عز وجل ﴿ **وجوه يومئذ ناضرة ، إلى ربها ناظرة** ﴾ : أتنظر إلى الله عز وجل ؟ قال نعم ، قال أشهب : فقلت إن أقواما يقولون تنظر ما عنده . قال بل تنظر إليه نظرا ، وقد قال موسى ﴿ **رب أرني أنظر إليك قال لن تراني** ﴾ وقال تعالى ﴿ **كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون** ﴾ . وذكر الطبراني وغيره أنه قيل لمالك : إنهم يزعمون أن الله لا يرى ، فقال مالك : السيف السيف . وقال أبو صالح كاتب الليث : أملى على عبد العزيز بن أبي سلمة الماجشون ، وسألته عما جحدت الجهمية فقال : لم يزل يملي لهم الشيطان حتى جحدوا قوله تعالى ﴿ **وجوه يومئذ ناضرة ، إلى ربها ناظرة** ﴾ فقالوا لا يراه أحد يوم القيامة فجحدوا ، والله أفضل كرامة الله التي أكرم بها أولياءه يوم القيامة من النظر إلى وجهه ، ونضرته إياهم ﴿ **في مقعد صدق عند مليك مقتدر** ﴾ فورب السماء والأرض ليجعلن رؤيته يوم القيامة للمخلصين له ثوابا لينضر بها وجوههم دون المجرمين وتفلج بها حجتهم على الجاحدين وهم ﴿ **عن ربهم يومئذ لمحجوبون** ﴾ لا يرونه ، كما يزعمون أنه لا يرى ، ولا يكلمهم ولا ينظر إليهم ولهم عذاب أليم . وقال الأوزاعي رحمه الله تعالى : إني لأرجو أن يحجب الله عز وجل جهما وأصحابه عن أفضل ثوابه الذى وعده الله أولياءه حين يقول ﴿ **وجوه يومئذ ناضرة ، إلى ربها ناظرة** ﴾ فجحد جهم وأصحابه أفضل ثوابه الذى وعده الله تعالى أولياءه . وقال الوليد بن مسلم : سألت الأوزاعي وسفيان الثورى ومالك بن أنس والليث بن سعد عن هذه الأحاديث التي فيها الرؤية فقالوا تمرُّ بلا كيف . وقال سفيان بن عيينة : من لم يقل إن القرآن كلام الله ، وأن الله يرى في الجنة فهو جهمي . ذكره الطبرى . وذكر عنه ابن أبي حاتم أنه قال : لا يصلى خلف الجهمي ، والجهمي الذى يقول لا يرى ربه يوم القيامة . وذكر ابن أبي حاتم عن جرير بن عبد الحميد أنه ذكر حديث ابن سابط في الزيادة أنها النظر إلى وجه الله عز وجل ، فأنكره رجل ، فصاح به وأخرجه من مجلسه . وذكر أيضا عن ابن المبارك أن رجلا من الجهمية قال له : يا أبا عبد الرحمن « خدارا بآن جهان جون بيند » ومعناه : كيف يرى الله يوم القيامة ؟ فقال : بالعين . وقل وكيع بن الجراح رحمه الله : يراه تبارك

وتعالى المؤمنون فى الجنة ولا يراه إلا المؤمنون . وقال قتيبة بن سعيد رحمه الله تعالى : قول الائمة المأخوذ به في الاسلام والسنة : الايمان بالرؤية ، والتصديق بالأحاديث التي جاءت عن رسول الله ﷺ في الرؤية وقال أبو عبيد القاسم بن سلاّم ، وقد ذكرت عنده هذه الأحاديث التي في الرؤية : هي عندنا حق ، رواها الثقات عن الثقات إلى أن صارت إلينا . إلا أنا إذا قيل لنا فسروها لنا قلنا لا نفسر منها شيئا ولكن نمضيها كما جاءت . وقال عبد الوهاب الوراق : سألت أسود بن سالم عن أحاديث الرؤية فقال : أحلف عليها أنها حق . وقل محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله تعالى وقد جاءته رقعة من الصعيد فيها : ما تقول في قول الله عز وجل ﴿ كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ﴾ ؟ فقال الشافعي رحمه الله تعالى : لما أن حجب هؤلاء في السخط كان في هذا دليل على أن أولياءه يرونه في الرضا ، قال الربيع فقلت : يا أبا عبد الله وبه تقول ؟ قال نعم ، وبه أدين الله عز وجل ، ولو لم يوقن محمد بن إدريس أنه يرى الله لما عبد الله عز وجل . رواه الحاكم عن الربيع عنه . وروى الطبراني وغيره عن المزني قال سمعت الشافعي رحمه الله تعالى يقول في قوله عز وجل ﴿ كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ﴾ : فيها دليل على أن أولياء الله يرون ربهم تبارك وتعالى يوم القيامة . وقال محمد بن عبد الله بن الحكم: سئل الشافعي رحمه الله تعالى عن الرؤية ، فقال : قال الله تعالى ﴿ كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ﴾ ففي هذا دليل على أن المؤمنين لا يحجبون عن الله عز وجل . رواه أبو زرعة الرازى . ولابن بطة عنه رحمه الله تعالى قال : ﴿ كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ﴾ دلالة على أن أولياء الله يرونه يوم القيامة بأبصارهم ووجوههم . وقال إسحاق بن منصور قلت لاحمد : أليس ربنا تبارك وتعالى يراه أهل الجنة ، أليس تقول بهذه الأحاديث ؟ قال أحمد صحيح . وقال الفضل بن زياد سمعت أبا عبد الله ـ وقيل له تقول بالرؤية ـ فقال : من لم يقل بالرؤية فهو جهمي . وقال : سمعت أبا عبد الله وبلغه عن رجل أنه قال : إن الله لا يرى في الآخرة فغضب غضبا شديدا ثم قال : من قال إن الله لا يرى في الآخرة فقد كفر ، عليه لعنة الله وغضبة مَن كان من الناس ، أليس يقول الله عز وجل ﴿ وجوه يومئذ ناضرة ، إلى ربها ناظرة ﴾ وقال ﴿ كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ﴾ . وقال أبو داود : سمعت أحمد رحمه الله تعالى وذكر له عن رجل شيء في الرؤية فغضب وقال : من قال إن الله لا يرى فهو كافر . وقال أيضا : سمعت أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى وقيل له في رجل يحدّث بحديث عن رجل عن أبي العطوف أن الله لا يرى في الآخرة فقال : لعن الله من يحدّث بهذا الحديث اليوم ، ثم قال : أخزى الله هذا . وقال أبو بكر المروزى : قيل لأبي عبد الله تعرف عن يزيد بن هارون عن أبي العطوف عن أبي الزبير عن جابر : إن استقر

الجبل فسوف تراني وإن لم يستقر فلا تراني في الدنيا ولا في الآخرة ؟ فغضب أبو عبد الله غضبا شديدا حتى تبين في وجهه ، وكان قاعدا والناس حوله فأخذ نعله وانتعل وقال : أخزى الله هذا ، لا ينبغي أن يكتب . ودفع أن يكون يزيد بن هارون رواه أو حدث به وقال : هذا جهمي كافر خالف ما قال الله عز وجل ﴿ **وجوه يومئذ ناضرة ، إلى ربها ناظرة** ﴾ وقال ﴿ **كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون**﴾ أخزى الله هذا الخبيث . قال أبو عبد الله : ومن زعم أن الله لا يرى في الآخرة فقد كفر . وقال أبو طالب قال أبو عبد الله : قول الله عز وجل ﴿ **هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة** ﴾ ، « **وجاء ربك والملك صفا صفا** ﴾ فمن قال إن الله لا يرى فقد كفر . وقال إسحاق بن إبراهيم بن هانئ سمعت أبا عبد الله يقول : من لم يؤمن بالرؤية فهو جهمي ، والجهمي كافر . وقال يوسف بن موسى بن محمد القطان قيل لأبي عبد الله : أهل الجنة ينظرون إلى ربهم تبارك وتعالى ويكلمونه ويكلمهم ؟ قال نعم ، ينظر إليهم وينظرون إليه ويكلمهم ويكلمونه كيف شاءوا إذا شاءوا . وقال حنبل بن إسحاق سمعت أبا عبد الله يقول : القوم يرجعون إلى التعطيل في أقوالهم ، ينكرون الرؤية والآثار كلها ، وما ظننتهم على هذا حتى سمعت مقالاتهم . قال حنبل وسمعت أبا عبد الله يقول : من زعم أن الله لا يرى في الآخرة فهو جهمي ، فقد كفر ورد على الله وعلى الرسول . ومن زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا فقد كفر ورد على الله قوله . قال أبو عبد الله : فنحن نؤمن بهذه الأحاديث ونقرُّ بها ونمرُّها كما جاءت . وقال الأثرم سمعت أبا عبد الله رحمه الله يقول : فأما من يقول : إن الله لا يرى في الآخرة فهو جهمي . قال أبو عبد الله : وإنما تكلم من تكلم في رؤية الدنيا. وقال إبراهيم بن زياد الصائغ سمعت أحمد بن حنبل يقول : الرؤية من كذّب بها فهو زنديق . وقال حنبل سمعت أبا عبد الله يقول : أدركنا الناس وما ينكرون من هذه الأحاديث شيئا ، أحاديث الرؤية ، وكانوا يحدثون بها على الجملة ، يمرونها على حالها غير منكرين لذلك ولا مرتابين . وقال أبو عبد الله رحمه الله تعالى : قال الله تعالى ﴿ **وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا** ﴾ ، وكلم الله موسى من وراء حجاب ، فقال ﴿ رب أرني أنظر إليك . **قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فان استقر مكانه فسوف تراني** ﴾ فأخبر الله عز وجل أن موسى يراه في الآخرة ، وقال ﴿ **كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون** ﴾ ولا يكون حجاب إلا لرؤية ، أخبر الله سبحانه وتعالى أن من شاء الله ومن أراد يراه ، والكفار لا يرونه . قال حنبل وسمعت أبا عبد الله يقول : قال الله تعالى ﴿ **وجوه يومئذ ناضرة ، إلى ربها ناظرة** ﴾ والأحاديث التي تروى في النظر إلى الله تعالى حديث جابر بن عبد الله وغيره « تنظرون إلى ربكم » أحاديث

صحاح . وقال تعالى ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ النظر إلى وجه الله عز وجل . قال أبو عبد الله : نؤمن بها ونعلم أنها حق أحاديث الرؤية ، ونؤمن بأن الله يُرى . نرى ربنا يوم القيامة لا نشك فيه ولا نرتاب . قال وسمعت أبا عبد الله يقول : من زعم أن الله لا يرى في الآخرة فقد كفر بالله وكذب بالقرآن ، ورد على الله أمره ، يستتاب فان تاب وإلا قتل ، قال حنبل قلت لأبي عبد الله في أحاديث الرؤية ، قال : هذه صحاح نؤمن بها ونقر بها وكل ما روى عن النبي ﷺ أقررنا به . قال أبو عبد الله : إذا لم نقر بما جاء عن النبي ﷺ ودفعناه رددنا على الله أمره ، قال الله عز وجل ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ . وقال عبد الله بن طاهر أمير خراسان لإسحاق بن راهويه : يا أبا يعقوب ، هذه الأحاديث التي يروونها في النزول والرؤية ما هن؟ فقال : رواها من روى الطهارة والغسل والصلاة والأحكام ـ وذكر أشياء ـ فان يكونوا في هذه عدولا وإلا فقد ارتفعت الأحكام وبطل الشرع . فقال : شفاك الله كما شفيتني . أو كما قال ، ذكره الحاكم . وقال إمام الأئمة محمد بن إسحاق بن خزيمة في كتابه : إن المؤمنين لم يختلفوا أن المؤمنين يرون خالقهم يوم القيامة ، ومن أنكر ذلك فليس بمؤمن عند المؤمنين . وقال نعيم بن حماد للمزني : ما تقول في القرآن ؟ فقال : أقول إنه كلام الله . فقال : غير مخلوق ؟ فقال : غير مخلوق . قال : وتقول إن الله يرى يوم القيامة ؟ قال : نعم . فلما افترق الناس قام إليه المزني فقال : يا أبا عبد الله شهرتني على رءوس الناس . فقال : إن الناس قد أكثروا فيك ، فأردت أن أبرئك . وقال أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب في قوله تعالى ﴿وكان بالمؤمنين رحيما . تحيتهم يوم يلقونه سلام ﴾ أجمع أهل اللغة على أن اللقاء ههنا لا يكون إلا معاينة ونظرا بالأبصار . قلت : واللقاء ثابت بنص القرآن بهذه الآية وغيرها ، وبالتواتر عن النبي ﷺ ، وكل أحاديث اللقاء صحيحة كحديث أنس في قصة بئر معونة « إنا قد لقينا ربنا فرضي عنا وأرضانا » ، وحديث عبادة وعائشة وأبي هريرة وابن مسعود رضي الله عنهم « من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه » وحديث أنس « إنكم ستلقون بعدي أثرة ، فاصبروا حتى تلقوا الله تعالى ورسوله ﷺ » وحديث أبي ذر رضي الله عنه « لو لقيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة » وحديث أبي موسى « من لقي الله لا يشرك به شيئا دخل الجنة » وغير ذلك من أحاديث اللقاء التي اطردت كلها بلفظ واحد ، فهذا كتاب الله عز وجل وسنة رسول الله ﷺ الصحيحة الصريحة ، وهذه أقوال الصحابة والتابعين فمن بعدهم من أئمة الهدى ، كلها مجتمعة على أن المؤمنين يرون ربهم تبارك وتعالى في الجنة ، ويتلذذون بالنظر إلى وجهه الكريم ، وذلك غاية النعيم وأعلى الكرامات وأفضل فضيلة ، ولذا يذهلون بالنظر إليه عن كل ماهم

فيه من النعيم ، فنحن نؤمن بذلك كله ونشهد الله تعالى وملائكته وأنبياءه ورسله والمؤمنين على ذلك ، ونضرع إلى الله تعالى وندعوه بأسمائه الحسنى أن يرزقنا لذة النظر إلى وجهه تعالى في جنة عدن ، وأن لا يحجبنا عنه فنكون من الذين أخبر عنهم أنهم عنه يومئذ لمحجوبون نعوذ بالله من ذلك ، ومن جحد الرؤية فهو كاذب على الله تعالى مكذب بالصدق إذ جاءه راد لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ مخالف لجماعة المؤمنين كافر بلقاء الله عز وجل متبع غير سبيل المؤمنين ، وسيوليه الله ما تولى ويصليه جهنم إن مات مصرا على جحوده ، أليس في جهنم مثوى للكافرين ؟ وقد وعد الله عز وجل أن المكذبين محجوبون عنه يوم القيامة فقال تعالى **﴿ كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ، ثم إنهم لصالوا الجحيم ، ثم يقال هذا الذى كنتم به تكذبون ﴾** ، وتقدم تفسير ابن المبارك قوله : **﴿ تكذبون ﴾** بالرؤية . وقد ورد حديث في وعيد منكرى اللقاء وهو متناول منكر الرؤية بلا شك ولا مرية ، روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ قال هل تضارون في رؤية الشمس في الظهيرة ليست فيها سحابة ؟ قالوا لا . قال هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر ليس فيه سحابة ؟ قالوا لا . قال : فو الذى نفس محمد بيده لا تضارون في رؤية ربكم إلا كما تضارون في رؤية أحدهما . فيلقى العبد فيقول أى فل ألم أكرمك وأسودك وأزوجك وأسخر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وترفع ؟ فيقول بلى . فيقول أفظننت أنك ملاقىَّ ؟ فيقول لا ، فيقول : فانى أنساك كما نسيتنى . ثم يلقى الثانى فيقول : أى فل ألم أكرمك وأسودك وأزوجك وأسخر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وترفع ؟ فيقول بلى أى رب . فيقول : أفظننت أنك ملاقى ؟ فيقول لا . فيقول إنى أنساك كما نسيتنى . ثم يلقى الثالث فيقول له مثل ذلك فيقول : يارب آمنت بك وبكتابك ورسلك وصليت وصمت وتصدقت ويثنى بخير ما استطاع . فيقول هاهنا إذا . ثم يقال : الآن نبعث شاهدا عليك . فيتفكر في نفسه من الذى يشهد على ، فيختم على فيه ويقال لفخذه انطقى فينطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله ، وذلك ليعذر من نفسه ، وذلك المنافق ، وذلك الذى يسخط الله عليه » ومن تراجم أئمة السنة على هذا الحديث : باب وعيد منكرى الرؤية ، والدلالة منه واضحة منطوقا ومفهوما ولله الحمد . ولا خلاف في ثبوت رؤية المؤمنين ربهم تبارك وتعالى في دار الآخرة . وكذا لا خلاف بينهم في أنه لا يراه أحد قبل الموت ، وإنما وقع الخلاف بين الصحابة والتابعين فمن بعدهم في ثبوت رؤية النبى ﷺ ربه ليلة المعراج كما سيأتى إن شاء الله بحث ذلك في موضعه وبالله التوفيق .

﴿ وكل ما له من الصفات أثبتها في محكم الآيات ﴾

﴿ أو صحّ فيما قاله الرسول فحقه التسليم والقبول ﴾

(وكل ما) ثبت (له) أى لله عز وجل (من الصفات) الثابتة التى (أثبتها) هو سبحانه وتعالى لنفسه وأخبرنا باتصافه بها (فى محكم الآيات) من كتابه العزيز مما ذكرناه فيما تقدم ومما لم نذكر كقوله تعالى ﴿ فأينما تولوا فثم وجه الله ﴾ وقوله ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾ وقوله تعالى ﴿ كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام﴾ وقوله تعالى ﴿ وما آتيتم من ربا ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله ، وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون ﴾ وقوله ﴿ وما لأحد عنده من نعمة تجزى ، إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ﴾ وقوله تعالى ﴿ إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا ﴾ وقوله تعالى ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ﴾ وقوله تبارك وتعالى ﴿ واصطنعتك لنفسي ﴾ وقوله تعالى ﴿ويحذركم الله نفسه ﴾ وقوله عن عيسى عليه السلام ﴿ تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك إنك أنت علام الغيوب ﴾ وكقوله تعالى ﴿ ولتصنع على عينى ﴾ وقوله تعالى ﴿فاصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا ﴾ وقوله تعالى ﴿ وحملناه على ذات ألواح ودسر ، تجرى بأعيننا ﴾ وقوله تعالى ﴿ ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى ﴾ وقوله تعالى ﴿ بل يداه مبسوطتان ﴾ وقوله تعالى ﴿ وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه ﴾ وقوله تعالى ﴿ وكتبنا له فى الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء ﴾ وكقوله تعالى ﴿ فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه ﴾ وقوله تعالى ﴿إن الله يحب المتقين ﴾ ، ﴿ إن الله يحب المحسنين ﴾ ، ﴿ والله يحب الصابرين﴾ ، ﴿ إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص ﴾ وقوله ﴿ والله لا يحب الظالمين ﴾ ، ﴿ والله لا يحب الفساد ﴾ ، ﴿ والله لا يحب كل مختال كفور ﴾ وكقوله تعالى ﴿ لقد رضى الله عن المؤمنين ﴾ ، ﴿ رضى الله عنهم ورضوا عنه ﴾ وقوله ﴿ إن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين ﴾ ، ﴿ ولا يرضى لعباده الكفر ﴾ وكقوله تعالى ﴿ سخط الله عليهم ﴾ وكقوله ﴿ كره الله انبعاثهم ﴾ وقوله فى اليهود ﴿غضب الله عليهم ﴾ وفى قاتل النفس المحرمة ﴿ فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه ﴾ وقوله ﴿ كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبى ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى ﴾ وكقوله تعالى ﴿ ورحمتى وسعت كل شيء ﴾ وكقوله ﴿ ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما ﴾ وكقوله ﴿ كتب ربكم على نفسه الرحمة ﴾ وقوله ﴿ وهو الغفور الرحيم ﴾ وقوله ﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ﴾ وكقوله

﴿ وهو القوى العزيز ﴾ وقوله عن إبليس ﴿ فبعزتك لأغوينهم أجمعين ﴾ وقوله ﴿سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين﴾ وكقوله ﴿الله نور السموات والأرض ﴾ الآية ، وكقوله ﴿ إن الله عزيز ذو انتقام﴾ وقوله تعالى ﴿ إنا من المجرمين منتقمون ﴾ وقوله ﴿ فلما آسفونا انتقمنا منهم ﴾ وقوله تعالى ﴿ هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون ﴾ وقوله تعالى ﴿ ملك الناس ﴾ وقوله ﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير . تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى وترزق من تشاء بغير حساب﴾ وقوله تعالى ﴿ قل أى شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بينى وبينكم ﴾ وقوله تعالى ﴿وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء ﴾ وقوله تعالى ﴿ وما نتنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسيا ، رب السموات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميا ﴾ وقوله تعالى ﴿ نبئ عبادى أنى أنا الغفور الرحيم . وأن عذابى هو العذاب الأليم ﴾ وقوله ﴿ غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطول لا إله إلا هو إليه المصير ﴾ وقوله ﴿ والله يقبض ويبسط ﴾ وقوله ﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ﴾ وقوله ﴿ وهو شديد المحال ﴾ وغير ذلك من آيات الأسماء والصفات ، صفات ذاته تعالى وأفعاله عز وجل .

(أو صح فيما قاله الرسول) من الأحاديث النبوية الصحيحة كقوله ﷺ عن ربه عز وجل « يقول الله تعالى : أنا مع عبدى حين يذكرنى ، فان ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منهم » متفق عليه من حديث أبى هريرة . وقوله ﷺ « سبحان الله العظيم وبحمده عدد خلقه ورضاء نفسه وزنة عرشه » رواه مسلم والأربعة من حديث ابن عباس رضى الله عنهما ، وقوله ﷺ « لما قضى الخلق كتب فى كتابه على نفسه فهو موضوع عنده على العرش : إن رحمتى تغلب غضبى » متفق عليه من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . وعن جابر رضى الله عنه قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم ﴾ قال النبى ﷺ « أعوذ بوجهك» قال ﴿ أو من تحت أرجلكم ﴾ فقال النبى ﷺ « أعوذ بوجهك » قال ﴿ أو يلبسكم شيعا﴾ قال النبى ﷺ « هذا أيسر» رواه البخارى[1] وغيره . وقوله ﷺ « أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، أن يحل بى غضبك أو

(١) انظر الفتح كتاب التفسير ، سورة الأنعام ح ٤٣٥٢ .

ينزل بي سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك » رواه محمد ابن إسحاق في سيرته . وقوله ﷺ « وأسألك « لذة النظر إلى وجهك » الحديث تقدم في الرؤية . وقوله ﷺ « مثل المجاهد في سبيل الله ابتغاء وجهه مثل القائم المصلى حتى يرجع المجاهد » متفق عليه من حديث أبي هريرة رضى الله عنه . وقوله ﷺ « من استعاذ بالله فأعيذوه ، ومن سألكم بالله فأعطوه » رواه أحمد وأبو داود وابن خزيمة من حديث ابن عباس رضى الله عنهما . وقوله ﷺ لسعد بن أبي وقاص « إنك لن تخلف بعدى فتعمل عملا تريد وجه الله تعالى إلا ازددت به رفعة ودرجة » رواه البخارى[1] وغيره من حديثه . وقوله ﷺ « وإذا قمتم إلى الصلاة فلا تلتفتوا ، فان الله يقبل بوجهه إلى وجه عبده » رواه ابن خزيمة والبيهقى من حديث الحارث الأشعرى ، وقوله ﷺ في صفة الدجال « ألا إنه أعور ، وإن ربكم ليس بأعور » الحديث متفق عليه من حديث أنس وابن عمر وغيرهما . وقوله ﷺ في حديث الشفاعة « يقول الناس لآدم : أنت آدم أبو الناس ، خلقك الله بيده » الحديث متفق عليه عن أنس رضى الله عنهما . وقوله ﷺ « يد الله ملأى لا تغيضها نفقة، سحّاء الليل والنهار . وقال : أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض فانه لم يغض مافي يمينه . قال : وعرشه على الماء وبيده الأخرى الميزان يخفض ويرفع » متفق عليه من حديث أبي هريرة رضى الله عنه . وقوله ﷺ « إن الله تعالى يقبض يوم القيامة الأرض وتكون السموات بيمينه ثم يقول : أنا الملك » متفق عليه من حديث ابن عمر رضى الله عنهما واللفظ للبخارى . وتصديقه ﷺ اليهودى الذى قال له : يا محمد إن الله تعالى يمسك السموات على إصبع والأرضين على إصبع والجبال على إصبع والشجر على إصبع والخلائق على إصبع ثم يقول : أنا الملك . فضحك رسول الله ﷺ تعجبا وتصديقا له . متفق عليه[2] من حديث ابن مسعود رضى الله عنه . وقوله ﷺ «لما خلق الله الخلق كتب بيده على نفسه إن رحمتى تغلب غضبى » متفق عليه من حديث أبي هريرة . وقوله ﷺ «إن الله تعالى يفتح أبواب السماء في ثلث الليل الباقى فيبسط يديه فيقول : ألا عبد يسألني فأعطيه » الحديث تقدمت ألفاظه في إثبات النزول . وقوله ﷺ « من تصدّق بعدل تمر من كسب طيب ـ ولا يصعد إلى الله إلا الطيب ـ فان الله يتقبلها بيمينه ثم يربيها لصاحبها كما يربى أحدكم فلوه حتى تكون مثل الجبل » متفق عليه من حديث أبي هريرة . وقوله ﷺ في حديث احتجاج آدم وموسى « فقال آدم : يا موسى اصطفاك الله بكلامه وخط لك التوراة بيده » الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة . وقوله ﷺ «إن يد الله هي العليا ، ويد المعطى التي تليها ، ويد السائل أسفل من ذلك » رواه ابن خزيمة

---

(١) انظر الفتح ح ٣٧٢١ (٢) انظر الفتح ح ٧٠١٣ .

من حديث حكيم بن حزام وأصله فى الصحيح . وقوله ﷺ فى قصة خلق آدم « فقال الله تبارك وتعالى ويداه مقبوضتان : اختر أيهما شئت ، قال اخترت يمين ربى ، وكلتا يدى ربى يمين مباركة . ثم بسطها فاذا فيها آدم وذريته » الحديث أخرجه ابن خزيمة والبيهقى من حديث أبى هريرة . وقوله ﷺ فى قصة سؤال موسى عليه السلام ربه عز وجل عن منازل أهل الجنة « قال يارب فأخبرنى بأعلاهم منزلة، قال : هذا أردت فسوف أخبرك ، قال غرست كرامتهم بيدى وختمت عليها » الحديث رواه البيهقى وابن خزيمة من حديث المغيرة بن شعبة ، وقوله ﷺ « تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة يكفأها الجبار بيده » الحديث متفق عليه من حديث أبى سعيد رضى الله عنه . وقوله ﷺ « إن الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها » رواه مسلم من حديث أبى موسى رضى الله عنه . وقوله ﷺ «ولا يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه ، فاذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به » الحديث أخرجه البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه . وقوله ﷺ « إذا أحب الله العبد نادى جبريل : إن الله يحب فلانا فأحبه فيحبه جبريل فينادى جبريل فى أهل السماء : إن الله يحب فلانا فأحبوه » الحديث فى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه . وقوله ﷺ « وما أحد أصبر على أذى يسمعه من الله ، يدّعون له الولد ثم يعافيهم ويرزقهم » رواه البخارى عن أبى موسى رضى الله عنه . وقوله ﷺ « عجب ربنا من قنوط عباده وقرب خيره » الحديث وقوله ﷺ « عجب ربنا من قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل » رواه أحمد والبخارى من حديث ابن مسعود . وقوله ﷺ « يضحك الله إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر كلاهما يدخل الجنة » متفق عليه من حديث أبى هريرة . وقوله ﷺ فى حديث الشفاعة « إن ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولا بعده مثله » . وقوله ﷺ « من أعان على خصومة فى باطل فقد باء بغضب من الله » رواه أبو داود بسند صحيح عن ابن عمر رضى الله عنهما ، وفى رواية «من خاصم فى باطل لم يزل فى سخط الله حتى ينزع » . وقوله ﷺ « والذى نفسى بيده ما من رجل يدعو امرأته إلى فراشه فتأبى عليه إلا كان الذى فى السماء ساخطا عليها حتى يرضى عنها زوجها » . وقوله ﷺ « وإذا أبغض عبدا دعا جبرائيل فيقول إنى أبغض فلانا فأبغضه ، قال فيبغضه جبريل . ثم ينادى جبريل فى أهل السماء إن الله يبغض فلانا فأبغضوه ، قال فيبغضونه ، ثم يوضع له البغضاء فى الأرض » رواه مسلم . وقوله ﷺ « إن الله ليرضى عن العبد يأكل الأكلة فيحمده عليها ويشرب الشربة فيحمده عليها » رواه مسلم عن أنس رضى الله عنه . وقوله ﷺ فى قصة أصحاب بئر معونة « بلغوا قومنا عنا أنا قد لقينا ربنا فرضى عنا وأرضانا » وهو فى

الصحيح من حديث أنس رضى الله عنه ، وهو من التنزيل المنسوخ تلاوة . وقوله ﷺ في قصة سبى هوازن « لله أرحم بعباده من هذه بولدها » أخرجاه من حديث عمر رضى الله عنه ، وقوله ﷺ « جعل الله الرحمة مائة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءا ونزل فى الأرض جزءا واحدا ، فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه » أخرجاه من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . ولمسلم معناه من حديث سلمان رضى الله عنه ، وفيه « كل رحمة طباق ما بين السماء والأرض ، فاذا كان يوم القيامة كملها بهذه الرحمة » وقوله ﷺ « أعوذ بعزتك الذى لا إله إلا أنت الذى لا يموت والجن والانس يموتون » أخرجه البخارى[1] من حديث ابن عباس رضى الله عنهما . وقوله ﷺ عن أيوب عليه السلام «وعزتك لا غنى بى عن بركتك » أخرجه البخارى[2] من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . وقوله ﷺ « اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن »[3] أخرجاه من حديث ابن عباس رضى الله عنهما . وقوله ﷺ « اللهم إنى أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وبك منك » ولمسلم والأربعة عن عائشة ، وقوله ﷺ « إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » قال ثم قرأ ﴿ **وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد** ﴾ أخرجاه من حديث أبى موسى رضى الله عنه ، وقوله ﷺ « فان الله لم يك لينسى شيئا ، وما كان ربك نسيا » رواه البزار وابن أبى حاتم والطبرانى من حديث أبى الدرداء رضى الله عنه . وقوله ﷺ فى حلفه « لا ومقلب القلوب » أخرجاه من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما . وقوله ﷺ « ما من قلب إلا وهو بين إصبعين من أصابع الرحمن ، فإذا شاء أن يقيمه أقامه ، وإذا شاء أن يزيغه أزاغه » رواه أحمد والشيخان وغيرهما من حديث عائشة رضى الله عنها ، وفى صدره : «يامقلب القلوب ثبت قلبى على دينك » . وقوله ﷺ فى صفة الجنة والنار « لا يزال يلقى فيها ـ يعنى النار ـ وتقول هل من مزيد حتى يضع فيها رب العالمين قدمه فينزوى بعضها إلى بعض وتقول قد : قد بعزتك وكرمك » وفى روايه « قط قط » بالطاء أخرجاه من حديث أنس . وقوله ﷺ « لا شخص أغير من الله » علقها البخارى بلفظ الترجمة ووصلها الدارمى فى مسنده . وقوله ﷺ « أتعجبون من غيرة سعد ، والله لأنا أغير منه ، والله أغير منى ، ومن أجل غيرة الله حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن . ولا أحد أحب إليه العذر من الله ، ومن أجل ذلك بعث المبشرين والمنذرين . ولا أحد أحب إليه المدح من الله ، ومن أجل ذلك وعد الجنة » رواه البخارى من حديث المغيرة بن شعبة فى الترجمة السابقة . والايات والأحاديث فى هذا الباب كثيرة جدا ، يحتاج استقصاؤها إلى بسط طويل وفيما ذكرنا كفاية ، وما أشبهه فسبيله سبيله .

---

(١) انظر الفتح ح ٦٩٤٨ (٢) انظر الفتح ح ٧٠٥٥ (٣) انظر الفتح ح ٦٩٥٠

(فحقه التسليم) له (والقبول) الفاء واقعة فى جواب كل ما ، فنقول فى ذلك : ما ذكره الله تعالى عن الراسخين فى العلم حيث قال ﴿ **والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يتذكر إلا أولو الألباب . ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب** ﴾ ولا نضرب كتاب الله بعضه ببعض فنتبع ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله كما يفعله الذين فى قلوبهم زيغ ، أعاذنا الله وعصمنا من ذلك بمنه وكرمه وفضله ، إنه سميع مجيب .

﴿ نُمرُّها صريحة كما أتت — مع اعتقادنا لما له اقتضت ﴾

﴿ من غير تحريف ولا تعطيل — وغير تكييف ولا تمثيل ﴾

﴿ بل قولنا قول أئمة الهدى — طوبى لمن بهديهم قد اهتدى ﴾

أى جميع آيات الاسماء والصفات وأحاديثها (نمرها صريحة) أى على ظواهرها (كما أتت) عن الله تعالى ، وعن رسوله ﷺ بنقل العدل عن العدل متصلا إلينا كالشمس فى وقت الظهيرة صحوا ليس دونها سحاب ، (مع اعتقادنا) إيمانا وتسليما (لما له اقتضت) من أسماء ربنا تبارك وتعالى وصفات كماله ونعوت جلاله كما يليق بعظمته وعلى الوجه الذى ذكره وأراده (من غير تحريف) لألفاظها كمن قال فى قوله تعالى ﴿ **وكلم الله موسى تكليما** ﴾ أن التكليم من موسى ، وأن لفظ الجلالة منصوب على المفعولية فرارا من إثبات الكلام كما فعله بعض الجهمية والمعتزلة ، وقد عرض ذلك على أبى بكر بن عياش فقال أبو بكر : ما قرأ هذا إلا كافر ، قرأت على الأعمش وقرأ الأعمش على يحيى بن وثاب وقرأ يحيى بن وثاب على أبى عبد الرحمن السلمى وقرأ أبو عبد الرحمن السلمة على على بن أبى طالب وقرأ على بن أبى طالب على رسول الله ﷺ ﴿**وكلم الله موسى تكليما** ﴾ يعنى برفع لفظ الجلالة على الفاعليه ، وهو مجمع عليه بين القراء ، روى ذلك ابن مردويه عن عبد الجبار بن عبد الله بن عياش رحمه الله تعالى . وروى ابن كثير أن بعض المعتزلة قرأ على بعض المشايخ ﴿ **وكلم الله موسى تكليما** ﴾ فقال له يا ابن اللخناء كيف تصنع بقوله تعالى ﴿ **ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربُّه** ﴾ يعنى أن هذا لا يقبل التحريف ولا التأويل . وكما قال جهم بن صفوان لعنه الله فى قوله تعالى ﴿**الرحمن على العرش استوى** ﴾ حيث قال : لو وجدت سبيلا إلى حكها لحككتها ولأبدلتها استولى . وله فى ذلك سلف اليهود فى تحريف الكلم عن مواضعه حيث قال الله تعالى لهم ﴿ **وادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة** ﴾ فدخلوا يزحفون على أستاههم وقالوا «حنطة » فخالفوا ما أمرهم الله به من الدخول سجدا وبدلوا قولا غير الذى قيل لهم فكان

جزاؤهم ما ذكره الله تعالى حيث يقول ﴿ **فبدل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا من السماء بما كانوا يفسقون** ﴾ وجعلهم الله عبرة لمن بعدهم ، فمن فعل كما فعلوا فسبيله سبيلهم كما مضت سنة الله بذلك ﴿**أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة فى الزبر** ﴾ .

و (من غير تحريف) لمعانيها كما فعله الزنادقة أيضا كتأويلهم « نفسه » تعالى بالغير وأن إضافتها إليه كإضافة بيت الله وناقة الله ، فعلى هذا التأويل يكون قوله تعالى ﴿**ويحذركم الله نفسه** ﴾ أى غيره وقوله ﴿ **كتب ربكم على نفسه الرحمة** ﴾ أى على غيره، ويكون قوله تعالى عن عيسى ﴿ **تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك** ﴾ أى ولا أعلم ما فى غيرك ، ويكون قوله تعالى لموسى ﴿ **واصطنعتك لنفسى** ﴾ أراد واصطنعتك لغيرى ، وهذا لا يقوله عاقل ، بل ولا يتوهمه ولا يقوله إلا كافر ، وكتأويلهم « وجهه » تعالى بالنفس مع جحودهم لها كما تقدم ، فانظر لتناقضهم البين ، وهذا يكفى حكايته عن ردّه . أما من أثبت النفس وأول الوجه بذلك فيقال له : إن الله تعالى قال ﴿ **ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام** ﴾ فذكر الوجه مرفوعا على الفاعلية ولفظ ربّ مجرورا بالاضافة وذكر ذو مرفوعا بالتبعية نعتا لوجه ، فلو كان الوجه هو الذات لكانت القراءة « ويبقى وجه ربك ذى الجلال والاكرام » بالياء لا بالواو كما قال تعالى ﴿ **تبارك اسم ربك ذى الجلال والاكرام**﴾ فخفضه لما كان صفة للرب فلما كانت القراءة فى الاية الأولى بالرفع إجماعا تبين أن الوجه صفة للذات ليس هو الذات ، ولما رأى آخرون منهم فساد تأويلهم بالذات أو الغير لجأوا إلى طاغوت المجاز فعدلوا إلى أن تأويله به أولى وأنه كما يقال « وجه الكلام » و « وجه الدار » و « وجه الثوب » ونحو ذلك ، فتكلفوا الكذب على الله تعالى وعلى رسوله ﷺ كل التكلف ثم نكسوا على رءوسهم فوقعوا فيما فروا منه ، فيقال لهم: أليس الثوب والدار والكلام مخلوقات كلها وقد شبهتم وجه الله تعالى بذلك ؟ فأين الفكاك والخلاص ولات حين مناص ﴿ **وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين** ﴾ وكما أولوا اليد بالنعمة واستشهدوا بقول العرب « لك يد عندى » أى نعمة فعلى هذا التأويل يكون قوله تعالى ﴿ **بل يداه مبسوطتان** ﴾ يعنى نعمتاه فلم يثبتوا لله إلا نعمتين والله تعالى يقول ﴿ **ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة** ﴾ ويكون قوله تعالى ﴿ **لما خلقت بيدى** ﴾ أراد بنعمتى، فأى فضيلة لآدم على غيره على هذا التأويل ، وهل من أحد لم يخلقه الله بنعمته؟ ويكون قوله تعالى ﴿ **والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه** ﴾ أراد مطويات بنعمته ، فهل يقول هذا عاقل ؟ وقال آخرون منهم « بقوّته » استشهادا بقوله تعالى ﴿ **والسماء**

بنيناها بأيد ﴾ أى بقوة فيقال لهم : أليس كل مخلوق خلقه الله بقوة ؟ فعلى هذا ما معنى قوله عز وجل ﴿ **ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى** ﴾ وأى فضل لآدم على إبليس إذ كل منهما خلقه الله بقوته ؟ وما معنى قوله تعالى للملائكة : لا أجعل صالح ذرية من خلقت بيدى كمن قلت له كن فكان . أفلم يخلق الملائكة بقوته، وأى فضل لآدم عليهم إن لم يكن خلقه الله بيده التى هى صفته ، نبئونى بعلم إن كنتم صادقين . وكما تأولوا الاستواء بالاستيلاء واستشهدوا ببيت مجهول مروى على خلاف وجهه وهو ما ينسب إلى الأخطل النصرانى :

قد استوى بشر على العراق   مـن غير سيـف ودم مهراق

فعدلوا عن أكثر من ألف دليل من التنزيل إلى بيت ينسب إلى بعض العلوج ليس على دين الاسلام ولا على لغة العرب ، فطفق أهل الأهواء يفسرون به كلام الله عز وجل ويحملونه عليه ، مع إنكار عامة أهل اللغة لذلك وأن الاستواء لا يكون بمعنى الاستيلاء بوجه من الوجوه البتة . وقد سئل ابن الأعرابى وهو إمام أهل اللغة فى زمانه فقال : العرب لا تقول للرجل استولى على الشيء حتى يكون له فيه مضاد ، فأيهما غلب قيل استولى ، والله سبحانه وتعالى لا مغالب له ا هـ . وقد فسر السلف الاستواء بعدة معان بحسب أداته المقترنة به ، وبحسب تجريده عن الأداة ، ولم يذكر أحد منهم أنه يأتى بمعنى الاستيلاء حتى انتحل ذلك أهل الأهواء والبدع لا باشتقاق صغير ولا كبير ، بل باستنباط مخترع وافق الهوى المتبع . وقد بسط القول فى رد ذلك ابن قيم الجوزية رحمه الله فى كتابه الصواعق وبين بطلانه من نيّف وأربعين وجها فليراجع . وكما أولوا أحاديث النزول إلى سماء الدنيا بأنه ينزل أمره ، فيقال لهم : أليس أمر الله تعالى نازلا فى كل وقت وحين ؟ فماذا يخص السحرَ بذلك ؟ وقال آخرون : ينزل ملك بأمره ، فنسب النزول إليه تعالى مجازا . فيقال لهم : فهل يجوز على الله تعالى أن يرسل من يدعى ربوبيته ، وهل يمكن للملك أن يقول « لا أسأل عن عبادى غيرى ، من ذا الذى يسألنى فأعطيه ، من ذا الذى يستغفرنى فأغفر له » وهل قصرت عبارة النبى ﷺ عن أن يقول ينزل ملك بأمر الله فيقول إن الله تعالى يقول لكم كذا ، أو أمرنى أن أقول لكم كذا حتى جاء بلفظ مجمل يوهم بزعمكم ربوبية الملك ، لقد ظننتم بالله تعالى ورسوله ﷺ ظن السوء وكنتم قوما بوراً . وكما أولوا المجيء لفصل القضاء بالمجاز فقالوا يجيء أمره واستدلوا بقوله تعالى ﴿ **هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتى أمر ربك** ﴾ فقالوا فى قوله تعالى ﴿ **هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله** ﴾ فقالوا هو من مجاز الحذف والتقدير يأتى أمر الله . فيقال لهم : أليس قد اتضح ذلك غاية الاتضاح أن مجيء ربنا عز وجل غير مجيء أمره وملائكته ، وأنه يجيء

حقيقة ، ومجيء أمره حقيقة ، ومجيء ملائكته حقيقة ، وقد فصل تعالى ذلك وقسمه ونوعه تنويعا يمتنع معه الحمل على المجاز فذكر تعالى فى آية البقرة مجيئه ومجيء الملائكة وكذا فى آية الفجر ، وذكر فى النحل مجيء ملائكته ومجيء أمره ، وذكر فى آية الأنعام إتيانه وإتيان ملائكته وإتيان بعض آياته التى هى من أمره . ثم يقال : ما الذى يخص إتيان أمره بيوم القيامة ؟ أليس أمره آتيا فى كل وقت ، متنزلا بين السماء والأرض بتدبير أمور خلقه فى كل نفس ولحظة ﴿ **يسأله من فى السموات والأرض كل يوم هو فى شأن**﴾.
وتأولوا النظر إلى الله عز وجل فى الدار الآخرة بالانتظار قالوا إنه كقوله ﴿ **انظرونا نقتبس من نوركم** ﴾ فيقال لهم : أليس إذا كان بمعنى الانتظار تعدى بنفسه لا يحتاج إلى أداة كما فى قوله ﴿ **انظرونا** ﴾ ألم يضف الله تعالى النظر إلى الوجوه التى فيها الإبصار ، ويعدّه بإلى التى تفيد المعاينة بالبصر عند جميع أهل اللغة ﴿ **قل أأنتم أعلم أم الله** ﴾ ، أولم يفسره النبى ﷺ بالرؤية الجلية عيانا بالأبصار فى أكثر من خمسين حديثا صحيحا : حتى شبه تلك الرؤية برؤيتنا الشمس صحوا ليس دونها سحاب ، تشبيها للرؤية بالرؤية ، لا للمرئى بالمرئى ، ولم يزل الصحابة مؤمنين بذلك ، ويحدّثون به من بعدهم من التابعين ، وينقله التابعون إلى من بعدهم وهلم جرا ، فنحن أخذنا ديننا عن حملة الشريعة ، عن الصحابة ، عن النبى ﷺ . فأنتم عمن أخذتم ؟ ومن شبهاتهم فى نفى الرؤية استدلالهم بقوله عز وجل ﴿ **لا تدركه الأبصار** ﴾ وهذه الآية فيها عن الصحابة تفسيران : أولهما لا يرى فى الدنيا ، وهو مروى عن عائشة رضى الله عنها ، وبذلك نفت أن يكون رسول الله ﷺ رأى ربه ليلة المعراج . ثانيهما تفسير ابن عباس رضى الله عنهما ﴿ **لا تدركه** ﴾ أى لا تحيط به ، فالنفى للاحاطة لا للرؤية ، وهذا عام فى الدنيا والآخرة . ولم ينقل عن أحد من الصحابة من طريق صحيح ولا ضعيف أنه أراد بذلك نفى الرؤية فى الآخرة ، فهذا تفسير الراسخين فى العلم الذين يعلمون تأويل الكتاب هل بينهم من أحد فسر الآية بما افتريتموه ؟ ومن إفكهم ادعاؤهم معنى التأبيد فى نفى ﴿ **لن ترانى** ﴾ حتى كذبوا على رسول الله ﷺ حديثا مختلقا لفظه : لن ترانى فى الدنيا ولا فى الآخرة ، وهو موضوع مكذوب على النبى ﷺ باتفاق أئمة الحديث والسنة ، ولم يقل أحد من أئمة اللغة العربية ان نفى « لن » للتأبيد مطلقا إلا الزمخشرى من المتأخرين قال ذلك ترويجا لمذهبه فى الاعتزال وجحود صفات الخالق جل وعلا ، وقد ردّه عليه أئمة التفسير كابن كثير وغيره ، ورده ابن مالك فى الكافية حيث قال :

ومن يرى النفى بلن مؤبدا فقوله اردد وسواه فاعضدا

والقائل لموسى ﴿ **لن ترانى** ﴾ هو المتجلى للجبل حتى اندك ، وهو الذى وعد

المؤمنين ﴿ الحسنى وزيادة ﴾ وهو الذى قال ﴿ وجوه يومئذ ناضرة ، إلى ربها ناظرة﴾ فاتضح بذلك أن قوله لموسى ﴿ لن ترانى ﴾ إنما أراد عدم استطاعته رؤيه الله تعالى فى هذه الدار لضعف القوى البشرية فيها عن ذلك كما قرر تعالى ذلك بقوله جل جلاله ﴿ ولكن انظر إلى الجبل فان استقرّ مكانه فسوف ترانى . فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخرّ موسى صعقا ﴾ الآية ، فاذا لم يثبت الجبل لتجلى الله تعالى فكيف يثبت موسى لذلك وهو بشر خلق من ضعف ؟ وأما فى الآخرة فيخلق الله تعالى فى أوليائه قوة مستعدة للنظر إلى وجهه عز وجل ، وبهذا تجتمع نصوص الكتاب والسنة وتأتلف كما هو مذهب أهل السنة والجماعة ، وأما من اتبع هواه بغير هدى من الله ، ونصب الخصام أو الجدال والمعارضة بين نصوص الكتاب والسنة ، واتبع ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله ، وضرب كتاب الله بعضه ببعض وآمن ببعض وكفر ببعض وشاقّ الرسول من بعد ما تبين له الهدى واتبع غير سبيل المؤمنين ، وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله ؟ أعاذنا الله وجميع المؤمنين من ذلك . ولا يتأتى لأحد من أهل التأويل مراده ولا يستقيم له تأويله إلا بدفع النصوص بعضها ببعض لا محالة ولا بد ، فان كتاب الله تعالى يصدق بعضه بعضا لا يكذبه كما هو مصدق لما بين يديه من الكتاب ومهيمن عليه . وكذلك سنة النبى ﷺ تبين الكتاب وتوضحه وتفسره وتدل عليه وترشد إليه ، ولا يشك فى ذلك ولا يرتاب فيه إلا من اتخذ إلهه هواه ، وأدلى بشبهاته لغرض ﴿ بل الذين كفروا فى تكذيب ، والله من ورائهم محيط ﴾ وهذا دأبهم فى جميع نصوص الأسماء والصفات . وإنما ذكرنا هذه الجملة مثالا وتنبيها على ما وراء ذلك ، فمن عوفى فليحمد الله ، فالحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

(ولا تعطيل) أى للنصوص بنفى ما اقتضته من صفات كمال الله تعالى ونعوت جلاله فان نفى ذلك من لازمه نفى الذات ووصفه بالعدم المحض ، إذ مالا يوصف بصفة هو العدم ، تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون علوا كبيرا . ولهذا قال السلف الصالح رحمهم الله تعالى فى الجهمية : إنهم يحاولون أن يقولوا ليس فى السماء إله يعبد وذلك لجحودهم صفات كماله ونعوت جلاله التى وصف بها نفسه ووصفه بها رسول الله ﷺ ، وذلك يتضمن التكذيب بالكتاب والسنة ، والافتراء على الله كذبا ﴿ فمن أظلم ممن كذب على الله وكذّب بالصدق إذ جاءه أليس فى جهنم مثوى للكافرين ، والذى جاء بالصدق وصدّق به أولئك هم المتقون . لهم ما يشاءون عند ربهم كذلك جزاء المحسنين . ليكفّر الله عنهم أسوأ الذى عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذى كانوا

يعملون ﴾ .

(وغير تكييف) تفسير لكُنْه شيء من صفات ربنا تعالى كأن يقال استوى على هيئة كذا ، أو ينزل إلى السماء بصفة كذا ، أو تكلم بالقرآن على كيفية كذا ونحو ذلك من الغلو في الدين والافتراء على الله عز وجل واعتقاد ما لم يأذن به الله ولا يليق بجلاله وعظمته ولم ينطق به كتاب ولا سنة ، ولو كان ذلك مطلوبا من العباد في الشريعة لبينه الله تعالى ورسوله ﷺ ، ولم يدع ما بالمسلمين إليه حاجة إلا بينه ووضحه ، والعباد لا يعلمون عن الله تعالى إلا ما علمهم كما قال تعالى ﴿ **ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء**﴾ وقال تعالى ﴿ **يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما** ﴾ فليؤمن العبد بما علمه الله تعالى وليقف معه كهذه الصفات الثابتة في الكتاب والسنة ، وليمسك عما جهله وليكل معناه إلى عالمه ككيفيتها ﴿ **وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا**﴾ .

(ولا تمثيل) أي ومن غير تشبيه لشيء من صفات الله بصفات خلقه ، فكما أنا نثبت له ذاتها لا نشبه الذوات فكذلك نثبت له ما أثبت لنفسه من الأسماء والصفات ونعتقد تنزهه وتقدسه عن مماثلة المخلوقات ﴿ **ليس كمثله شيء وهو السميع البصير** ﴾ . وإذا كان القول على الله بلا علم في أحكام الشريعة هو أقبح المحرمات كما قال تعالى ﴿**قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون** ﴾ فكيف بالقول على الله بلا علم في إلهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته من تشبيه خلقه به أو تشبيهه بخلقه في اتخاذ الانداد معه وصرف العبادة لهم ، وإن اعتقاد تصرفهم في شيء من ملكوته تشبيه للمخلوق بالخالق ، كما أن تمثيل صفاته تعالى بصفات خلقه تشبيه للخالق بالمخلوق ، وكلا التشبيهين كفر بالله عز وجل أقبح الكفر ، وقد نزه الله تعالى نفسه عن ذلك كله في كتابه كما قال تعالى ﴿ **قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد** ﴾ وقال تعالى ﴿ **رب السموات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميا** ﴾ وقال تعالى ﴿ **فاطر السموات والأرض ، جعل لكم من أنفسكم أزواجا ومن الأنعام أزواجا يذرؤكم فيه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير** ﴾ وقال تعالى ﴿**للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء ولله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم** ﴾ وقال تعالى ﴿ **فلا تضربوا لله الأمثال إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون** ﴾ وغير ذلك من الآيات ، بل جميع القرآن من أوله إلى خاتمته في هذا المعنى ، بل لم يرسل الله تعالى رسله ولم ينزل كتبه إلا بذلك ﴿ **والله يقول الحق وهو يهدى السبيل** ﴾ .

(بل قولنا) الذى نقوله ونعتقده وندين الله به هو (قول أئمة الهدى) من الصحابة والتابعين فمن بعدهم من الأئمة كأبى حنيفة ومالك والأوزعى والثورى وابن عيينة والليث ابن سعد وحماد بن زيد وحماد بن سلمة والشافعى وأحمد واسحاق بن راهويه وأصحاب الأمهات الست وغيرهم من أئمة المسلمين قديما وحديثا الذين قضوا بالحق وبه كانوا يعدلون ، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل . والظاهر المتبادر إلى أذهان المشبهين منفى عن الله عز وجل فان الله تعالى لا يشبهه شيء من خلقه وليس كمثله شيء وهو السميع البصير ، بل الأمر كما قال الأئمة تفسيرها قراءتها ، وقل نعيم بن حماد الخزاعي شيخ البخارى رحمهما الله تعالى : من شبه الله بخلقه فقد كفر ، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر ، وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه ، فمن أثبت لله تعالى ما أثبته لنفسه مما وردت به الايات الصريحة ووصفه به رسوله ﷺ مما ورد في الأخبار الصحيحة على الوجه الذى يليق بجلال الله وعظمته ونفى عن الله النقائص فقد سلك سبيل الهدى . وقال الامام الشافعي رحمه الله تعالى : آمنا بالله وبما جاء عن الله على مراد الله ، وآمنا برسول الله وبما جاء عن رسول الله على مراد رسول الله ﷺ . وقال أيضا رحمه الله : لله تعالى أسماء وصفات جاء بها كتابه وأخبر بها نبيه ﷺ أمته لا يسع أحدا من خلق الله قامت عليه الحجة ردها ، لأن القرآن نزل بها وصح عن رسول الله ﷺ القول بها فيما روى عنه العدول فان خالف ذلك بعد ثبوت الحجة عليه فهو كافر أما قبل ثبوت الحجة عليه فمعذور بالجهل ، لأن علم ذلك لا يدرك بالعقل ولا بالرؤية والفكر ولا يكفر بالجهل بها أحد إلا بعد انتهاء الخبر إليه بها وتثبت هذه الصفات وينفى عنها التشبيه كما نفى التشبيه عن نفسه تعالى فقال سبحانه ﴿ **ليس كمثله شيء وهو السميع البصير** ﴾ . وقال الامام أحمد رحمه الله : ليس كمثله شيء فى ذاته كما وصف نفسه ، قد أجمل الله الصفة فحد لنفسه صفة : ليس يشبهه شيء . وصفاته غير محدودة ولا معلومة إلا بما وصف به نفسه . قال فهو سميع بصير بلا حد ولا تقدير ، ولا يبلغ الواصفون صفته ، ولا نتعدى القرآن والحديث ، فنقول كما قال ونصفه بما وصف به نفسه ولا نتعدى ذلك ولا يبلغ صفته الواصفون ، نؤمن بالقرآن كله محكمه ومتشابهه ولا نزيل عنه صفة من صفاته بشناعة شنعت . وما وصف به نفسه من كلام ونزول وخلوة بعبده يوم القيامة ووضعه كنفه عليه ، فهذا كله يدل على أن الله سبحانه وتعالى يرى فى الآخرة ، والتحديد في هذا كله بدعة ، والتسليم فيه بغير صفة ولا حدّ إلا ما وصف به نفسه : سميع ، بصير ، لم يزل متكلما ، عالما ، غفورا ، عالم الغيب والشهادة ، علام الغيوب . فهذه صفات وصف بها نفسه لا تدفع ولا تردّ ، وهو على العرش بلا حدّ كما

قال تعالى ﴿ ثم استوى على العرش ﴾ كيف شاء المشيئة إليه والاستطاعة إليه ليس كمثله شيء وهو خالق كل شيء وهو سميع بصير بلا حدّ ولا تقدير ، لا نتعدى القرآن والحديث، تعالى الله عما يقول الجهمية والمشبهة . قلت له : والمشبه ما يقول ؟ قال من قال بصر كبصرى ، ويد كيدى ، وقدم كقدمى فقد شبه الله تعالى بخلقه . انتهى .
وكلام أئمة السنة فى هذا الباب يطول ، وقد تقدم كثير منه فى الاستواء والكلام والنزول والرؤية وغير ذلك .

(طوبى لمن بهديهم قد اهتدى) إذ هم خير القرون وأعلم الأمة بشريعة الاسلام وأولاهم باتباع الكتاب والسنة واقتفاء آثار رسول الله ﷺ ، وبهم حفظ الله الدين على من بعدهم ، فرحمهم الله ورضى عنهم وأرضاهم وألحقنا بهم سالمين غير مفتونين إنه سميع الدعاء .

﴿ وسم ذا النوع من التوحيد　　　توحيد إثبات بلا ترديد ﴾

﴿ قد أفصح الوحى المبين عنه　　　فالتمس الهدى المنير منه ﴾

(وسم ذا النوع) والاشارة بذا إلى ما تقدم من قوله « إثبات ذات الرب » إلى هنا وما يدخل فى ذلك من معانى الربوبية والأسماء والصفات (من) نوعى (التوحيد) المشار إليهما بقول : وهو نوعان (توحيد إثبات) لاشتماله على إثبات ما أثبته الله تعالى لنفسه فى كتابه وأثبته له رسوله ﷺ ومن قبله من الأنبياء والمرسلين من معانى ربوبيته ومقتضى أسمائه وصفاته ونفى ما يناقض ذلك كما نفاه عن نفسه تبارك وتعالى ، فنؤمن بالله تعالى وبما أخبر به عن نفسه سبحانه على ألسنة رسله من صفات كماله ونعوت جلاله بلا تكييف ولا تمثيل ، وننفى عنه ما نفاه عن نفسه مما لا يليق بجلاله وعظمته فانه أعلم بنفسه وبغيره وأصدق قيلا وأبين دليلا من غيره ، وقد عكس الزنادقة الأمر فنفوا عنه ما أثبته تعالى لنفسه من الأسماء الحسنى والصفات العلى ، وأثبتوا له ما نزه نفسه من أضداد ما تقتضى أسماؤه وصفاته ، وكذبوا بالكتاب وبما أرسل الله به رسله ، وبدلوا قولا غير الذى قيل لهم فبعداً لقوم لا يؤمنون .

(فائدة)

قال الحافظ الذهبى رحمه الله تعالى : المتأخرون من أهل النظر قالوا مقالة مولدة ما علمت أحدا سبقهم بها ، قالوا : هذه الصفات تمرُّ كما جاءت ولا تؤوَّل مع اعتقاد أن ظاهرها غير مراد . فتفرّع من هذا أن الظاهر يعنى به أمران : أحدهما أنه لا تأويل لها غير دلالة الخطاب كما قال السلف الصالح : الاستواء معلوم ، وكما قال سفيان وغيره :

قراءتها تفسيرها ، يعني أنها بينة واضحة في اللغة لا يبتغى بها مضايق التأويل والتحريف ، وهذا هو مذهب السلف مع اتفاقهم أيضا أنها لا تشبه صفات البشر بوجه ، إذ البارى لا مثل له لا في ذاته ولا في صفاته . الثانى أن ظاهرها هو الذى يتشكل في الخيال من الصفة كما يتشكل في الذهن من وصف البشر ، فهذا غير مراد ، فإن الله تعالى فرد صمد ليس له نظير ، وإن تعددت صفاته فانها حق ، ولكن ما لها مثل ولا نظير ، فمن ذا الذى عاينه ونعته لنا ، ومن ذا الذى يستطيع أن ينعت لنا كيف سمع موسى كلامه ؟ والله إنا لعاجزون كالون حائرون باهتون في حد الروح التى فينا وكيف تعرج كل ليلة إلى بارئها ، وكيف يرسلها ، وكيف تستقل بعد الموت ، وكيف حياة الشهيد المرزوق عند ربه بعد قتله ، وكيف حياة النبيين الآن ، وكيف شاهد النبى ﷺ أخاه موسى يصلى في قبره قائما ، ثم رآه في السماء السادسة وحاوره وأشار إليه بمراجعة رب العالمين وطلب التخفيف منه على أمته ، وكيف ناظر موسى أباه آدم وحجه آدم بالقدر السابق وبأن اللوم بعد التوبة وقبولها لا فائدة فيه ، وكذلك نعجز عن وصف هيئتنا في الجنة ووصف الحور العين ، فكيف بنا إذا انتقلنا إلى الملائكة وذواتهم وكيفيتها وأن بعضهم يمكنه أن يلتقم الدنيا في لقمة مع رونقهم وحسنهم وصفاء جوهرهم النورانى ، فالله أعلى وأعظم ، وله المثل الأعلى والكمال المطلق ولا مثل له أصلا ﴿ **آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون** ﴾ انتهى كلامه بحروفه . قلت قوله : من ذا الذى عاينه فنعته ، هذا لا معنى له ، فان المؤمنين يرونه تعالى في الجنة عيانا بأبصارهم ولا يستطيع أحد منهم نعته تعالى ﴿ **لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار** ﴾ ، ﴿**ولا يحيطون به علما** ﴾ وكان حقه أن يقول : من ذا الذى أحاط به علما فنعته ، وقوله الثانى أن ظاهرها الذى يتشكل في الخيال الخ قد قدمنا أن هذا التصور الفاسد هو الذى يعمل جهلة النفاة على ما صنعوا من النفى حين لم يفهموا من ظاهرها إلا ما يقوم بالمخلوق ولم يتدبروا من هو الموصوف فأساءوا الظن بالوحى ثم قاسوا وشبهوا بعد أن فكروا وقدروا ثم نفوا وعطلوا ، فسحقا لأصحاب السعير .

(قد أفصح الوحى المبين) من الكتاب والسنة وكذلك الصحف الأولى (عنه) غاية الإفصاح وشرحه الله تبارك وتعالى أكثر من شرح بقية الأحكام لعظم شأن متعلقه ، (فالتمس) اطلب (الهدى المنير) أى من الوحى المبين لأنه لا سبيل إلى معرفة ذلك إلا منه ، ومن خرج عن الوحى مثقال ذرة ضل وغوى ولابد ، فانا لا نعلم من علم الله سبحانه إلا ما علمنا هو ، فنصدق بما أخبر به عن نفسه وأخبرت به رسله عنه كما ننقاد ونسلم ونمتثل لما أمر ، ونجتنب ما نهى عنه وزجر ، بل إن تأويل الأمر والنهى أخف جرما من تأويل معانى الربوبية والأسماء والصفات والتكذيب بالبعث والنشور والوعد والوعيد دون

التكذيب بما أخبر الله به عن نفسه من الأسماء الحسنى والصفات العلى وأخبرت عنه به رسله من ذلك مع أن جرم كل منهما عظيم . أعاذنا الله وجميع المسلمين من الزيغ والضلال ، آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون .

﴿ لا تتبع أقوال كل مارد   غاو مضل مارق معاند ﴾

﴿ فليس بعد رد ذا التبيان   مثقال ذرة من الإيمان ﴾

(لا تتبع) أيها العبد (أقوال كل مارد) على بدعته وزندقته واتباع هواه . (غاو) زائغ في دينه مفتون في عقيدته (مضل) لغيره (مارق) من الاسلام (معاند) لنصوص الكتاب والسنة وما دلت عليه . مكذب بالكتاب وبما أرسل اليه به رسله ، (فليس) يبقى (بعد رد ذا التبيان) الذى جاء في الكتاب والسنة من الايات المحكمة الصريحة والأحاديث الثابتة الصحيحة (مثقال ذرة من الايمان) في قلب من رد ذلك لأن الله تعالى هو الحق وقوله الحق ﴿ وماذا بعد الحق إلا الضلال ﴾ وقال تعالى ﴿ وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق واتخذوا آياتي وما أنذروا هزوا﴾ وقال تعالى ﴿ ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم في البلاد﴾ وقال تعالى ﴿ إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا ﴾ وقال تعالى ﴿ويوم نحشر من كل أمة فوجا ممن يكذب بآياتنا فهم يوزعون . حتى إذا جاءوا قال أكذبتم بآياتي ولم تحيطوا بها علما أم ماذا كنتم تعملون . ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون ﴾ وهذه الآيات يدخل فيها كل مكذب بأى شيء من الكتاب ، فكيف إذا كذب بصفات منزل الكتاب ، بل جحد أن يكون الله تعالى تكلم بالكتاب ، ألا لعنة الله على الظالمين .

فصـــــــل

والملاحدة في توحيد المعرفة والاثبات فرق كثيرة وأشياع متفرقة ، ولكن رءوسهم خمس طوائف : الأولى سلبية محضا يثبتون إثباتا هو عين النفي ويصفون البارى تعالى بصفات العدم المحض الذى ليس هو بشيء البتة ، وليس له عندهم حقيقة غير أنهم يقولون هو موجود لا داخل العالم ولا خارجا عنه ولا مباينا له ولا محايثا وليس على العرش ولا غيره ولا يثبتون له ذاتا ولا اسما ولا صفة ولا فعلا بل ذلك عندهم هو عين الشرك ، وهذا هو الذى صرح به غلاة الجهمية ، وقد كان قدماؤهم يتحاشون عنه ويتسترون منه ، وكان السلف من أئمة الحديث يتفرسون فيهم ذلك وأنهم يبطنونه ولا يبوحون به ، وقد قدمنا عن جماعة من السلف قولهم في الجهمية : إنما يحاولون أن يقولوا ليس في السماء

إله يعبد ، ويقول بعضهم : إنهم يزعمون أن إلهك الذى فى السماء ليس بشىء ، ولكنه لم يصرح بذلك ويظهره إلا ابن سينا صاحب الإشارات تلميذ الفارابى ، وهو منسوب إلى أرسطو اليونانى ، وهو يرجع إلى مذهب الدهرية الطبائعية فى المعنى ، وهو الذى نصره الملحد الكبير نصير الشرك الطوسى وأشباهه ، قبحهم الله تعالى .

الطائفة الثانية الحلولية الذين يزعمون أن معبودهم فى كل مكان بذاته ينزهونه عن استوائه على عرشه وعلوه على خلقه ، ولم يصونوه عن أقبح الأماكن وأقذرها ، وهؤلاء هم قدماء الجهمية الذين تصدى للرد عليهم أئمة الحديث كأحمد بن حنبل وغيره ، ولهذا قال جهم بن صفوان لما ناظره السمنية فى ربه وحار فى ذلك ففكر وقدر فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر فقال : هو هذا الهواء الذى هو فى كل مكان ، وكذلك كان يقول كثير من أتباعه ، ولم يكن ولا هم يريدون ذلك وإنما كانوا يتوسلون به إلى السلب المحض والتعطيل الصرف كما فهمه منهم أئمة الاسلام رحمهم الله كلما أفصحوا به من نفى أسماء البارى وصفاته وكلامه ورؤيته فى الدنيا والآخرة وأفعاله وحكمته وغير ذلك كما تقدم حكايته عنهم قريبا ورد شبهاتهم الداحضة .

الطائفة الثالثة الاتحادية وهم القائلون : إن الوجود بأسره هو الحق ، وأن الكثرة وهمٌ ، بل جميع الاضداد المتقابلة والأشياء المتعارضة الكل شىء واحد هو معبودهم فى زعمهم، وهم طائفة ابن عربى الطائى صاحب الفتوحات المكية وفصوص الحكم وغيرهما مما حرف فيه الكلم عن مواضعه وتلاعب فيه بمعانى الايات وأتى بكفر لا يشبه كفر اليهود الذين قالوا عزير ابن الله ، ولا النصارى الذين قالوا المسيح ابن الله وقالوا هو الله وقالوا ثالث ثلاثة، فان النصارى وأشباههم خصوا الحلول والاتحاد بشخص معين وهؤلاء جعلوا الوجود بأسره على اختلاف أنواعه وتقابل أضداده مما لا يسوغ التلفظ بحكايته هو المعبود ، فلم يكفر هذا الكفر أحد من الناس ، وكان هذا المذهب الذى انتحله ابن عربى ونظمه ابن الفارض فى تائيته (نظم السلوك) ، وأصل هذا المذهب الملعون انتحله ابن سبعين عبد الحق بن إبراهيم بن محمد بن نصر بن محمد نصر بن محمد بن قطب الدين أبو محمد المقدسى الرقوطى نسبة إلى رقوطة بلدة قريبة من مرسية ، ولد سنة أربع عشرة وستمائة واشتغل بعلم الأوائل والفلسفة فتولد له الإلحاد من ذلك وصنف فيه ، وكان يعرف السيمياء ويلبس بذلك على الأغبياء من الأمراء والأغنياء ، ويزعم أنه حال من أحوال القوم. وله من المصنفات كتاب البدو ، وكتاب الهو . وقد أقام بمكة واستحوذ على عقل صاحبها أبى نميّ ، وجاور فى بعض الأوقات بغار حراء يرتجى فيه الوحى أن ينزل عليه كما أتى النبى ﷺ بناء على ما يعتقده من العقيدة الفاسدة من أن النبوة مكتسبة وأنها فيض يفيض على

العقل إذا صفا فما حصل له إلا الخزى فى الدنيا والآخرة إن كان مات على ذلك ، وكان إذا رأى الطائفين حول البيت يقول عنهم كأنهم الحمير حول المدار وأنهم لو طافوا به كان أفضل من طوافهم بالبيت ، فالله يحكم فيه وفى أمثاله ، وقد نقلت عنه عظائم من الأقوال والأفعال . توفى يوم ثمانية وعشرين من شوال سنة تسع وستين وستمائة .

الطائفة الرابعة نفاة القدر وهم فرقتان : فرقة نفت تقدير الخير والشر بالكلية وجعلت العباد هم الخالقين لأفعالهم خيرها وشرها ، ولازم هذا القول أنهم الخالقون لأنفسهم لأن فى قولهم نفى تصرف الله فى عباده وإخراج أفعالهم عن خلقه وتقديره ، فيكون تكونهم من التراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة إلى آخر أطوار التخليق هم بأنفسهم تطوروا ، وبطبيعتهم تخلقوا ، وهذا راجع إلى مذهب الطبائعية الدهرية الذين لم يثبتوا خالقا أصلا كما قدمنا مناظرة أبى حنيفة لبعضهم فأسلموا على يديه . وفرقة نفت تقدير الشر دون الخير فجعلوا الخير من الله وجعلوا الشر من العبد ، ثم منهم من ينفى تقدير الشر من أعمال العباد دون تقديره فى المصائب ، ومنهم من غلا فنفى تقدير الشر من المصائب والمعايب . وعلى كل حال فقد أثبتوا مع الله تعالى خالقا بل جعلوا العباد معه خالقين كلهم ، ونفوا أن يكون الله هو المتفرد بالتصرف فى ملكوته ، وهذا راجع إلى مذهب المجوس الثنوية الذين أثبتوا خالقين خالقا للخير وخالقا للشر قبحهم الله تعالى .

الطائفة الخامسة الجبرية الذين يعتقدون أن العبد مجبور على أفعاله قسرا ولا فعل له أصلا بل إثبات الفعل للعبد هو عين الشرك عندهم بل هو كالهاوى من أعلى إلى أسفل وكالسعفة تحركها الريح لم يعمل باختياره طاعة ولا معصية ولم يكلفه الله وسعه بل حمله مالا طاقة له به ، ولم يخلق فيه اختياراً لأفعاله ولا قدرة له عليها بل الطاعة والعصيان من الأقوال والأعمال هى عندهم عين فعل الله عز وجل ، فرفعوا اللوم عن كل كافر وفاسق وعاص وأنه يعذبهم على نفس فعله لا على أعمالهم القبيحة ، ثم اعتقدوا أن المعاصى التى نهى الله عنها فى كتبه وعلى ألسنة رسله إذا عملوها صارت طاعات لأنهم يقولون أطعنا مشيئة الله الكونية فينا ، بل لم يثبتوا الارادة الشرعية البتة ومن يثبتها منهم يقول فى الطاعات أطعنا الارادة الشرعية وفى المعاصى التى سماها الله معاصى أطعنا الارادة الكونية وأما هم فلم يثبتوا معصية أصلا بل أفعالهم جميعا حسنها وقبيحها كلها عندهم طاعات على أصلهم هذا الفاسد ، وفى ذلك رد منهم على الله تعالى أمره ونهيه ووعده ووعيده وفرضه على عباده جهاد الكفار وإقامة الحدود بل فى إرساله الرسل وإنزاله الكتب ، فيجب عندهم تعطيل الشرائع بالكلية والاحتجاج على نفيها بالقدر الكونى ومحاربتها به وإثبات الحجة على الله لكل كافر وفاسق وعاص وهذا كفر لم يسبقهم إليه غير إمامهم إبليس

اللعين إذ يحتج على الله تعالى بحجتهم هذه فقال ﴿ فبما أغويتني ﴾ والعجب أن هذا المذهب المخذول موروث عن جهم بن صفوان مع تناقضه في إثبات أفعال الله عز وجل فانه لا يثبت لله تعالى فعلا يقوم بذاته أصلا بل أفعاله خارجة عنه قائمة بغيره من المخلوقات ، ثم ينقض ذلك بجعله أفعال العباد أفعال الله ، وهذا تناقض بين لكل عاقل فان الفعل إنما يضاف إلى من قام به والقول إلى من قاله وكذا السمع والبصر والقدرة وغيرها محال أن تضاف إلى غير من قامت به ومحال أن يسمى فاعلا بدون فعل يقوم به ، ولو ذهبنا نعد تشعب الفرق من هذه الطوائف ولوازم كل قول مما انتحلوه لاحتاج إلى كتاب مفرد ، وقد أفرد ذلك بالتصنيف غير واحد من الأئمة ، وقد قدمنا البعض من ذلك وذكرنا أمثلة من تحريفهم النصوص ، وسيأتي الكلام على الدهرية في الايمان بالبعث ، وعلى نفاة القدر الغلاة فيه في باب القدر ، والكلام على الخوارج والمرجئة والمعتزلة وأشباههم في باب الايمان والدين ، والكلام على الروافض والنواصب في باب ذكر الصحابة . وهذه الطوائف التي خالفت في توحيد المعرفة والاثبات مرجعها إلى ثلاث : فالحلولية والاتحادية والسلبية ومن في معناهم مرجعهم إلى الطبائعية الدهرية ، والقدرية النفاة بجميع فرقهم مرجعهم إلى المجوس الثنوية ، والجبرية الغلاة مرجعهم إلى النزعة الجهمية الإبليسية وقد قدمنا قول المؤمنين أتباع الرسل مبسوطا بما فيه كفاية .

(فصل) والمخالفون لأهل السنة في القرآن سبع طوائف ذكرهم شيخ الاسلام ابن تيمية في المنهاج وابن القيم في الصواعق وهذا نصه ، قال رحمه الله تعالى :

« فصل . اختلف أهل الأرض في كلام الله تعالى ، فذهب (الاتحادية) القائلون بوحدة الوجود أن كل كلام في الوجود كلام الله نظمه ونثره وحقه وباطله سحره وكفره ، والسب والشتم والهجر والفحش وأضداده كله عين كلام الله تعالى القائم به كما قال عارفهم :

وكل كلام في الوجود كلامه ... سواء علينا نثره ونظامه

وهذا المذهب مبني على أصلهم الذي أصّلوه ، وهو أن الله سبحانه هو عين هذا الوجود ، فصفاته هي صفات الله وكلامه هو كلام الله وأصل هذا المذهب إنكار مسألة المباينة والعلو ، فانهم لما أصّلوا أن الله تعالى غير مباين لهذا العالم المحسوس صاروا بين أمرين لا ثالث لهما إلا المكابرة : أحدهما أنه معدوم لا وجود له ، إذ لو كان موجودا لكان إما داخل العالم وإما خارجا عنه ، وهذا معلوم بالضرورة ، فانه إذا كان قائما بنفسه

فإما أن يكون مباينا للعالم أو محايثا له إما داخلا فيه وإما خارجا عنه . الأمر الثاني أن يكون هو عين هذا العالم ، فانه يصح أن يقال فيه حينئذ انه لا داخل العالم ولا خارجه ولا مباينا له ولا حالا فيه ، إذ هو عينه ، والشيء لا يباين نفسه ولا يحايثها ، فرأوا أن هذا خير من إنكار وجوده والحكم عليه بأنه معدوم ، ورأوا أن الفرار من هذا إلى إثبات موجود قائم بنفسه لا داخل العالم ولا خارجه ولا متصل به ولا منفصل عنه ولا مباين له ولا محايث ولا فوقه ولا عن يمينه ولا عن يساره ولا خلفه ولا أمامه فرارا إلى ما لا يسيغه عقل ولا تقبله فطرة ولا تأتي به شريعة . ولا يمكن أن يقر برب هذا شأنه إلا على أحد وجهين لا ثالث لهما : أحدهما أن يكون ساريا فيه حالاً فيه فهو في كل مكان بذاته ، وهو قول جميع الجهمية الأقدمين . الوجه الثاني أن يكون وجوده في الذهن لا في الخارج فيكون وجوده سبحانه وجودا عقليا إذ لو كان موجودا في الأعيان لكان إما عين هذا لعالم أو غيره، ولو كان غيره لكان إما بائنا عنه أو حالاً فيه وكلاهما باطل ، فثبت أنه عين هذا العالم فله حينئذ كل اسم حسن وقبيح وكل صفة كمال ونقص وكل كلام حق وباطل ، نعوذ بالله من ذلك .

المذهب الثاني مذهب (الفلاسفة) المتأخرين أتباع أرسطو ، وهم الذين يحكي ابن سينا والفارابي والطوسي قولهم : إن كلام الله فيض فاض من العقل الفعال على النفوس الفاضلة الزكية بحسب استعدادها ، فأوجب لها ذلك الفيض تصورات وتصديقات بحسب ما قبلته منه . ولهذه النفوس عندهم ثلاث قوى : قوة التصور ، وقوة التخيل ، وقوة التعبير . فتدرك بقوة تصورها من المعاني ما يعجز عنه غيرها ، وتدرك بقوة تخيلها شكل المعقول في صورة المحسوس ، فتتصور المعقول صورا نورانية تخاطبها وتكلمها بكلام تسمعه الآذان ، وهو عندهم كلام الله ، ولا حقيقة له في الخارج وإنما ذلك كله من القوة الخيالية الوهمية قالوا وربما قويت هذه القوة على إسماع ذلك الخطاب لغيرها ، وتشكيل تلك الصور العقلية لعين الرائي ، فيرى الملائكة ويسمع خطابهم ، وكل ذلك من الوهم والخيال لا في الخارج . فهذا أصل هؤلاء في إثبات كلام الرب وملائكته ورسله وأنبيائه ، والأصل الذى قادهم إلى هذا عدم الإقرار بالرب الذى عرفت به الرسل ودعت إليه وهو القائم بنفسه المباين لخلقه العالي فوق سمواته فوق عرشه الفعال لما يريد بقدرته ومشيئته العالم بجميع المعلومات القادر على كل شيء ، فهم أنكروا ذلك كله .

المذهب الثالث مذهب (الجهمية) النفاة لصفات الرب تعالى القائلين : ان كلامه مخلوق ومن بعض مخلوقاته فلم يقم بذاته سبحانه ، فاتفقوا على هذا الأصل واختلفوا في فروعه . قال الأشعري في كتاب المقالات : اختلفت المعتزلة في كلام الله تعالى هل هو

جسم أو ليس بجسم وفى خلقه على ستة أقاويل : فالفرقة الأولى منهم يزعمون أن كلام الله جسم وأنه مخلوق وأنه لا شيء إلا جسم . والفرقة الثانية زعموا أن كلام الخلق عرض وهو حركة لأنه لا عرض عندهم إلا الحركة ، وأن كلام الخالق جسم وأن ذلك الجسم صوت منقطع مؤلف مسموع وهو فعل الله وخلقه ، وهذا قول أبى الهذيل وأصحابه . وأحال النظّام أن يكون كلام الله فى أماكن كثيرة أو مكانين فى وقت واحد وزعم أنه فى المكان الذى خلق فيه . والفرقة الثالثة من المعتزلة تزعم أن القرآن مخلوق لله وأنه عرض وأنه يوجد فى أماكن كثيرة فى وقت واحد إذا تلاه تال فهو يوجد مع تلاوته ، وإذا كتبه وجد مع كتابته ، وإذا حفظه وجد مع حفظه ، وهو يوجد فى الأماكن بالتلاوه والحفظ والكتابة ولا يجوز عليه الانتقال والزوال . والفرقة الرابعة يزعمون أن كلام الله عز وجل عرض وأنه مخلوق ، وأحالوا أن يوجد فى مكانين فى وقت واحد وزعموا أن المكان الذى خلقه الله تعالى فيه محال انتقاله وزواله منه ووجوده فى غيره ، وهذا قول جعفر بن حرب وأكثر البغداديين . الفرقة الخامسة أصحاب معمر يزعمون أن القرآن عرض ، والأعراض عندهم قسمان : قسم منهما يفعله الأحياء ، وقسم منهما يفعله الأموات ومحال أن يكون ما يفعله الأموات فعلا للأحياء . والقرآن مفعول وهو عرض ومحال أن يكون الله فعله فى الحقيقة ، لأنهم يحيلون أن تكون الأعراض فعلا لله وزعموا أن القرآن فعل للمحل الذى يسمع منه إذا سمع من الشجرة فهو فعل لها ، وحيث سمع فهو فعل المحل الذى حل فيه. الفرقة السادسة يزعمون أن كلام الله عرض مخلوق وأنه يوجد فى أماكن كثيرة فى وقت واحد ، وهذا قول الإسكافى واختلفت المعتزلة فى كلام الله هل يبقى ؟ فقالت فرقة منهم: يبقى بعد خلقه ، وقالت فرقة أخرى : لا يبقى ، وإنما يوجد فى الوقت الذى خلقه الله ثم يعدم بعد ذلك . وهذا المذهب هو من فروع ذلك الأصل الباطل المخالف لجميع كتب الله ورسله ولصريح المعقول والفطر من جحد صفات الرب وتعطيل حقائق أسمائه وصفاته ونفى قيام الأفعال به ، فلما أصّلوا أنه لا يقول به وصف ولا فعل كان من فروع هذا الأصل أنه لم يتكلم بالقرآن ولا بغيره ، وأن القرآن مخلوق ، وطرد ذلك إنكار ربوبيته وإلهيته فان ربوبيته سبحانه إنما تتحقق بكونه فعالا مدبرا متصرفا فى خلقه يعلم ويقرر ويريد ويسمع ويبصر ، فاذا انتفت عنه صفة الكلام انتفى الأمر والنهى ولوازمهما وذلك ينفى حقيقة الألهية ، فطرد ما أصلوه أن الله سبحانه ليس برب العالمين ولا إله فضلا عن أن يكون لا رب غيره ولا إله سواه .

المذهب الرابع مذهب (الكلابية) أتباع عبد الله بن سعيد بن كلاب أن القرآن معنى قائم بالنفس لا يتعلق بالقدرة والمشيئة ، وأنه لازم لذات الرب كلزوم الحياة والعلم ، وأنه لا

يسمع على الحقيقة ، والحروف والأصوات حكاية له دالة عليه وهى مخلوقة وهو أربعة معانى فى نفسه : الأمر ، والنهى ، والخبر ، والاستفهام . فهى أنواع لذلك المعنى القديم الذى لا يسمع ، وذلك المعنى هو المتلوّ المقروء ، وهو غير مخلوق ، والأصوات والحروف هى تلاوة العباد وهى مخلوقة . وهذا المذهب أول من يعرف أنه قال به ابن كلاب وبناه على أن الكلام لابد أن يقوم بالمتكلم ، والحروف والأصوات حادثة فلا يمكن أن تقوم بذات الرب تعالى لأنه ليس محلا للحوادث ، فهى مخلوقة منفصلة عن الرب ، والقرآن اسم لذلك المعنى وهو غير مخلوق .

المذهب الخامس مذهب (الأشعرى) ومن وافقه أنه معنى واحد قائم بذات الرب تعالى، لأنه ليس بحرف ولا صوت ولا ينقسم ولا له أبعاض ولا له أجزاء وهو عين الأمر وعين النهى وعين الخبر وعين الاستخبار ، الكل واحد ، وهو عين التوراة وعين الإنجيل والقرآن والزبور ، وكونه أمرا ونهيا وخبرا واستخبارا صفات لذلك المعنى الواحد لا أنواع له ، فإنه لا ينقسم بنوع ولا جزء وكونه قرآنا وتوراة وإنجيلا تقسيم للعبارات عنه لا لذاته ، بل إذا عبر عن ذلك المعنى بالعربية كان قرآنا ، وإذا عبر عنه بالعبرانية كان توراة ، وإن عبر عنه بالسريانية كان إنجيلا والمعنى واحد وهذه الألفاظ عبارة عنه ولا يسميها حكاية ، وهى خلق من المخلوقات ، وعنده لم يتكلم الله بهذا الكلام العربى ولا سمع من الله وعنده ذلك المعنى سمع من الله حقيقة ويجوز أن يرى ويشم ويذاق ويلمس ويدرك بالحواس الخمس ، إذ المصحح عنده لإدراك الحواس هو الوجود ، فكل وجود يصح تعلق الادراكات كلها به كما قرره فى مسألة رؤية من ليس فى جهة الرائى وأنه يرى حقيقة وليس مقابلا للرائى . هذا قولهم فى الرؤية وذلك قولهم فى الكلام . والبلية العظمى نسبة ذلك إلى الرسول ﷺ وأنه جاء بهذا ودعا إليه الأمة وأنهم أهل الحق ومن عداهم أهل الباطل . وجمهور العقلاء يقولون إن تصور هذا المذهب كاف فى الجزم ببطلانه ، وهو لا يتصور إلا كما تتصور المستحيلات الممتنعات . وهذا المذهب مبنى على مسألة إنكار قيام الأفعال والأمور الاختيارية بالرب تعالى ويسمونها مسألة حلول الحوادث وحقيقتها إنكار أفعاله وربوبيته وإرادته ومشيئته

وأقول والحق يقال لا نشك أن ابن القيم هذا وشيخه ابن تيمية رحمهما الله تعالى من أعلم من صنف فى المقالات والملل والنحل وأدراهم بمواردها ومصادرها وأبصرهم برد الباطل منها وإدحاضه وأوفاهم تقريراً لمذهب السلف أهل السنة والجماعة وأشدهم تمسكا به ونصرة له ، وأكملهم تحريرا لبراهينه عقلا ونقلا ، وأكثرهم اشتغالا بهذا الباب وتنقيبا عن عامل البدع فيه واجتثاثا لأصولها ، ولكن هذا الذى ذكره رحمه الله تعالى عن

الأشعرى فى مسألة القرآن هو الذى وجدناه عمن ينتسب إلى الأشعرى ويسمون أنفسهم أهل الحق ويقرون ذلك ويكررونه فى كتبهم ويناظرون عليه . وأما أبو الحسن الأشعرى نفسه رحمه الله تعالى فالذى قرره فى كتابه (الابانة) الذى هو من آخر ما صنف هو قول أهل الحديث ساقه بحروفه وجاء به برمته واحتج فيه ببراهينهم العقلية والنقلية ثم نقل أقوال الأئمة فى ذلك كأحمد بن حنبل ومالك بن أنس والشافعى وأصحابه والحمادين والسفيانين وعبد العزيز بن الماجشون والليث بن سعد وهشام وعيسى بن يونس وحفص بن غياث وسعد بن عامر وعبد الرحمن بن مهدى وأبى بكر بن عياش ووكيع وأبى عاصم النبيل ويعلى بن عبيد ومحمد بن يوسف وبشر بن المفضل وعبد الله بن داود وسلام بن أبى مطيع وابن المبارك وعلى بن عاصم وأحمد بن يونس وأبى نعيم وقبيصة بن عقبة وسليمان بن داود وأبى عبيد القاسم بن سلام وغيرهم ، ولولا خوف الاطالة لسقنا فصول كلامه بحروفه ، فإنه وإن أخطأ فى تأويل بعض الايات وأجمل فى بعض المواضع فكلامه يدل على أنه مخالف للمنتسبين إليه من المتكلمين فى مسألة القرآن كما هو مخالف لهم فى إثباته الاستواء والنزول والرؤية والوجه واليدين والغضب والرضا وغير ذلك ، وقد صرح فى مقالاته بأنه قائل بما قال الامام أحمد بن حنبل وأئمة الحديث معتقد ما هم عليه مثبت لما أثبتوه محرم ما أحدث المتكلمون من تحريف الكلم عن مواضعه وصرف اللفظ عن ظاهره وإخراجه عن حقيقته ، وبالجملة فبينه وبين المنتسبين إليه بون بعيد بل هو برىء منهم وهم منه برآء والموعد الله وكفى بالله حسيبا وهو حسبنا ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله[1] .

---

(١) المعروف من حياة أبى الحسن الأشعرى أنه مرت به ثلاثة أدوار : الأول أنه كان مع المعتزلة فى البصرة . الثانى يقظته لفساد مذهبهم ، لكنه دخل معهم فى جدل طويل بأساليبهم وأقيستهم ، وقد استمر على ذلك نحو عشرين سنة ألف فيها أكثر كتبه ، ومن هذا الجدل مع المعتزلة ومن هذه الكتب نشأ المذهب المنسوب إليه . وهو الذى اضطر شيخ الاسلام وتلميذه ابن القيم إلى إدحاضه والتنبيه على ما يخالف منه مذهب السلف . أما الدور الثالث من حياة الأشعرى فهو الذى ختم الله به حياته بالحسنى بعد انتقاله من البصرة إلى بغداد واتصاله بأهل الحديث وأتباع الامام أحمد ، وفى هذه الحقبة ألف (مقالات الاسلاميين) و (الإبانة) . ولا شك أن (الإبانة) من آخر مصنفاته إن لم تكن آخرها كما نص عليه مترجموه ، ففى هذين الكتابين مذهبه الذى أراد أن يلقى الله عليه . والذى كان عليه فى البصرة هو الذى اشتهر عنه وبقى منسوباً إليه وهو برىء كبراءته من الاعتزال الذى كان من رجاله فى صدر حياته .
محب الدين الخطيب

قال ابن القيم رحمه الله تعالى : المذهب السادس مذهب (الكرامية) وهو أنه متعلق بالمشيئة والقدرة قائم بذات الرب تعالى ، وهو حروف وأصوات مسموعة ، وهو حادث بعد أن لم يكن ، فهو عندهم متكلم بقدرته ومشيئته بعد أن لم يكن متكلما كما يقول سائر فرق المتكلمين أنه فعل بقدرته ومشيئته بعد أن لم يكن فاعلا ، كما ألزموا به الكرامية فى مسألة الكلام فهو لازم لهم فى مسألة الفعل ، والكرامية أقرب إلى الصواب منهم ، فانهم أثبتوا كلاما وفعلا حقيقة قائمين بذات المتكلم الفاعل ، وجعلوا لها أولا فرارا من القول بحوادث لا أول لها ، ومنازعوهم أبطلوا حقيقة الكلام والفعل وقالوا لم يقم به فعل ولا كلام البتة ، وأما من أثبت منهم معنى قائما بنفسه سبحانه فلو كان ما أثبته مفعولا لكان من جنس الإرادة والعلم لم يكن شيئا خارجا عنهما ، فهم لم يثبتوا لله كلاما ولا فعلا ، وأما الكرامية فانهم جعلوه متكلما بعد أن لم يكن متكلما كما جعله خصومهم فاعلا بعد أن لم يكن فاعلا .

المذهب السابع مذهب (السالمية) ومن وافقهم من أتباع الأئمة الأربعة وأهل الحديث أنه صفة قديمة قائمة بذات الرب تعالى لم يزل ولا يزال لا يتعلق بقدرته ومشيئته ومع ذلك هو حروف وأصوات وسور وآيات سمعه جبريل منه وسمعه موسى بلا واسطة ويسمعه سبحانه من يشاء . وإسماعه نوعان : بواسطة وبلا واسطة ، ومع ذلك فحروفه وكلماته لا يسبق بعضها بعضا بل هى مقترنة الباء مع السين مع الميم فى آن واحد ثم لم تكن معدومة فى وقت من الأوقات ولا تعدم بل لم تزل قائمة بذاته سبحانه قيام صفة الحياة والسمع والبصر ، وجمهور العقلاء قالوا ان تصور هذا المذهب كان فى الجزم ببطلانه ، والبراهين العقلية والأدلة القطعية شاهدة ببطلان هذه المذاهب كلها وأنها مخالفة لصريح العقل والنقل . والعجب أنها هى الدائرة بين فضلاء العالم لا يكادون يعرفون غيرها . ثم ذكر رحمه الله تعالى قول أتباع الرسل وأطال على ذلك . ثم مسألة تكلم العباد بالقرآن وساق فيه كثيرا من كلام البخارى رحمه الله تعالى فى صحيحه وفى كتاب خلق أفعال العباد لأنه من أحسن الأئمة توضيحا وتفصيلا فى هذه المسألة لما جرى عليه من المحنة فى شأنها . ثم ذكر الكلام على حروف المعجم وساق فيه أقوال الأئمة . ثم ذكر اللفظية فى أثناء ذلك والواقفية . ثم ذكر فصلا فى الكتابة له فى الرق وغيره ، ثم فصلا فى السماع ، ثم فصلا من كلام شيخ الاسلام ابن تيمية فى أول من أظهر إنكار أن الله سبحانه يتكلم بصوت فى أثناء المئة الثالثة ابن كلاب وانكر عليه ذلك أئمة الحديث كأحمد والبخارى وغيرهما . وفى غضون هذه الفصول أبحاث نفيسة لا يستغنى عنها فلتراجع منه .

ثم قال رحمه الله تعالى : فصل . منشأ النزاع بين الطوائف أن الرب تعالى هل يتكلم بمشيئته أم كلامه بغير مشيئته ؟ على قولين ، فقالت طائفة كلامه بغير مشيئته واختياره . ثم انقسم هؤلاء أربع فرق . قالت فرقة : هو فيض فاض منه بواسطة العقل الفعال على نفس شريفة فتكلمت به كما يقول ابن سينا وأتباعه وينسبونه إلى أرسطو . وفرقة قالت : بل هو معنى قائم بذات الرب تعالى هو به متكلم وهو قول الكلابية ومن تبعهم . وانقسم هؤلاء فرقتين : فرقة قالت هو معان متعددة فى أنفسها أمر ونهى وخبر واستخبار ، ومعنى جامع لهذه الأربعة . وفرقة قالت بل هو معنى واحد بالعين لا ينقسم ولا يتبعض . وفرقة قالت كلامه هو هذه الحروف والأصوات خلقها خارجة عن ذاته فصار بها متكلما ، وهذا قول المعتزلة ، وهو فى الأصل قول الجهمية تلقاه عنهم أهل الاعتزال فنسب إليهم . وفرقة قالت يتكلم بقدرته ومشيئته كلاما قائما بذاته سبحانه كما يقوم به سائر أفعاله لكنه حادث النوع ، وعندهم أنه صار متكلما بعد أن لم يكن متكلما كما قاله من لم نصفهم من المتكلمين أنه صار فاعلا بعد أن لم يكن فاعلا . فقول هؤلاء فى الفعل المتصل كقول أولئك فى الفعل المنفصل ، وهذا قول الكرامية . وفرقة قالت يتكلم بمشيئته ، وكلامه سبحانه هو الذى يتكلم به الناس كله حقه وباطله وصدقه وكذبه كما يقوله طوائف الاتحادية . وقال أهل الحديث والسنة إنه لم يزل سبحانه متكلما إذا شاء ويتكلم بمشيئته ولم تتجدد له هذه الصفة بل كونه متكلما بمشيئته هو من لوازم ذاته المقدسة وهو بائن عن خلقه بذاته وصفاته وكلامه ليس متحدا بهم ولا حالا فيهم . واختلفت الفرق هل يسمع كلام الله على الحقيقة ؟ فقالت فرقة لا يسمع كلامه على الحقيقة إنما تسمع حكايته والعبارة عنه ، وهذا قول الكلابية ومن تبعهم . وقالت بقية الطوائف بل يسمع كلامه حقيقة . ثم اختلفوا فقالت فرقة يسمعه كل أحد من الله تعالى ، وهذا قول الاتحادية . وقالت فرقة بل لا يسمع إلا من غيره ، وعندهم أن موسى لم يسمع كلام الله منه ، فهذا قول الجهمية والمعتزلة . وقال أهل السنة والحديث : يسمع كلامه سبحانه منه تارة بلا واسطة كما سمعه موسى وجبريل وغيرهما وكما يكلم عباده يوم القيامة ويكلم أهل الجنة ويكلم الأنبياء فى الموقف ، ويسمع من المبلغ عنه كما سمع الأنبياء الوحى من جبريل تبليغا عنه وكما سمع الصحابة القرآن من الرسول ﷺ عن الله فسمعوا كلام الله بواسطة المبلغ ، وكذلك نسمع نحن بواسطة التالى . فاذا قيل المسموع مخلوق أو غير مخلوق ؟ قيل إن أرادت المسموع عن الله تعالى فهو كلامه غير مخلوق ، وإن أردت المسموع من المبلغ ففيه تفصيل إن سألت عن الصوت الذى روى به كلام الله فهو مخلوق وإن سألت عن الكلام المؤدى بذلك الصوت فهو غير مخلوق . والذين قالوا إن الله يتكلم بصوت أربع

فرق : فرقة قالت يتكلم بصوت مخلوق منفصل عنه وهم المعتزلة . وفرقة قالت يتكلم بصوت قديم لم يزل ولا يزال وهم السالمية والاقترانية . وفرقة قالت يتكلم بصوت حادث في ذاته بعد أن لم يكن وهم الكرامية . وقال أهل السنة والحديث لم يزل الله تعالى متكلماً بصوت إذا شاء . والذين قالوا لا يتكلم بصوت فرقتان : أصحاب الفيض ، والقائلون إن الكلام معنى قائم بالنفس . انتهى ما أردنا إيراده من كلامه رحمه الله تعالى وقد أودع هذه الأقوال وغيرها فى مسألة القرآن وغيرها فى نونيته الشافية الكافية . وأما مذهب أتباع الرسل فقد قدمنا فيه الشفاء الكافى من نصوص الكتاب والسنة وأقوال سلف الأمة بما لا يحتاج معه إلى غيره . وبالله التوفيق .

فصل فى بيان النوع الثانى من نوعى التوحيد وهو توحيد الطلب والقصد وأنه معنى لا إله إلا الله

﴿ هذا وثانى نوعى التوحيد   إفراد رب العرش عن نديـد ﴾

﴿ أن تعبد الله إلها واحـدا   معتـرفا بحقـه لا جاحـدا ﴾

(هذا أى الأمر والاشارة إلى ما تقدم من تحقيق النوع الأول من نوعى التوحيد[١] (وثانى نوعى التوحيد) هو (إفراد رب العرش عن نديد) شريك مساو ، وتفسير ذلك هو (أن تعبد الله) سبحانه وتعالى (إلها) حال من لفظ الجلالة (واحدا) لا شريك له فى إلهيته كما لا شريك له فى ربوبيته وأسمائه وصفاته ، فان توحيد الاثبات هو أعظم حجة على توحيد الطلب والقصد الذى هو توحيد الإلهية وبه احتج الله تعالى فى كتابه فى غير موضع على وجوب إفراده تعالى بالإلهية لتلازم التوحيدين ، فانه لا يكون إلها مستحقا للعبادة إلا من كان خالقا رازقا مالكا متصرفا مدبرا لجميع الأمور حيا قيوما سميعا بصيرا عليما حكيما موصوفا بكل كمال منزها عن كل نقص ، غنيا عما سواه ، مفتقرا إليه كل ماعداه ، فاعلا مختارا لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه ولا يعجزه شىء فى السموات ولا فى الأرض ولا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ولا تخفى عليه خافية ، وهذه صفات الله عز وجل لا تنبغى إلا له ولا يشركه فيها غيره . فكذلك لا يستحق العبادة إلا هو ولا تجوز لغيره فحيث كان متفردا بالخلق والانشاء والبدء والاعادة لا يشركه فى ذلك أحد وجب إفراده بالعبادة دون من سواه لا يشرك معه فى عبادته أحد كما قال تعالى **﴿ ياأيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون . الذى جعل**

---

(١) تقدم النوع الأول فيما سبق من هذا الكتاب .

لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون ﴾ . وقال تبارك وتعالى ﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض أم من يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون . فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون » إلى قوله « قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده فأنى تؤفكون . قل هل من شركائكم من يهدى إلى الحق قل الله يهدى للحق أفمن يهدى إلى الحق أحق أن يتبع أم من لا يهدى إلا أن يهدى فما لكم كيف تحكمون ﴾ وقال تعالى ﴿ إن ربكم الله خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذنه ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون . إليه مرجعكم جميعا وعد الله حقا إنه يبدأ الخلق ثم يعيده ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون . هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدّره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ، ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون﴾ وقال تعالى ﴿ إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ، ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ﴾ وقال تعالى ﴿ الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون . هو الذى خلقكم من طين ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده ثم أنتم تمترون . وهو الله فى السموات وفى الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون ﴾ وقال تعالى ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ، ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين . وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه[1] ليقضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم (ثم ينبؤكم)[2] بما كنتم تعملون . وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون . ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين . قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعا وخفية[3] لئن أنجانا[4] من هذه لنكونن من الشاكرين . قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون ﴾ وقال تعالى ﴿ قل أغير الله أبغى ربا وهو رب كل شىء ولا

---

(١) ساقطة من الأصل (٢) وردت فى الأصل « فينبؤكم » .

(٣) فى الأصل « خيفة » . (٤) فى الأصل « أنجيتنا » .

تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبؤكم بما كنتم فيه تختلفون . وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ﴾ إلى آخرها وقال تعالى ﴿ الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون . وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون . وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ وقال تعالى ﴿أتى أمر الله فلا تستعجلوه سبحانه وتعالى عما يشركون . ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون . خلق السموات والأرض بالحق تعالى عما يشركون . خلق الانسان من نطفة فاذا هو خصيم مبين » إلى قوله « أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون ﴾ إلى آخر السورة . وقال تعالى ﴿قال فمن ربكما يا موسى . قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى . قال فما بال القرون الأولى . قال علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى . الذى جعل لكم الأرض مهادا[1] وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى . كلوا وارعوا أنعامكم إن فى ذلك لآيات لأولى النهى ﴾ وقال تعالى ﴿ قل أرأيتم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون إن كنتم صادقين . بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء وتنسون ما تشركون ﴾ وقال تعالى ﴿ وإذا مسّ الانسان الضرُّ دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما ، فلما كشفنا عنه ضرّه[2] مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسّه ، كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون ﴾ وقال تعالى ﴿ هو الذى يسيركم فى البر والبحر حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين . فلما أنجاهم إذا هم يبغون فى الأرض بغير الحق ، ياأيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم ، متاع الحياة الدنيا ثم إلينا مرجعكم ينبؤكم بما كنتم تعملون﴾ وقال تعالى ﴿ أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شىء حى أفلا يؤمنون . وجعلنا فى الأرض رواسى أن تميد بهم

(١) فى الأصل « مهاداً » وهى صحيحها على قراءة الإمام نافع .

(٢) وردت فى الأصل بصيغة التنكير .

(٣) ورد ما بين القوسين فى الأصل « ثم إلى ربكم مرجعكم فينبؤكم » .

وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون . وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون . وهو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل فى فلك يسبحون ﴾ وقال تبارك وتعالى ﴿ قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون . سيقولون لله قل أفلا تذكرون . قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم . سيقولون لله قل أفلا تتقون . قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون . سيقولون لله قل فأنى تسحرون . بل أتيناهم بالحق وإنهم لكاذبون . ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون . عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون ﴾ وقال تعالى ﴿ ولله ملك السموات والأرض وإلى الله المصير . ألم تر أن الله يزجى سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار . يقلب الله الليل والنهار إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار . والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجلين ومنهم من يمشى على أربع ، يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شيء قدير ﴾ وقال تعالى ﴿ أولم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم . إن فى ذلك لآية ، وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾ وقال تعالى ﴿ قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ، لله خير أم ما يشركون ﴾ إلى قوله ﴿ أم من يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أإله مع الله ، قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾ وقال تعالى ﴿ وكأيِّن من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم . ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله ، فأنى يؤفكون . الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له ، إنه بكل شيء عليم . ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله ، قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون ﴾ وقال تعالى ﴿ فإذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون ﴾ وقال تعالى ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ، قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون . لله ما فى السموات والأرض إن الله هو الغنى الحميد » إلى قوله « ألم تر أن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى وأن الله بما تعملون خبير ، ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل وأن الله هو العلى الكبير ، ألم تر أن الفلك تجرى فى البحر بنعمة الله ليريكم من آياته إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور ، فإذا[1] غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له

---

(١) فى الأصل « فإذا » .

الدين، فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور ﴾ إلى آخر السورة . وقال تعالى ﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة إن الله لطيف خبير ، له ما في السموات وما في الأرض وإن الله لهو الغنى الحميد . ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض والفلك تجرى في البحر بأمره ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه إن الله بالناس لرءوف رحيم . هو الذى أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم إن الانسان لكفور ﴾ وقال تعالى ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة في قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين . ثم إنكم بعد ذلك لميتون ، ثم إنكم يوم القيامة تبعثون . ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين . وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه في الأرض وإنا على ذهاب به لقادرون . فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تأكلون . وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين . وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونها ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون . وعليها وعلى الفلك تحملون ﴾ . وقل تعالى ﴿ الذى خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من ولى ولا شفيع أفلا تذكرون ﴾ إلى آخر الآيات . وقال تعالى ﴿ الحمد لله الذى له ما في السموات وما في الأرض وله الحمد في الآخرة وهو الحكيم الخبير . يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو الرحيم الغفور ﴾ وقال تعالى ﴿ الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد في الخلق ما يشاء إن الله على كل شيء قدير . ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم ﴾ وقال تعالى ﴿ الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودْق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون . وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين ﴾ إلى آخر الآيات . وقال تعالى ﴿ والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا . فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور . من كان يريد العزة فلله العزة جميعا إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ﴾ إلى قوله ﴿ والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجا وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب إن ذلك على الله يسير . وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه ، وهذا ملح أجاج ومن كل تأكلون لحما

(١) في الأصل « هو » .

طريا وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ذلكم الله ربكم له الملك ﴾ إلى آخر الايات ، بل إلى آخر السورة . وقال تعالى ﴿ الله الذى خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء ، سبحان الله وتعالى عما يشركون ﴾ وقال تعالى ﴿ وإذا مس الانسان ضر دعا ربه منيبا إليه ثم إذا خوله نعمة منه نسي ما كان يدعو إليه من قبل وجعل لله أنداد ليضل عن سبيله ، قل تمتع بكفرك قليلا إنك من أصحاب النار ﴾ وقال تعالى ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ، قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره ، أو أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته ، قل حسبي الله ، عليه يتوكل المتوكلون ﴾ وقال تعالى ﴿ الله الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا ، إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون . ذلكم الله ربكم خالق كل شيء لا إله إلا هو فأنى تؤفكون ، كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون . الله الذى جعل لكم الأرض قرارا والسماء بناء وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ، ذلك الله ربكم فتبارك الله رب العالمين﴾ إلى آخر الايات . وقال تعالى ﴿ قل أإنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض في يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين . وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين . ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين . فقضاهن سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ، ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ وقال ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم، الذى جعل لكم الأرض مهدا وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون . والذى نزل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتا كذلك تخرجون . والذى خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون ، لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ﴾ الايات ، وقال تعالى ﴿ ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون ﴾ وغير ذلك من الايات التى يقرر الله تعالى فيها ربوبيته ويمتن بنعمه وتفرده بأنواع التصرفات ، وعباد الأوثان يقرون بها لله عز وجل ، ويقرون بأن أوثانهم التى يدعون من دونه مخلوقة لا تملك لأنفسها ولا لعابديها ضرا ولا نفعاً ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ، ولا تسمع ولا تبصر ولا تغنى عنهم شيئا ، ويقرون أن الله هو المتفرد بالخلق والرزق والضر والنفع والتقدير والتدبير وأنواع

التصرفات ، ليس إليهم ولا إلى أوثانهم من ذلك شيء ، بل هو الخالق وما عداه مخلوق ، وهو الرب وما عداه مربوب ، غير أنهم جعلوا له من خلقه شركاء سووهم به في استحقاق العبادة وأنكروا أن يكون تفرد بها وقالوا لمن قال لهم قولوا لا إله إلا الله ﴿ **أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشيء عجاب** ﴾ فألزمهم الله تعالى بما أقروا به من التفرد بالربوبية أن يعملوا بمقتضى ذلك ويلتزموا لازمه من توحيد الإلهية وأن يكفروا بما اتخذوا من دونه كما أقروا بعجزهم وعدم اتصافهم بشيء يستحقون به العبادة بل هم أقل وأذل وأحقر وأعجز عن أن يخلقوا ذبابا أو أن يستنقذوا منه شيئا سلبه . ومن تدبر هذه الآيات التي ذكرنا وما في معناها حق التدبر علم يقينا أن عباد الأوثان مقرون بتوحيد الربوبية وشاهدون بتفرد الله بذلك وأنهم إنما أشركوا بالله تعالى في الإلهية حيث عبدوا معه غيره ، هذا في الظاهر وإلا فأنواع التوحيد متلازمة ، من أشرك غير الله معه في شيء منها فقد أشرك فيما عداه كما سيأتي إن شاء الله تعالى بيانه في بيان الشرك . ومما يقدر ذلك غاية التقدير حديث عمران بن حصين رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال لأبيه حصين قبل إسلامه « كم تعبد اليوم من إله » قال : سبعة آلهة ، ستة في الأرض وواحدا في السماء . قال ﷺ « فمن تعد لرغبتك ورهبتك » قال الذي في السماء . وتقدم أيضا في هذه الآية أنهم إنما كان شركهم بالله في إلهيته في حالة الرخاء ، وأما في الشدة فكانوا يخلصون الدين لله لعلمهم أنه لا يقدر على كشف ماهم فيه غيره ، وأن آلهتهم لا تضر ولا تنفع ولا تستطيع شيئا كما قال تعالى ﴿ **فاذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين ، فلم نجاهم إلى البر إذا هم يشركون . ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا فسوف يعلمون** ﴾ وما في معانيها من الايات مما ذكرنا ومما نذكر . والمقصود أن الربوبية والإلهية متلازمان لا ينفك نوع منهما عن الآخر ، وأن توحيد الربوبية لم ينكره أحد إلا مكابرة كفرعون ونمرود ، والثنوية الذين اعتقدوا للوجود خالقين اثنين تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون علوا كبيرا .

(معترفا) حال من فاعل تعبد (بحقه) تعالى عليك وعلى جميع عباده (لا جاحدا) وحقه عليك أن تعبده لا تشرك به شيئا كما قال تعالى ﴿ **واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا** ﴾ وقال ﴿ **وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه** ﴾ وقال تعالى ﴿ **ان اعبدوا الله ما لكم من إله غيره** ﴾ وغيرها من الآيات سنذكر ما تيسر منها قريبا إن شاء الله تعالى . وفي الصحيحين عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : كنت رديف النبي ﷺ على حمار ، فقال لي « يا معاذ ، أتدري ما حق الله تعالى على العباد ، وما حق العباد على الله » ؟ قلت الله ورسوله أعلم . قال « حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا ، وحق

العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئا » الحديث(١) .

﴿ وهو الذى به الإله أرسلا رسلـه يدعـون إليه أولا ﴾

﴿ وأنـزل الكتـاب والتبيـانا من أجله وفرق الفرقانا ﴾

(وهو) أى توحيد الإلهية (الذى به الإله) عز وجل (أرسلا . رسله) من أولهم إلى آخرهم (يدعون إليه أولا) قبل كل أمر فلم يدعوا إلى شيء قبله ، فهم وإن اختلفت شرائعهم فى تحديد بعض العبادات والحلال والحرام لم يختلفوا فى الأصل الذى هو إفراد الله سبحانه بتلك العبادات افترقت أو اتفقت ، لا يشرك معه فيها غيره ، كما قال ﷺ «نحن معاشر الأنبياء أولاد علات ، ديننا واحد »(٢) وقد أخبر الله عز وجل عن اتفاق دعوة رسله إجمالا وتفصيلا فقال تعالى ﴿ **شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه** ﴾ وهؤلاء هم أولو العزم من الرسل : نوح وابراهيم وموسى وعيسى ونبينا محمد ﷺ وكذلك بقية الرسل، وقال تعالى ﴿ **واسأل من أرسلنا من(٣) قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون** ﴾ وقال تعالى ﴿ **وما أرسلنا من(٤) قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون** ﴾ وقال تعالى ﴿ **ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت**﴾ وقال تعالى ﴿**إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهرون وسليمان وآتينا داود زبورا . ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما . رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، وكان الله عزيزا حكيما** ﴾ وفى الصحيح عن المغيرة رضى الله عنه قال: قال سعد بن عبادة رضى الله عنه : لو رأيت رجلا مع امرأتى لضربته بالسيف غير مصفح . فبلغ ذلك النبى ﷺ فقال « تعجبون من غيرة سعد ، والله لأنا أغير منه ، والله أغير منى ، ومن أجل غيرة الله حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن . ولا أحد أحب إليه العذر من الله، ومن أجل ذلك بعث المبشرين والمنذرين . ولا أحد أحب إليه المدحة من الله ، ومن أجل ذلك وعد الله الجنة » وأما فى مقامات التفصيل فقال تعالى ﴿ **ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم** ﴾ إلى آخر الآيات ، وقال تعالى ﴿ **وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون** ﴾ إلى آخر الآيات وقال تعالى ﴿ **وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره** ﴾ إلى آخر الايات ، وقال تعالى ﴿ **وإلى مدين أخاهم**

(١) انظر الفتح ح ٢٧٠١ ، ٦٩٣٨ .
(٢) انظر الفتح ح ٣٢٥٨ ، ٣٢٥٩ .
(٣) ساقطة من الأصل
(٤) ساقطة من الأصل

شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ إلى آخر الايات ، وقال تعالى ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة إنى أراك وقومك فى ضلال مبين . وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين[1] . فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى ، فلما أفل قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى ، فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر ، فلما أفلت قال يا قوم إنى برىء مما تشركون ﴾ . وهذا فى مقام مناظرته عليه الصلاة والسلام لعبّاد الكواكب على سبيل الاستدراج أو التوبيخ ليبين لهم سخافتهم وجهلهم وضعف عقولهم فى عبادتهم هذه الكواكب المخلوقة لحكمة الله عز وجل المسخرة بقدرته وغفلتهم عن خالقها ومسخرها والمتصرف فيها وتركهم عبادته أو إشراكهم معه فيها غيره عز وجل فلما أقام عليهم الحجة ﴿ قال يا قوم إنى برىء مما تشركون ، إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين. وحاجّه قومه قال أتحاجُونى فى الله وقد هدان ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربى شيئا وسع ربى كل شىء علما أفلا تتذكرون[2] . وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله مالم ينزل به عليكم سلطانا ، فأى الفريقين أحقُّ بالأمن إن كنتم تعلمون . الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴾ أى ﴿ الذين آمنوا ﴾ يعنى صدقوا ووحدوا ﴿ ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ﴾ أى شرك إذ هو الظلم الذى لا يغفره الله عز وجل ، وفى الصحيح عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : لما نزلت ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الإمن وهم مهتدون ﴾ قال أصحاب رسول الله ﷺ : أينا لم يظلم نفسه ؟ فأنزل الله تعالى ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ فالذين آمنوا الايمان التام الذى لم تشبه شوائب الشرك الأكبر المنافى لجميعة ، ولا الشرك الأصغر المنافى لكماله ، ولا معاصى الله المحبطة لثمراته من الطاعات ، فأولئك لهم الأمن التام من خزى الدنيا وعذاب الآخرة ، والاهتداء التام فى الدنيا والآخرة . وبحسب ما ينقص من الايمان ينقص من الأمن والاهتداء ، فباجتناب الشرك الأكبر والأصغر يحصل مطلق الأمن والاهتداء ، وباجتناب المعاصى يحصل تمامهما . ثم قال تعالى ﴿ وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم ﴾ وقال تعالى ﴿ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين . إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون . قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين . قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين . قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين . قال بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين . وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين . فجعلهم جذاذا إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون . قالوا من فعل هذا

(١) فى الأصل « المؤمنين » . (٢) فى الأصل « تذكرون » .

بآلهتنا إنه لمن الظالمين . قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم . قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون . قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم . قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون . فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون . ثم نكسوا على رءوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون . قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم ، أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون﴾ إلى آخر الآيات ، وقال تعالى ﴿ واتل عليهم نبأ إبراهيم . إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون . قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين . قال هل يسمعونكم إذ تدعون . أو ينفعونكم أو يضرون . قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون . قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون . فانهم عدو لي إلا رب العالمين . الذى خلقنى فهو يهدين . والذى هو يطعمني ويسقين . وإذا مرضت فهو يشفين . والذى يميتنى ثم يحيين . والذى أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين ﴾ وقال تعالى ﴿ وإن من شيعته لإبراهيم . إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون . أإفكا آلهة دون الله تريدون . فما ظنكم برب العالمين . فنظر نظرة في النجوم . فقال إني سقيم . فتولوا عنه مدبرين . فراغ إلى آلهتهم فقال ألا تأكلون . ما لكم لا تنطقون . فراغ عليهم ضربا باليمين . فأقبلوا إليه يزفون . قال أتعبدون ما تنحتون . والله خلقكم وما تعملون . قالوا ابنوا له بنيانا فألقوه في الجحيم ﴾ إلى آخر الآيات . وقال تعالى ﴿ واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا . إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطا سويا . يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا . يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا ﴾ فبين لأبيه أن آلهته لا تسمع ولا تبصر ولا تضر ولا تنفع ولا تقدر على جلب خير ولا دفع شر ولا تغنى عنه شيئا . فتبين بذلك أن عبادة مثل هذا جهل وضلال . ثم بين له أن عنده دواء ذلك الداء ، والهدى من ذلك الضلال فقال تعالى ﴿إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطا سويا ﴾ وبين أن فعله ذلك عبادة للشيطان ، موجب لعذاب الرحمن وولاية الشيطان ، عياذا بالله من ذلك . وقال تعالى ﴿وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . إنما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون إفكا إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون ﴾ الى آخر الآيات . وقال تعالى ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون . إلا الذى فطرني فإنه سيهدين . وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون ﴾ وقال تعالى عن يوسف عليه السلام ﴿ إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون . واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ذلك من فضل الله

علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون . يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار . ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، إن الحكم إلا لله ، أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ﴾ الآيات وغيرها . وكذلك قص الله تعالى علينا عن جميع الرسل من نوح إلى محمد ﷺ فقال تعالى ﴿ ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم في أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به ، وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب . قالت رسلهم أفي الله شك فاطر السموات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى ، قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين . قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمنُّ على من يشاء من عباده ، وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا باذن الله ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون . وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون﴾ الايات . ولو ذهبنا نذكر قصص الرسل ومحاورتهم مع قومهم وعواقب ذلك لطال الفصل . وأما نبينا محمد ﷺ وسيرته في قومه وصبره على أذاهم وما جرى له معهم فأجلى من الشمس في نحر الظهيرة ، والقرآن كله من فاتحته إلى خاتمته في شأن ذلك .

(وأنزل) الله عز وجل (الكتاب) اسم جنس لكل كتاب أنزله الله عز وجل على رسله وأشهرها الأربعة وهي التوراة على موسى موعظة وتفصيلا لكل شيء . والإنجيل على عيسى فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين . والزبور على داود الذى كان إذا قرأه أوّبت معه الجبال والطير ، والقرآن المنزل على نبينا محمد ﷺ بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه . (والتبيانا) من عطف التفسير الذى هو أعم من المفسر لأن التبيان منه المتعبد بتلاوته والعمل به وهو الكتاب . ومنه المتعبد بالعمل به فقط وهو السنة وما فى معناها . (من أجله) أى من أجل التوحيد (وفرق الفرقان) إذ يقول تعالى ﴿ وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا ﴾ الآيات . وسنذكر إن شاء الله تعالى أصل عبادة الأصنام وغيرها في فصل بيان ضد التوحيد الذى هو الشرك وبالله التوفيق .

﴿ وكلف الله الرسول المجتبى   قتال من عنه تولى وأبى ﴾
﴿ حتى يكون الدين خالصا له   سرا وجهرا دقه وجله ﴾
﴿ وهكذا أمته قد كلفوا   بذا وفى نص الكتاب وصفوا ﴾

(وكلف الله) تعالى أى أمر أمر افتراض (الرسول المجتبى) نبينا محمدا ﷺ (قال)

مفعول كلف الثاني (من عنه) عن التوحيد (تولى وأبى) أى أعرض وامتنع (حتى) غاية للقتال (يكون الدين خالصا له) أى لله عز وجل (سرا وجهرا) لا معارض له ولا مشاقّ (دقه وجله) أى قليل العبادة وكثيرها وصغيرها وكبيرها . قال الله تبارك وتعالى **﴿ياأيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم﴾** الآية ، وقال تعالى **﴿ فقاتل فى سبيل الله لا تكلف إلا نفسك وحرض المؤمنين عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا ، والله أشد بأسا وأشد تنكيلا ﴾** وقال تعالى **﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله ، فان انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين ﴾** وقال تعالى **﴿ قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف ، وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين . وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فان انتهوا فإن الله بما يعملون بصير . وإن تولوا فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير ﴾** وقال تعالى **﴿ فاذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فان تابوا ﴾** يعنى رجعوا عن الشرك إلى التوحيد **﴿ وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم ﴾** وغير ذلك من الايات فى البقرة وآل عمران والنساء والأنفال والتوبة والقتال والحديد والصف وغيرها ، وقال ﷺ « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحق الاسلام وحسابهم على الله عز وجل » الحديث فى الصحيح ، ولو ذهبنا نذكر آيات الجهاد وأحاديثه لطال الفصل وليس هذا موضع بسطها .

(وهكذا) كما كلف ﷺ بجهاد الكفار (أمته) المستجيبون له (قد كلفوا بذا) أى الذى كلف به (وفى نص الكتاب) القرآن (وصفوا) أى بذلك كما قال تعالى **﴿محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا ﴾** الاية ، وقال تعالى **﴿ يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ﴾** والآيات قبلها وبعدها ، ولو لم يكن فى ذلك إلا قول ربى عز وجل **﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا فى التوراة والانجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله ، فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم ﴾** لكانت هذه الاية كافية فى نعش القلوب وتهييج النفوس وتشويقها وحملها على تلك البيعة الرابحة التى لا خطر لها ولا يحاط بعظم فضلها ، والله المستعان .

﴿ وقد حوته لفظة الشهاده   فهى سبيل الفوز والسعاده ﴾

﴿ مـن قالهـا معتـقدا معناهـــا وكـان عامـلا بمقتضاها ﴾

﴿ في القول والفعل ومات مؤمنا يبعث يوم الحشر ناج آمنا ﴾

(وقد حوته) أى جمعته واشتملت عليه (لفظة الشهادة) أى شهادة أن لا إله إلا الله (فهى) أى هذه الكلمة (سبيل الفوز) بدخول الجنة والنجاة من النار ، قال الله عز وجل ﴿ فمن زُحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز ﴾ . (و) هى سبيل (السعادة) فى الدارين أى طريقهما لا وصول إليهما إلا بهذه الكلمة ، فهى الكلمة التى أرسل الله بها رسله وأنزل بها كتبه ، ولأجلها خلقت الدنيا والآخرة والجنة والنار . وفى شأنها تكون الشقاوة والسعادة ، وبها تؤخذ الكتب باليمين أو الشمال ، ويثقل الميزان أو يخف ، وبها النجاة من النار بعد الورود ، وبعدم التزامها البقاء فى النار ، وبها أخذ الله الميثاق ، وعليها الجزاء والمحاسبة ، وعنها السؤال يوم التّلاق . إذ يقول تعالى ﴿ فوربك لنسألنهم أجمعين ، عما كانوا يعملون ﴾ وقال تعالى ﴿ فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين ﴾ فأما سؤاله تعالى الذين أرسل إليهم يوم القيامة فمنه قوله تعالى ﴿ ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين ﴾ والايات قبلها وبعدها وغيره ذلك . وأما سؤاله المرسلين فمنه قوله تعالى ﴿ يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم ، قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب ﴾ وغير ذلك من الآيات ، وهى أعظم نعمة أنعم الله عز وجل بها على عباده أن هداهم إليها، ولهذا ذكرها فى سورة النحل التى هى سورة النعم ، فقدمها أولا قبل كل نعمة فقال تعالى ﴿ ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون ﴾ وهى كلمة الشهادة ومفتاح دار السعادة ، وهى أصل الدين وأساسه ورأس أمره وساق شجرته وعمود فسطاطه ، وبقية أركان الدين وفرائضه متفرعة عنها، متشعبة منها . مكملات لها ، مقيدة بالتزام معناها والعمل بمقتضاها ، فهى العروة الوثقى التى قال الله عز وجل ﴿ فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها ﴾ قاله سعيد بن جبير والضحاك ، وهي العهد الذى ذكر الله عز وجل إذ يقول ﴿ لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا ﴾ قال ذلك عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال : هو شهادة أن لا إله إلا الله ، والبراءة من الحول والقوة الا بالله ، وأن لا يرجو الا الله عز وجل . وهى الحسنى التى قال الله عز وجل ﴿ فأما من أعطى واتقى ، وصدق بالحسنى ، فسنيسره لليسرى ﴾ الايات ، قاله أبو عبد الرحمن السلمى والضحاك ورواه عطية عن ابن عباس . وهى كلمة الحق التى ذكر الله عز وجل اذ يقول تعالى ﴿ إلا من شهد بالحق وهم يعلمون ﴾ قال ذلك البغوى . وهى كلمة التقوى التى ذكر الله عز وجل اذ يقول ﴿ وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها ﴾ روى ذلك ابن جرير

وعبد الله بن أحمد والترمذى بأسانيدهم إلى أبىّ بن كعب رضى الله عنه عن النبى ﷺ وهى القول الثابت الذى ذكر الله عز وجل إذ يقول تعالى ﴿ **يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة** ﴾ أخرجاه فى الصحيحين عن البراء بن عازب رضى الله عن النبى ﷺ . وهى الكلمة الطيبة المضروبة مثلا قبل ذلك إذ يقول تعالى ﴿ **ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء** ﴾ قاله على بن طلحة عن ابن عباس ، أصلها ثابت فى قلب المؤمن ، وفرعها العمل الصالح فى السماء صاعد إلى الله عز وجل . وكذا قال الضحاك وسعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد وغير واحد . وهى الحسنة التى ذكر الله عز وجل اذ يقول ﴿ **من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها** ﴾ وقال تعالى ﴿ **من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون** ﴾ قال ذلك زين العابدين وإبراهيم النخعى ، وعن أبى ذرّ مرفوعا « هى أحسن الحسنات ، وهى تمحو الذنوب والخطايا » . وهى المثل الأعلى الذى ذكر الله عز وجل اذ يقول ﴿ **وله المثل الأعلى فى السموات والأرض** ﴾ قال ذلك قتادة ومحمد بن جرير ، ورواه مالك عن محمد بن المنكدر. وهى سبب النجاة كما فى صحيح مسلم أن النبى ﷺ سمع مؤذنا يقول « أشهد أن لا إله إلا الله » فقال ﷺ « خرجتَ من النار » وفيه عن عبادة بن الصّامت رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله حرم الله عليه النار » وفى حديث الشفاعة الآتى ان شاء الله تعالى «أخرجوا من النار من قال لا إله إلا الله . وكان فى قلبه مثقال ذرة من إيمان » . وهى سبب دخول الجنة كما فى الصحيحين عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « من قال أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله وابن أمته وكلمته ألقاها الى مريم وروح منه وأن الجنة حق وأن النار حق أدخله الله الجنة من أى أبواب الجنة الثمانية شاء » . وفى رواية « أدخله الله الجنة على ما كان من عمل » . وهى أفضل ما ذكر الله عز وجل به ، وأثقل شىء فى ميزان العبد يوم القيامة كما فى المسند عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما عن النبى ﷺ « ان نوحا عليه السلام قال لابنه عند موته : آمرك بلا اله الا الله فان السموات السبع والأرضين السبع لو وضعن فى كفة ووضعت لا إله إلا الله فى كفة لرجحت بهن لا إله إلا الله ، ولو أن السموات السبع والأرضين السبع كل حلقة مبهمة لفصمتهن لا إله إلا الله » . وفيه عنه أيضا عن النبى ﷺ « أن موسى عليه الصلاة والسلام قال : يارب علمنى شيئا أذكرك وأدعوك به ، قال : يا موسى قل لا إله إلا الله . قال موسى : يارب كل عبادك يقولون هذا . قال : يا موسى قل لا إله إلا الله ، قال : لا إله إلا الله ، انما أريد شيئا تخصنى به . قال : يا موسى لو أن

السموات السبع والأرضين السبع وعامرهن غيرى فى كفة ولا إله إلا الله فى كفة مالت بهن لا إله إلا الله » . وفى الترمذى والنسائى فى المسند عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « ان الله سيخلص رجلا من أمتى على رءوس الخلائق يوم القيامة فينشر عليه تسعة وتسعين سجلا كل سجل مثل مد البصر ثم يقول : أتنكر من هذا شيئا ، أظلمك كتبتى الحافظون ؟ فيقول : لا يارب . فيقول أفلك عذر ؟ فيقول : لا يارب فيقول : بلى ان لك عندنا حسنة ، وانه لا ظلم عليك اليوم ، فيخرج بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، فيقول : احضر وزنك فيقول : يارب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فقال : فانك لا تظلم ، قال فتوضع السجلات فى كفة والبطاقة فى كفة ، فطاشت السجلات وثقلت البطاقة ولا يثقل مع اسم الله تعالى شيء » قال الترمذى هذا حديث حسن غريب . وهى التى لا يحجبها شيء دون الله عز وجل كما فى الترمذى عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال « لا إله إلا الله ليس لها دون الله حجاب حتى تصل إليه » وفيه أيضا عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال « ما من عبد قال لا إله إلا الله مخلصا الا فتحت لها أبواب السماء حتى تفضى إلى العرش » ، وهى الأمان من وحشة القبور وهول الحشر كما فى المسند وغيره عن النبى ﷺ قال « ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة فى قبورهم ولا فى نشورهم ، وكأنى بأهل لا إله إلا الله وقد قاموا ينفضون التراب عن رءوسهم يقولون : الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن » .

واعلم أن النصوص الواردة فى فضل هذه الشهادة كثيرة لا يحاط بها ، وفيما ذكرنا كفاية ، وسنذكر ان شاء الله تعالى عند ذكر شروطها ما تيسر من نصوص الكتاب والسنة ، ويكفيك فى فضل لا إله إلا الله اخبار النبى ﷺ أنها أعلى جميع شعب الايمان ، كما فى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « الايمان بضع وسبعون ـ أو بضع وستون ـ شعبة فأفضلها قول لا إله إلا الله ، وأدناها اماطة الأذى عن الطريق » الحديث . وهذا اللفظ مسلم .

(من قالها) أى قال هذه الكلمة حال كونه (معتقدا) أى عالما ومتيقنا (معناها) الذى دلت عليه نفيا وإثباتا (وكان) مع ذلك (عاملا بمقتضاها) على وفق ما علمه منها وتيقنه فان ثمرة العلم العمل به (فى القول) أى قول القلب واللسان (والفعل) أى عمل القلب واللسان والجوارح قال الله عزوجل ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ، كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون** ﴾ (ومات مؤمنا) أى على ذلك ، وهذا شرط لا بد منه فانما الأعمال بالخواتيم قال ﷺ « ما من عبد قال لا إله إلا الله ثم

مات على ذلك إلا دخل الجنة » الحديث في الصحيحين عن أبي ذر بطوله (يبعث يوم الحشر) أي يوم الجمع (ناج) من النار (آمنا) من فزع يوم القيامة كما قال تعالى ﴿إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون . لا يسمعون حسيسها وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون . لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذى كنتم توعدون ﴾ وقال تعالى ﴿ من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون ﴾ .

﴿ فان معناها الذى عليه ... دلت يقينا وهدت إليه ﴾
﴿ أن ليس بالحق إله يعبد ... إلا الإله الواحد المنفرد ﴾
﴿ بالخلق والرزق وبالتدبير ... جل عن الشريك والنظير ﴾

(فان معناها) أى معنى هذه الكلمة (الذى عليه) متعلق بقوله (دلت بصريح لفظها (وهدت) أى أرشدت (إليه) هو (أن ليس بالحق) متعلق بيعبد (إله) هو اسم ليس ومنفيها والنكرة فى سياق النفى تعم والحكم المنفى (يعبد) الذى هو متعلق بالحق والاستحقاق فيخرج ما عبد بباطل ، ولذا سماه المشركون إلها فتسميته بذلك باطلة فلا يستحق أن يعبد . فمعنى لا إله إلا الله : لا معبود بحق إلا الله ، لا إله نافيا جميع ما يعبد من دون الله فلا يستحق أن يعبد ، إلا الله مثبتا العبادة لله فهو الاله الحق المستحق للعبادة ، فتقدير خبر لا المحذوف بحق هو الذى جاءت به نصوص الكتاب والسنة كما سنوردها إن شاء الله ، وأما تقديره بموجود فيفهم منه الاتحاد ، فان الاله هو المعبود ، فاذا قيل لا معبود موجود إلا الله ، لزم منه أن كل معبود عبد بحق أو باطل هو الله فيكون ما عبده المشركون من الشمس والقمر والنجوم والأشجار والأحجار والملائكة والأنبياء والأولياء وغير ذلك هى الله فيكون ذلك كله توحيدا ، فما عبد على هذا التقدير إلا الله إذ هى هو ، وهذا والعياذ بالله أعظم الكفر وأقبحه على الاطلاق ، وفيه إبطال لرسالات جميع الرسل وكفر بجميع الكتب وجحود لجميع الشرائع وتكذيب بكل ذلك وتزكية لكل كافر من أن يكون كافرا إذ كل ما عبده من المخلوقات هو الله فلم يكن عندهم مشركا بل موحدا ، تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون علوا كبيرا . فإذا فهمنا هذا فلا يجوز تقدير الخبر موجود . إلا أن ينعت اسم لا بحق فلا بأس ويكون التقدير لا إله حقا موجود إلا الله ، فبقيد الاستحقاق ينتفى المحذور الذى ذكرنا .

(إلا الإله الواحد المنفرد . بالخلق والرزق وبالتدبير . الخ) وهو الله سبحانه وتعالى ، أى هو الإله الحق ، فكما تفرد تعالى بالخلق والرزق والإحياء والإماتة والايجاد والاعدام والنفع

والضر والأعزاز والاذلال والهداية والإضلال وغير ذلك من معاني ربوبيته ولم يشركه أحد في خلق المخلوقات ولا في التصرف في شيء منها ، وتفرد بالأسماء الحسنى والصفات العلى ولم يتصف بها غيره ولم يشبهه شيء فيها فكذلك تفرد سبحانه بالإلهية حقا فلا شريك له فيها ﴿ ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلي الكبير ﴾ ، ﴿ ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ، ولعلا بعضهم على بعض ، سبحان الله عما يصفون ، عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون ﴾ ، ﴿ أم اتخذوا آلهة من الأرض هم يُنشِرون ، لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون ، لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون﴾، ﴿ قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لابتغوا إلى ذى العرش سبيلا ، سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا ، تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن، وان من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا ﴾ «لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة . وما من إله إلا الله ، وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسنّ الذين كفروا منهم عذاب أليم ﴾ ، ﴿ إن هذا لهو القصص الحق ، وما من إله إلا الله ، وان الله لهو العزيز الحكيم . قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ﴾ ، ﴿ قل أفرأيتم[1] ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر هل هنّ كاشفات ضره أو أرادني برحمة هل هنّ ممسكات رحمته ، قل حسبى الله ، عليه يتوكل المتوكلون ﴾ ، ﴿ قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى السموات أم آتيناهم كتابا فهم على بينة منه بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضا إلا غرورا ﴾ ، ﴿ قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى السموات ائتونى بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين ﴾ ، ﴿ قل من رب السموات والأرض ، قل الله قل أفاتخذتم من دون الله أولياء لا يملكون لأنفسهم (نفعا ولا ضرا)[2] قل هل يستوى الأعمى والبصير ، أم هل تستوى الظلمات والنور ، أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم ، قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار ﴾ ، ﴿ قل إنما أنا منذر، وما من إله إلا الله الواحد القهار ، رب السموات والأرض وما بينهما العزيز الغفار﴾.

(١) فى الأصل « أرأيتم » .

(٢) ورد ما بين القوسين معكوسا فى الأصل .

﴿ وبشروط سبعة قد قيدت   وفي نصوص الوحي حقا وردت ﴾

﴿ فانه لم ينتفع قائلها   بالنطق إلا حيث يستكملها ﴾

(وبشروط سبعة) متعلق بقيدت (قد قيدت) أى قيد بها انتفاع قائلها بها فى الدنيا والآخرة من الدخول فى الإسلام والفوز بالجنة والنجاة من النار . (وفى نصوص الوحى) من الكتاب والسنة (حقا وردت) صريحة صحيحة (فانه) أى الشأن وذلك علة تقييدها بهذه الشروط السبعة (لم ينتفع قائلها) أى قائل لا إله إلا الله (بالنطق) أى بنطقه بها مجردا (إلا حيث يستكملها) أى هذه الشروط السبعة ، ومعنى استكمالها اجتماعها فى العبد والتزامه إياها بدون مناقضة منه لشيء منها ، وليس المراد من ذلك عد ألفاظها وحفظها فكم من عامى اجتمعت فيه والتزمها ولو قيل له اعددها لم يحسن ذلك . وكم حافظ لألفاظها يجرى فيها كالسهم وتراه يقع كثيرا فيما يناقضها ، والتوفيق بيد الله ، والله المستعان .

﴿ العلم واليقين والقبول   والانقياد فادر ما أقول ﴾

﴿ والصدق والإخلاص والمحبه   وفقك الله لما أحبه ﴾

هذا تفصيل الشروط السبعة السابق ذكرها التى قيدت بها هذه الشهادة فأصغ سمعك وأحضر قلبك لاملاء أدلتها وتفهمها وتعقلها ، ثم اعمل على وفق ذلك ، تفز بسعادة الدنيا والآخرة إن شاء الله عز وجل كما وعد الله تعالى ذلك إنه لا يخلف الميعاد :

الأول (العلم) بمعناها المراد منها نفيا وإثباتا المنافى للجهل بذلك ، قال الله عز وجل **﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله ﴾** وقال تعالى **﴿ إلا من شهد بالحق ﴾** أى بـلا إله إلا الله **﴿ وهم يعلمون ﴾** بقلوبهم معنى ما نطقوا به بألسنتهم . وقال تعالى **﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾** وقال تعالى **﴿قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، إنما يتذكر أولوا الألباب ﴾** وقال تعالى **﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾** وقال تعالى **﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس ، وما يعقلها إلا العالمون ﴾** وفى الصحيح عن عثمان رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « من مات وهو يعلم أنه لا إله إلى الله دخل الجنة » .

(واليقين) أى والثانى اليقين المنافى للشك بأن يكون قائلها مستيقنا بمدلول هذه الكلمة يقينا جازما ، فان الايمان لا يغنى فيه إلا علم اليقين لا علم الظن ، فكيف إذا دخله الشك ، قال الله عز وجل **﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا**

وجاهدوا فى سبيل الله » إلى قوله « أولئك هم الصادقون ﴾ فاشترط فى صدق إيمانهم بالله ورسوله كونهم لم يرتابوا ، أى لم يشكوا ، فأما المرتاب فهو من المنافقين ـ والعياذ بالله ـ الذين قال الله تعالى فيهم ﴿ إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم فى ريبهم يترددون ﴾ وفى الصحيح من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « أشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله ، لا يلقى الله بهما عبد غير شاكّ فيهما إلا دخل الجنة » وفى رواية « لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيهما فيحجب عن الجنة » . وفيه عنه رضى الله عنه من حديث طويل أن النبى ﷺ بعثه بنعليه فقال « من لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقنا بها قلبه فبشره بالجنة » الحديث، فاشترط فى دخول قائلها الجنة أن يكون مستيقنا بها قلبه غير شاك فيها، وإذا انتفى الشرط انتفى المشروط .

(و) الثالث (القبول) لما اقتضته هذه الكلمة بقلبه ولسانه ، وقد قص الله عز وجل علينا من أنباء ما قد سبق من إنجاء من قبلها وانتقامه ممن ردها وأباها كما قال تعالى ﴿وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون . قال أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم ، قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون . فانتقمنا منهم ، فانظر كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ وقال تعالى ﴿ ثم ننجى رسلنا والذين آمنوا ، كذلك حقا علينا ننجى المؤمنين ﴾ وقال تعالى ﴿ ولقد أرسلنا من قبلك رسلا إلى قومهم فجاءوهم بالبينات فانتقمنا من الذين أجرموا ، وكان حقا علينا نصر المؤمنين ﴾ وكذلك أخبرنا بما وعد به القابلين لها من الثواب ، وما أعده لمن ردها من العذاب ، كما قال تعالى ﴿ احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون . من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم ، وقفوهم إنهم مسئولون ﴾ إلى قوله ﴿ إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون . ويقولون أإنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون ﴾ فجعل الله تعالى علة تعذيبهم وسببه هو استكبارهم عن قول لا إله إلا الله ، وتكذيبهم من جاء بها ، فلم ينفوا ما نفته ولم يثبتوا ما أثبتته ، بل قالوا انكارا واستكبارا ﴿أجعل الآلهة إلها واحدا ، ان هذا لشىء عجاب . وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم ان هذا لشىء يراد . ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة ، إن هذا إلا اختلاق ﴾ وقالوا ههنا ﴿ أإنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون ﴾ فكذبهم الله عز وجل ورد ذلك عليهم عن رسوله ﷺ فقال ﴿ بل جاء بالحق وصدق المرسلين ﴾ الى آخر الايات ، ثم قال فى شأن من قبلها ﴿ إلا عباد الله المخلصين ، أولئك لهم رزق معلوم ، فواكه وهم مكرمون ، فى جنات النعيم ﴾ الى آخر الايات ، وقال تعالى ﴿ من جاء بالحسنة فله خير منها وهم

من فزع يومئذ آمنون ﴾ وفي الصحيح عن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال « مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا ، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به » .

(و) الرابع (الانقياد) لما دلت عليه المنافي الترك ذلك قال الله عز وجل ﴿ **وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له** ﴾ وقال تعالى ﴿ **ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو مؤمن** ﴾ وقال تعالى ﴿ **ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى** ﴾ أي بلا إله إلا الله ﴿ **وإلى الله عاقبة الأمور** ﴾ ومعنى يسلم وجهه أي ينقاد ، وهو محسن موحد. ومن لم يسلم وجهه إلى الله ولم يك محسنا فانه لم يستمسك بالعروة الوثقى ، وهو المعنيُّ بقوله عز وجل بعد ذلك ﴿ **ومن كفر فلا يحزنك كفره ، إلينا مرجعهم فننبؤهم بما عملوا** ﴾ ، ﴿ **إن الله عليم بذات الصدور . نمتعهم قليلا ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ** ﴾ وفي حديث صحيح أن رسول الله ﷺ قال « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به » وهذا هو تمام الانقياد وغايته .

(و) الخامس (الصدق) فيها المنافي للكذب ، وهو أن يقولها صدقا من قلبه يواطىء قلبه لسانه ، قال الله عز وجل ﴿ **الم . أحسب الناس أن يُتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين** ﴾ الى آخر الآيات . وقال تعالى في شأن المنافقين الذين قالوها كذبا ﴿ **ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين . يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون . في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون** ﴾ وكم ذكر الله تعالى من شأنهم وأبدى وأعاد وكشف أستارهم وهتكها وأبدى فضائحهم في غير ما موضع من كتابه كالبقرة وآل عمران والنساء والأنفال والتوبة وسورة كاملة في شأنهم وغير ذلك . وفي الصحيحين عن معاذ بن جبل رضي الله عنه عن النبي ﷺ « ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله صدقا من قلبه إلا حرّمه الله على النار » فاشترط في إنجاء من قال هذه الكلمة من النار أن يقولها صدقا من قلبه ، فلا ينفعه مجرد التلفظ بدون مواطأة القلب . وفيهما أيضا من حديث أنس بن مالك وطلحة بن عبيد الله رضي الله عنهما من قصة الأعرابي وهو ضمام بن ثعلبة وافد بني سعد بن بكر لما سأل رسول الله ﷺ عن شرائع الاسلام فأخبره ، قال : هل عليَّ غيرها ؟ قال « لا ، إلا أن

تطوّع » ، قال : والله لاأزيد عليها ولا أنقص منها ، فقال رسول الله ﷺ « **أفلح إن** صدق» ، وفى بعض الروايات « إن صدق ليدخلن الجنة » فاشترط فى فلاحه ودخول الجنة أن يكون صادقا .

(و) السادس (الاخلاص) وهو تصفية العمل بصالح النية عن جميع شوائب الشرك، قال الله تبارك وتعالى ﴿ **ألا لله الدين الخالص** ﴾ وقال تعالى ﴿ **وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء** ﴾ الآية وقل تعالى ﴿ **فاعبد الله مخلصا له الدين** ﴾ وقال تعالى ﴿ **قل إنى أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين** ﴾ ﴿ **قل الله أعبد مخلصا له دينى**﴾ وقال تعالى ﴿ **إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا ، إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين** ﴾ وغير ذلك من الآيات . وفى الصحيح عن أبى هريرة عن النبى ﷺ « أسعد الناس بشفاعتى من قال لا إله إلا الله خالصا من قلبه أو نفسه » وفى الصحيح عن عتبان بن مالك رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « إن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغى بذلك وجه الله عز وجل» . وفى جامع الترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ «ما قال عبد قط لا إله إلا الله مخلصا إلا فتحت له أبواب السماء حتى تفضى إلى العرش ما اجتنبت الكبائر » قال الترمذى هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه . وللنسائى فى اليوم والليلة من حديث رجلين من الصحابة عن النبى ﷺ « من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له لهَ الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير مخلصا بها قلبه يصدق بها لسانه إلا فتق الله لها السماء فتقاً حتى ينظر إلى قائلها من أهل الارض ، وحق لعبد نظر الله إليه أن يعطيه سؤله » .

(و) السابع (المحبة) لهذه الكلمة ولما اقتضته ودلت عليه ولأهلها العاملين بها الملتزمين لشروطها وبغض ما ناقض ذلك ، قال الله عز وجل ﴿ **ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله ، والذين آمنوا أشد حبا لله** ﴾ ، وقال تعالى ﴿ **ياأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه ، أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم** ﴾ فأخبرنا الله عز وجل أن عباده المؤمنين أشد حبا له ، وذلك لأنهم لم يشركوا معه فى محبته أحدا كما فعل مدّعو محبته من المشركين الذين اتخذوا من دونه أندادا يحبونهم كحبه ، وعلامة حب العبد ربه تقديم محابه وإن خالفت هواه ، وبغض ما يبغض ربه وإن مال إليه هواه ، وموالاة من والى الله ورسوله ومعاداة من عاداه ، واتباع رسوله ﷺ واقتفاء أثره وقبول هداه .وكل هذه العلامات شروط فى المحبة لا يتصور وجود المحبة مع عدم شرط منها قال الله تبارك

وتعالى ﴿ أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا ﴾ الايات ، وقال تعالى ﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة ، فمن يهديه من بعد الله ﴾ فكل من عبد مع الله غيره فهو فى الحقيقة عبد لهواه ، بل كل ما عصى الله به من الذنوب فسببه تقديم العبد هواه على أوامر الله عز وجل ونواهيه . وقال تعالى فى شأن الموالاة والمعاداة فيه ﴿ قد كانت لكم أسوة حسنة فى ابراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده ﴾ الايات ، وقال تعالى ﴿لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حادّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ، أولئك كتب فى قلوبهم الايمان ﴾ الآية ، وقال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ، ومن يتولهم منكم فانه منهم ﴾ الآيات ، وقال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الايمان ، ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون ﴾ الآيتين . وقال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء ﴾ إلى آخر السورة وغير ذلك من الايات . وقال تعالى فى اشتراط اتباع رسوله ﷺ ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم . قل أطيعوا الله والرسول ، فان تولوا فان الله لا يحب الكافرين ﴾ وقال رسول الله ﷺ « ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الايمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود فى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف فى النار » أخرجاه من حديث أنس رضى الله عنه . وفيهما عنه وعن أبى هريرة رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين » . وفى كتاب الحجة بسند صحيح عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به » وذلك الذى جاء به الرسول ﷺ هو الخبر عن الله والأمر بما يحبه الله ويرضاه والنهى عما يكره ويأباه ، فاذا امتثل العبد ما أمره الله به واجتنب ما نهى الله عنه وإن كان ذلك مخالفا لهواه كان مؤمنا حقا ، فكيف إذا كان لا يهوى سوى ذلك . وفى الحديث «أوثق عرى الايمان الحب فى الله والبغض فيه » ، وقال ابن عباس رضى الله عنهما : من أحب فى الله وأبغض فى الله ، ووالى فى الله وعادى فى الله ، فانما تنال ولاية الله بذلك . وقد أصبح غالب مواخاة الناس اليوم على أمر الدنيا ، وذلك لا يجدى على أهله شيئا . وقال الحسن البصرى وغيره من السلف : ادّعى قوم محبة الله عز وجل فابتلاهم الله بهذه

الاية ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم . قل أطيعوا الله والرسول ، فان تولوا فإن الله لا يحب الكافرين ﴾ وقال البخارى رحمه الله تعالى : حدثنا محمد بن سنان قال حدثنا فليح قال حدثنا هلال بن على عن عطاء بن يسار عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « كل أمتى يدخلون الجنة إلا من أبى » قالوا : يا رسول الله ومن يأبى ؟ قال : «من أطاعنى دخل الجنة ، ومن عصانى فقد أبى »[1] . قال حدثنا محمد بن عبادة أخبرنا يزيد حدثنا سليم ـ وأثنى عليه ـ حدثنا سعيد بن ميناء حدثنا ـ أوسمعت ـ جابر بن عبد الله رضى الله عنهما يقول : جاءت ملائكة إلى النبى ﷺ وهو نائم فقال بعضهم : إنه نائم ، وقال بعضهم : إن العين نائمة والقلب يقظان. فقالوا : إن لصاحبكم هذا مثلا فاضربوا له مثلا ، فقال بعضهم : إنه نائم ، وقال بعضهم : إن العين نائمة والقلب يقظان . فقالوا : إن مثله كمثل رجل بنى دارا وجعل فيها مأدبة وبعث داعيا ، فمن أجاب الداعى دخل الدار وأكل من المأدبة ، ومن لم يجب الداعى لم يدخل الدار ولم يأكل من المأدبة . فقالوا : أولوها له يفقهها ، فقال بعضهم : إنه نائم ، وقال بعضهم : إن العين نائمة والقلب يقظان . فقالوا : فالدار الجنة والداعى محمد ﷺ ، فمن أطاع محمدا ﷺ فقد أطاع الله ، ومن عصى محمدا ص فقد عصى الله ، ومحمد ﷺ فَرَقَ بين الناس . ومن هنا يعلم أنه لا تتم شهادة أن لا إله إلا الله إلا بشهادة أن محمدا رسول الله ﷺ ، فاذا علم أنه لا تتم محبة الله عز وجل إلا بمحبة ما يحبه وكراهة ما يكرهه ، فلا طريق إلى معرفة ما يحبه تعالى ويرضاه ، وما يكرهه ويأباه إلا باتباع ما أمر به رسول الله ﷺ واجتناب ما نهى عنه ، فصارت محبته مستلزمة لمحبة رسول الله وتصديقه ومتابعته ، ولهذا قرن محبته بمحبة رسول الله ﷺ فى مواضع كثيرة من القرآن كقوله عز وجل ﴿ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحبَّ إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى بأمره ، والله لا يهدى القوم الفاسقين ﴾ وغير ذلك من الآيات .

ثم اعلم أن الأحاديث الدالة على أن الشهادتين سبب لدخول الجنة والنجاة من النار لا تناقض بينها وبين أحاديث الوعيد التى فيها : من فعل ذنب كذا فالجنة عليه حرام، أو لا

(١) انظر فتح البارى شرح صحيح البخارى من تحقيقنا ح ٦٨٥٢ .

يدخل الجنة من فعل كذا ، لإمكان الجمع بين النصوص بأنها جنان كثيرة كما أخبر النبى ﷺ وبأن أهل الجنة أيضا متفاوتون في دخول الجنة فى السبق وارتفاع المنازل ، فيكون فاعل هذا الذنب لا يدخل الجنة التى أعدت لمن لم يرتكبه ، أو لا يدخلها فى الوقت الذى يدخل فيه من لم يرتكب ذلك الذنب ، وهذا واضح مفهوم للعارف بلغة العرب . وكذلك لا تناقض بين الأحاديث التى فيها تحريم أهل هاتين الشهادتين على النار وبين الأحاديث التى فيها إخراجهم منها بعد أن صاروا حمما لإمكان الجمع بأن تحريم من يدخلها بذنبه من أهل التوحيد بأن تحريمه عليها يكون بعد خروجه منها برحمة الله ثم بشفاعة الشافعين ، ثم يغتسلون فى نهر الحياة ويدخلون الجنة ، فحينئذ قد حرموا عليها فلا تمسهم بعد ذلك . أو يكون المراد أنهم يحرمون مطلقا على النار التى أعدت للكافرين التى لا يخرج منها من دخلها ، وهى ما عدا الطبقة العليا من النار التى يدخلها بعض عصاة أهل التوحيد ممن شاء الله تعالى عقابه وتطهيره بها على قدر ذنبه ، ثم يخرجون فلا يبقى فيها أحد . وهذه إشارة كافية فى هذا الموضع ، وسنذكر إن شاء الله تعالى بسط ذلك فى موضعه عند ذكر الشفاعات ، ونذكر الأحاديث التى فيها هذا وهذا ، والأحاديث التى يكون بها الجمع بين ذلك . وقد ذكر الحافظ ابن رجب رحمه الله تعالى فى هذا الباب كلاما حسنا بعد سياقه حديث معاذ وحديث عتبان وحديث أبى ذر وحديث عبادة وقد تقدمت مع غيرها من الأحاديث . قال : وأحاديث هذا الباب نوعان : أحدهما ما فيه أن من أتى بالشهادتين دخل الجنة ولم يحجب عنها ، وهذا ظاهر ، فان النار لا يخلد فيها أحد من أهل التوحيد الخالص ، بل يدخل الجنة ولا يحجب عنها إذا طهر من ذنوبه بالنار، وقد يعفو الله عنه فيدخله الجنة بلا عقاب قبل . وحديث أبى ذر معناه أن الزنا والسرقة لا يمنعان دخول الجنة مع التوحيد ، وهذا حق لا مرية فيه ، وليس فيه أن لا يعذب عليهما مع التوحيد ، وفى مسند البزار عن أبى هريرة رضى الله عنه مرفوعا « من قال لا إله إلا الله نفعته يوما من الدهر يصيبه قبل ذلك ما أصابه » . الثانى فيه أن يحرم على النار ، وقد حمله بعضهم على الخلود فيها أو على ما يخلد فيها أهلها . وهى ماعدا الدرك الأعلى من النار ، فان الدرك الأعلى يدخله كثير من عصاة الموحدين بذنوبهم ثم يخرجون بشفاعة الشافعين وبرحمة أرحم الراحمين . وفى الصحيحين « ان الله تعالى يقول : وعزتى وجلالى لأخرجن من النار من قال لا إله إلا الله » وقالت طائفة من العلماء : المراد من هذه الأحاديث أن لا إله إلا الله سبب لدخول الجنة والنجاة من النار ومقتض لذلك ، ولكن المقتضى لا يعمل عمله إلا باستجماع شروطه وانتفاء موانعه ، فقد يتخلف عنه مقتضاه

لفوات شرط من شروطه أو لوجود مانع ، وهذا قول الحسن ووهب ابن منبه وهو أظهر . وقال الحسن للفرزدق وهو يدفن امرأته : ما أعددت لهذا اليوم ؟ قال : شهادة أن لا إله إلا الله منذ سبعين سنة . قال الحسن : نعم العدة ، لكن للا إله إلا الله شروطا ، فإياك وقذف المحصنات . وقيل للحسن : إن ناسا يقولون من قال لا إله إلا الله دخل الجنة ، فقال : من قال لا إله إلا الله فأدى حقها وفرضها دخل الجنة . وقال وهب بن منبه لمن سأله : أليس مفتاح الجنة لا إله إلا الله ؟ قال : بلى ، ولكن ما من مفتاح إلا له أسنان ، فإن أتيت بمفتاح له أسنان فتح لك ، وإلا لم يفتح لك . وهذا الحديث « ان مفتاح الجنة لا إله إلا الله » أخرجه الإمام أحمد بأسناد منقطع عن معاذ رضى الله عنه قال : قال لى رسول الله ﷺ « إذا سألك أهل اليمن عن مفتاح الجنة فقل : لا إله إلا الله » ويدل على هذا كون النبى ﷺ رتب دخول الجنة على الأعمال الصالحة فى كثير من النصوص ، كما فى الصحيحين عن أبى أيوب أن رجلا قال : يا رسول الله ، أخبرنى بعمل يدخلنى الجنة . قال « تعبد الله لا تشرك به شيئا ، وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصل الرحم » . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رجلا قال : يا رسول الله ، دلنى على عمل إذا عملته دخلت الجنة . قال « تعبد الله لا تشرك به شيئا . وتقيم الصلاة المكتوبة وتؤدى الزكاة المفروضة وتصوم رمضان » فقال الرجل : والذى نفسى بيده لا أزيد على هذا شيئا ولا أنقص منه ، فقال النبى ﷺ « من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا » . وفى المسند عن بشير بن الخصاصية قال : أتيت النبى ﷺ لأبايعه ، فاشترط علىَّ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وأن أقيم الصلاة وأن أوتى الزكاة وأحج حجة الاسلام وأن أصوم رمضان وأن أجاهد فى سبيل الله ، فقلت : يا رسول الله ، أما اثنتين فوالله ما أطيقهما ، الجهاد والصدقة . فقبض رسول الله ﷺ يده ثم حركها وقال « فلا جهاد ، ولا صدقة ! فبم تدخل الجنة إذا ؟ » قلت : أبايعك، فبايعته عليهن كلهن. ففى الحديث أن الجهاد والصدقة شرط فى دخول الجنة مع حصول التوحيد والصلاة والصيام والحج . ونظير هذا أن النبى ﷺ قال « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ﷺ »[1] ففهم عمر وجماعة من الصحابة أن من أتى بالشهادتين امتنع من عقوبة الدنيا بمجرد ذلك ، فتوقفوا فى قتال مانعى الزكاة . وفهم الصديق رضى الله عنه أنه لا يمتنع قتاله إلا بإداء حقوقها لقوله ﷺ « فاذا فعلوا ذلك منعوا منى دماءهم

(١) انظر الفتح ح ٦٨٥٥ .

وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله » . وقال الزكاة حق المال . وهذا الذى فهمه الصديق رضى الله عنه قد رواه عن النبى ﷺ صريحا غير واحد من الصحابة ، منهم ابن عمر وأنس وغيرهما رضى الله عنهم ، وأنه قال « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة » ودل على ذلك قوله تعالى ﴿ **فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة** ﴾ الآية ولا تثبت إلا بأداء الفرائض مع التوحيد ، ولما قرر أبو بكر رضى الله عنه هذا للصحابة رجعوا إلى قوله ورأوه صوابا ، فاذا علم أن عقوبة الدنيا لا ترتفع عمن أدى الشهادتين مطلقا ، بل يعاقب باخلاله بحق من حقوق الاسلام ، فكذلك عقوبة الآخرة . وقد ذهب طائفة إلى أن هذه الأحاديث المذكورة أولا وما فى معناها كانت قبل نزول الفرائض والحدود ، منهم الزهرى والثورى وغيرهما ، وهذا بعيد جدا ، فان كثيرا منها كانت بالمدينة بعد نزول الفرائض والحدود ، وفى بعضها أنه كان فى غزوة تبوك وهى فى آخر حياة النبى ﷺ ، وهؤلاء منهم من يقول : هذه الأحاديث منسوخة ، ومنهم من يقول هى محكمة ولكن ضم إليها شرائط، ويلتفت هذا إلى أن زيادة النص هل هى نسخ أم لا ؟ والخلاف فى ذلك بين الأصوليين مشهور ، وقد صرح الثورى بأنها منسوخة ، وأنه نسختها الفرائض والحدود . وقد يكون مرادهم بالنسخ البيان والايضاح ، فان السلف كانوا يطلقون النسخ على مثل ذلك كثيرا ويكون مرادهم أن آيات الفرائض والحدود تبين توقف دخول أهل الجنة والنجاة من النار على فعل الفرائض واجتناب المحارم فصارت النصوص منسوخة أى مبينة مفسرة ، ونصوص الحدود والفرائض ناسخة أى مفسرة لمعنى تلك النصوص موضحة لها . وقالت طائفة تلك النصوص المطلقة قد جاءت مقيدة فى أحاديث أخر ، ففى بعضها « من قال لا إله إلا الله مخلصا دخل الجنة » وفى بعضها « مستيقنا » . وفى بعضها « مصدقا بها قلبه لسانه » . وفى بعضها يقولها من قلبه وفى بعضها « قد ذل بها لسانه واطمأن بها قلبه» . وهذا كله إشارة إلى عمل القلب وتحققه بمعنى الشهادتين ، فتحققه بمعنى شهادة أن لا إله إلا الله أن لا يأله قلبه غير الله حبا ورجاء وخوفا وطمعا وتوكلا واستعانة وخضوعا وإنابة وطلبا . وتحققه بشهادة أن محمدا رسول الله ﷺ أن لا يعبد بغير ما شرعه على لسان نبيه محمد ﷺ ، وهذا المعنى جاء مرفوعا إلى النبى ﷺ أنه قال « من قال لا إله إلا الله مخلصا دخل الجنة» قيل: ما إخلاصها يا رسول الله ؟ قال « أن تحجزك عما حرم الله عليك » وهذا يروى من حديث أنس بن مالك وزيد بن أرقم ، ولكن إسنادهما لا

يصح . وجاء أيضا من مراسيل الحسن نحوه ، وتحقيق هذا المعنى وإيضاحه أن قول العبد « لا إله إلا الله » يقتضى أن لا إله غير الله ، والإله الذى يطاع ولا يعصى هيبة وإجلالا ومحبة وخوفا ورجاء وتوكلا عليه وسؤالا منه ودعاء له ، ولا يصلح ذلك كله لغير الله عز وجل ، فمن أشرك مخلوقا فى شىء من هذه الأمور التى هى من خصائص الإلهية كان ذلك قدحا فى إخلاصه فى قوله لا إله إلا الله ونقصا فى توحيده ، وكان فيه من عبودية المخلوق بحسب ما فيه من ذلك ، وهذا كله من فروع الشرك ، ولهذا ورد إطلاق الكفر والشرك على كثير من المعاصى التى منشأها من طاعة غير الله عز وجل أو خوفه أو رجائه أو التوكل عليه أو العمل ، كما ورد إطلاق الكفر والشرك على الربا وعلى الحلف بغير الله عز وجل وعلى التوكل على غير الله والاعتماد عليه وعلى من سوّى بين الله وبين المخلوق فى المشيئة مثل أن يقول : ما شاء الله وشاء فلان ، وكذا قوله : مالى إلا الله وأنت ، وكذلك ما يقدح فى التوحيد وتفرد الله بالنفع والضر كالطيرة والرقى المكروهة وإتيان الكهان وتصديقهم بما يقولون . وكذلك اتباع هوى النفس فيما نهى الله عنه قادح فى تمام التوحيد وكماله ، ولهذا أطلق الشرع على كثير من الذنوب التى منشأها من هوى النفس أنها كفر وشرك كقتال المسلم ومن أتى حائضا أو امرأة فى دبرها ومن شرب الخمر فى المرة الرابعة وإن كان ذلك لا يخرجه من الملة بالكلية ، ولهذا قال السلف : كفر دون كفر ، وشرك دون شرك ، وقد ورد إطلاق الإله على الهوى المتبع قال تعالى ﴿ **أرأيت من اتخذ إلهه هواه** ﴾ قال الحسن رحمه الله : هو الذى لا يهوى شيئا إلا ركبه ، وقال قتادة : هو الذى كلما هوى شيئا ركبه وكلما اشتهى شيئا أتاه لا يحجزه عن ذلك ورع . وروى من حديث أبى أمامة مرفوعا باسناد ضعيف « ما تحت ظل السماء إله يعبد أعظم عند الله من هوى متبع » . وفى حديث آخر « لا تزال لا إله إلا الله تدفع عن أصحابها حتى يؤثروا دنياهم على دينهم ، فاذا فعلوا ذلك ردت عليهم ويقال لهم كذبتم » . ويشهد لهذا الحديث الصحيح عن النبى ﷺ « تعس عبد الدينار ، تعس عبد الدرهم ، تعس عبد القطيفة ، تعس عبد الخميصة ، تعس وانتكس ، وإذا شيك فلا انتقش » ، فدل هذا على أن من أحب شيئا وأطاعه ، وكان من غاية قصده ومطلوبه ، ووالى لأجله وعادى لأجله ، فهو عبده ، وكان ذلك الشىء معبوده وإلهه . ويدل عليه أيضا أن الله تعالى سمى طاعة الشيطان فى معصيته عبادة للشيطان كما قال تعالى ﴿ **ألم أعهد إليكم يا بنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين** ﴾ وقال تعالى حاكيا عن خليله إبراهيم عليه السلام لأبيه ﴿ **يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا** ﴾ فمن لم يتحقق بعبودية الرحمن وطاعته فانه يعبد الشيطان بطاعته ، ولم يخلص من عبادة الشيطان إلا من

أخلص عبودية الرحمن وهم الذين قال فيهم ﴿ **إن عبادى ليس لك عليهم سلطان** ﴾ فهم الذين حققوا قول لا إلا الله وأخلصوا فى قولها وصدقوا قولهم بفعلهم فلم يلتفتوا إلى غير الله محبة ورجاء وخشية وطاعة وتوكلا ، وهم الذين صدقوا فى قول لا إله إلا الله ، وهم عباد الله حقا . فأما من قال لا إله إلا الله بلسانه ثم أطاع الشيطان وهواه فى معصية الله ومخالفته فقد كذّب قوله فعله ، ونقص من كمال توحيده بقدر معصية الله فى طاعة الشيطان والهوى ﴿ **ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله** ﴾ ، ﴿ **ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله** ﴾ . ثم قال رحمه الله : فياهذا كن عبدا لله لا عبدا للهوى ، فإن الهوى يهوى بصاحبه فى النار ﴿ **أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار** ﴾ ، « تعس عبد الدرهم ، تعس عبد الدينار » . والله لا ينجو غدا من عذاب الله إلا من حقق عبودية الله وحده ولم يلتفت إلى شيء من الأغيار ، من علم أن إلهه ومعبوده فرد فليفرده بالعبودية ولا يشرك بعبادة ربه أحدا . انتهى كلامه رحمه الله تعالى .

فصل فى تعريف العبادة وذكر بعض أنواعها وأن من صرف منها شيئاً لغير الله فقد أشرك

قد عرفت مما قدمنا فى معنى لا إله إلا الله أن الإله هو المألوه الذى تألهه القلوب أى تعبده محبة وتذللا وخوفا ورجاء ورغبا ورهبا وتوكلا عليه واطراحا بين يديه واستعانة به ، والتجاء إليه ، وافتقارا إليه . وذلك لا ينبغى إلا لله عز وجل خالق كل شيء ومصوره ومصرفه ومدبره ، مبدئ الخلق ومعيده ، ومحييه ومبيده ، الفعال لما يريد ، الذى هو على كل شيء شهيد ، الذى لا ملجأ ولا منجا منه إلا إليه ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ﴿**وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يردك بخير فلا راد لفضله ــ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده ــ يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد ، إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد ، وما ذلك على الله بعزيز** ﴾ . والعبد إن أريد به المعبَّد أى المذلل المسخر دخل فيه جميع المخلوقات من جميع العالم العلوى والسفلى من عاقل وغيره ومن رطب ويابس ومتحرك وساكن وظاهر وكامن ومؤمن وكافر وبر وفاجر وغير ذلك ، الكل مخلوق لله عز وجل مسخر بتسخيره مدبر بتدبيره ، ولكل منها رسم يقف عليه وحد ينتهى إليه ﴿ **لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار** ﴾ كل يجرى لأجل مسمى لا يتجاوزه مثقال ذرة ، ذلك تقدير العليم ، وتدبير العدل الحكيم . وإن أريد به العابد خص ذلك بالمؤمنين ، وإن كان أكثر المشركين يعبدون الله عز وجل ويتقربون إليه بكثير من العبادات، لكن لما عبدوا مع الله غيره وأشركوه معه فى إلهيته كانت أعمالهم هباء منثوراً

﴿كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء ﴾ و ﴿كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا ﴾ ، ﴿ كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ﴾ ، ﴿ أو كظلمات في بحر لجيّ يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور ﴾ . ذلك بأنهم ﴿ اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله﴾ و ﴿ اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم ﴾ ، وتولوا الطاغوت فأخرجوهم من النور إلى الظلمات ، وعبدوا الشيطان وقد عهد الله إليهم أن لا يعبدوه وبين لهم عداوته وقال ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾ . وقال ﴿ أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا﴾ فخالفوا أمر الله وتولوا أعداءه وكذبوا رسله وأنبياءه وحاربوا حزبه وأولياءه . وأرادوا تشييد الكفر واعلاءه ورد الحق وإباءه . فأبى الله عز وجل إلا أن يتم نوره ويظهر دينه ويعلي كلمته وينصر أولياءه ويحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ، ويجعل حزبه هم الغالبين، ويجعل العاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين . لكن المؤمنون هم عباده حقا الذين أفردوه بإلهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته ولم يشبهوه بشيء من خلقه ، ولم يسووا شيئا من خلقه به . أولئك الذين تضاعف لهم الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، كما قال تعالى في الأولى ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ﴾ وقال في الثانية ﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم ﴾ وقال في الثالثة ﴿ من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة ، والله يقبض ويبسط واليه ترجعون ﴾ تولوا الله فأخرجهم من الظلمات إلى النور ، أخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الايمان ، ومن ظلمات الضلال إلى نور الهدى ، ومن ظلمات الجهل إلى نور العلم ، ومن ظلمات الغي إلى نور الرشاد . ﴿ ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فان حزب الله هم الغالبون ﴾ ملأ الله قلوبهم بنور معرفته ومحبته والشوق إلى لقائه ، فلم تتسع لغيره ، دنا الشيطان من قلوبهم فاحترق بنور إيمانهم فنكص على عقبه خاسئا حسيرا ، وأيس منهم أن يطيعوه فانقلب مذموما مدحورا . فعند ذلك عزّى نفسه اللعين وقال ﴿ إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ وقال عز وجل ﴿ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان ﴾ حفظوا الله فحفظهم وصدقوا ما عاهدوا الله عليه فلن ينكثوا أيمانهم ، تعرفوا إلى الله في الرخاء بالعبادة فعرفهم في الشدة بالفرج ، صدقوا رسله وآمنوا بكتابه وانقادوا لأمره . وانكفوا عما نهى عنه ، ثم تجردوا لنصرة دينه وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيله ودخل الناس بذلك

فى دين الله أفواجا طوعا وكرها ، وقادوهم إلى الجنة بالسلاسل . نصروا الله فنصرهم ، وشكروه فشكرهم ، وذكروه فذكرهم . عرفوا ما خلقوا له فأقبلوا عليه ، ورأوا ما سواه مما لا يعنيهم فلم يلتفتوا إليه ، وآثروا ما يبقى على ما يفنى ، وتعلقت أرواحهم بالرفيق الأعلى، أولئك هم خاصة الله من خلقه والمصطفون من عباده ، أولئك هم أولياؤه المتقون وحزبه الغالبون ، الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله إنه غفور شكور .

﴿ ثم العبادة هى اسم جامع لكل ما يرضى الإله السامع ﴾

(ثم العبادة) التى خلق الله لها الخلق ، وأخذ بها عليهم الميثاق ، وأرسل بها رسله ونزل كتبه ، ولأجلها خلقت الدنيا والآخرة والجنة واالنار (هى اسم جامع لكل ما) يحب و (يرضى) مبنى للمعروف فاعله (الإله السامع) وهو الله عز وجل من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة ، فالظاهرة كالتلفظ بالشهادتين ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والصوم والحج والجهاد فى سبيل الله والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وإغاثة الملهوف ونصر المظلوم وتعليم الناس الخير والدعوة إلى الله عز وجل وغير ذلك ، والباطنة كالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره وخشية الله وخوفه ورجائه والتوكل عليه والرغبة والرهبة إليه ، والاستعانة به ، والحب والبغض فى الله والموالاة والمعاداة فيه ، وغير ذلك . ثم اعلم أنها لا تقبل الأعمال الظاهرة ما لم يساعدها عمل القلب . ومناط العبادة هى غاية الحب مع غاية الذل ولا تنفع عبادة بواحد من هذين دون الآخر ، ولذا قال من قال من السلف : من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق ، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجىء ، ومن عبده بالخوف وحده فهو حرورى ، ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن موحد . ا هـ . قلت : وبيان كلامهم هذا أن دعوى الحب لله بلا تذلل ولا خوف ولا رجاء ولا خشية ولا رهبة ولا خضوع دعوى كاذبة . ولذا ترى من يدّعى ذلك كثيرا ما يقع فى معاصى الله عز وجل ويرتكبها ولا يبالى ، ويحتج فى ذلك بالإرادة الكونية وأنه مطيع لها ، وهذا شأن المشركين الذين قالوا ﴿ **لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا**﴾ وقالوا ﴿ **لو شاء الرحمن ما عبدناهم ما لهم بذلك من علم** ﴾ وغير ذلك . وإمامهم فى ذلك الاحتجاج هو إبليس إذ قال ﴿ **رب بما أغويتنى** ﴾ . وإنما المحبة نفس وفاق العبد ربه : فيحب ما يحبه ويرضاه ، ويبغض ما يكرهه ويأباه . وإنما تتلقى معرفة محابّ الله ومعاصيه من طريق الشرع ، وإنما تحصل بمتابعة الشارع . ولذا قال الحسن رحمه الله تعالى : ادّعى قوم محبة الله فابتلاهم الله بهذه الآية ﴿ **قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله** ﴾ فمن ادعى محبة الله ولم يك متبعا رسوله فهو كاذب . وقال

الشافعي رحمه الله تعالى : إذا رأيتم الرجل يمشى على الماء أو يطير فى الهواء فلا تصدقوه حتى تعلموا متابعته لرسول الله ﷺ . وكذلك الرجاء وحده إذا استرسل فيه العبد تجرأ على معاصى الله وأمن مكر الله ، وقد قال الله تعالى ﴿ **فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون** ﴾ . وكذلك الخوف وحده إذا استرسل فيه العبد ساء ظنه بربه وقنط من رحمته ويئس من روحه وقد قال تعالى ﴿ **إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون** ﴾ وقال ﴿**ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون**﴾ . فالأمن من مكر الله خسران ، واليأس من روحه كفران ، والقنوط من رحمة الله ضلال وطغيان ، وعبادة الله عز وجل بالحب والخوف والرجاء توحيد وإيمان . فالعبد المؤمن بين الخوف والرجاء كما قال تعالى ﴿**يرجون رحمته ويخافون عذابه**﴾ وقال تعالى ﴿ **أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه** ﴾ . وبين الرغبة والرهبة كما قال تعالى فى آل ذكريا عليهم السلام ﴿**إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا ، وكانوا لنا خاشعين**﴾ فتارة يمده الرجاء والرغبة فيكاد أن يطير شوقا إلى الله ، وطورا يقبضه الخوف والرهبة فيكاد أن يذوب من خشية الله تعالى ، فهو دائب في طلب مرضاة ربه مقبل عليه ، خائف من عقوباته ملتجىء منه إليه ، عائذ به منه راغب فيما لديه . وكذلك هو فى صفات الله عز وجل لا ناف ولا مشبه ، وفى أفعال العباد لا جبرى ولا قدرى ، وفى أصحاب رسول الله ﷺ وأهل بيته ليس بذى النصب ولا التشيع ، وفى الوعد والوعيد ليس بخارجي ولا مرجىء . فدين الله بين الغلو والجفاء والتفريط والافراط ، وخير الامور الأوساط . وللعبادة ركنان لا قوام لها إلا بهما وهما الاخلاص والصدق ، وحقيقة الاخلاص أن يكون قصد العبد وجه الله عز وجل والدار الآخرة كما قال تعالى ﴿ **وسيجنبها الأتقى . الذى يؤتى ماله يتزكى . وما لأحد عنده من نعمة تجزى . إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ولسوف يرضى**﴾ وقال تعالى ﴿ **من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ، ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا . ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا** ﴾ . وقال تعالى ﴿ **وما كان لنفس أن تموت إلا باذن الله كتابا مؤجلا ، ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ، ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها ، وسنجزى الشاكرين**﴾ وقال تعالى ﴿ **من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ، ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له فى الآخرة من نصيب** ﴾ وقال تعالى ﴿ **من كان يريد الحياة لدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون** ﴾ وقال تعالى ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذى ينفق ماله رئاء**

الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر ، فمثله كمثل صفوان عليه تراب فاصابه وابل فتركه صلدا لا يقدرون على شيء مما كسبوا والله لا يهدى القوم الكافرين . ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين . فإن لم يصبها وابل فطل ، والله بما تعملون بصير ﴾ . وفي الصحيحين عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « إنما الاعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه »[١] وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم » وعن أبي موسى رضى الله عنه قال : سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ، ويقاتل حمية ، ويقاتل رياء ، أيّ ذلك في سبيل الله ؟ فقال ﷺ « من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو في سبيل الله» متفق عليه . ولو ذهبنا نذكر أحاديث الاخلاص لطال الفصل . وأما الصدق فهو بذل العبد جهده في امتثال ما أمر الله به ، واجتناب ما نهى الله عنه ، والاستعداد للقاء الله ، وترك العجز ، وترك التكاسل عن طاعة الله ، وإمساك النفس بلجام التقوى عن محارم الله ، وطرد الشيطان عنه بالمداومة على ذكر الله ، والاستقامة على ذلك كله ما استطاع . قال الله تعالى **﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾** وقال تعالى **﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ﴾** الآية ، وقال تبارك وتعالى **﴿ الم . أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين »** إلى قوله **« ومن الناس من يقول آمنا بالله فاذا أوذى في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ، ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم ، أوليس الله بأعلم بما في صدور العالمين . وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين ﴾** وقال تعالى **﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا ﴾** الاية وقال تعالى **﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين »** إلى قوله عز وجل **« وكأيّن من نبى قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين ﴾** إلى آخر الآيات ، وقال تعالى **﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة**

---

(١) الحديث الأول فتح البارى شرح صحيح البخارى من تحقيقنا .

وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ﴾ وفى الصحيح عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ « المؤمن القوىُّ خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كل خير . احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ولا تعجز ، وإن أصابك شىء فلا تقل : لو أنى فعلت كذا وكذا ، ولكن قل : قدر الله ، وما شاء فعل ، فان « لو» تفتح عمل الشيطان » وفى الحديث الآخر « الكيّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله » . واذا اجتمعت النيه الصالحة والعزيمة الصادقة فى هذا العبد قام بعبادة الله عز وجل ثم اعلم أنه لا يقبل منه ذلك إلا بمتابعته الرسول ﷺ فيعبد الله تعالى بوفق ما شرع ، وهو دين الاسلام الذى لا يقبل تعالى من أحد سواه ، كما قال تعالى **﴿ ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾** وفى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ « من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردّ » وفى رواية لمسلم « من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد » فهذه الثلاثة الأركان شروط فى العبادة لا قوام لها إلا بها ، فالعزيمة الصادقة شرط فى صدورها ، والنية الخالصة ، وموافقة السنة شرط فى قبولها ، فلا تكون عبادة مقبولة إلا باجتماعها ، فاخلاص النية بدون صدق العزيمة هوس وتطويل أمل وتمن على الله وتسويف فى العمل وتفريط فيه ، وصدق العزيمة بدون إخلاص فيه يكون شركا أكبر أو أصغر بحسب ما نقص من الإخلاص . فإن كان الباعث على العمل من أصله هو إرادة غير الله فنفاق ، وإن كان دخل الرياء فى تزيين العمل . وكان الباعث عليه أولا إرادة الله والدار الآخرة كان شركا أصغر بحسبه ، حتى إذا غلب عليه التحق بالأكبر . وإخلاص النية مع صدق العزيمة إن لم يكن العمل على وفق السنة كان بدعة وحدثا فى الدين وشرع ما لم يأذن الله به ، فيكون دا على صاحبه ووبالا عليه والعياذ بالله ، فلا يصدر العمل من العبد إلا بصدق العزيمة ، ولا يقبل منه ذلك إلا باخلاص النية واتباع السنة ، ولذا قال الفضيل بن عياض فى قوله تعالى **﴿ ليبلوكم أيكم أحسن عملا ﴾** قال : أخلصه وأصوبه ، يعنى خالصا من شوائب الشرك موافقا للسنة .

﴿ وفى الحديث مخها الدعاء ... خوف توكل كذا الرجاء ﴾
﴿ ورغبة ورهبة خشوع ... وخشية إنابة خضوع ﴾
﴿ والاستعاذة والاستعانه ... كذا استغاثة به سبحانه ﴾
﴿ والذبح والنذر وغير ذلك ... فافهم هديت أوضح المسالك ﴾
﴿ وصرف بعضها لغير الله ... شرك وذاك أقبح المناهى ﴾

(و) ثبت (في الحديث) الذى فى السنن كما سنذكره (مخها) أى مخ العبادة ولبها (الدعاء) قال الله عز وجل ﴿ **وقال ربكم ادعونى أستجب لكم ، إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين** ﴾ وقال تعالى ﴿ **ادعوا ربكم تضرعا وخفية إنه لا يحب المعتدين . ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفا وطمعا إن رحمت الله قريب من المحسنين** ﴾ وقال تعالى ﴿ **وإذا سألك عباد ى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان ، فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون** ﴾ وغير ذلك من الآيات ، وفى جامع الترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « ليس شىء أكرم على الله من الدعاء » وفيه عن أنس بن مالك رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « الدعاء مخ العبادة » وقال غريب من هذا الوجه لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة ، ومعنى « مخ العبادة » أى خالصها . وفيه عن النعمان بن بشير رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « الدعاء هو العبادة » ثم قرأ ﴿ **وقال ربكم ادعونى أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين** ﴾ وقال الترمذى هذا حديث حسن صحيح . وفيه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إنه من لم يسأل الله يغضب عليه » . وفيه من حديث ابن عباس مرفوعا « إذا سألت فاسأل الله » وهو حديث حسن صحيح .

(خوف) أى ومن أنواع العبادة الخوف من الله عز وجل ، قال الله تعالى ﴿ **فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين** ﴾ وقال سبحانه ﴿ **ولمن خاف مقام ربه جنتان** ﴾ وقال تبارك وتعالى ﴿ **والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون** ﴾ وقال عز وجل ﴿ **ويرجون رحمته ويخافون عذابه** ﴾ وقال تبارك اسمه ﴿ **أم من هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه** ﴾ الاية وغيرها من الايات . وقال النبى ﷺ « والذى نفسى بيده لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ، وما تلذذتم بالنساء على الفرشات ولخرجتم إلى الصُّعُدات تجأرون » رواه أحمد وابن ماجه والترمذى عن أبى ذر وحسنه الترمذى . وفى البخارى عن أم العلاء الأنصارية رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ « والله لا أدرى ، والله لا أدرى ـ وأنا رسول الله ﷺ ـ ما يفعل بى ولا بكم» . وفى الترمذى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « ما رأيت مثل النار نام هاربها ، ولا مثل الجنة نام طالبها » وفيه عنه رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « من خاف أدلج ، ومن أدلج بلغ المنزل . ألا إن سلعة الله غالية ، ألا إن سلعة الله الجنة » . وله عن أنس رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « يقول الله جل ذكره : أخرجوا من ذكرنى يوما أو خافنى فى مقامى » وله هو وابن ماجه عن عائشة رضى الله عنها قالت : سألت

رسول الله ﷺ عن هذه الاية ﴿ **والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة** ﴾ هم الذين يشربون الخمر ويسرقون ؟ قال : لا يا ابنة الصديق ، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون وهم يخافون أن لا يقبل منهم ﴿ **أولئك يسارعون فى الخيرات** ﴾ . وفيه من حديث أبى جحيفة قال : قالوا يا رسول الله قد شبتَ ، قال « شيبتنى هود وأخواتها » ومن حديث أبى بكر رضى الله عنه « شيّبتنى هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت » وغير ذلك من الأحاديث .

(توكل) أى ومن أنواع العبادة التوكل على الله عز وجل ، وهو اعتماد القلب عليه وثقته به وأنه كافيه ، قال الله عز وجل ﴿ **وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين** ﴾ فجعله تعالى شرطا فى الإيمان كما وصف المؤمنين أنهم أهله إذ قال تعالى ﴿ **وعلى الله فليتوكل المؤمنون** ﴾ وقال موسى لقومه ﴿ **إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا** ﴾ الايات وقال تعالى عن رسله إذ قالوا لقومهم ﴿ **وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون . وما لنا أن لا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ، ولنصبرن على ما آذيتمونا ، وعلى الله فليتوكل المتوكلون** ﴾ وقال تعالى عن نبيه هود عليه السلام ﴿ **إنى توكلت على الله ربى وربكم ، ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها** ﴾ الاية وكذلك عن نبيه نوح عليه السلام إذ قال لقومه ﴿ **يا قوم إن كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غُمة** ﴾ الآية . وقال تعالى عن شعيب ﴿ **وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب** ﴾ وقال تعالى لنبينا محمد ﷺ ﴿ **فتوكل على الله إنك على الحق المبين** ﴾ وقال تعالى ﴿ **ولله غيب السموات والأرض ، وإليه يرجع الأمر كله ، فاعبده وتوكل عليه** ﴾ وقال تعالى ﴿**رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا** ﴾ وقال تعالى ﴿ **فان تولوا فقل حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم** ﴾ وقال تعالى فى مدح عباده المؤمنين ﴿ **الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل**﴾ وقال تعالى فيهم ﴿ **إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون** ﴾ وقال تبارك وتعالى ﴿ **وما عند الله خير وأبقى للذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون** ﴾ وقال تعالى ﴿ **ومن يتوكل على الله فهو حسبه** ﴾ أى كافيه ، وقال تعالى ﴿ **أليس الله بكاف عبده** ﴾ الجواب: بلى . والآيات فى هذا الباب كثيرة ، وقل ابن عباس رضى الله عنهما فى هذه الاية ﴿**حسبنا الله ونعم الوكيل** ﴾ : قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقى فى النار ، وقالها محمد ﷺ وأصحابه حين ﴿ **قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم**

إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾ وفي الصحيح عنه رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « يدخل الجنة من أمتى سبعون ألفا بلا حساب ، هم الذين لا يسترزقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون »[1] وفى السنن « الطيرة شرك ، الطيرة شرك » قال ابن مسعود: وما منا إلا يتطير، ولكن الله يذهبه بالتوكل . وفي جامع الترمذى وغيره من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « لو أنكم توكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا » وفى حديث الايمان بالقدر « واعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وما أخطأك لم يكن ليصيبك » . وفى مسند أحمد وسنن ابن ماجه والدارمى عن أبى ذر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لى لأعلم آية فى كتاب الله عز وجل لو أخذ الناس بها لكفتهم ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ ولابن ماجه عن عمرو بن العاص رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إن قلب ابن آدم لكل واد شعبة ، فمن أتبع قلبه الشعب كلها لم يبال الله بأى واد هلك ، ومن توكل على الله كفاه الشعب » وغير ذلك من الآيات والأحاديث .

(كذا الرجاء) أى ومن أنواع العبادة الرجاء ، قال الله عز وجل ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا ﴾ وقال تعالى ﴿ من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت ، وهو السميع العليم ﴾ وقال تعالى ﴿ إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون ، أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون ﴾ وغير ذلك من الآيات . وفى الحديث « أنا عند ظن عبدى بى فليظن بى ما شاء » وفى صحيح البخارى من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « إن الله تعالى خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة فأمسك عنده تسعا وتسعين رحمة وأرسل فى خلقه كلهم رحمة واحدة ، فلو يعلم الكافر بكل الذى عند الله من الرحمة لم ييأس من الجنة ، ولو يعلم المؤمن بكل الذى عند الله من العذاب لم يأمن النار » . وقال ﷺ فى دعاء المكروب « اللهم رحمتك أرجو فلا تكلنى إلى نفسى ولا إلى أحد من خلقك طرفة عين » الحديث رواه أبو داود عن أبى بكر .

(ورغبة ورهبة خشوع) أى ومن أنواع العبادة الرغبة فيما عند الله عز وجل من الثواب، وهى راجعة إلى معنى الرجاء . والرهبة مما عند الله من العقاب ، وهى راجعة إلى معنى الخوف . والخشوع هو التذلل لله عز وجل ، قال تعالى فى آل زكريا عليهم السلام ﴿ إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين ﴾ وقال تعالى

(١) انظر فتح البارى شرح صحيح البخارى ح ٣٠٧٥ .

﴿ ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا ﴾ ، وقال تعالى ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة ، وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين . الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون ﴾ وقال تعالى ﴿ قد أفلح المؤمنون ، الذين هم في صلاتهم خاشعون ﴾ ، وقال تعالى ﴿وإياى فارهبون ﴾ وقال تعالى ﴿ فاذا فرغت فانصب ، وإلى ربك فارغب ﴾ وغير ذلك من الآيات . وفي حديث الدعاء عند النوم « اللهم إني أسلمت نفسي إليك ، ووجهت وجهي إليك ، وألجأت ظهري إليك ، وفوضت أمري إليك ، رغبة ورهبة إليك » الحديث في الصحيحين . ولابن أبي حاتم في خطبة أبي بكر رضي الله عنه : أما بعد فاني أوصيكم بتقوى الله عز وجل ، وتثنوا عليه بما هو أهله ، وتخلطوا الرغبة بالرهبة ، وتجمعوا الإلحاف بالمسألة ، فان الله عز وجل أثنى على زكريا وأهل بيته فقال تعالى ﴿ إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا ، وكانوا لنا خاشعين ﴾ وفي الصحيح من حديث دعاء النبي ﷺ في الركوع والسجود « خشع لك سمعي وبصري ومخي وعظمي وعصبي » وغير ذلك من الأحاديث.

(وخشية) أي ومن أنواع العبادة الخشية ، وهي مرادفة للخوف . قال الله عز وجل ﴿فلا تخشوهم واخشون ﴾ ، وقال تعالى في مدح عبادة المؤمنين ﴿ إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون ﴾ الآيات ، وقال تعالى ﴿ والذين هم من عذاب ربهم مشفقون ﴾ الآيات . وقال تعالى في شأن كتابه العزيز ﴿ وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع ﴾ الايات ، وقال تعالى ﴿ طه . ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى . إلا تذكرة لمن يخشى ﴾ وقال تعالى ﴿ إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب ﴾ الآية وقال تعالى ﴿ الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعرُّ منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ﴾ الآية ، وقال تعالى ﴿ هذا ما توعدون لكل أوّاب حفيظ . من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب ﴾ الآيات ، وقال تعالى في شأن الساعة ﴿ إنما أنت منذر من يخشاها .﴾ وقال تعالى ﴿ فذكر إن نفعت الذكرى ، سيذكر من يخشى ﴾ وغير ذلك من الآيات ، وقال تعالى ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا ﴾ الآية . وفي جامع الترمذي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « لا يلج النار رجل بكى من خشية الله تعالى حتى يعود اللبن في الضرع » ، وفيه عن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال « ليس شيء أحب إلى الله من قطرتين وأثرين : قطرة دموع من خشية الله ، وقطرة دم تهراق في سبيل الله . وأما الأثران فأثر في سبيل الله ، وأثر فريضة من فرائض الله تعالى » وقال حديث حسن . وفي الصحيح « إن أخشاكم ، وأتقاكم لله أنا » الحديث وغير ذلك من الأحاديث .

(إنابة) أى ومن أنواع العبادة الإنابة وهى التوبة النصوح ، والرجوع إلى الله تعالى ، قال الله عز وجل ﴿ وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له ﴾ وقال تعالى فى ذكر شعيب ﴿ وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ﴾ وقال تعالى ﴿ وما اختلفتم فيه من شىء فحكمه إلى الله ، ذلكم الله ربى عليه توكلت وإليه أنيب ﴾ وقال تعالى عن إبراهيم والذين معه ﴿ ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير ﴾ وقال تعالى فى شأن عباده المؤمنين ﴿ والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى الله لهم البشرى فبشر عباد﴾[1] وقال عن عبده داود عليه السلام ﴿ فاستغفر ربه وخرّ راكعا وأناب ﴾ وفى ذلك آيات كثيرة سنذكر إن شاء الله ما تيسر منها فى بابه .

(خضوع) أى ومن أنواع العباده الخضوع ، وهو والخشوع والتذلل بمعنى وتقدمت الآيات والأحاديث فيه . (والاستعاذة) أى ومن أنواع العبادة الاستعاذة ، وهى الامتناع بالله عز وجل والالتجاء إليه ، قال عز وجل ﴿ فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ﴾ وقال تعالى ﴿ وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين . وأعوذ بك رب أن يحضرون ﴾ وقال تعالى ﴿ وإما ينزغنّك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم ﴾ ، وقال تعالى ﴿ قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق ﴾ السورة ، وقال تعالى ﴿قل أعوذ برب الناس . ملك الناس . إله الناس . من شر الوسواس الخناس ﴾ السورة . وقال عن كليمه موسى عليه السلام ﴿ وقال موسى إنى عُذت بربى وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب ﴾ وقال تعالى عنه عليه السلام ﴿ وإنى عذت بربى وربكم أن ترجمون ﴾ وقال النبى ﷺ « أعوذ بالله العظيم ، وبوجهه الكريم ، وبسلطانه القديم ، من الشيطان الرجيم . من همزه ونفخه ونفثه » وقال « أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق » وقال « اللهم إنى أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك ، وبك منك » وقال « تعوذوا بالله من الفتن » واستعاذ ﷺ من الهم والحزن والعجز والكسل والبخل والجبن وضلع الدين وغلبة الرجال ، ومن الرد إلى أرذل العمر ومن المأثم والمغرم ومن فتنة القبر وعذاب القبر . ومن فتنة النار وعذاب النار . ومن شر فتنة الغنى . ومن شر فتنة الفقر . ومن فتنة المحيا والممات . ومن فتنة المسيح الدجال وغير ذلك .

(والاستعانة) أى ومن أنواع العبادة الاستعانة ، وهى طلب العون من الله عز وجل ، قال الله تعالى ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ أى لا نعبد إلا إياك ولا نستعين إلا بك ، ونبرأ من كل معبود دونك ومن عابديه ، ونبرأ من الحول والقوة إلا بك ، فلا حول لأحد عن

(١) الآية : ١٧ من سورة الزمر ، وقد وردت فى الأصل بإثبات ياء « عبادى » والصواب حذفها تبعا لرسم المصحف .

معصيتك ، ولا قوة على طاعتك ، إلا بتوفيقك ومعونتك . وقال عن نبيه يعقوب عليه السلام ﴿ **فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون** ﴾ وقال لنبيه محمد ﷺ ﴿ **قال رب احكم بالحق وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون** ﴾ وفي الترمذي من حديث وصية النبي ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما « إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله» الحديث . وقال فيه حسن صحيح ، وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ الحديث وفيه « احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله » وفي الترمذي من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه عن النبي ﷺ « اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك » وغير ذلك من الأحاديث .

(كذا استغاثة به سبحانه) أي ومن أنواع العبادة الاستغاثة بالله عز وجل وهي طلب الغوث منه تعالى من جلب خير أو دفع شر ، قال الله عز وجل ﴿ **إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين** ﴾ وقال تعالى ﴿ **أم من يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله** ﴾ الآية وقال تعالى ﴿ **وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته** ﴾ الآية . ومن دعاء النبي ﷺ « يا حي يا قيوم ، ياذا الجلال والإكرام ، يا بديع السموات والأرض ، برحمتك أستغيث » وفي الطبراني باسناده من حديث ثابت بن الضحاك أنه كان في زمن النبي ﷺ منافق يؤذي المؤمنين ، فقال بعضهم : قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق، فقال ﷺ « إنه لا يستغاث بي ، وإنما يستغاث بالله » ، وفي الصحيح من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه في الاستسقاء : فرفع رسول الله ﷺ يديه ثم قال « اللهم أغثنا ، اللهم أغثنا ، اللهم أغثنا » وغير ذلك من الأحاديث .

(والذبح) أي ومن أنواع العبادة الذبح نسكا لله تعالى من هدى وأضحية وعقيقة وغير ذلك ، قال الله عز وجل ﴿ **فصلِّ لربك وانحر** ﴾ وقال تعالى ﴿ **قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت** ﴾ الآيات وقال تعالى ﴿**والبُدْنَ جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير ، فاذكروا اسم الله عليها صوافَّ ، فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها** ﴾ الآيات . وفي صحيح مسلم عن علي رضي الله عنه قال : حدثني رسول الله ﷺ بأربع كلمات « لعن الله من ذبح لغير الله » الحديث . وفي مسند الإمام أحمد رحمه الله عن طارق بن شهاب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « دخل الجنة رجل في ذباب ، ودخل النار رجل في ذباب . قالوا : وكيف ذلك يا رسول الله ؟ قال : مر رجلان على قوم لهم صنم لا يجاوزه أحد حتى يقرِّب له شيئا ، فقالوا لأحدهما: قرِّب . قال : ليس عندي شيء أقرب . فقالوا له : قرب ولو ذبابا . فقرب ذبابا فخلوا سبيله فدخل النار . فقالوا للآخر : قرب . قال ما كنت لأقرِّب لأحد شيئا دون الله عز وجل : فضربوا عنقه فدخل الجنة » .

(والنذر) أى ومن أنواع العبادة النّذْر لله عز وجل ، قال الله تبارك وتعالى ﴿ ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم ﴾ وقل تعالى ﴿ يوفون بالنّذْر ويخافون يوما كان شرُّه مستطيرا ﴾ ، وقال تعالى ﴿ وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فان الله يعلمه ﴾ الآية وعن عائشة رضى الله عنها عن النبى ﷺ قال « من نذر أن يطيع الله فليطعه ، ومن نذر أن يعصى الله فلا يعصه » رواه الجماعة إلا مسلما وعن عمر رضى الله عنه قال نذرت نذراً فى الجاهلية ، فسألت النبى ﷺ بعدما أسلمت ، فأمرنى أن أوفى بنذرى . رواه ابن ماجه . وقال البخارى رحمه الله تعالى : باب إثم من لا يفى بالنذر ، وذكر حديث عمران ابن حصين رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « خيركم قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم » قال عمران : لا أدرى ذكر اثنتين أو ثلاثا بعد قرنه « ثم يجىء قوم ينذرون ولا يوفون ، ويخونون ولا يؤتمنون ، ويشهدون ولا يستشهدون ، ويظهر فيهم السِّمن » . وعن ابن عمر رضى الله عنهما أن عمر قال : يا رسول الله ، إنى نذرت فى الجاهلية أن أعتكف ليلة فى المسجد الحرام ، قال « أوف بنذرك » وهو فى الصحيح أيضا . ولعله هو النذر الذى فى رواية ابن ماجه مبهما فسرته رواية الصحيح ، وفى حديث الرجل الذى سأل النبى ﷺ فقال له : إن أختى نذرت أن تحج وإنها ماتت ، فقال النبى ﷺ « لو كان عليها دين أكنت قاضيه ؟ قال : نعم . قال : فاقض الله ، فالله أحقُّ بالقضاء » وغير ذلك من أحاديث الأمر بوفاء النذر عن النبى ﷺ .

ومن شرط النذر لله تعالى أن يكون طاعة ، وأن يكون مما يطيقه العبد ، وأن يكون فيما يملك ، وأن لا يكون فى موضع كان يعبد فيه غير الله تعالى أو ذريعة إلى عبادة غير الله تعالى ، ولئن كان معلقا بحصول شىء فلا يعتقد الناذر تأثير النذر فى حصوله . أما الأول فلقوله ﷺ « لا نذر فى معصية الله ، ولا فى قطيعة رحم » الحديث رواه أبو داود ، وكذا حديث عائشة السابق وغيره . وأما الثانى فلحديث عقبة بن عامر رضى الله عنه قال : نذرت أختى أن تمشى إلى بيت الله ، فأمرتنى أن أستفتى لها رسول الله ﷺ ، فاستفتيته فقال «لتمش ولتركب » متفق عليه . وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : بينما النبى ﷺ يخطب إذ هو برجل قائم ، فسأل عنه فقالوا أبو إسرائيل نذر أن يقوم فلا يقعد ولا يستظل ولا يتكلم ويصوم ، فقال النبى ﷺ « مره فليتكلم وليستظل وليقعد وليتم صومه » فأمره ﷺ بترك ما لم يكن مطيقه ولم يكن مشروعا ، وأمره باتمام الصوم لكونه يطيقه ولكونه مشروعا . وأما الثالث فلقوله ﷺ « لا وفاء لنذر فى معصية الله ، ولا فيما لا يملك ابن آدم» رواه أبو داود وغيره وإسناده صحيح وأما الرابع فلحديث ثابت بن الضحاك أن رجلا أتى النبى فقال : إنى نذرت أن أنحر إبلا ببوانة ، فقال « كان فيها وثن من أوثان الجاهلية

يعبد » ؟ فقالوا لا ، قال « فهل كان فيها عيد من أعيادهم » ؟ قالوا لا ، قال « أوف بنذرك ، فانه لا وفاء لنذر فى معصية الله ولا فيما لا يملك ابن آدم » رواه أبو داود . وفى سدّ الذرائع إلى ذلك حديث النهى عن اتخاذ القبور مساجد ، ولعن من فعل ذلك كما سيأتى إن شاء الله تعالى . وأما الخامس فعن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال « إن النذر لا يقدم شيئا ولا يؤخره ، وإنما يستخرج بالنذر من البخيل » وهو فى الصحيح . وفيه فى رواية عنه نهى النبى ﷺ عن النذر وقال « إنه لا يرد شيئا ، ولكنه يستخرج به من البخيل » وفيه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال النبى ﷺ « لا يأتى ابنَ آدم النذر بشىء ، ولكن يلقيه النذرُ إلى القدر قد قُدِّرَ له ، فيستخرج الله به من البخيل ، فيؤتى عليه ما لم يكن يؤتى عليه من قبل » وغير ذلك من الأحاديث ، وفيما ذكرنا كفاية إن شاء الله تعالى .

(وغير ذلك) أى من العبادات الظاهرة والباطنة والتسبيح والتحميد والتمجيد والتهليل والتكبير ، وتلاوة القرآن وتدبره وتعلمه وتعليمه وسائر الأذكار المشروعة ومحبة الله ورسوله والمؤمنين ، والحب فى الله والبغض فيه والموالاة والمعاداة لأجله ، وغير ذلك من العبادات التى لا تخرج عن تعريفنا السابق بأن العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة ، وأن مناطها الذى لا قوام لها إلا به هو كمال الحب وغايته مع غاية الذل ، ولا تسمى عبادة إلا مع ذلك كله . فالمحبة وحدها التى لم يكن معها خوف ولا تذلل كمحبة المطعم والمشرب والأهل والمال والولد وغير ذلك ليست بعبادة . وكذلك الخوف بدون محبة للمخوف منه كالخوف من عدوّ أو غرق أو حرق ونحو ذلك لم يكن عبادة ، فاذا اجتمعا فى العمل كان عبادة : إن كانت لله فهو التوحيد الذى هو أشرف المطالب ، وإن كانت لغيره فالشرك الأكبر المخلد صاحبه فى النار والعياذ بالله . ولذا قلنا (وصرف بعضها) أىّ شىء منها قلّ أو كثر (لغير الله) كائنا من كان من ملك أو نبى أو ولى أو قبر أو جنى أو شجر أو حجر أو غيره ، كل ذلك (شرك) أكبر ، (وذاك) إشارة إلى الشرك هو (أقبح المناهى) على الإطلاق ، قال الله عز وجل ﴿ **ومن أضلُّ ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون** ﴾ الآيات، أى لا أحد أضل منه ، وقال تعالى ﴿ **ومن يدع مع الله إلها آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون** ﴾ وقال الله عز وجل ﴿ **إن الشرك لظلم عظيم**﴾ فالشرك أعظم الظلم ، لأن الظلم[1] هو وضع الشىء فى غير موضعه ، ولا أعظم

(١) معلوم أن الظلم فى اللغة هو وضع الشىء فى غير موضعه ، والشرك هو إعطاء حق الألوهية لغير الله ، أى وضعه فى غير موضعه ، من هنا كان الشرك من أعظم الظلم .

ظلما من شكاية العبد ربه الذى هو أرحم الراحمين فيما أصابه من ضر أو فاته من خير إلى من لا يرحمه ولا يسمعه ولا يبصره ولا يعلمه ولا يملك لنفسه ولا لداعيه من ضر ولا نفع ولا موت ولا حياة ولا نشور ، ولا يغنى عنه مثقال ذرة ، وعدوله عمن بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه ، ويفزع فى قضاء حوائجه إلى من لا قدرة له على شيء البتة ﴿ **والذين يدعون من دونه ما يملكون من قطمير . إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبؤك مثل خبير** ﴾ وصرفه عبادة خالقه ـ الذى خلقه لعبادته وتوحيده ورباه بنعمه الظاهرة والباطنة وحفظه وكلأه بالليل والنهار وحماه من جميع المخاوف والأخطار ـ لمخلوق مثله خلقه الله بقدرته ولم يك من قبل شيئا ، بل هو مسخر مدبر مربوب متصرف فيه الله تعالى بما شاء من أنواع التصرف لا يبدى حراكا ولا ينفك من قبضة الله عز وجل، بل هو خلقه وملكه مخلوق لعبادته فيرفعه من درجه العبودية والتأله إلى جعله مألوها معبودا ﴿ **ضرب لكم مثلا من أنفسكم : هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء** ﴾ الآية ، هذا والله أظلم الظلم وأقبح الجهل وأكبر الكبائر ، ولذا لم تدع الرسل إلى شيء قبل التوحيد ، ولم تنه عن شيء قبل التنديد ، ولم يتوعد الله على ذنب أكبر مما جاء على الشرك من الوعيد الشديد . وفى الصحيح عن ابن مسعود رضى الله عنه : قلت يا رسول الله أى الذنب أعظم ؟ قال « أن تجعل لله ندا وهو خلقك » .

وسنذكر إن شاء الله من الايات والأحاديث قريبا ما تقرُّ به أعين الموحدين ، وتدحض شبهة المعاندين ، ويدمغ باطل الملحدين . والله المستعان وبه التوفيق .

فصـــل

في بيان ضد التوحيد وهو الشرك
وكونه ينقسم إلى قسمين أكبر وأصغر ، وبيان كل منهما

قد قدمنا انقسام التوحيد إلى قسمين : توحيد المعرفة والإثبات وهو توحيد الربوبية والأسماء والصفات ، وتوحيد الطلب والقصد وهو توحيد الإلهية والعبادة . ولكل من هذه الأنواع ضد يفهم من تعريفه ، فاذا عرفت أن توحيد الربوبية هو الإقرار بأن الله تعالى هو الخالق الرزاق المحيى المميت المدبر لجميع الأمور المتصرف فى كل مخلوقاته لا شريك له فى ملكه ، فضد ذلك هو اعتقاد العبد وجود متصرف مع الله غيره فيما لا يقدر عليه إلا الله عز وجل . وإذا عرفت أن توحيد الأسماء والصفات هو أن يدعى الله تعالى بما سمى به نفسه ويوصف بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله محمد ﷺ وينفى عنه التشبيه والتمثيل ، فضد ذلك شيئان ويعمهما اسم الإلحاد : أحدهما نفى ذلك عن الله عز وجل وتعطيله عن صفات كماله ونعوت جلاله الثابتة بالكتاب والسنة ، ثانيهما تشبيه صفات الله تعالى بصفات خلقه وقد قال تعالى ﴿ **ليس كمثله شيء وهو السميع البصير** ﴾ وقال تعالى ﴿ **يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما** ﴾ . وإذا عرفت أن توحيد الإلهية هو إفراد الله تعالى بجميع أنواع العبادة ونفى العبادة عن كل ما سوى الله تبارك وتعالى فضد ذلك هو صرف شيء من أنواع العبادة لغير الله عز وجل ، وهذا هو الغالب على عامة المشركين وفيه الخصومة بين جميع الرسل وأممها .

وأول ما ظهر الشرك وأول ما ظهر الشرك فى قوم نوح على المشهور ، وقد كان بنو آدم على ملة أبيهم عليه السلام نحو عشرة قرون كما قدمنا ، وبه قال ابن عباس وغيره فى تفسير قوله عز وجل ﴿ **كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم** ﴾ ، وذلك لأن الشيطان لعنه الله لم يزل دائبا جادا مشمرا فى عداوة بنى آدم عليه السلام منذ كان أبوهم طينا ، فلما نفخ الله فيه الروح وعلمه الأسماء كلها وأمر الملائكة بالسجود له فسجدوا كلهم إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين ، وقال ﴿ **أأسجد لمن خلقت طينا** ﴾ وقال تعالى ﴿ **لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمإ مسنون** ﴾ فلما سأله الله عز وجل عن سبب امتناعه من السجود واستكباره عن أمر ربه ــ والله تعالى أعلم به ــ فقال سبحانه له ﴿**ما**

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

منعك ألا تسجد إذ أمرتك ﴾ فأجاب الخبيث مفتخرا بأصله ، طاعنا على ربه تعالى فى حكمته وعدله ﴿ قال أنا خير منه ، خلقتنى من نار وخلقته من طين ﴾ ، فعامله الجبار بنقيض ما قصده وأذاقه وبال حسده ، وأثمر له استكباره الذلّ الأبدى الذى لا عز بعده ﴿قال اخرج منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين ﴾ وقال ﴿اخرج منها مذءوما مدحوراً ﴾ الآية وقال ﴿ اخرج منها فإنك رجيم ، وإن عليك لعنتى إلى يوم الدين ﴾ فطلب الإنظار ليأخذ بزعمه من آدم وذريته بالثأر ، ولا يعلم أنه بذلك إنما يزداد من غضب الجبار ، وقد علم أنه لا سبيل له إلا على حزبه وتابعيه من الكفار ، الذين هو إمامهم فى الخروج عن طاعة الله والاستكبار ﴿ قال رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون . قال فإنك من المنظرين . إلى يوم الوقت المعلوم ﴾ أجابه الله تعالى إلى طلبته ليمتحن عباده اختبارا وابتلاء ﴿ ليبلوكم أيكم أحسن عملا ﴾ فقابل النعمة بالكفران وجدد صفقة الخسران وأقسم ليستعملن مدته وليستغرقن حياته فى إغواء ذرية آدم الذين كان طرده وإبعاده بسببهم إذ لم يسجد لأبيهم ، ولا رأى أن ذلك باستكباره عن أمر ربه ، بل قدس نفسه اللئيمة وأسند الإغواء إلى ربه مخاصمة ومحادّة ومشاقّة ﴿ قال فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم ، ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين ﴾ ولم يقل اللعين « من فوقهم » لعلمه أن الله تعالى من فوقهم ، قال الله سبحانه ﴿ هذا صراط علىّ مستقيم ، إن عبادى ليس لك عليهم سلطان ﴾ وقد علم الرجيم ذلك فقال آيساً منهم ﴿ إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ ثم لما سعى إلى آدم وحواء زوجه فى الجنة ودلهما على تلك الشجرة التى نهاهم الله عز وجل عنها أن يقربوها ، وأباح لهم ما سواها من الجنة فاستدرجهم اللعين بخداعه وحيلته البائرة، وغرهم بتلك اليمين الفاجرة ﴿ وقاسمهما إنى لكما لمن الناصحين ﴾ فنفذ قضاء الله تعالى وقدره بأكلهما منها ﴿ ليقضى الله أمرا كان مفعولا ﴾ . وظن اللعين أنه قد أخذ بثأره من آدم وأنه قد أهلكه معه ، ولم يعلم بفضل الله عز وجل وسعة رحمته الذى لا يقدر أحد على شىء منه ﴿ وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ فلما عاتبهما الله تبارك وتعالى على ذلك بقوله ﴿ ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين ﴾ فلم يعترضا على قضاء الله وقدره ولم يحتجا بذلك على ارتكاب ما نهى الله عنه ولم يخاصما به كما قال اللعين مواجها ربه بقوله ﴿ فبما أغويتنى﴾ بل اعترفا بقدرة الله عليهما وأقرّا بظلمهما لأنفسهما وصرحا بافتقارهما إلى ربهما وبكمال غناه عنهما ﴿ قال ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾[1] وهذه هى الكلمات التى قال الله عز وجل ﴿ فتلقى آدم من ربه كلمات

(١) الآية : ٢٣ من سورة الأعراف ، وردت فى الأصل « قال » والصواب هو المثبت .

فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم ﴾ ثم أراد الله سبحانه أن يهبطهم إلى دار أخرى هى دار الامتحان والابتلاء ليتبيّن حزبه الذين يتبعون رسله ويقاتلون أعداءه ويغرس لهم بصالح الأعمال مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ويتبين حزب عدوه الذين اتبعوه وأطاعوه وصاروا من خيله ورَجله وقد أعد لهم جهنم وساءت مصيرا ، وألقى العداوة ونصب الحرب بين هذين الحزبين فى هذه الدار ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعا فيجعله فى جهنم فقال تعالى **﴿ قلنا اهبطوا منها جميعا بعضكم لبعض عدو فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾** . ثم كان من كيد الشيطان مما قص الله عز وجل من إلقائه الفتنة بين ابنى آدم وقتل أحدهما الآخر كما فى سورة المائدة . ولما مات آدم عليه السلام كان وصيه شيثا عليه السلام ، ومضت تلك المدة التى ذكرنا والناس كلهم على شريعة من الحق كما قال ابن جرير رحمه الله تعالى : حدثنا محمد بن بشار حدثنا أبو داود أخبرنا همام عن قتادة عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كان بين نوح وآدم عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق فاختلفوا ، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين . وزين الشيطان لعنه الله لقوم نوح عبادة الأصنام وكان أول ذلك أن زين لهم تعظيم القبور والعكوف عليها ، وبيان ذلك ما روى البخارى رحمه الله تعالى عن ابن عباس قال فى وَدّ وسُواع ويغوث ويعوق ونسر : هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التى كانوا يجلسون أنصابا وسموها بأسمائهم ، ففعلوا ولم تعبد ، حتى إذا هلك أولئك وتنوسى العلم عبدت ا هـ . فلو جاءهم اللعين وأمرهم من أول مرة بعبادتهم لم يقبلوا ولم يطيعوه ، بل أمر الأولين بنصب الصور لتكون ذريعة للصلاة عندها ممن بعدهم ، ثم تكون عبادة الله عندها ذريعة إلى عبادتها ممن يخلفهم . فلما أرسل الله سبحانه إليهم نوحا عليه السلام فلبث فيهم ما لبث يدعوهم إلى الله تعالى وهم مستكبرون عن الحق حتى أهلكهم الله تعالى بالطوفان . ثم بعدهم عاد عبدوا آلهة مع الله منها هدا وصدى وصمودا ، فأرسل الله عز وجل إليهم هودا عليهم السلام فلبث فيهم ما لبث يدعوهم إلى توحيد الله عز وجل ، فلما حق عليهم العذاب أهلكهم الله تعالى بالريح . ثم ثمود كذلك وأرسل الله إليهم صالحا عليه السلام فكذبوه فأهلكوا بالصيحة . ثم قوم إبراهيم عبدوا الشمس والقمر والنجوم وعبدوا الأصنام وغير ذلك ، وقد قص الله تعالى فى كتابه كل ذلك مفصلا عن الأمم ورسلهم . وعبد أول بنى إسرائيل العجل وآخرهم عبدوا عزيرا ، وعبدت النصارى المسيح وعبدت المجوس النار وعبد قوم الماء وعبد

كل قوم ما زينه الشيطان لهم على قدر عقولهم ، هذا فى الأمم الأولى وكل منها له وارث من الأمم المتأخرة ، فالأصنام التى فى قوم نوح قد انتقلت إلى العرب فى زمن عمرو بن لَحيّ قبحه الله تعالى كما ذكره ابن عباس فيما رواه البخارى عنه رضى الله عنه قال : أما وَدّ فكانت لكلب بدومة الجندل ، وسواع كانت لهذيل ، وأما يغوث فكانت لمراد ثم لبنى غطيف بالجوف عند سبأ ، وأما يعوق فكانت لهمْدان ، وأما نسر فكانت لحمير لآل ذى الكلاع . انتهى . وتفسير ذلك ما ذكره الكلبى حيث قال : وكان عمرو ابن لحى كاهنا وله رئى من الجن فقال له : عجل السير والظعن من تهامة ، بالسعد والسلامة ، إئت جدة ، تجد فيها أصناما معدة ، فأوردها تهامة ولا تهب ، ثم ادع العرب إلى عبادتها تجب . فأتى نهر جدة فاستثارها ثم حملها ورد تهامة وحضر الحج فدعا العرب إلى عبادتها قاطبة فأجابه عوف بن عدن بن زيد اللات فدفع إليه ودا فحمله . فكان بوادى القرى بدومة الجندل وسمى ابنه عبد ود فهو أول من سمى به ، وجعل عوف ابنه عامرا سادنا له فلم يزل بنوه يسدنونه حتى جاء الله بالاسلام . قال الكلبى : فحدثنى مالك بن حارثة أنه رأى ودا . قال وكان أبى يبعثنى باللبن إليه فيقول اسقه إلهك فأشربه . قال ثم رأيت خالد بن الوليد رضى الله عنه كسره فجعله جذاذا ، وكان رسول الله ﷺ بعث خالد بن الوليد لهدمه فحالت بينه وبين هدمه بنو عذرة وبنو عامر فقاتلهم فقتلهم وهدمه وكسره. قال الكلبى : فقلت لمالك بن حارثة صف لى ودا كأنى أنظر إليه ، قال كان تمثال رجل كاعظم ما يكون من الرجال ، قد دبر ـ أى نقش ـ عليه حلتان متزر بحلة مرتد بأخرى عليه سيف قد تقلده وقد تنكب قوسا وبين يديه حربة فيها لواء وقبضته فيها نبل بغير جعبة . وأجابت عمرو بن لحى مضر بن نزار فدفع إلى رجل من هذيل يقال له الحارث بن تميم بن سعد بن هذيل بن مدركة بن الياس بن مضر سواعا فكان بأرض يقال لها رهاط من بطن نخلة يعبده من يليه من مضر ، وفى ذلك يقول رجل من العرب :

تراهم حول قبلتهم عكوفا ... كما عكفت هذيل على سواع

وأجابته مذحج فدفع إلى أنعم بن عمرو المرادى يغوث ، وكان بأكمة باليمن تعبده مذحج ومن والاها ، وأجابته همْدان فدفع إلى مالك بن زيد بن جشم يعوق فكان بقرية يقال لها خيوان فعبدته همدان ومن ولاها من اليمن ، وأجابته حمير فدفع إلى رجل من ذى رعين يقال له معدى كرب نسراً فكان بموضع من أرض سبأ يقال له بلخع تعبده حمير ومن والاها فلم يزل يعبدونه حتى هوّدهم ذو نواس ، فلم تزل هذه الاصنام تعبد حتى بعث الله النبى ﷺ فهدمها وكسرها . وفى صحيح البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « رأيت عمرو بن لحى الخزاعى يجر قصبه فى النار . وكان أول

من سيّب السوائب » وفي لفظ « وغير دين إبراهيم » . وروى ابن إسحاق عن أبى هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول لأكثم بن الجون الخزاعى « يا أكثم ، رأيت عمرو بن لحى بن قمعة ابن خندف يجر قصبه فى النار ، فما رأيت رجلا أشبه برجل منك به ولا بك منه » فقال أكثم : عسى ألا يضرنى شبهه يا رسول الله ، قال « لا، إنك مؤمن وهو كافر ، إنه كان أول من غير دين إسماعيل فنصب الأوثان وبحر البَحيرة وسيّب السائبة وحمى الحامى » . وقال ابن هشام : حدثنى بعض أهل العلم أن عمرو بن لحى خرج من مكة إلى الشام فى بعض أموره ، فلما قدم مآب من أرض البلقاء ـ وبها يومئذ العماليق وهم ولد عملاق ويقال عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح ـ رآهم يعبدون الأصنام، فقال لهم : ما هذه الأصنام التى أراكم تعبدون ؟ قالوا له : هذه الأصنام نعبدها فنستمطرها فتمطرنا ، ونستنصرها فتنصرنا . فقال لهم : أفلا تعطوننى منها صنما فأسير به إلى أرض العرب فيعبدونه . فأعطوه صنما يقال له هبل ، فقدم به مكة فنصبه وأمر الناس بعبادته وتعظيمه . وقال ابن إسحاق : واتخذوا إسافا ونائلة على موضع زمزم ينحرون عندهما، وكان إساف ونائلة رجلا وامرأة من جرهم هو إساف بن بغى ونائلة بنت ديك فوقع إساف على نائلة فى الكعبة فمسخهما الله حجرين . قال وقال أبو طالب :

وحيث ينيخ الاشعرون ركابهم   بمفضى السيول من إساف ونائل

واتخذوا حول الكعبة نحو ثلاثمائة وستين صنما . قال ابن إسحاق وكان لخولان صنم يقال له عم أنس بأرض خولان يقسمون له من أموالهم من أنعامهم وحروثهم قسما بينه وبين الله بزعمهم ، فما دخل فى حق عم أنس من حق الله تعالى الذى سموه له تركوه له، وما دخل فى حق الله تعالى من حق عم أنس ردوه عليه . وهم بطن من خولان يقال لهم الأديم ، وفيهم أنزل الله تبارك وتعالى فيما يذكرون ﴿ **وجعلوا الله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا ، فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله ، وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون** ﴾ قال وكان لبنى ملكان ابن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر صنم يقال له سعد ، صخرة بفلاة من أرضهم طويلة ، فأقبل رجل من بنى ملكان بابل له مؤبلة ليقفها عليه التماس بركته فيما يزعم ، فلما رأته الابل ـ وكانت مرعية لا تركب ، وكان يهراق عليه الدماء ـ نفرت منه فذهبت فى كل وجه ، وغضب ربها الملكانى فأخذ حجرا فرماه به وقال : لا بارك الله فيك ، نفّرت علىّ إبلى . ثم خرج فى طلبها حتى جمعها ، فلما اجتمعت له قال :

أتينا إلى سعد ليجمع شملنا   فشتتنا سعد فلا نحن من سعد

وهل سعد إلا صخرة بتنوفة من الأرض لا تدعو لغى ولا رشد

وكان لدوس صنم لعمرو بن حممة الدوسي . قال وكان لقريش وبنى كنانة العزى بنخلة وكانت سدنتها وحجابها بنو شيبان من سليم حلفاء أبي طالب . قلت فبعث إليها رسول الله ﷺ خالد بن الوليد رضى الله عنه فهدمها . قال وكانت اللات لثقيف بالطائف وكان سدنتها وحجابها بنى معتب من ثقيف . قال وكان مناة للأوس والخزرج ومن دان بدينهم من أهل يثرب على ساحل البحر من ناحية المشلل بقديد ، وقال ابن هشام فبعث رسول الله ﷺ اليها أبا سفيان بن حرب رضى الله عنه فهدمها ، ويقال على بن أبى طالب رضى الله عنه . قال ابن اسحاق : وكان ذو الخلصة لدوس وخثعم وبجيلة ومن كان ببلادهم من العرب بتبالة فبعث إليها رسول الله ﷺ جرير بن عبد الله البجلى رضى الله عنه فهدمها . قال وكانت قلس لطيىء ومن يليها بجبل طيىء بين سلمى وأجأ ، قال ابن هشام فحدثنى بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ بعث إليها على بن أبى طالب رضى الله عنه فهدمها فوجد فيها سيفين يقال لأحدهما الرسوب وللآخر المخذم فوهبهما له فهما سيفا على رضى الله عنه . قال وكان لحمير وأهل اليمن بيت بصنعاء يقال له رئام . قال : وكانت رضاء بيتا لبنى ربيعة بن كعب وفيها يقول المستوغر بن ربيعة حين هدمها في الإسلام :

ولقد شددت على رضاء شدة فتركتها قفرا بقاع أسحما

وكان ذو الكعبات لبكر وتغلب ابنى وائل وإياد بسنداد ، وله يقول أعشى بنى قيس :

بين الخورنق والسدير وبارق والبيت ذى الشرفات من سنداد

قال ابن إسحاق وكان عمرو بن الجموح سيدا من سادات بنى سلمة وشريفا من أشرافهم وكان قد اتخذ فى داره صنما من خشب يقال له مناة فلما أسلم فتيان بنى سلمة ـ معاذ بن جبل وابنه[1] معاذ بن عمرو بن الجموح وغيرهم ـ ممن أسلم وشهد العقبة وكانوا يدلجون بالليل على صنم عمرو ذلك فيحملونه فيطرحونه فى بعض حفر بنى سلمة وفيها عذرات الناس منكسا على رأسه فاذا أصبح عمرو قال : ويلكم من عدا على آلهتنا هذه الليلة ؟ قال ثم يغدو يلتمسه حتى إذا وجده غسله وطهره وطيبه ثم قال : والله لو أعلم من فعل بك هذا لأخزينه . فاذا أمسى ونام غدوا ففعلوا بصنمه مثل ذلك ، فيغدو يلتمسه فيجد به مثل ما كان فيه من الأذى فيغسله ويطهره ويطيبه ، فيغدون عليه إذا أمسى

(١) أى ومعاذ بن عمرو بن الجموح . راجع السيرة النبوية لابن هشام تحقيق طه عبد الرءوف سعد ط دار الجيل / بيروت .

فيفعلون به ذلك . فلما طال عليه استخرجه من حيث ألقوه فغسله وطهره وطيبه ثم جاء بسيفه فعلقه عليه ثم قال له : والله لا أعلم من يصنع بك ما ترى ، فان كان فيك خير فامتنع فهذا السيف معك . فلما أمسى ونام غدوا عليه فأخذوا السيف من عنقه ثم أخذوا كلبا ميتا فقرنوه به بحبل ثم ألقوه فى بئر من آبار بنى سلمة فيها عذر الناس ، وغدا عمرو فلم يجده فى مكانه الذى كان به فخرج يتبعه حتى وجده فى تلك البئر منكسا مقرونا بكلب ميت . فلما رآه أبصر شأنه ، وكلمه من أسلم من قومه فأسلم وحسن إسلامه ، فقال حين أسلم وعرف من الله ما عرف وهو يذكر صنمه ذلك وما أبصر من أمره وشكر الله إذ أنقذه مما كان فيه من العمى والضلالة :

والله لو كنت إلها لم تكـن ... أنت وكلب وسط بئر فى قرن
أف لملقـاك إلهـا مستـدن ... تهان أو تسئـل عن سوء الغبـن
الحمـد لله العلى ذى المنن ... الواهـب الرزاق ديـان الديـن
هو الذى أنقذنى من قبل أن ... أكـون فـى ظلمـة قبر مرتهـن

قال ابن إسحاق واتخذ أهل كل دار فى دارهم صنما يعبدونه ، فاذا أراد رجل منهم سفرا تمسح به فيكون آخر عهده وأول عهده ، فلما بعث الله محمدا ﷺ بالتوحيد قالت قريش ﴿ **أجعلَ الآلهة إلها واحدا إن هذا لشىء عجاب** ﴾ وكانت العرب قد اتخذت مع الكعبة طواغيت ، وهى بيوت تعظمها كتعظيم الكعبة ، لها سدنة وحجاب ويهدى لها كما يهدى للكعبة ويطاف بها كما يطاف بالكعبة وينحر عندها كما ينحر عند الكعبة ، وكان الرجل إذا سافر فنزل منزلا أخذ أربعة أحجار فنظر إلى أحسنها فاتخذه ربا وجعل الثلاثة أثافى لقدره ، فاذا ارتحل تركه ، فاذا نزل منزلا آخر فعل مثل ذلك . وقال أبو رجاء العطاردى لما بعث النبى ﷺ فسمعنا به سمعنا بمسيلمة الكذاب فلحقنا بالنار ، قال وكنا نعبد الحجر فى الجاهلية فاذا وجدنا حجرا هو أحسن منه نلقى ذاك ونأخذه ، فاذا لم نجد حجرا جمعنا حثية من تراب ثم جئنا بغنم فحلبناها عليه ثم طفنا به ، قال وكنا نعمد إلى الرمل فنجمعه ونحلب عليه فنعبده ، وكنا نعمد إلى الحجر الأبيض فنعبده زمانا ثم نلقيه . وقال أبو عثمان النهدى : كنا فى الجاهلية نعبد حجرا ، فسمعنا مناديا ينادى يا أهل الرحال إن ربكم قد هلك فالتمسوا ربا . قال فخرجنا على كل صعب وذلول فبينما نحن كذلك نطلبه إذا نحن بمناد ينادى : إنا قد وجدنا ربكم أو شبهه ، فإذا حجر فنحرنا عليه الجزور . وقال عمرو بن عبسة كنت ممن يعبد الحجارة فينزل الحى ليس معهم إله ، فيخرج الرجل منهم فيأتى بأربعة أحجار فينصب ثلاثة لقدره ويجعل أحسنها إلها يعبده ، ثم لعله

يجد ما هو أحسن منه قبل أن يرتحل فيتركه ويأخذ غيره . ولما فتح رسول الله ﷺ مكة وجد حول البيت ثلثمائة وستين صنما فجعل يطعن بنشبة قوسه في وجوهها وعيونها ويقول : جاء الحق وزهق الباطل وهى تتساقط على وجوهها ثم أمر بها فأخرجت من المسجد وحرقت .

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى فى خاتمة كتابة الاغاثة :

(فصل) وتلاعبُ الشيطان بالمشركين فى عبادة الأصنام له أسباب عديدة ، تلاعبَ بكل قوم على قدر عقولهم : فطائفة دعاهم إلى عبادتها من جهة تعظيم الموتى الذين صوروا تلك الأصنام على صورهم كما تقدم عن قوم نوح عليه السلام ، ولهذا لعن النبى ﷺ المتخذين على القبور المساجد والسرج ، ونهى عن الصلاة إلى القبور ، وسأل ربه سبحانه أن لا يجعل قبره وثنا يعبد ، ونهى أمته أن يتخذوا قبره عيدا ، وقال « اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » وأمر بتسوية القبور وطمس التماثيل . قلت وسنذكر الأحاديث المسندة فى ذلك قريبا إن شاء الله تعالى . قال فأبى المشركون إلا خلافه فى ذلك كله إما جهلا وإما عنادا لأهل التوحيد ، ولم يضرهم ذلك شيئا ، وهذا السبب هو الغالب على عوام المشركين ، وأما خواصهم فانهم اتخذوها بزعمهم على صور الكواكب المؤثرة فى العالم عندهم ، وجعلوا لها بيوتا وسدنة وحجابا وحجا وقربانا ، ولم يزل هذا فى الدنيا قديما وحديثا ، فمنها بيت على رأس جبل بأصبهان كانت به أصنام أخرجها بعض ملوك المجوس وجعله بيت نار . ومنها بيت ثان وثالث ورابع بصنعاء بناء بعض المشركين على اسم الزهرة فخربه عثمان رضى الله عنه . ومنها بيت بناه قابوس الملك على اسم الشمس بمدينة فرغانة فخربه المعتصم ، وأشد الأمم فى هذا النوع من الشرك الهند . قال يحيى بن بشر : إن شريعة الهند وضعها لهم رجل يقال له برهمن ووضع لهم أصناما وجعل أعظم بيوتها بيتا بمدينة من مدائن السند وجعل فيه صنمهم الأعظم وزعم أنه بصورة الهيولى الأكبر ، وفتحت هذه المدينة فى أيام الحجاج واسمها الملتان . إلى أن قال رحمه الله : وأصل هذا المذهب من مشركى الصابئة وهم قوم إبراهيم عليه السلام الذين ناظرهم فى بطلان الشرك وكسر حجتهم بعلمه ، وآلهتهم بيده ، فطلبوا تحريقه . وهو مذهب قديم فى العالم وأهله طوائف شتى ، فمنهم عباد الشمس زعموا أنها ملك من الملائكة لها نفس وعقل ، وهى أصل نور القمر والكواكب، وتكون الموجودات السفلية كلها عندهم منها ، وهى عندهم ملك الفلك يستحق التعظيم والسجود والدعاء . ومن شريعتهم فى عبادتها أنهم اتخذوا لها صنما بيده جوهر على نوع النار ، وله بيت خاص قد بنوه باسمه وجعلوا له الوقوف الكثيرة من القرى والضياع وله سدنة وقوّام وحجبة ياتون

البيت ويصلون فيه لها ثلاث كرات فى اليوم ، ويأتيه أصحاب العاهات فيصومون لذلك الصنم ويصلون ويدعون ويستسقون به ، وهم إذا طلعت الشمس سجدوا كلهم ، وإذا غربت ، وإذا توسطت الفلك . ولهذا يقارفها الشيطان في هذه الأوقات الثلاثة لتقع عبادتهم وسجودهم له ، ولهذا نهى النبي ﷺ عن تحرى الصلاة فى هذه الأوقات قطعا لمشابهة الكفار ظاهرا ، وسداً لذريعة الشرك وعبادة الأصنام . قلت : وقد ذكر الله عز وجل عبادة الشمس عن أهل سبأ من أرض اليمن فى عهد بلقيس ، كما حكى قول الهدهد حيث قال ﴿ **وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله** ﴾ إلى آخر الآيات ، وهداها الله تعالى إلى الاسلام على يد نبيه سليمان عليه السلام حيث قال ﴿**رب إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين**﴾ .

ثم قال ابن القيم رحمه الله تعالى : (فصل) وطائفة أخرى اتخذت للقمر صنما وزعموا أنه يستحق التعظيم والعبادة وإليه تدبير هذا العالم السفلى ، ومن شريعة عبّاده أنهم اتخذوا لهم صنما على شكل عجل ويجره أربعة ، وبيد الصنم جوهرة ، ويعبدونه ويسجدون له ويصومون له أياما معلومة من كل شهر ، ثم يأتون إليه بالطعام والشراب والفرح والسرور، فاذا فرغوا من الأكل أخذوا فى الرقص والغناء وأصوات المعازف بين يديه . ومنهم من يعبد أصناما اتخذوها على صور الكواكب وروحانياتها بزعمهم وبنوا لها هياكل ومتعبدات لكل كوكب منها هيكل يخصه وصنم يخصه وعبادة تخصه ، ومتى أردت الوقوف على هذا فانظر فى كتاب « السر المكتوم فى مخاطبة النجوم » المنسوب لابن خطيب الريّ تعرف عبادة الأصنام وكيفية تلك العبادة وشرائطها وكل هؤلاء مرجعهم إلى عبادة الأصنام، فانهم لا تستمر لهم طريق إلا بشخص خاص على شكل خاص ينظرون إليه ويعكفون عليه ، ومن هنا اتخذ أصحاب الروحانيات والكواكب أصناما زعموا أنها على صورها ، فوضع الصنم إنما كان فى الأصل على شكل معبود غائب فجعلوا الصنم على شكله وهيأته وصورته ليكون نائبا منابه وقائما مقامه ، وإلا فمن المعلوم أن عاقلا لا ينحت خشبة أو حجرا بيده ثم يعتقد أنه إلهه ومعبوده . ومن أسباب عبادتها أيضا أن الشياطين تدخل فيها وتخاطبهم منها وتخبرهم ببعض المغيبات عنهم وتدلهم على بعض ما يخفى عليهم ، وهم لا يشاهدون الشيطان ، فجهلتهم وسقطهم يظنون أن الصنم نفسه هو المتكلم المخاطب ، وعقلاؤهم يقولون إن تلك روحانيات الأصنام ، وبعضهم يقول إنها الملائكة ، وبعضهم يقول إنها هى العقول المجردة ، وبعضهم يقول هى روحانيات الأجرام العلوية ، وكثير منهم لا يسأل عما عهد بل إذا سمع الخطاب من الصنم اتخذه إلها ولا يسأل عما وراء ذلك . وبالجملة فأكثر أهل الأرض مفتونون بعبادة الأصنام والأوثان ، ولم يتخلص منها إلا الحنفاء

أتباع ملة إبراهيم عليه السلام ، وعبادتها فى الأرض من قبل نوح عليه السلام كما تقدم ، وهياكلها ووقوفها وسدنتها وحجابها والكتب المصنفة فى شرائع عبادتها طبق الأرض . قال إمام الحنفاء ﴿ **واجنبني وبني أن نعبد الأصنام ، رب إنهن أضللن كثيرا من الناس** ﴾ والأمم التى أهلكها الله تعالى بأنواع الهلاك كلهم يعبدون الأصنام كما قص الله عز وجل ذلك عنهم فى القرآن وأنجى الرسل وأتباعهم من الموحدين . ويكفى فى معرفة كثرتهم وأنهم أكثر أهل الأرض ماصح عن النبى ﷺ أن بعث النار من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون ، وقد قال الله تعالى ﴿ **فأبى أكثر الناس إلا كفورا** ﴾ وقال تعالى ﴿ **وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله** ﴾ وقال تعالى ﴿ **وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين** ﴾ وقال تعالى ﴿ **وما وجدنا لأكثرهم من عهد ، وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين** ﴾ ولو لم تكن الفتنة بعبادة الأصنام عظيمة لما أقدم عبادها على بذل نفوسهم وأموالهم وأبنائهم دونها ، فهم يشاهدون مصارع إخوانهم وما حل بهم ولا يزيدهم ذلك إلا حبًا لها وتعظيما ويوصى بعضهم بعضا بالصبر عليها وتحمل أنواع المكاره فى نصرتها وعبادتها ، وهم يسمعون أخبار الامم التى فتنت بعبادتها وما حل بهم من عاجل العقوبات ولا يثنيهم ذلك عن عبادتها ، ففتنة عبادة الأصنام أشد من فتنة عشق الصور وفتنة الفجور بها ، والعاشق لا يثنيه عن مراده خشية عقوبة فى الدنيا ولا فى الآخرة ، وهو يشاهد ما يحل بأصحاب ذلك من الآلام والعقوبات والضرب والحبس والنكال والفقر ، غير ما أعد الله له فى الآخرة وفى البرزخ ، ولا يزيده ذلك إلا إقداما وحرصا على الوصول والظفر بحاجته ، فهكذا الفتنة بعبادة الأصنام وأشد ، فان تأله القلوب لها أعظم من تألهها للصور التى يريد منها الفاحشة بكثير ، والقرآن بل وسائر الكتب الإلهية من أولها إلى آخرها مصرحة ببطلان هذا الدين وكفر أهله وأنهم أعداء الله وأعداء رسله وأنهم أولياء الشيطان وعباده وأنهم هم أهل النار الذين لا يخرجون منها وهم الذين حلت بهم المثلات ونزلت بهم العقوبات وأن الله سبحانه برىء منهم هو وجميع رسله وملائكته وأنه سبحانه لا يغفر لهم ولا يقبل لهم عملا ، وهذا معلوم بالضرورة من الدين الحنيف ، وقد أباح الله عز وجل لرسوله وأتباعه من الحنفاء دماء هؤلاء وأموالهم ونساءهم وأبناءهم ، وأمرهم بتطهير الأرض منهم حيث وجدوا، وذمهم بسائر أنواع الذم وتوعدهم بأعظم أنواع العقوبة . فهؤلاء فى شق ورسل الله فى شق . ثم قال رحمه الله تعالى :

(فصل) ومن أسباب عبادة الأصنام الغلو فى المخلوق وإعطاؤه فوق منزلته حتى جعلوا فيه حظا من الإلهية وشبهوه بالله تعالى ، وهذا هو التشبيه الواقع فى الأمم الذى أبطله الله سبحانه وبعث رسله وأنزل كتبه بانكاره والرد على أهله ، فهو سبحانه ينفى وينهى أن يجعل

غيره مثلا له وندا وشبيها له ، ولا أن يشبه هو بغيره إذ ليس فى الأمم أمة جعلته سبحانه مثلا لشيء من مخلوقاته فجعلت المخلوق أصلا وشبهت به الخالق فهذا لا يعرف فى طائفة من طوائف بنى آدم ، وإنما الأول هو المعروف فى طوائف أهل الشرك غلوا فى من يعظمونه ويحبونه حتى شبهوه بالخالق وأعطوه خصائص الإلهية ، بل صرحوا أنه إله وأنكروا جعل الآلهة إلها واحدا وقالوا اصبروا على آلهتكم ، وصرحوا بأنه إله معبود يرجى ويخاف ويعظم ويسجد له ويحلف باسمه ويقرب له القرابين إلى غير ذلك من خصائص العبادة التى لا تنبغى إلا لله تعالى . ثم ذكر رحمه الله تعالى فى ذلك بحثا نفيسا فأجاد وأفاد ، ثم ذكر باقى طوائف المشركين من عباد النار والماء والحيوانات والملائكة وغيرهم من الثنوية والدهرية والفلاسفة ، وذكر من أوضاع شرائعهم الباطلة وأصولها وكيفية عبادتهم لما ألهوه ونقض ذلك عليهم أتم نقض ، تغمده الله برحمته .

والمقصود أن أكثر شرك الأمم التى بعث الله إليها رسله وأنزل كتبه غالبهم إنما أشرك فى الإلهية ، ولم يذكر جحود الصانع إلا عن الدهرية والثنوية ، وأما غيرهم ممن جحدها عنادا كفرعون ونمرود وأضرابهم فهم مقرون بالربوبية باطنا كما قدمنا ، وقال الله عز وجل عنهم ﴿ **وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا** ﴾ وبقية المشركين يقرّون بالربوبية باطنا وظاهرا كما صرح بذلك القرآن فيما قدمنا من الآيات وغيرها ، مع أن الشرك فى الربوبية لازم لهم من جهة إشراكهم فى الالهية وكذا فى الأسماء والصفات ، إذ أنواع التوحيد متلازمة لا ينفك نوع منها عن الآخر ، وهكذا أضدادها فمن ضاد نوعا من أنواع التوحيد بشيء من الشرك فقد أشرك فى الباقى ، مثال ذلك فى هذا الزمن عباد القبور إذا قال أحدهم يا شيخ فلان ـ لذلك المقبور ـ أغثنى أو افعل لى كذا ونحو ذلك يناديه من مسافة بعيدة وهو مع ذلك تحت التراب وقد صار ترابا . فدعاؤه إياه عبادة صرفها له من دون الله لأن الدعاء مخ العبادة ، فهذا شرك في الإلهية . وسؤاله إياه تلك الحاجة من جلب خير أو دفع ضر أو رد غائب أو شفاء مريض أو نحو ذلك مما لا يقدر عليه إلا الله معتقدا أنه قادر على ذلك هذا شرك في الربوبية حيث اعتقد أنه متصرف مع الله تعالى في ملكوته . ثم إنه لم يدعه هذا الدعاء إلا مع اعتقاده أنه يسمعه على البعد والقرب فى أى وقت كان وفى أى مكان ويصرحون بذلك ، وهذا شرك فى الأسماء والصفات حيث أثبت له سمعا محيطا بجميع المسموعات لا يحجبه قرب ولا بعد ، فاستلزم هذا الشرك فى الإلهية الشرك فى الربوبية والأسماء والصفات

﴿ والشرك نوعان فشرك أكبر   بـه خلود النار إذ لا يغفر ﴾

﴿ وهـو اتخـاذ العبـد غير الله   ندّاً بـه مسـوّيا مضاهـى ﴾

(والشرك) الذى هو ضد التوحيد (نوعان) أى ينقسم إلى نوعين (فشرك أكبر) ينافي التوحيد بالكلية ويخرج صاحبه من الإسلام (به خلود) فاعله فى (النار) أبدا (إذ) تعليل لأبدية الخلود أى لكونه (لا يغفر) قال الله تبارك وتعالى ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما ﴾ وقال تعالى ﴿ ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا ﴾ وقال تعالى ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم ، وقال المسيح يا بنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار ﴾ وقال تعالى ﴿فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور حنفاء لله غير مشركين به ، ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق ﴾ وقال لصفوة خلقه وهم الرسل عليهم الصلاة والسلام بعد أن أثنى عليهم ﴿ ذلك هدى الله يهدى به من يشاء (من عباده) ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون ﴾[(١)] وقال لخاتمهم محمد ﷺ ﴿ ولقد أوحيَ إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين ، بل الله فاعبد وكن من الشاكرين ﴾[(٢)] فالشرك أعظم ذنب عصى الله به ، ولهذا أخبرنا سبحانه أنه لا يغفره وأنه لا أضل من فاعله ، وأنه مخلد فى النار أبدا لا نصير له ولا حميم ولا شفيع يطاع ، وأنه لو قام لله تعالى قيام السارية ليلا ونهارا ثم أشرك مع الله تعالى غيره لحظة من اللحظات ومات على ذلك فقد حبط عمله كله بتلك اللحظة التى أشرك فيها ولو كان نبيا رسولا ، ولو كان محمدا ﷺ ، وهذا من تقدير وقوع المحال وهو كثير فى اللغة العربية ، أى لو قدر وقوع ذلك من ملك أو رسول لكان كغيره من المشركين فى حبوط عمله وحول غضب الله عليه ، وإلا فلم يرسل الله تعالى رسولا إلا معصوما من جميع المعاصى فضلا عن الشرك ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ . والآيات فى بيان عظم الشرك ووعيد فاعله أكثر من أن يحيط بها هذا المختصر ، وفى معناها من الاحاديث مالا يحصى ، ولنذكر من ذلك ما تيسر فنقول وبالله التوفيق :

فى الصحيح عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « من مات يشرك بالله شيئا دخل النار » وقلت أنا : ومن مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة . وفيه عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : أتى النبى ﷺ رجل فقال : يا رسول الله ما الموجبتان ؟ فقال « من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة ، ومن مات يشرك بالله شيئا دخل النار » . وفيه عنه رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول «من لقى الله لا يشرك به شيئا دخل الجنة ، ومن لقى الله يشرك به شيئا دخل النار » وفيه من

---

(١) الآية : ٨٨ من سورة الأنعام و « من عباده » ساقط من الأصل .

(٢) الآيتان : ٦٥ ، ٦٦ من سورة الزمر ، وردت فى الأصل « ولقد أوحينا » .

حديث أبى ذر رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « أتانى جبريل عليه السلام فبشرنى أنه من مات من أمتك لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة . قلت : وإن زنى وإن سرق ؟ قال وإن زنى وإن سرق » . وفيه عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : سألت رسول الله ﷺ أى الذنب أعظم عند الله ؟ قال « أن تجعل لله ندا وهو خلقك » الحديث . وفيه عن أبى بكر رضى الله عنه قال : كنا عند رسول الله ﷺ فقال « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر (ثلاثا) : الاشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وشهادة الزور » الحديث . وروى أحمد عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ « الدواوين عند الله ثلاثة : ديوان لا يعبأ الله به شيئا ، وديوان لا يترك الله منه شيئا ، وديوان لا يغفره الله . فأما الديوان الذى لا يغفره الله فالشرك بالله ، قال الله عز وجل ﴿ **إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء** ﴾ وقال ﴿ **إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة** ﴾ وأما الديوان الذى لا يعبأ الله به شيئا فظلم العبد نفسه فيما بينه وبين الله من صوم يوم تركه أو صلاة فان الله تعالى يغفر ذلك ويتجاوزه إن شاء ، وأما الديوان الذى لا يترك الله منه شيئا فظلم العباد بعضهم بعضا ، القصاص لا محالة » تفرد به أحمد . وله عن معاوية رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « كل ذنب عسى الله أن يغفره ، إلا الرجل يموت كافرا أو الرجل يقتل مؤمنا متعمدا » ورواه النسائى أيضا . ولأحمد عن أبى ذر رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال «إن الله تعالى يقول : ياعبدى ، ما عبدتنى ورجوتنى فإنى غافر لك على ما كان منك ، يا عبدى إنك إن لقيتنى بقراب الأرض خطايا ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئا لقيتك بقرابها مغفرة » . وللترمذى وقال حسن صحيح عن أنس رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « قال الله تعالى : يا ابن آدم ، إن ما دعوتنى ورجوتنى غفرت لك على ما كان منك ولا أبالى . يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتنى غفرت لك . يا ابن آدم لو أتيتنى بقراب الأرض خطايا ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة» . ولابن أبى حاتم عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « ما من نفس تموت لا تشرك بالله شيئا إلا حلت لها المغفرة ، إن شاء الله عذبها وإن شاء غفر لها ﴿ **إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء** ﴾ . ولأبى يعلى عنه رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال « لا تزال المغفرة على العبد ما لم يقع الحجاب » . قيل يا نبى الله وما الحجاب ؟ قال « الاشراك بالله . قال : ما من نفس تلقى الله لا تشرك به شيئا إلا حلت لها المغفرة من الله تعالى ، إن شاء أن يعذبها وإن شاء أن يغفر لها » ثم قرأ النبى ﷺ ﴿ **إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء** ﴾ . ولأحمد عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « من مات لا يشرك بالله شيئا دخل

الجنة» ولابن أبي حاتم عن أبي أيوب رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : إن لي ابن أخ لا ينتهي عن الحرام ، قال « وما دينه » قال يصلي ويوحد الله قال «استوهب منه دينه ، فان أبي فابتعه منه » فطلب الرجل ذاك منه فأبي عليه ، فأتى النبي ﷺ فأخبره فقال : وجدته شحيحا على دينه ، قال فنزلت ﴿ **إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء** ﴾ . وللطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال « قال الله عز وجل : من علم أني ذو قدرة على مغفرة الذنوب غفرت له ولا أبالي ، ما لم يشرك بي شيئا » ولابن مردويه عن عمران بن حصين رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال « أخبركم بأكبر الكبائر : الإشراك بالله » ثم قرأ ﴿ **ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما** ﴾ « وعقوق الوالدين » ثم قرأ ﴿ **أن اشكر لي ولوالديك إليّ المصير** ﴾ وللإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ **الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم** ﴾ شق ذلك على الناس فقالوا : يا رسول الله أينا لا يظلم نفسه ؟ قال « إنه ليس الذي تعنون ، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح ﴿ **يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم** ﴾ الحديث في الصحيحين . ولابن مردويه من حديث عبادة وأبي الدرداء رضي الله عنهما « لا تشركون بالله شيئا وإن قطعتم أو صلبتم أو حرقتم » . ولابن أبي حاتم عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : أوصانا رسول الله ﷺ بسبع خصال « لا تشركوا بالله شيئا وإن حرقتم وقطعتم وصلبتم » . وفي الصحيحين عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : كنت رديف النبي ﷺ على حمار فقال لي « يا معاذ ، أتدرى ما حق الله على العباد ، وما حق العباد على الله عز وجل » ؟ قلت الله ورسوله أعلم . قال « حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا ، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئا » . وللبخاري عن سعيد بن المسيب عن أبيه رضي الله عنه قال : لما حضرت أبا طالب الوفاة دخل عليه النبي ﷺ وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية ، فقال النبي ﷺ « أي عم ، قل لا إله إلا الله أحاجُّ لك بها عند الله » فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ وقل النبي ﷺ «لأستغفرن لك ما لم أُنْهَ عنك » فنزلت ﴿ **ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قرب من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم** ﴾ .

والأحاديث في عظم ذنب الشرك وشدة وعيده أكثر من أن تحصى ، وقد قدمنا من أحاديث التوحيد جملة وافية عند الكلام على لا إله إلا الله وغير ذلك والمقصود أن الشرك أعظم ما نهى الله عنه ، كما أن التوحيد أعظم ما أمر الله به ، ولهذا كان أول دعوة الرسل كلهم إلى توحيد الله عز وجل ونفي الشرك فلم يأمروا بشيء قبل التوحيد ولم ينهوا عن شيء قبل الشرك كما قدمنا بسط ذلك . وما ذكر الله تعالى التوحيد مع شيء من الأوامر

إلا جعله أولها ، ولا ذكر الشرك مع شيء من النواهي إلا جعله أولها ، كما في آية النساء ﴿ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم، إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا ﴾ وكما في آية الأنعام التي طلب النبي ﷺ البيعة عليها وهي قوله تعالى ﴿ قل تعالَوْا أتل ما حرَّم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا ، وبالوالدين إحسانا ، ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ، ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ، ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون . ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده ، وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ، لا نكلف نفسا إلا وسعها ، وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ، وبعهد الله أوفوا ، ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون . وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ﴾ وكما في آيات الإسراء ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا » إلى قوله « ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة ، ولا تجعل مع الله إلها آخر فتلقى في جهنم ملوما مدحورا ﴾ فابتدأ تلك الأوامر والنواهي بالأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك ، وختمها بذلك . وكما في ايات الفرقان في الثناء على عباده المؤمنين في اجتنابهم الفواحش[1] ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ﴾ الآيات وغير ذلك من الايات . وكذلك في أحاديث النبي ﷺ الجامعة للأوامر والنواهي يبدأ في الأوامر بالتوحيد وفي المناهي بالشرك ، كما في حديث الكبائر المتقدم ، وكما في حديث من سأل النبي ﷺ فقال : دلني على عمل يقربني من الجنة ويباعدني عن النار ، قال « لقد سألت عن عظيم ، وإنه ليسير على من يسره الله عليه : تعبد الله ولا تشرك به شيئا » وذكر الحديث . وكذا في أحاديث أركان الاسلام ، كحديث جبريل المشهور ، وحديث ابن عمر ، وحديث وفد عبد القيس وغيرها يبدأ فيها بالشهادتين . ومن تتبع القرآن والسنة وتدبر نصوصهما تبين له أنها لا تخرج عن الأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك وما يتعلق بذلك ، ولم يخلق الله الخلق إلا لذلك .

(وهو) أي الشرك الذي تقدم ذكره في المتن وذكر النصوص فيه في الشرح (اتخاذ العبد غير الله) من نبي أو ولي أو ملك أو قبر أو جني أو شجر أو حجر أو حيوان أو نار أو الشمس أو القمر أو كوكب أو غير ذلك . (ندا) من دون الله (مسويا به) الله ، يحبه كحب الله ويخافه ويخشاه كخشية الله ويتبعه على غير مرضاة الله ويطيعه في معصية الله

(١) راجع فصل حرمة الفواحش في كتاب « سعدة النور ومشكلاتنا الاجتماعية » إعداد ممدوح حسن محمد ، إصدار دار الأمين ـ القاهرة .

ويشركه في عبادة الله (مضاهي) به الله قال الله تعالى ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله ﴾ وحكى عنهم في اختصامهم في النار ﴿ قالوا وهم فيها يختصمون . تالله إن كنا لفي ضلال مبين . إذ نسوّيكم برب العالمين ﴾ وقد أخبرنا الله عز وجل أنهم لم يسووهم به في خلق ولا رزق ولا إحياء ولا إماتة ولا في شيء من تدبير الملكوت بل أخبرنا أنهم مقرون لله تعالى بالربوبية ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم ﴾ وغير ذلك من الايات والأحاديث التي تقدمت ، ولكنهم سووهم بالله تعالى في حبهم إياهم كحب الله ولم يجعلوا المحبة لله وحده في خوفهم منهم وخشيتهم كخشية الله ، ولم يجعلوا الخشية لله والخوف من الله وحده ، وأشركوهم في عبادة الله ولم يفردوا الله بالعبادة دون من سواه ، مع أنهم لم يعبدوهم استقلالا بل زعموهم شفعاء لهم عند الله ليقربوهم إلى الله زلفى ، ولكن اعتقدوا تلك الشفاعة والتقريب ملكا للمخلوق ويطلبونه منه وأن له أن يشفع بدون إذن الله والله تعالى يقول ﴿ ما من شفيع إلا من بعد إذنه ﴾ ولهذا سمى الله تعالى استشفاعهم ذلك شركا كما قال تعالى ﴿ ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض ، سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ فجمعوا في ذلك بين شركين : الأول عبادتهم إياهم من دون الله عز وجل ، والثاني جعلهم شفعاء بدون إذن الله عز وجل . وقال تعالى ﴿ ألا لله الدين الخالص ، والذين اتخذوا من دونه الله أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾[1] وقال تعالى ﴿وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء ﴾ . وأيضا فقد أخبرنا الله تعالى أنهم إنما كانوا يعبدون معه غيره في الرخاء ، وأما في الشدة فكانوا يخلصون العبادة لله ، قال الله تعالى ﴿ فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين ، فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون ﴾ وقال تعالى ﴿ وهو الذى يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين . فلما نجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق﴾ وقال تعالى ﴿ قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعا وخفية لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين ، قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون﴾[2] وقال تعالى ﴿ وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيبا إليه ، ثم إذا خوّله نعمة

---

(١) الآية : ٣ من سورة الزمر ، وردت في الأصل « من دون الله »

(٢) الآيتان : ٦٣ ، ٦٤ من سورة الأنعام ، وردت في الأصل « أنجيتنا » .

منه نسي ما كان يدعو إليه من قبل وجعل لله أندادا ليضل عن سبيله ﴾ وقال تعالى ﴿وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركون ﴾ وقال تعالى ﴿ وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه ، فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفورا ﴾ الآيات ، وقال تعالى ﴿ قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون إن كنتم صادقين . بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء وتنسون ما تشركون ﴾ وغير ذلك من الايات . وفى حديث حصين المتقدم لما قال له النبى ﷺ « كم تعبد اليوم من إله » قال : سبعة ، ستة فى الأرض وواحد فى السماء . قال « فمن تعبد لرغبتك ورهبتك » قال : الذى فى السماء . ولما ركب بعض مشركى قريش فارا من النبى ﷺ حين فتح مكة فلما اضطرب البحر عليهم وشاهدوا من أمر الله ما شاهدوا فقال بعضهم لبعض : ادعوا الله فانه لا ينجيكم من هذا إلا هو ، فقال : والله إن كان لا ينفع فى البحر إلا هو فانه لا ينفع فى البر إلا هو، لئن أخرجنى الله من هذه لأذهبن إلى رسول الله ﷺ فلأضعن يدى فى يده . وهذا بخلاف مشركى زماننا اليوم من عباد القبور وغيرها فانهم يشركون فى الشدة أضعاف شركهم فى الرخاء ، حتى إن كانوا ينذرون لهذا الولى فى الرخاء ببعير أو تبيع أو شاة أو دينار أو درهم أو نحو ذلك فإذا أصابتهم الشدة زادوا ضعف ذلك فجعلوا له بعيرين أو تبيعين أو شاتين أو دينارين أو درهمين أو غير ذلك . وأيضا فانهم يعتقدون فيهم من صفات الربوبية وأنهم متصرفون فيما لا يقدر عليه إلا الله . وغلا بعضهم حتى جعل منهم المتصرف فى تدبير الكون على سبيل الاستقلال ويقولون فيه إنها لا تتحرك ذرة ولا تسكن إلا باذن فلان ، تعالى الله وتقدس وجل وعلا عن أن يكون معه إله غيره أو يكون له شريك فى الملك أو ولى من الذل ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾ ، ﴿ ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون . عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون ﴾ ، ﴿ قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لابتغوا إلى ذى العرش سبيلا ، سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا . تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا ﴾ وغير ذلك من الآيات .

﴿ يقصـــده عند نزول الضر — لجلب خير أو لدفع الشـــر ﴾
﴿ أو عند أى غرض لا يقدر — عليـه إلا المالك المقتـدر ﴾
﴿ مع جعله لذلك المدعـو — أو المعظـــم أو المرجـو ﴾
﴿ فى الغيب سلطانا به يطلع — على ضمير من إليه يفزع ﴾

(يقصده)أى المتخذ ذلك الند من دون الله يقصد نده (عند نزول الضر) به من خير

فاته أو شر دهمه (لجلب خير) له (أو لدفع الشر) عنه (أو عند) احتياج (أى غرض) من الأغراض ، والحال أنه (لا يقدر عليه) أى على ذلك الغرض (إلا المالك المقتدر) وهو الله سبحانه وتعالى (مع جعله) أى العبد (لذلك المدعوّ أو المعظم أو المرجوّ) من ملك أو نبى أو ولى أو قبر أو شجر أو حجر أو كوكب أو جنى (فى الغيب سلطانا) أى يعتقد أن له سلطانا غيبيا فوق طوق البشر (به يطلع) أى بذلك السلطان الذى اعتقده فيه (على ضمير من إليه) إلى ذلك الند (يفزعُ) فى قضاء أى حاجة من شفاء مريض أو رد غائب أو غير ذلك ، فيرى أنه يسمعه إذا دعاه ويرى مكانه ويعلم حاجته ويقضيها بقدرة اعتقدها فيه مع الله ، والمقصود أنه يثبت له من صفات الربوبية ما يرفعه عن درجة العبودية إلى درجة المعبودية ، ويجعله مستحقا العبادة مع الله . ومن هنا يتبين لك ما قدمنا من أن الشرك فى الألوهية يستلزم الشرك فى الربوبية والأسماء والصفات ولابد ، ويتبين لك عظم ذنب الشرك وأنه أقبح الذنوب وأظلم الظلم وأكبر الكبائر ، وأن الله تعالى لا يغفره ولا يقبل لأحد معه عملا وأنه لا أشد هلكة منه ، وما أرسل الله الرسل وأنزل الكتب إلا بالنذارة عن الشرك والدعوة إلى التوحيد ، وما هلكت الأمم الغابرة وأعدت لهم النيران فى الآخرة إلا بالشرك والإباء عن التوحيد ، ولا نجا الرسل وأتباعهم من خزى الدنيا وعذاب الآخرة إلا بالتزام التوحيد والبراءة من الشرك ، فما هلك قوم نوح بالطوفان ولاعاد بالريح العظيم ولاثمود بالصيحة ولا أهل مدين بعذاب يوم الظلمة إلا بالشرك وعبادة الأصنام ، وهكذا الأمم من بعدهم بأنواع العذاب ، ولم يخرج عصاة الموحدين من النار فى الآخرة إلا بالتوحيد ، ولم يخلد غيرهم فيها أبدا مؤبدا إلا بالشرك .

ثم اعلم أن ما عبد من دون الله إما عاقل أو غير عاقل ، فالعاقل كالآدمى والملائكة والجن . وينقسمون إلى قسمين : راض بالعبادة له ، وغير راض بها . فالأول كفرعون وإبليس وغيرهما من الطواغيت ، وهؤلاء فى النار مع عابديهم كما قال الله عز وجل ﴿ **إذ تبرأ الذين اتُّبعوا من الذين اتَّبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب . وقال الذين اتَّبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرءوا منا ، كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار** ﴾ وقال تعالى فى شأن إبليس ﴿ **لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين** ﴾ ، وقال فى شأن فرعون ﴿ **يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود** ﴾ وقال تعالى ﴿ **وقال الذين كفروا ربنا أرنا اللذين أضلانا من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين** ﴾ وقال تعالى ﴿ **ويوم يحشرهم جميعا يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس ، وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا . قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء**

الله ﴾ وغير ذلك من الآيات . والقسم الثانى وهو كان مطيعا لله وغير راض بالعبادة له من دون الله كعيسى ومريم وعزير والملائكة وغيرهم فهم براء ممن عبدهم فى الدنيا والآخرة كما قال الله تعالى عن عيسى عليه السلام ﴿ **إذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ، قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق ، إن كنتُ قلته فقد علمتَه ، تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك ، إنك أنت علام الغيوب** ﴾ إلى آخر الايات . وقال تعالى فى شأن الملائكة ﴿**ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون . قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون** ﴾ ، وقال تعالى فى شأن كل من عبد من دون الله تعالى من الملائكة وعيسى وأمه وعزير وغيرهم من أولياء الله مطلقا إلى يوم القيامة : ﴿ **ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء أم هم ضلوا السبيل ، قالوا سبحانك ما كان ينبغى لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا . فقد كذبوكم بما تقولون فما تستطيعون صرفا ولا نصرا** ﴾ الآية وغيرها من الآيات . وأما غير العاقل من الأشجار والأحجار وغيرها مما لا يعقل فيشملها قوله تعالى ﴿ **إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون . لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها وكل فيها خالدون** ﴾ ولكن الأحجار لا أرواح فيها وإنما يعذب بها من عبدها من دون الله كما قال تعالى ﴿ **يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا . وقودها الناس والحجارة** ﴾ الاية ، وكما يعذب عبد الدينار والدرهم بهما كما قال الله عز وجل ﴿ **والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون** ﴾ وفى الصحيح من حديث أبى سعيد فى الشفاعة بطوله وفيه « ينادى مناد : ليذهب كل قوم إلى ما كانوا يعبدون ، فيذهب أصحاب الصليب مع صليبهم ، وأصحاب الأوثان مع أوثانهم ، وأصحاب كل آلهة مع آلهتهم » وفيه فى حديث أبى هريرة رضى الله عنه « يجمع الله الناس يوم القيامة فيقول : من كان يعبد شيئا فليتبعه ، فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس ، ويتبع من كان يعبد القمر القمر ، ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت » الحديث . وفى حديث الصور الطويل : ألا ليلحق كل قوم بما كانوا يعبدون من دون الله ، فلا يبقى أحد عَبَد من دون الله إلا مثلت له آلهته بين يديه ، ويجعل يومئذ ملك من الملائكة على صورة عزير ، ويجعل ملك من الملائكة على صورة عيسى ابن مريم ، ثم يتبع هذا اليهود وهذا النصارى . ثم قادتهم آلهتهم إلى النار ، وهو الذى يقول تعالى ﴿ **لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها وكل فيها خالدون** ﴾ ، وفى حديث ابن مسعود رضى الله عنه

عند الدارقطنى والطبرانى وعبد الله بن أحمد وغيرهم من المصنفين فى السنة عن رسول الله ﷺ الحديث بطوله . وفيه « ثم ينادى أيها الناس ألم ترضوا من ربكم الذى خلقكم ورزقكم وأمركم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا أن يولى كل أناس منكم ما كانوا يتولون ويعبدون فى الدنيا ، أليس ذلك عدلا من ربكم ؟ قالوا : بلى ، قال : فينطلق كل قوم إلى ما كانوا يعبدون ويتولون فى الدنيا . قال فينطلقون ويمثل لهم أشباه ما كانوا يعبدون ، فمنهم من ينطلق إلى الشمس ومنهم من ينطلق إلى القمر وإلى الأوثان من الحجارة وأشباه ما كانوا يعبدون ، قال ويمثل لمن كان يعبد عيسى شيطان عيسى ، ويمثل لمن كان يعبد عزيرا شيطان عزير ، ويبقى محمد ﷺ وأمته » الحديث . قلت وقوله « يمثل لهم أشباه ما كانوا يعبدون » الخ هذا فى مثل عيسى وعزير . وأما عبدة الطاغوت فتقودهم طواغيتهم حقيقة لا أشباهها كما صرح به الكتاب والسنة . والله أعلم .

﴿ والثان شرك أصغر وهو الريا فسره به خاتم الأنبيا ﴾

(و) النوع (الثان) من نوعى الشرك (شرك أصغر) لا يخرج من الملة ولكنه ينقص ثواب العمل ، وقد يحبطه إذا زاد وغلب (وهو الريا) اليسير فى تحسين العمل (فسره به) أى فسر الشرك الأصغر بالرياء (ختام الأنبيا) محمد ﷺ فى قوله « إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر ، قالوا : يا رسول الله وما الشرك الأصغر ؟ قال : الرياء » وبذلك فسر قول الله عز وجل ﴿ **فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا** ﴾ وعن شهر بن حوشب قال جاء رجل إلى عبادة بن الصامت فقال : أنبئنى عما أسألك عنه ، أرأيت رجلا يصلى يبتغى وجه الله ويحب أن يحمد ، ويصوم يبتغى وجه الله ويحب أن يحمد ، ويتصدق يبتغى وجه الله ويحب أن يحمد ، ويحج يبتغى وجه الله ويحب أن يحمد ؟ فقال عبادة : ليس له شىء ، إن الله تعالى يقول : أنا خير شريك ، فمن كان له معى شرك فهو له كله لا حاجة لى فيه . وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم من المسيح [الدجال] عندى ؟ قال قلنا بلى . قال الشرك الخفى ، أن يقوم الرجل يصلى لمقام الرجل » رواه أحمد . وفى رواية « يقوم الرجل فيصلى فيزين صلاته لما يرى من نظر رجل إليه » . وله عن شداد بن أوس رضى الله عنه قال : إن أخوف ما أخاف عليكم أيها الناس لما سمعت رسول الله ﷺ يقول « من الشهوة الخفية والشرك » فقال عبادة بن الصامت وأبو الدداء : اللهم غفرا ، ألم يكن رسول الله ﷺ قد حدثنا أن الشيطان قد يئس أن يعبد فى جزيرة العرب . أما الشهوة الخفية فقد عرفناها هى شهوات الدنيا من نسائها وشهواتها ، فما هذا الشرك الذى تخوفنا به يا شداد ؟ فقال شداد : أرأيتكم لو رأيتم رجلا يصلى لرجل أو يصوم لرجل أو

يتصدق ، أترون أنه قد أشرك ؟ قالوا: نعم والله ، إن من صلى لرجل أو صام أو تصدق له لقد أشرك . فقال شداد : فاني سمعت رسول الله ﷺ يقول « من صلى يرائى فقدأشرك ، ومن صام يرائى فقد أشرك ، ومن تصدق يرائى فقد أشرك » . قال عوف بن مالك عند ذلك : أفلا يعمد الله إلى ما ابتغى به وجهه من ذلك العمل كله فيقبل ما خلص منه ، ويدع ما أشرك به ؟ فقال شداد عند ذلك : فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول « إن الله تعالى يقول : أنا خير قسيم لمن أشرك بى ، من أشرك بى شيئا فإن عمله قليله وكثيره لشريكه الذى أشرك به ، أنا عنه غنى » . وله عنه رضى الله عنه أنه بكى فقيل : ما يبكيك؟ قال : شيء سمعته من رسول الله ﷺ فأبكانى ، سمعت رسول الله ﷺ يقول «أتخوف على أمتى الشرك والشهوة الخفية » قلت : يا رسول الله أتشرك أمتك من بعدك ؟ قال «نعم ، أما إنهم لا يعبدون شمسا ولا قمرا ولا حجرا ولا وثنا ، ولكن يراءون بأعمالهم . والشهوة الخفية أن يصبح أحدهم صائما فتعرض له شهوة من شهواته فيترك صومه » ورواه ابن ماجه . وللبزار عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « يقول الله يوم القيامة : أنا خير شريك ، من أشرك بى أحدا فهو له كلهع » ولأحمد عنه رضى الله عنه عن النبى ﷺ يرويه عن الله عز وجل أنه قال « أنا خير الشركاء ، فمن عمل عملا أشرك فيه غيرى فأنا برىء منه ، وهو للذى أشرك » . وله عن محمود بن لبيد أن رسول الله ﷺ قال « إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر » قالوا : وما الشرك الأصغر يا رسول الله ؟ قال « الرياء . يقول الله يوم القيامة إذا جزى الناس بأعمالهم : اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون فى الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء » . وله عن أبى سعيد بن أبى فضالة الأنصارى ــ وكان من الصحابة ــ أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول« إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه نادى مناد : من كان أشرك فى عمل عمله لله أحدا فليطلب ثوابه من عند غير الله ، فإن الله تعالى أغنى الشركاء عن الشرك » أخرجه الترمذى وابن ماجه . ولأحمد عن أبى بكرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « من سمّع سمّع الله به ، ومن راءى راءى الله به » . وله عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال « من يرائى يرائى الله به ومن يسمّع يسمّع الله به » . وله عن عبد الله ابن عمرو رضى الله عنهما أنه سمع رسول الله ﷺ يقول « من سمّع الناس بعلمه سمّع الله به مسامع خلقه وصغره وحقره » فذرفت عينا عبد الله . وللبزار عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « تعرض أعمال بنى آدم بين يدى الله عز وجل يوم القيامة فى صحف مختمة ، فيقول الله : ألقوا هذا ، وأقبلوا هذا . فتقول الملائكة : يارب ، والله ما رأينا منه إلا خيرا . فيقول : إن عمله كان لغير وجهى ، ولا أقبل اليوم من العمل إلا ما

أريد به وجهي » ولوهب عن عبد الله بن قيس الخزاعي أن رسول الله ﷺ قال « من قام رياء وسمعة لم يزل في مقت الله حتى يجلس » . ولأبي يعلى عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « من أحسن الصلاة حيث يراه الناس وأساءها حيث يخلو فتلك استهانة استهان بها ربه عز وجل » .

ثم اعلم أن الرياء قد أطلق في كتاب الله كثيرا ويراد به النفاق الذي هو أعظم الكفر وصاحبه في الدرك الأسفل من النار كما قال تعالى ﴿ **كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا لا يقدرون على شيء مما كسبوا ، والله لا يهدي القوم الكافرين** ﴾ وقال تعالى ﴿ **والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا** ﴾ وقال تعالى ﴿ **إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا** ﴾ وغير ذلك من الآيات النازلة في المنافقين بلفظ الرياء ، ومنها يصرح بمعناه دون لفظه كقوله تعالى ﴿ **وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون** ﴾ والايات التي قبلها وبعدها وما في معناها . والفرق بين هذا الرياء الذي هو النفاق الأكبر وبين الرياء الذي سماه النبي ﷺ شركا أصغر خفيا هو حديث « الأعمال بالنيات » وهو ما رواه الشيخان عن عمر رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه»[1] فالنية هي الفرق في العمل في تعيينه وفيما يراد به ، وقد أطلقت النية في القرآن بلفظ الابتغاء وبلفظ الارادة ، فان كان الباعث على العمل هو إرادة الله والدار الآخرة وسلم من الرياء في فعله وكان موافقا للشرع فذلك العمل الصالح المقبول ، وإن كان الباعث على العمل هو إرادة غير الله عز وجل فذلك النفاق الأكبر ، سواء في ذلك من يريد به جاها ورئاسة وطلب دنيا ، ومن يريد حقن دمه وعصمة ماله وغير ذلك ، فهذان ضدان ينافي أحدهما الآخر لا محالة . قال الله عز وجل ﴿ **ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ، ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها** ﴾ وقال تعالى ﴿ **من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا . ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا** ﴾ وقال تعالى ﴿ **من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون . أولئك الذين ليس**

(١) انظر الحديث الأول من فتح الباري من تحقيقنا .

لهم فى الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون ﴾ وقال تعالى ﴿من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ، ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له فى الآخرة من نصيب ﴾ وقال تعالى يثنى على عباده المخلصين ﴿ ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا ، إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا ﴾ وقال ﴿ إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ﴾ وغير ذلك من الآيات . وإن كان الباعث على العمل هو إرادة الله عز وجل والدار الآخرة ولكن دخل عليه الرياء فى تزيينه وتحسينه فذلك هو الذى سماه النبى ﷺ الشرك الأصغر ، وفسره بالرياء العملى ، وزاده إيضاحاً بقوله « يقوم الرجل فيصلى فيزين صلاته لما يرى من نظر رجل إليه » وهذا لا يخرج من الملة ، ولكنه ينقص من العمل بقدره ، وقد يغلب على العمل فيحبطه كله والعياذ بالله اللهم اجعل أعمالنا كلها صالحة واجعلها لوجهك خالصة ولا تجعل لأحد فيها شيئا . وأما حديث أبى موسى رضى الله عنه فى الصحيح قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل للذكر ، والرجل يقاتل ليرى مكانه ، فمن فى سبيل الله ؟ قال «من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله » فهذا الحديث يحتمل المعنيين ، وتعينه لأحدهما النية ، فان كان أصل العمل لغير الله فهو النفاق ، وإن كان أصله لله وأحب مع ذلك أن يذكر ويثنى عليه به فهو المعنى الذى سبق فى حديث عبادة رضى الله عنه فى الرجل « يصلى يبتغى وجه الله ويحب أن يحمد » الحديث وفى آخره قال « ليس له شىء » . والله تعالى أعلم .

﴿ ومنه إقسام بغير البارى كما أتى فى محكم الأخبار ﴾

أى ومن الشرك الأصغر الذى لا يخرج من الملة (إقسام) مصدر أقسم أى الحلف (بغير البارى) كالحلف بالآباء والأمهات والأبناء والأمانة وغير ذلك كما فى الصحيح عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ أدرك عمر بن الخطاب وهو يسير فى ركب يحلف بأبيه ، فقال « ألا إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم ، من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت » وفى رواية قال عمر : فوالله ما حلفت بها منذ سمعت النبى ﷺ ذاكرا ولا آثرا متفق عليه . ولأبى داود والنسائى عن أبى هريرة رضى الله عنه مرفوعا «لا تحلفوا بآبائكم ولا بأمهاتكم ولا بالأنداد ، ولا تحلفوا بالله إلا وأنتم صادقون » ولأحمد ومسلم والنسائى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « من كان حالفا فلا يحلف إلا بالله » وللنسائى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « لا تحلفوا إلا بالله ، ولا تحلفوا بالله إلا وأنتم صادقون » . وسمع ابن عمر رضى الله عنهما رجلا يقول : لا والكعبة ، فقال ابن عمر : لا تحلف بغير الله ، فانى سمعت رسول الله ﷺ يقول « من حلف بغير الله فقد كفر » أو « أشرك » ، أخرجه أبو داود والترمذى

وحسنه ، والحاكم وصححه . وعن بريدة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « ليس منا من حلف بالأمانة » رواه أبو داود . وفي الطبراني من حديث ابن عمر رضى الله عنهما أن النبى ﷺ سمع رجلا يحلف بالأمانة فقال « ألست الذى يحلف بالأمانة » . وعن قتيلة بنت صفى أن يهوديا أتى النبى ﷺ فقال : إنكم تنددون وإنكم تشركون ، تقولون : ما شاء الله وشئت ، وتقولون : والكعبة . فأمرهم النبى ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا « ورب الكعبة » ، ويقول أحدهم « ما شاء الله ثم شئت » رواه أحمد والنسائى وصححه وابن ماجه. وقد ثبت فى كفارة الحلف بغير الله حديث الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « من حلف فقال فى حلفه باللات والعزّى فليقل لا إله إلا الله » .
ومن الشرك الأصغر قول ما شاء الله وشئت ، كما روى النسائى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رجلا قال للنبى ﷺ : ما شاء الله وشئت ، فقال « أجعلتنى لله ندا ؟ ما شاء الله وحده». ولأبى داود بسند صحيح عن حذيفة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « لا تقولوا ما شاء الله وشاء فلان ، ولكن قولوا ما شاء الله ثم شاء فلان » وتقدم فى ذلك حديث قتيلة ، والفرق بين الواو وثم أنه إذا عطف بالواو كان مضاهيا مشيئة الله بمشيئة العبد إذ قرن بينهما ، وإذا عطف بثم فقد جعل مشيئة العبد تابعة لمشيئة الله عز وجل كما قال تعالى **﴿ وما تشاءون إلا أن يشاء الله ﴾** ومثله قول : لولا الله وفلان هذا من الشرك الأصغر، ويجوز أن يقول : لولا الله ثم فلان ، ذكره إبراهيم النخعى . ولابن أبى حاتم عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قول الله عز وجل **﴿ فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون ﴾** قال : الأنداد الشرك أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء فى ظلمة الليل وهو أن يقول والله وحياتك يا فلان وحياتى ويقول لولا كلبة هذا لأتانا اللصوص البارحة ، ولولا البط فى الدار لأتى اللصوص ، وقول الرجل لصاحبه ما شاء الله وشئت ، وقول الرجل لولا الله وفلان ، لا تجعل فيها فلانا ، هذا كله به شرك .

فصل فى بيان أمور يفعلها العامة
منها ما هو شرك ، ومنها ما هو قريب منه
وبيان المشروع من الرقى والممنوع منها ، وهل تجوز التمائم

هذه الأمور المذكورة التى يتعلق بها العامة غالبها من الشرك الأصغر ، لكن إذا اعتمد العبد عليها بحيث يثق بها ويضيف النفع والضر إليها كان ذلك شركا أكبر والعياذ بالله ، لأنه حينئذ صار متوكلا على سوى الله ملتجئاً إلى غيره .

﴿ ومن يثق بودعة أو ناب أو حلقة أو أعين الذئاب ﴾

﴿أو خيط أو عضو من النسور أو وتر أو تربة القبور﴾

﴿لأى أمر كائن تعلقه وكله الله إلى ما علقه﴾

(ومن يثق) هذا الشرط جوابه (وكلهُ) الآتى . (بودعة) قال فى النهاية هو شىء أبيض يجلب من البحر يعلق فى حلوق الصبيان وغيرهم . وإنما نهى عنه لأنهم كانوا يعلقونها مخافة العين . (أو ناب) كما يفعله كثير من العامة يأخذون ناب الضبع ويعلقونه من العين . (أو حلقة) وكثيرا ما يعلقونها من العين وسيأتى فى الحديث أنهم يعلقونها من الواهنة وهو مرض العضد . (أو أعين الذئاب) وكثيرا ما يعلقونها يزعمون أن الجن تفرّ منها ، ومنهم من يقول إنه إذا وقع بصر الذئب على جنى لا يستطيع أن يفر منه حتى يأخذه ، ولهذا يعلقون عينه إذا مات على الصبيان ونحوهم . (أو خيط) وكثيرا ما يعلقونه على المحموم ويعتقدون فيه عقدا بحسب اصطلاحاتهم ، وأكثرهم يقرأ عليه سورة ﴿ألم نشرح لك صدرك﴾ إلى آخرها ، ويعقد عند كل كاف منها عقدة ، فيجتمع فى الخيط تسع عقد بعدد الكافات ، ثم يربطونه بيد المحموم أو عنقه . (أو عضو من النسور) كالعظم ونحوه يجعلونها خرزا ويعلقونها على الصبيان يزعمون أنها تدفع العين . (أو وتر) وكانوا فى الجاهلية إذا عتق وتر القوس أخذوه وعلقوه يزعمون أنه يبعد العين عن الصبيان والدواب . (أو تربة القبور) وما أكثر من يستشفى بها لا شفاهم الله ، واستعمالهم لها على أنواع : فمنهم من يأخذها ويمسح بها جلده ، ومنهم من يتمرغ على القبر تمرغ الدابة ، ومنهم من يغتسل بها مع الماء ، ومنهم من يشربها وغير ذلك . وهذا كله ناشىء عن اعتقادهم فى صاحب ذلك القبر أنه ينفع ويضر ، حتى عدوا ذلك الاعتقاد فيه إلى تربته فزعموا أنها فيها شفاء وبركة لدفنه فيها ، حتى إن منهم من يعتقد فى تراب بقعة لم يدفن فيها ذلك الولى بزعمه بل قيل له إن جنازته قد وضعت فى ذلك المكان . وهذا وغيره من تلاعب الشيطان بأهل هذه العصور زيادة على ما تلاعب بمن قبلهم . نسأل الله العافية .

(لأى أمر كائن تعلقه) الضمير عائد إلى ما تقدم وغيره (وكله الله) أى تركه (إلى ما علقه) دعاء عليه أى لا حفظه الله ولا كلأه بل تركه إلى ما وثق به واعتمد عليه دون الله عز وجل . قال الله تعالى ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾ وعن عقبة بن عامر رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « من تعلق تميمة فلا أتم الله له ، ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له »(١) رواه أحمد . وله عن عمران بن حصين رضى الله عنهما أن النبى ﷺ رأى رجلا فى يده حلقة من صفر فقال « ما هذا » ؟ قال : من

(١) رواه أحمد فى مسنده .

الواهنة ، فقال « انزعها ، فانها لا تزيدك إلا وهنا ، فإنك لو مت وهى عليك ما أفلحت أبدا » ولابن أبى حاتم عن حذيفة رضى الله عنه أنه رأى رجلا فى يده خيط من الحمى فقطعه وتلا قوله تعالى ﴿ **وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون** ﴾ وفى الصحيح عن أبى بشير الأنصارى رضى الله عنه أنه كان مع رسول الله ﷺ فى بعض أسفاره فأرسل رسولا أن « لا يبقين فى رقبة بعير قلادة من وتر أو قلادة إلا قطعت » . وعن رويفع رضى الله عنه قال : قال لى رسول الله ﷺ « يا رويفع ، لعل الحياة تطول بك ، فأخبر الناس أن من عقد لحيته أو تقلد وترا أو استنجى برجيع دابة أو عظم فإن محمدا برىء منه » رواه أحمد . وله عن عبد الله بن عكيم مرفوعا « من علق شيئا وكل إليه » ورواه الترمذى . وعن زينب امرأة عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قالت : كان عبد الله إذا جاء من حاجة فانتهى إلى الباب تنحنح وبزق كراهية أن يهجم منا على أمر يكرهه ، قالت : وإنه جاء ذات يوم فتنحنح وعندى عجوز ترقيني من الحمرة فأدخلتها تحت السرير ، قالت : فدخل فجلس إلى جانبى فرأى فى عنقى خيطا . فقال : ما هذا الخيط ؟ قالت قلت : خيط رقى لى فيه، فأخذه فقطعه ثم قال : إن آل عبد الله لأغنياء عن الشرك ، سمعت رسول الله ﷺ يقول « إن الرقى والتمائم والتولة شرك » قالت قلت له : لم تقول هذا ، وقد كانت عينى تقذف فكنت أختلف إلى فلان اليهودى يرقيها ، فكان إذا رقاها سكنت . فقال : إنما ذاك من الشيطان ، كان ينخسها بيده ، فإذا رقاها كف عنها ، إنما كان يكفيك أن تقولى كما قال النبى ﷺ « أذهب الباس رب الناس ، اشف أنت الشافى ، لا شفاء إلا شفاؤك ، شفاء لا يغادر سقما » رواه أحمد[1] ، وروى جملة الدلالة منه على الباب أبو داود ، أعنى الجملة المرفوعة إلى النبى ﷺ . قال الشيخ محمد عبد الوهاب رحمه الله تعالى كتاب فى التوحيد : الرقى هى التى تسمى العزائم وخص منه الدليل ما خلا من الشرك ، فقد رخص فيه رسول الله ﷺ من العين والحمة ، والتمائم شىء يلقونه على الأولاد عن العين ، والتولة شىء يصنعونه يزعمون أنه يحبب المرأة إلى زوجها والرجل إلى امرأته ا هـ . وقوله فى الرقى : وخص منها الدليل ما خلا عن الشرك الخ يشير إلى ما سنذكره بقولنا :

﴿ ثم الرقى من حمة أو عين   فإن تكن من خالص الوحيين ﴾

﴿ فذاك من هدى النبى وشرعته   وذاك لا اختلاف فى سنيته ﴾

(ثم الرقى) إذا فعلت (من حمة) وهى تطلق على لدغ ذوات السموم كالحية والعقرب وغيرها (أو عين) وهى من الانس كالنفس من الجن وهى حق ولها تأثير ، لكن لا تأثير لها إلا باذن الله عز وجل ، وقال الله تعالى ﴿ **وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم** ﴾ الاية فسره بإصابة العين ابن عباس ومجاهد وغيرهما . وفى تحقيقها أحاديث:

(١) وأيضا رواه مسلم فى السلام .

ففي صحيح مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال « العين حق . ولو كان شيء سابقَ القدر سبقت العين . وإذا استُغسلتم فاغسلوا » وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال « إن العين حق » أخرجاه ، ولأحمد وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « العين حق » . ولأحمد عنه أيضا رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « العين حق ، ويحضرها الشيطان وحسد ابن آدم » . وله عنه رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « أصدق الطِّيَرَة الفأل ، والعين حق » . وله هو والترمذي والنسائي وابن ماجه عن أسماء رضي الله عنها قالت : يا رسول الله ، إن بني جعفر تصيبهم العين ، أفأسترقي لهم ؟ قال « نعم ، فلو كان يسبق القدر لسبقته العين » ولأحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « لا هام ، والعين حق، وأصدق الطيرة الفأل » . وله عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف أن أباه حدثه أن رسول الله ﷺ خرج وساروا معه نحو مكة حتى إذا كانوا بشعب الخرار من الجحفة اغتسل سهل بن حنيف وكان رجلا أبيض حسن الجسم والجلد ، فنظر إليه عامر بن ربيعة ــ أخو بني عدي بن كعب ــ وهو يغتسل فقال : ما رأيت كاليوم ولا جلد مخبَّأة . فلبط سهل ، فأُتِيَ رسول الله فقيل له : يا رسول الله هل لك في سهل ، والله ما يرفع رأسه ولا يفيق ؟ قال « هل تتهمون فيه من أحد » ؟ قالوا : نظر إليه عامر بن ربيعة . فدعا رسول الله ﷺ عامرا ، فتغيظ عليه وقال « علام يقتل أحدكم أخاه ؟ هلا إذا رأيت ما يعجبك برَّكت » ثم قال له « اغتسل له » فغسل وجهه ويديه ومرفقيه وركبتيه وأطراف رجليه وداخلة إزاره في قدح ، ثم صب ذلك الماء عليه ». فصبه رجل على رأسه وظهره من خلفه ، ثم يكفأ القدح وراءه ، ففعل ذلك فراح سهل مع الناس ليس به بأس . وله عن عبيد الله بن عامر ابن ربيعة قال : انطلق عامر بن ربيعة وسهل بن حنيف يريدان الغسل ، قال فانطلقا يلتمسان الخَمَرَ(١) ، قال فوضع عامر جبة كانت عليه من صوف فنظرت إليه فأصبته بعيني، فنزل الماء يغتسل قال فسمعت له في الماء فرقعة فأتيته فناديته ثلاثا فلم يجبني ، فأتيت النبي ﷺ فأخبرته ، قال فجاء يمشي فخاض الماء فكأني أنظر إلى بياض ساقيه ، قال فضرب صدره بيده ثم قال « اللهم اصرف عنه حرها وبردها ووصبها » قال فقام ، فقال رسول الله ﷺ « إذا رأى أحدكم من أخيه أو من نفسه أو من ماله ما يعجبه ، فليبرك ، فإن العين حق » . وله عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال قال رسول الله « لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا حسد ، والعين حق » وغير ذلك من الأحاديث المصرحة بأن العين حق ، وسنذكر بعضها أيضا في شرعية الرقى منها وغيرها .

ولنرجع إلى المقصود من شرح المتن : (فإن تكن) أي الرقى (من خالص الوحيين)

(١) هو ما ستر من شجر أو بناء أو غيره .

الكتاب والسنة ، وإضافة خالص إلى الوحيين من إضافة الصفة إلى الموصوف ، والمتنى من الوحى الخالص بأن لا يدخل فيه غيره من شعوذة المشعبذين ، ولا يكون بغير اللغة العربية ، بل يتلو الايات على وجهها والأحاديث كما رويت وعلى ما تلقيت عن النبى ﷺ بلا همز ولا رمز ، (فذلك) أى الرقى من الكتاب والسنة هو (من هدى النبى) ﷺ الذى كان عليه هو وأصحابه والتابعون باحسان ، (و) من (شرعته) التى جاء بها مؤديا عن الله عز وجل . (وذاك معطوف على ذاك الأول ، والمشار إليه بهما واحد ولكن الخبر فى الثانى غير الخبر فى الأول فيكون من عطف الجملة على الجملة ، والخبر (لا اختلاف فى سنيته) بين أهل العلم إذ قد ثبت ذلك من فعل النبى ﷺ وقوله وتقديره فرقاه جبريل عليه السلام ورقى هو ﷺ أصحابه وأمر بها وأقر عليها . ولنذكر ما تيسر من الأحاديث فى ذلك وبالله التوفيق :

قال البخارى رحمه الله تعالى : باب الرقى بالقرآن والمعوذات ، وذكر فيه حديث عائشة رضى الله عنها أن النبى ﷺ كان ينفث على نفسه فى المرض الذى مات فيه بالمعوذات، فلما ثقل كنت أنفث عليه بهن وأمسح بيد نفسه لبركتها ، ثم قال : باب الرقى بفاتحة الكتاب ويذكر عن ابن عباس عن النبى ﷺ ، ثم ذكر حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن ناسا من أصحاب النبى ﷺ أتوا على حى من أحياء العرب فلم يقروهم ، فبينما هم كذلك إذ لدغ سيد أولئك فقالوا : هل معكم من دواء أو راق ؟ فقالوا : إنكم لم تقرونا ، ولا نفعل حتى تجعلوا لنا جعلا ، فجعلوا لهم قطيعا من الشاء ، فجعل يقرأ بأم القرآن ويجمع بزاقه ويتفل فبرأ ، فأتوا بالشاء فقالوا لا نأخذه حتى نسأل النبى ﷺ ، فسألوه ، فضحك وقال « وما أدراك أنها رقية ، خذوها وأضربوا لى بسهم » . ثم قال : باب الشرط فى الرقية بقطيع من الغنم ، وساق فيه باسناده عن ابن عباس رضى الله عنهما أن نفرا من أصحاب النبى ﷺ مرّوا بماء فيه لديغ أو سليم ، فعرض لهم رجل من أهل الماء فقال : هل فيكم من راق ؟ إن فى الماء رجلا لديغا أو سليما . فانطلق رجل منهم فقرأ بفاتحة الكتاب على شاء فبرأ ، فجاء بالشاء إلى أصحابه ، فكرهوا ذلك وقالوا : أخذت على كتاب الله أجرا ، حتى قدموا المدينة فقالوا : يا رسول الله ، أخذ على كتاب الله أجرا . فقال رسول الله ﷺ « إن أحق ما أخذتم عليه أجرا كتاب الله » . قلت وهذا هو الذى علقه آنفا عن ابن عباس . ثم قال رحمه الله : باب رقية العين ، وذكر فيه حديث عائشة رضى الله عنها قالت : أمرنى رسول الله ﷺ أو أمر أن يسترقى من العين . وحديث أم سلمة رضى الله عنها أن النبى ﷺ رأى فى بيتها جارية فى وجهها سفعة فقال «استرقوالها ، فإن بها النظرة » وذكر باب « العين حق » ثم قال : باب رقية الحية

والعقرب ، وذكر فيه حديث عبد الرحمن بن الأسود عن أبيه قال : سألت عائشة عن الرقية من الحمة فقالت : رخص النبي ﷺ في الرقية من كل ذى حمة . ثم قال : باب رقية النبي ﷺ ، وذكر فيه حديث أنس بن مالك رضى الله عنه إذ قال لثابت : ألا أرقيك برقية رسول الله ﷺ ؟ قال : بلى . قال « اللهم رب الناس ، مذهب الباس ، اشف أنت الشافي ، لا شافي إلا أنت ، شفاء لا يغادر سقما » وحديث عائشة رضى الله عنها أن النبى ﷺ كان يعود بعض أهله يمسح بيده اليمنى ويقول « اللهم رب الناس ، أذهب الباس ، واشف أنت الشافى ، لا شفاء إلا شفاؤك ، شفاء لا يغادر سقما » وحديثها رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يرقى يقول « امسح الباس ، رب الناس ، بيدك الشفاء ، لا كاشف له إلا أنت » . وحديثها رضى الله عنها أن النبى ﷺ كان يقول للمريض « بسم الله ، تربة أرضنا ، بريقة بعضنا ـ وفى رواية : وريقة بعضنا ـ يشفى سقيمنا بإذن ربنا » . وعن أنس رضى الله عنه قال : رخص رسول الله ﷺ فى الرقية من العين والحمة والنملة ، رواه أحمد ومسلم والترمذى وابن ماجه . قال أبو البركات ابن تيمية : النملة قروح تخرج فى الجنب. وعن الشفاء بنت عبد الله قالت : دخل عليَّ النبى ﷺ وأنا عند حفصة فقال « ألا تعلمين، هذه رقية النملة » الحديث رواه أحمد وأبو داود . وعن عوف بن مالك قال : كنا نرقى فى الجاهلية ، فقلنا : يا رسول الله كيف ترى فى ذلك ؟ فقال « اعرضوا عليَّ رقاكم ، لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك » رواه مسلم وأبو داود . وعن جابر رضى الله عنه قال : نهى رسول الله ﷺ عن الرقى ، فجاء آل عمرو بن حزم فقالوا : يا رسول الله إنها كانت عندنا رقية نرقى بها من العقرب ، وإنك نهيت عن الرقى . قال « فاعرضوها » فقال « ما أرى بأسا ، من استطاع منكم أن ينفع أخاه فليفعل » رواه مسلم . وعن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ سحر حتى كان يرى أنه يأتى النساء ولا يأتيهن، قال سفيان : وهذا أشد ما يكون من السحر إذا كان كذا . فقال « يا عائشة ، أعلمت أن الله قد أفتانى فيما استفتيته فيه » الحديث رواه البخارى ومسلم بطوله فى مواضع . وعند ابن أبى شيبة عن زيد بن أرقم قال : سحر النبيَّ ﷺ رجلٌ من اليهود ، قال فاشتكى لذلك أياما ، قال فأتاه جبريل فقال : إن رجلا من اليهود سحرك وعقد لك عقدا ، فأرسل رسول الله ﷺ عليا فاستخرجها فجاء بها ، فجعل كلما حل عقدة وجد لذلك خفة ، فقام رسول الله ﷺ كأنما نشط من عقال . ولمسلم عن أبى سعيد الخدرى أن جبريل عليه السلام أتى النبى ﷺ فقال « يا محمد ، اشتكيت ؟ قال : نعم . قال : بسم الله أرقيك من كل شيء يؤذيك ومن شر كل نفس أو عين حاسد الله يشفيك » وعن بريدة بن الحصيب رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « لا رقية إلا من عين أو حمة » رواه ابن ماجه

هكذا مرفوعا ، ورواه مسلم وغيره موقوفا .

﴿ أما الرقى المجهولة المعانـى   فذاك وسواس من الشيطان ﴾

﴿ وفيـه قـد جاء الحديـث أنه   شـرك بـلا مريـة فاحذرنه ﴾

﴿ إذ كـل من يقوله لا يـدرى   لعلـه يكـون محض الكفر ﴾

﴿ أو هو من سحر اليهود مقتبس   علـى العوام لبسوه فالتبـس ﴾

أى أما الرقى التى ليست بعربية الألفاظ ولا مفهومة المعانى ، ولا مشهورة ولا مأثورة فى الشرع البتة ، فليست من الله فى شىء ، ولا من الكتاب والسنة فى ظل ولافىء ، بل هى وسواس من الشيطان أوحاها إلى أوليائه كما قال تعالى ﴿ **وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم** ﴾ وعليه يحمل قول النبى ﷺ فى حديث ابن مسعود « إن الرقى والتمائم والتولة شرك » وذلك لأن المتكلم به لا يدرى أهو من أسماء الله تعالى أو من أسماء الملائكة أو من أسماء الشياطين ، ولا يدرى هل فيه كفر أو إيمان ، وهل هو حق أو باطل ، أو فيه نفع أو ضر أو رقية أو سحر . ولعمر الله لقد انهمك غالب الناس فى هذه البلوى غاية الانهماك واستعملوه على أضرب كثيرة وأنواع مختلفة ، فمنه ما يدّعون أنه من القرآن أو من السنة ومن أسماء الله المثبتة فيها ، وأنهم ترجموه هم من عند أنفسهم بالسريانية أو العبرانية أو غيرها وأخرجوه عن اللغة العربية ، ولا أدرى إن صدقناهم فى دعواهم أهم يعتقدون أنه لا ينفع إذا كان باللغة العربية التى نزل بها القرآن وتكلم بها النبى ﷺ بالسنة حتى يترجموه بالاعجمية أو أنهم يعتقدون أنه بالأعجمية أنفع منه بالعربية ، أو أنه ينفع بالعربية لشىء وبالأعجمية لغيره ولا تصلح إحداهما فيما تصلح فيه الأخرى ، أم ماذا زين لهم الشيطان وسولت لهم أنفسهم ، أم ماذا كانوا يفترون ؟ ومما يزعمون أنه من أسماء الله تعالى التى ليست فى الكتاب ولا فى السنة وأنهم علموها من غيرهما فمنه ما يدعون أنه دعا به آدم عليه السلام أو نوح أو هود أو غيرهم من الأنبياء ، ومنه ما يقولون إنه ليس إلا فى أم الكتـاب ، ومنه ما يقولون هو مكتوب فى البيت المعمور ، ومنه ما يقولون هو مكتوب على جناح جبريل عليه السلام أو جناح ميكائيل أو جناح إسرافيل أو غيرهم من الملائكـة ، أو على باب الجنـة أو غيـر ذلك . وليـت شعـرى متى طالعـوا اللوح المحفوظ فاستنسخوه منه ، ومتى رقوا إلى البيت المعمور فقرأوه فيه ، ومتى نشرت لهم الملائكة أجنحتها فرأوه ، ومتى اطلعوا إلى باب الجنة فشاهدوه ، وكلما شعوذ مشعبذ وتحذلق متحذلق وأراد الدجل على الناس والتحيل لأخذ أموالهم طلب السبل إلى وجه تلك الحيلة ورام لها أصلا ترجع إليه ، فان وجد شبهة تروج على ضعفاء العقول وأعمياء

البصائر وإلا كذب لهم كذبا محضا وقاسمهم بالله إنه لهم لمن الناصحين ، فيصدقونه لحسن ظنهم به . ومنه أسماء يدعونها ، تارة يدعون أنها أسماء الملائكة ، وتارة يزعمون أنها من أسماء الشياطين ، واعتقادهم فى هذه الأسماء أنها تخدم هذه السورة أو هذه الاية، أو هذا الاسم من أسماء الله تعالى فيقولون : يا خدام سورة كذا أو آية كذا أو اسم كذا ، يا فلان ابن فلان ويا فلان ابن فلان أجيبوا أجيبوا ، العجل العجل ونحو ذلك . وما من سورة من القرآن ولا آية منه ولا اسم من أسماء الله يعرفونه إلا وقد انتحلوا له خداما ودعوهم له ، ساء ما يفترون . وتارة يكتبون السورة أو الآية ويكررونها مرات عديدة بهيئات مختلفة حتى يجعلون أولها آخرا وآخرها أولا ، وأوسطها أولا فى موضع وآخرا فى آخر . وتارة يكتبونها بحروف مقطعة كل حرف على حدته ويزعمون أن لها بهذه الهيأة خصوصية ليست لغيرها من الهيئات ، ولا أدرى من أين أخذوها وعمن نقلوها ، ما هى إلا وساوس شيطانية زخرفوها ، وخرافات مضلة ألفوها ، وأكاذيب مختلقة لفقوها ، لم ينزل الله بها من سلطان، ولا يعرف لها أصل فى سنة ولا قرآن ، ولم تنقل عن أحد من أهل الدين والايمان. إن هؤلاء إلا كاذبون ، أفاكون مفترون . وسيجزون ما كانوا يعملون . وتارة يكتبون رموزا من الأعداد العربية المعروفة من آحاد وعشرات ومئات وألوف وغيرها ويزعمون أنها رموز إلى حروف آية أو سورة أو اسم أو شيء مما قدمنا بحساب الحروف الأبجدية المعروفة عند العرب وغير ذلك من الخرافات الباطلة ، والأكاذيب المفتعلة المختلقة ، وغالبها مأخوذ عن الأمة الغضبية الذين أخذوا السحر عن الشياطين وتعلموه منهم ، ثم أدخلوا ذلك على أهل الاسلام بصفة أنه من القرآن أو السنة أو أسماء الله تعالى وأنهم إنما غيروا ألفاظه وترجموها بغير العربية لمقاصد لا تتم بزعمهم إلا بذلك ، ومنها ما هو من عبّاد الملائكة والشياطين ونحوهم يأخذون أسماءهم ويقولون للجهال هى أسماء الله ليروجوا الشرك بذلك عليهم فيدعون غير الله من دونه ، وهذه مكيدة لم يقدر عليها إبليس إلا بوساطة هؤلاء المضلين وهو ﴿ **إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير** ﴾ والله تعالى يقول ﴿ **أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون** ﴾[١] ، ﴿ **ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور** ﴾

فتحصل من هذا أن الرقى لا تجوز إلا باجتماع ثلاثة شروط ، فاذا اجتمعت فيها كانت رقية شرعية ، وإن اختل منها شيء كان بضد ذلك : الأول أن تكون من الكتاب والسنة فلا تجوز من غيرهما ، الشرط الثانى أن تكون باللغة العربية محفوظة ألفاظها مفهومة معانيها فلا يجوز تغييرها إلى لسان آخر ، الثالث أن يعتقد أنها سبب من الأسباب لا تأثير

---

(١) الآية : ٥١ من سورة العنكبوت ، وردت فى الأصل « رحمة » .

لها إلا بإذن الله عز وجل فلا يعتقد النفع فيها لذاتها ، بل فعل الراقى السبب والله هو المسبب إذا شاء .

﴿ وفـــى التمائـــم المعلقـــات   إن تلك آيـــات مبينـــات ﴾

﴿ فالاختلاف واقع بين السلف   فبعضهم أجازها والبعض كف ﴾

(وفى التمائم المعلقات) أى التى تعلق على الصبيان والدواب ونحوها (إن تلك) هى أى التمائم (آيات) قرآنية (مبينات) ، وكذلك إن كانت من السنن الصحيحة الواضحات (فالاختلاف) فى جوازها (واقع بين السلف) من الصحابة والتابعين فمن بعدهم (فبعضهم) أى بعض السلف (أجازها) يروى ذلك عن عائشة رضى الله عنها وأبى جعفر محمد بن على وغيرهما من السلف ، (والبعض) منهم (كف) أى منع ذلك وكرهه ولم يره جائزا ، منهم عبد الله بن عكيم وعبد الله بن عمرو وعقبة بن عامر وعبد الله بن مسعود وأصحابة كالأسود وعلقمة ومن بعدهم كابراهيم النخعى وغيرهم رحمهم الله تعالى . ولا شك أن منع ذلك أسدُ لذريعة الاعتقاد المحظور ، لا سيما فى زماننا هذا فانه إذا كرهه أكثر الصحابة والتابعين فى تلك العصور الشريفة المقدسة والإيمان فى قلوبهم أكبر من الجبال فلأن يكره فى وقتنا هذا وقت الفتن والمحن أولى وأجدر بذلك ، كيف وهم قد توصلوا بهذه الرخص إلى محض المحرمات وجعلوها حيلة ووسيلة إليها ، فمن ذلك أنهم يكتبون فى التعاويذ آية أو سورة أو بسملة أو نحو ذلك ثم يضعون تحتها من الطلاسم الشيطانية ما لا يعرفه إلا من اطلع على كتبهم ، ومنها أنهم يصرفون قلوب العامة عن التوكل على الله عز وجل إلى أن تتعلق قلوبهم بما كتبوه ، بل أكثرهم يرجفون بهم ولم يكن قد أصابهم شيء ، فيأتى أحدهم إلى من أراد أن يحتال على أخذ ماله مع علمه أنه قد أولع به ، فيقول له : إنه سيصيبك فى أهلك أو فى مالك أو نفسك كذا وكذا، أو يقول له إن معك قرينا من الجن أو نحو ذلك . ويضف له أشياء ومقدمات من الوسوسة الشيطانية موهما أنه صادق الفراسة فيه ، شديد الشفقة عليه ، حريص على جلب النفع إليه ، فإذا امتلأ قلب الغبى الجاهل خوفا مما وصف له حينئذ أعرض عن ربه وأقبل على ذلك الدجال بقلبه وقالبه ، والتجأ إليه وعول عليه دون الله عز وجل وقال له : فما المخرج مما وصفت ، وما الحيلة فى دفعه ؟ كأنها بيده الضر والنفع ، فعند ذلك يتحقق فيه أمله ، ويعظم طمعه فيما عسى أن يبذله له ، فيقول له إنك إن أعطيتنى كذا وكذا كتبت لك من ذلك حجابا طوله كذا وعرضه كذا ، ويصف له ويزخرف له فى القول ، وهذا الحجاب علقه من كذا وكذا من الأمراض . أترى هذا ــ مع هذا الاعتقاد ــ من الشرك الأصغر ، لا بل هو تأله لغـــيـــر الله وتوكل على غـــيـــره والتـــجـــاء إلى ســـواه ، وركـــون

إلى أفعال المخلوقين وسلب لهم من دينهم ، فهل قدر الشيطان على مثل هذه الحيل إلا بوساطة أخيه من شياطين الانس ﴿ **قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن ، بل هم عن ذكر ربهم معرضون** ﴾ ثم إنه يكتب فيه مع طلاسمه الشيطانية شيئاً من القرآن ويتعلقه على غير طهارة ويحدث الحدث الأصغر والأكبر وهو معه أبدا لا يقدسه عن شيء من الأشياء ، تالله ما استهان بكتاب الله تعالى أحد من أعدائه استهانة هؤلاء الزنادقة المدعين الاسلام به . والله ما نزل القرآن إلا لتلاوته ، والعمل به ، وامتثال أوامره واجتناب نواهيه . وتصديق خبره ، والوقوف عند حدوده ، والاعتبار بأمثاله ، والاتعاظ بقصصه والايمان به ، كل من عند ربنا ، وهؤلاء قد عطلوا ذلك كله ونبذوه وراء ظهورهم ولم يحفظوا إلا رسمه كي يتأكلوا به ويكتسبوا كسائر الأسباب التي يتوصلون بها إلى الحرام لا الحلال ، ولو أن ملكا أو أميرا كتب كتابا إلى من هو تحت ولايته أن افعل كذا ، واترك كذا ، وأمر في جهتك بكذا وانههم عن كذا ، ونحو ذلك ، فأخذ ذلك الكتاب ولم يقرأه ولم يتدبر أمره ونهيه ولم يبلغه إلى غيره ممن أمر بتبليغه إليه ، بل أخذه وعلقه في عنقه أو عضده ، ولم يلتفت إلى شيء مما فيه البتة ، لعاقبه الملك على ذلك أشد العقوبة ولسامه سوء العذاب . فكيف بتنزيل جبار السموات والأرض الذى له المثل الأعلى فى السموات والأرض ، وله الحمد فى الأولى والآخرة وإليه يرجع الأمر كله ، فاعبده وتوكل عليه هو حسبى لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم .

﴿ وإن تكن مما سوى الوحيين   فإنهـــا شـــرك بغيـــر ميـــن ﴾

﴿ بـــل إنهـا قسيمـة الأزلام   فى البعد عن سيما أولى الإسلام ﴾

(وإن تكن) أى التمائم (مما سوى الوحيين) بل من طلاسم اليهود وعباد الهياكل والنجوم والملائكة ومستخدمى الجن ونحوهم أو من الخرز أو الأوتار أو الحلق من الحديد وغيره (فانها شرك) أى تعلقها شرك (بدون مين) أى شك ، إذ ليست هى من الأسباب المباحة والأدوية المعروفة ، بل اعتقدوا فيها اعتقادا محضا أنها تدفع كذا وكذا من الآلام لذاتها لخصوصية زعموا فيها كاعتقاد أهل الأوثان فى أوثانهم ، (بل إنها قسيمة) أى شبيهة (الأزلام) التى كان يستصحبها أهل الجاهلية فى جاهليتهم ويستقسمون بها إذا أرادوا أمرا ، وهى ثلاثة قداح مكتوب على أحدها : افعل ، والثانى : لا تفعل ، والثالث: غفل ، فان خرج فى يده الذى فيه افعل مضى لأمره ، أو الذى فيه لا تفعل ترك ذلك ، أو الغفل أعاد استقسامه . وقد أبدلنا الله تعالى ـ وله الحمد ـ خيرا من ذلك : صلاة الاستخارة ودعاءها .

والمقصود أن هذه التمائم التي من غير القرآن والسنة شريكة للأزلام وشبيهة بها من حيث الاعتقاد الفاسد والمخالفة للشرع (فى البعد عن سيما أولى الاسلام) أى عن زى أهل الاسلام ، فإن أهل التوحيد الخالص من أبعد ما يكون عن هذا وهذا ، والإيمان فى قلوبهم أعظم من أن يدخل عليه مثل هذا ، وهم أجل شأنا وأقوى يقينا من أن يتوكلوا على غير الله أو يثقوا بغيره . ومن الله التوفيق .

فصل

من الشرك فعل من يتبرك بشجرة أو حجر أو بقعة أو قبر أو نحوها يتخذ ذلك المكان عيدا

وبيان أن الزيارة تنقسم إلى سنية وبدعية وشركية

﴿ هـذا ومن أعمـال أهـل الشرك　　　مـن ير ما تـردد أو شـك ﴾
﴿ ما يقصد الجهال من تعظيم مـا　　　لـم يأذن الله بأن يعظمـا ﴾
﴿ كمـن يلُـذ ببقـعـة أو حجـر　　　أو قبر ميت أو ببعض الشجر ﴾
﴿ متخـذا لـذلك المكـان　　　عيداً كفعل عابدى الأوثان ﴾

(هذا) أى الأمر والاشارة إلى ما تقدم (ومن أعمال أهل الشرك) التى لا يفعلها غيرهم ولا تليق إلا بعقولهم السخيفة ، وأفئدتهم الضعيفة ، وقلوبهم المطبوع عليها ، وأبصارهم المغشى عليها (ما) أى الذى (لم يأذن الله) عز وجل فى كتابه ولا سنة نبيه (بأن يعظما) بألف الاطلاق ، وأن ومدخولها فى تأويل مصدر أى لم يأذن الله بتعظيمه ذلك التعظيم الذى منحه إياه من لم يفرق بين حق الله تعالى وحقوق عباده من النبيين والأولياء وغيرهم ، بل لم يفرق بين أولياء الله وأعدائه ولا بين طاعته ومعصيته ، فيتخذ من دون الله أندادا وهو يرى أن ذلك الذى فعله قربة وطاعة لله وأن الله يحب ذلك ويرضاه ، ويكذّب الرسل ويدّعى أنه من أتباعهم ، ويوالى أعداء الله وهو يظنهم أولياءه ، كفعل اليهود والنصارى يجاهرون الله بالمعاصى ويكذبون كتابه ويغيرونه ويبدلونه ويحرفون الكلم عن مواضعه ويقتلون الأنبياء بغير الحق وينسبون لله سبحانه وتعالى الولد ويفعلون الأفاعيل ويقولون نحن أبناء الله وأحباؤه ، وهم البغضاء إلى الله وأعداؤه . وسبب هذا كله ـ فى الأمم الأولى والأخرى ـ هو الاعراض عن الشريعة وعدم الاهتمام لمعرفة ما احتوت عليه الكتب من البشـارة والنـذارة والأمـر والنهـى والحلال والحرام والوعد والوعيد ، ومعرفة ما يجب لله على عباده فعله وما يجب تركه (كمن يلُذْ ببقعة) أى يعوذ بها ويختلف إليها ويتبرك

بها ولو بعبادة الله تعالى عندها ، وتقدم تقييد ذلك بما لم يأذن به الله ، فيخرج بهذا القيد ما أذن الله تعالى بتعظيمه كتعظيم بيته الحرام بالحج إليه وتعظيم شعائر الله من المشاعر والمواقف وغيرها ، فان ذلك تعظيم لله عز وجل الذى أمر بذلك لا لتلك البقعة ذاتها كما قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لما استلم الحجر الأسود : أما والله إنى لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أنى رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك وكذلك التعظيم أيضا نفسه إنما أردنا منع تعظيم لم يأذن الله به لا المأذون فيه ، فان الله تعالى قد أمر بتعظيم الرسل بأن يطاعوا فلا يعصوا ويحبوا ويتبعوا ، وأن طاعة الرسول هى طاعة الله عز وجل ومعصيته معصية لله عز وجل ، فهذا تعظيم لا يتم الإيمان بالله إلا به إذ هو عين تعظيم الله تعالى ، فانهم إنما عُظموا لأجل عظمة المرسل سبحانه وتعالى وأُحبوا لأجله واتُّبعوا على شرعه ، فعاد ذلك إلى تعظيم الله عز وجل ، فلو أن أحدا عظم رسولا من الرسل بما لم يأذن الله به ورفعه فوق منزلته التى أنزله الله عز وجل وغلا فيه اعتقد فيه شيئا من الإلهية لانعكس الأمر وصار عين التنقص والاستهانة بالله وبرسله كفعل اليهود والنصارى الذى ذكر الله عز وجل عنهم من غلوهم فى الأنبياء والصالحين كعيسى وعزير ، فكذبوا بالكتاب وتنقصوا الرب عز وجل بنسبة الولد إليه وغير ذلك وكذبوا الرسول فى قوله ﴿ **إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا** ﴾ فصار ذلك التعظيم فى اعتقادهم هو عين التنقص والشتم ، سبحان الله عما يصفون ، وسلام على المرسلين . (أو حجر ، أو قبر ميت ، أو ببعض الشجر) أو غير ذلك من العيون ونحوها ولو بعبادة الله عندها فان ذلك ذريعة إلى عبادتها ذاتها كما فعل إبليس لعنه الله بقوم نوح حيث أشار عليهم بتصوير صالحيهم ثم بالعكوف على قبورهم وصورهم وعبادة الله عندها إلى أن أشار عليهم بعبادتها ذاتها من دون الله تعالى فعبدوها ، (متخذا لذلك المكان) من القبور والأشجار والعيون والبقاع وغيرها (عيدا) أى ينتابها ويعتاد الاختلاف إليها (كفعل عابدى الأوثان) فى تعظيمهم أوثانهم واعتيادهم إليها ، ولذا سمى النبى ﷺ العكوف على الأشجار وتعليق الأسلحة بها على جهة التعظيم « تألها » ، كما فى الترمذى عن أبى واقد الليثى رضى الله عنه قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين ونحن حدثاء عهد بكفر ، وللمشركين سدرة يعكفون عليها وينوطون بها أسلحتهم يقال لها « ذات أنواط » فمررنا بسدرة فقلنا : يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط ، فقال رسول الله ﷺ « الله أكبر ، انها السنن ، قلتم والذى نفسى بيده كما قالت بنو اسرائيل لموسى : اجعل لنا إلها كما لهم آلهة ، قال إنكم قوم تجهلون . لتركبن سنن من قبلكم » ولقد عمت البلوى بذلك وطمت فى كل زمان ومكان حتى فى هذه الأمة لاسيما زماننا هذا ، ما من قبر ولا بقعة يذكر لها

شيء من الفضائل ولو كذبا إلا وقد اعتادوا الاختلاف إليها والتبرك بها حتى جعلوا لها أوقاتا معلومة يفوت عيدهم بفواتها ويرون من أعظم الخسارات أن يفوت الرجل ذلك العيد المعلوم . وآل بهم الأمر إلى أن صنفوا في أحكام حجهم إليها كتبا سموها مناسك حج المشاهد[1] . ومن أخل بشيء منها فهو عندهم أعظم جرما ممن أخل بشيء من مناسك الحج إلى الله الحرام ، وجعلوا لها طوافا معلوما كالطواف بالبيت الحرام ، وشرعوا تقبيلها كما يقبّل الحجر الأسود حتى قالوا إن زحمت فاستلم بمحجن أو أشر إليه ، قياسا على فعل النبي ﷺ بالحجر الأسود ، وشرعوا لها نذورا من المواشي والنقود ، ووقفوا عليها الوقوف من العقارات والحرث وغيرها وغير ذلك من شرائعهم الشيطانية ، وقواعدهم الوثنية. وسيأتي إن شاء الله تعالى ذكر النصوص النبوية في سد ذرائع الشرك في الفصل الآتي وبالله التوفيق .

﴿ ثـم الزيـارة على أقسام	ثلاثـة يا أمـة الإسـلام ﴾
﴿ فان نوى الزائر فيما أضمره	فـي نفسه تذكرة بالآخره ﴾
﴿ ثـم الدعـا لـه وللأموات	بالعفـو والصفـح عن الزلات ﴾
﴿ ولـم يكن شد لرحال نحوها	ولم يقل هجرا كقول السفها ﴾
﴿ فتلـك سنـة أتـت صريحه	فـي السنـن المثبتة الصحيحه ﴾

(ثم الزيارة) أي زيارة القبور تأتي (على أقسام ثلاثة) : زيارة سنّية ، وزيارة بدعية ، وزيادة شركية فتفهموها (يا أولي الاسلام) . والبداءة بالشرعية لشرفها والندب إليها ، ثم البدعية لكونها أخف جرما من الشركية ، ثم هي بعد ذلك . (فإن نوى الزائر) للقبور (فيما أضمره في نفسه) أي كانت نيته بتلك بأ القبور ويعتبر بمصارعهم إذ كانوا أحياء مثله يؤملون الآمال ويخولون الأموال ، ويجولون في الأقطار بالأيام والليال ، ويطمعون في البقاء ويستبعدون الارتحال ، فبينماهم كذلك إذا بصارخ الموت قد نادى ، فاستجابوا له على الرغم جماعات وفرادى ، وأبادهم ملوكا ونوابا وقوادا وأجنادا ، وقدموا على ما قدّموا غيا كان أو رشادا ، وصار لهم التراب لحفاً ومهادا ، بعد الغرف العالية التي كان عليها الحجاب أرصادا ، تساوى فيها صغيرهم وكبيرهم ، وغنيهم وفقيرهم ، وشريفهم وحقيرهم، ومأمورهم وأميرهم . اتفق ظاهر حالهم واتحد ، ولا فرق للناظر إليهم يميز به أحدا من أحد . وأما باطناً فالله أكبر لو كشف للناظرين الحجاب ، لرأوا من الفروق العجب العجاب ،

---

(١) انظر المنتقى من منهاج الاعتدال صفحة ١٢ ـ ١٣ وصفحة ٥١ .

فهؤلاء لهم طوبى وحسن مآب ، وأولئك فى أسوإ حالة وأشد العذاب . فليعلم الواقف عليهم الناظر إليهم ، أنه بهم ملتحق ، ولإحدى الحالتين مستحق ، فليتأهب لذلك ، وليتب إلى العزيز المالك ، وليلتجىء إليه من شر كل ما هنالك . (ثم) قصد أيضا (الدعا) أى دعاء الله عز وجل (له) أى لنفسه (وللأموات) من المسلمين (بالعفو) من الله عز وجل (والصفح عن الزلات) وكذا يدعو لسائر المسلمين بذلك (و) مع ذلك (لم يكن شد الرحال نحوها) الضمير للقبور لما فى الصحيحين عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول ﷺ « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجدى هذا ، والمسجد الأقصى » . (ولم يقل هجرا) أى محظوراً شرعا (كقول) بعض (السفها) لما فى السنن من حديث بريدة قال فيه النبى ﷺ «كنت نهيتكم عن زيارة القبور ، فمن أراد أن يزور فليزر ولا تقولوا هجرا »[1] (فتلك) الاشارة إلى النوع المذكور من الزيارة (سنة) طريقة نبوية (أتت صريحة) أى واضحة ظاهرة (فى السنن) أى الأحاديث (المثبتة) فى دواوين الاسلام (الصحيحة) سندا ومتنا ، منها حديث بريدة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « قد كنت نهيتكم عن زيارة القبور ، فقد أذن لمحمد ﷺ فى زيارة قبر أمه فزوروها ، فإنها تذكر الآخرة » رواه الترمذى وصححه . وحديث أبى هريرة رضى الله عنه قال « زار النبى ﷺ قبر أمه فبكى وأبكى من حوله فقال استأذنت ربى أن أستغفر لها فلم يأذن لى، واستأذنته فى أن أزورها فأذن لى ، فزوروا القبور فانها تذكر الموت » رواه الجماعة . وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ أتى المقبرة فقال « السلام عليكم دار قوم مؤمنين ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون » رواه أحمد ومسلم والنسائى . ولأحمد من حديث عائشة رضى الله عنها مثله وزاد « اللهم لا تحرمنا أجرهم ولا تفتنّا بعدهم » . وعن بريدة قال : كان رسول الله ﷺ يعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر أن يقول قائلهم « السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون ، نسأل الله لنا ولكم العافية» رواه أحمد ومسلم وابن ماجه ، زاد مسلم فى رواية « يرحم الله المتقدمين منا ومنكم والمتأخرين » . وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : مر رسول الله ﷺ بقبور المدينة فأقبل عليهم بوجهه فقال « السلام عليكم يا أهل القبور ، يغفر الله لنا ولكم أنتم سلفنا ونحن بالأثر » رواه الترمذى وقال : حسن . وكذلك الأحاديث فى خروجه ﷺ إلى بقيع الغرقد كثيراً يدعو لهم ويترحم عليهم . وكان الصحابة إذا أتوا قبره ﷺ صلوا وسلموا عليه فحسب ، كما كان ابن عمر رضى الله عنهما يقول : السلام عليك يا رسول الله ، السلام عليك يا أبا بكر ،

---

(١) رواه البيهقى ، والحاكم فى مستدركه .

السلام عليك يا أبتاه . وكذا التابعون ومن بعدهم من أعلام الهدى ومصابيح الدجى لم يذكر عنهم في زيارة القبور غير العمل بهذه الأحاديث النبوية وأفعال الصحابة لم يعدلوا عنها ولم يستبدلوا بها غيرها بل وقفوا عندها ، فهذه الزيارة الشرعية المستفادة من الأحاديث النبوية ، وعليها درج الصحابة والتابعون وتابعوهم بإحسان ، إنما فيها التذكر بالقبور والاعتبار بأهلها والدعاء لهم والترحم عليهم وسؤال الله العفو عنهم ، فمن ادعى فيها غير هذا طولب بالبرهان ، وأنى له ذلك ومن أين يطلبه ؟ بل كذب وافترى ، وقفا ما ليس له به علم . بلى إن العلوم الشرعية دالة على ضلاله وجهله (أو قصد الدعاء) من الصلاة وغيرها أو الاعتكاف عند قبورهم أو نحو ذلك (والتوسلا) بألف الاطلاق (بهم) أى بأهل القبور (إلى الرحمن جل وعلا) عما انتفكه أهل الزيغ والضلال (فبدعة محدثة) لم يأذن الله تعالى بها (ضلالة) كما قال ﷺ « كل بدعة ضلالة » وقال ﷺ « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد » وقال ﷺ في رواية « من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد » وقال ﷺ « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى ، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور فان كل بدعة ضلالة » وغير ذلك . فإن من قال : اللهم إنى أسألك بجاه فلان ، وهو ميت أو غائب ، وإن كان يرى أنه لم يدع إلا الله ولم يعبد سواه فهو قد عبد الله بغير ما شرع وابتدع في الدين ماليس منه واعتدى في دعائه ودعا الله بغير ما أمره أن يدعوه به، فان الله تعالى إنما أمرنا أن ندعوه بأسمائه الحسنى كما قال تعالى ﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ﴾ ولم يشرع لنا أن ندعوه بشيء من خلقه البتة ، بل قد نهانا رسول الله ﷺ عن أن نقسم بشيء من المخلوقات مطلقا فكيف بالإقسام بها على الله عز وجل . وأما حديث الأعمى الذى به يحتج المجوزون للتوسل بالمقبور فلا حجة لهم فيه بحمد الله لو فهموا معناه ووضعوه موضعه ، ولكنهم أخطأوا في تأويله ، ولم يوفقوا لفهم مدلوله ، فان هذا الحديث بجميع ألفاظه هو بمعزل عن مدعاهم ، وهذه ألفاظه من الكتب التى خرج فيها : قال الترمذى رحمه الله تعالى حدثنا محمود بن غيلان حدثنا عثمان بن عمر حدثنا شعبة عن أبي جعفر عن عمارة بن خزيمة بن ثابت عن عثمان بن حنيف أن رجلا ضرير البصر أتى النبى ﷺ فقال : ادع الله أن يعافيني . قال « إن شئتَ دعوتُ وإن شئتَ صبرتَ فهو خير لك » . قال : فادعه . قال فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه ويدعو بهذا الدعاء : « اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد ﷺ نبي الرحمة ، إنى توجهت بك إلى ربى في حاجتى هذه لتقضى لى ، اللهم فشفعه فيّ » هذا حديث حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث أبي جعفر وهو غير الخطمى ا هـ . قلت الظاهر بالاستقراء أن أبا جعفر هذا هو الرازى

التيمي مولاهم مشهور بكنيته وهو من رجال الأربعة واسمه عيسى بن أبي عيسى عبد الله بن ماهان ، وأصله من مرو كان يتجر إلى الرى ، روى عن عطاء وعمرو بن دينار وقتادة ، وعنه أبو عوانة وشعبة كما في هذا الحديث قال ابن معين ثقة ، وقال ابن المديني ثقة يخلط عن المغيرة ، وقال الفلاس سيء الحفظ ، وقال أبو حاتم : ثقة صدوق صالح الحديث ، وقال في التقريب : صدوق سيىء الحفظ خصوصا عن المغيرة ، من كبار السابعة مات في حدود الستين ومائة . والظاهر من عباراتهم أن تخليطه عن المغيرة خاصة ثبت فيمن سواه . وبهذا يجمع بين قول من يضعفه وقول من يوثقه ، كيف ومن المؤثقين له شيخا البخارى يحي بن معين وعلى بن المديني وهما هما . والله أعلم . ورواه النسائي عن عثمان بن حنيف ولفظه ان رجلا أعمى قال : يا رسول الله ادعُ أن يكشف لى عن بصرى . قال فانطلق فتوضأ ثم صلى ركعتين ثم قال « اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بنبيى محمد ﷺ نبى الرحمة ، يا محمد إنى أتوجه بك إلى ربى أن يكشف عن بصرى ، اللهم فشفعه فى »[1] قال فرجع وقد كشف الله بصره . وقال أحمد رحمه الله تعالى فى مسنده : حدثنا روح حدثنا شعبة عن عمير بن الخطمى المدينى قال : سمعت عمارة بن خزيمة بن ثابت يحدث عن عثمان بن حنيف أن رجلا ضريرا أتى النبى ﷺ فقال : يا نبى الله ادع الله أن يعافينى . فقال « إن شئت أخرت ذلك فهو أفضل لآخرتك ، وإن شئت دعوت لك » . قال : بل ادع الله لى . فأمره أن يتوضأ وأن يدعو بهذا الدعاء « اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبى الرحمة، يا محمد إنى أتوجه بك إلى ربى فى حاجتى هذه فتقضى لى ، اللهم فشفعنى فيه وشفعه فى » . قلت : عمير بن يزيد الخطمى هذا هو أبو جعفر الذى فرّق الترمذى بينه وبين أبى جعفر المذكور فى روايته ، وقد قلنا الظاهر أنه هو الرازى التيمى وكلاهما شيخ لشعبة وكلاهما صدوق فيحتمل أن كلا منهما سمعه من عمارة ، وسمعه شعبة من كليهما وحدث به مرة عن هذا ومرة عن هذا ، فرواه عثمان بن عمر عن شعبة عن أبى جعفر الرازى التيمى ، وسمعه روح منه عن الخطمى فحدث به كذلك والله عز وجل أعلم. والمقصود أن هذا الحديث إن جزمنا بصحته فليس فيه لهم حجة ولا دليل على ما انتحلوه بأفكارهم الخاطئة ، فان هذا الأعمى إنما سأل من النبى ﷺ الدعاء له بكشف بصره ، وهو حى حاضر قادر على ما سأله منه وهو الدعاء ، وهو يؤمن على ذلك ويقول : اللهم شفعه فىّ ، فسأل من النبى ﷺ الدعاء ، وسأل قبول دعائه من الله عز وجل لعلمهم التام بالايمان بالله عز وجل وأنه لا يشفع أحد عنده إلا بإذنه ، وبهذا أمره النبى ﷺ أن يدعو الله تعالى ، فاجتمع الدعاء من الجهتين . وهكذا كان الصحابة رضى الله عنهم كثيرا ما كانوا يسألون من النبى ﷺ أن يدعو لهم

---

(١) رواه أحمد فى مسنده ، والحاكم فى المستدرك وابن ماجه والترمذى .

بالنصر وأن يستسقى لهم إذا أجدبوا وبتكثير الطعام كما سأله منه عمر رضى الله عنه فى غزوة تبوك وقالت له أم أنس خويدمك أنس ادع الله تعالى له ، وأمثال ذلك فى حياته الدنيا مالا يحصى ، وكذلك فى موقف القيامة يسأل الخلائق من أولى العزم أن يشفعوا لهم إلى ربهم فى فصل القضاء واحد بعد واحد ، حتى تنتهى إليه ﷺ فيذهب ويسجد تحت العرش ويحمد الله تعالى ويثنى عليه إلى أن يقول له « ارفع رأسك وقل يسمع وسل تعط واشفع تشفع » وذلك إذا أذن الله عز وجل له فى الشفاعة التى وعده إياها كما سيأتى تقريره . وقد قال ﷺ لعمر وهو ذاهب للعمرة « لا تنسنا من دعائك » وكذلك استسقى عمر رضى الله عنه بالعباس والصحابة متوافرون كما فى صحيح البخارى « اللهم إنا كنا إذا أجدبنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا ، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا » ، وكان من دعاء العباس يومئذ « اللهم إنه لا ينزل بلاء إلا بذنب ولا يكشف إلا بتوبة ، وقد توجه بى القوم إليك لمكانى من نبيك ، وهذه أيدينا إليك بالذنوب ونواصينا إليك بالتوبة ، فاسقنا الغيث » ذكره الزبير بن بكار ، وكان ذلك الجدب عام الرمادة . وكذلك قال معاوية لما استسقى بيزيد بن الأسود الجرشى ، فقال « اللهم إنا نستشفع ـ أو نتوسل ـ إليك بخيارنا ، يا يزيد ارفع يديك ، فرفع يديه ودعا الناس حق سقوا ، فكان أفضل القرون يسألون الله عز وجل ، ويلتمسون الصالحين منهم الحاضرين عندهم أن يسألوا الله عز وجل لهم ولهم ، وتوسلهم إنما كان بدعائهم لا بذواتهم ، وهذا جائز فى كل زمان ومكان أن تسأل من عبد صالح حاضر عندك أن يدعو لك وتؤمن أنت على دعائه ، أو تسأل من مسافر الدعاء بظهر الغيب ونحو ذلك كما ثبت عن النبى ﷺ ودرج عليه السلف الصالح رحمهم الله تعالى . ولو كان ذلك عندهم جائزا أعنى التوسل بالذوات لم يحتج الأعمى أن يأتى إلى النبى ﷺ ويطلب منه الدعاء ، بل كان يتوسل به فى محله أينما كان إذ لا فائدة زائدة فى مجيئه إليه على هذا المعنى ، وكذلك عمر والصحابة معه لم يكونوا ليعدلوا عن ذاته ﷺ إلى ذات العباس لو كان التوسل بالذوات لا بالدعاء ، وكذا معاوية وأصحابة لم يكونوا ليعدلوا عن ذاته ﷺ إلى يزيد بن الأسود ولم يطلبوا منه الدعاء ، ولما أمر النبى ﷺ عمر إذا وجد أويساً أن يطلب منه الاستغفار ، بل كان يكفيه أن يقول : اللهم بحق أويس القرنى ، ولم يعرف هذا عن أحد من الصحابة ولا التابعين لهم باحسان أنه فعل ذلك التوسل بالنبى ﷺ ولا بغيره من الأنبياء ولا بأحد من أفاضلهم الأولياء بعد موته ، ولو كانوا بالذوات يتوسلون فى حال حياتهم لم يكن فرق بين ذلك وبين مماتهم ، وهذا فى التوسل بأهل القبور عام عند القبر وغيره وأما عبادة الله عند القبور كالصلاة عندها والعكوف عليها فهو أشد وأغلظ ، لأنه ذريعة مفضية إلى عبادة المقبور نفسه ، كما قدمنا عن قوم نوح من استدراج الشيطان

لهم . وكذلك فعل بغالب هذه الأمة والعياذ بالله ، ولذلك نهى النبي ﷺ أن يصلى على القبور أو إليها وغلظ فى ذلك ودعا على فاعله باللعنة وشدة الغضب كما سيأتى فى الفصل الآتى قريبا إن شاء الله تعالى .

﴿ وإن دعا المقبورَ نفسه فقد أشرك بالله العظيم وجحد ﴾

﴿ لن يقبل الله تعالى منه صرفا ولا عدلا فيعفو عنه ﴾

﴿ إذ كل ذنب موشك الغفران إلا اتخاذ الند للرحمن ﴾

(وإن دعا) الزائر (المقبور نفسه) من دون الله عز وجل وسأل منه مالا يقدر عليه إلا الله عز وجل من جلب خير أو دفع ضر أو شفاء مريض أو رد غائب أو نحو ذلك من قضاء الحوائج (فقد أشرك) فى فعله ذلك (بالله العظيم) المتعالى عن الأضداد والأنداد والكفؤ والولى والشفيع بدون إذنه (وجحد) حق الله عز وجل على عباده وهو إفراده بالتوحيد وعبادته وحده لا شريك له ونفى ضد ذلك عنه ، قال الله تعالى ﴿ **ومن يدع مع الله إلها آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون** ﴾ وقال تعالى ﴿**ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك ، فإن فعلت فانك إذا من الظالمين . وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يردك بخير فلا راد لفضله** ﴾ وقال تعالى ﴿ **ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون . وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين** ﴾ وقال تعالى ﴿ **إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين** ﴾ الآيات . وقال تعالى ﴿ **يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ، إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب . ما قدروا الله حق قدره** ﴾ الآيات وقال تعالى ﴿ **والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير . إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ، ولو سمعوا ما استجابوا لكم ، ويوم القيامة يكفرون بشرككم ، ولا ينبؤك مثل خبير** ﴾ وقال تعالى ﴿**أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه** ﴾ الايات وغيرها ما لا يحصى يخبر الله تعالى أن من دعا مع الله إلها آخر ولو لحظة فقد كفر وإن مات على ذلك فلا فلاح له أبدا ، ولو فعل ذلك نبيه لكان من الظالمين ، وأنه لا كاشف للضر غيره ولا جالب للخير سواه ، وأنه لا أضل ممن يدعو من دونه سواه ، وأن من عبد من دون الله يكون عدوا لعابده يوم القيامة وكافرا بعبادته إياه من دون الله تعالى ، وأنهم كلهم عباد مثل عابديهم مخلوقون مربوبون مملوكون تحت تصرف

الله وقهره لا يستجيبون لمن دعاهم ولا يقدرون على خلق ذباب فما فوقه ولو اجتمعوا بأسرهم على ذلك ولا يقدرون على استنقاذ ما استلبه الذباب فكيف يقدرون على قضاء شيء من حوائج عابديهم ؟ بل قد أخبرنا عز وجل أنهم لا يسمعون دعاء من دعاهم ، ولو سمعوا دعاءه ما استجابوا له ، وأخبرنا أن من عبدوهم من الصالحين كالملائكة وعيسى وعزير وغيرهم أنهم لا يملكون كشف ضر من دعاهم ولا تحويله من حال إلى حال ، بل هم يبتغون الوسيلة إلى ربهم والقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه ، فينبغي للعباد الاقتداء بهم في ذلك الابتغاء والرجاء والخوف من الله عز وجل ، لا دعاؤهم دونه ، تعالى الله عما يشركون .

(لا يقبل الله تعالى منه) أي من ذلك الداعي مع الله غيره المتخذ من دونه أولياء (صرفا) أي نافلة (ولا عدلا) أي ولا فريضة (فيعفو عنه) في ذلك لأن الكافر عمله كلا شيء ، قال الله تعالى **﴿ ولا نقيم لهم يوم القيامة وزنا ﴾** وقال تعالى **﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا ﴾** وقال تعالى **﴿ مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء ﴾** ، وقال تعالى **﴿ والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ﴾** الآيات ، وقال تعالى لصفوة خلقه وهم الرسل عليهم الصلاة والسلام **﴿ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون ﴾**[1] وقال لسيدهم وخاتمهم وأكرمهم على ربه تعالى **﴿ ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين ، بل الله فاعبد وكن من الشاكرين ﴾** .

(إذ) حرف تعليل (كل ذنب) لقي العبد ربه به (موشك الغفران) أي يرجى ويؤمل أن يغفر ويعفى عنه (إلا اتخاذ الند للرحمن) فان ذلك لا يغفر ولا يخرج صاحبه من النار ولا يجد ريح الجنة ، قال الله تعالى **﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء . ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما ﴾** وقال تعالى **﴿ ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا ﴾** وقال تعالى **﴿ ومن يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار ﴾** وقال تعالى **﴿ ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح في مكان سحيق ﴾** ، وقد قدمنا في ذلك من الآيات والأحاديث ما فيه كفاية في الدلالة على ما وراءه ولله الحمد والمنة .

---

(١) الآية : ٨٨ من سورة الأنعام ، و« من عباده » ساقطة من الأصل .

فصل

فى بيان ما وقع فيه العامة اليوم مما يفعلونه عند القبور وما يرتكبونه من الشرك الصريح والغلو المفرط فى الأموات

هذا الفصل هو المقصود بالذات من ذكر ما قبله من تقسيم الزيارة إلى ثلاثة أقسام ، وهى تمهيد له ، فإنما المقصود من ذكر ضلال الأمم الأولى هو تحذير الأحياء الموجودين لئلا يقعوا فيما وقعوا فيه ، وزجر من وقع منهم عما وقع فيه لئلا يحل بهم ما حل بهم من النكال ، كما أن الله سبحانه وتعالى ما قص علينا من أخبار الأمم الأولى إلا لنتعظ بهم ونعتبر بمصارعهم ولنعلم أسباب هلاكهم فنتقيه ونعلم سبل النجاة التى سلكها رسل الله وأولياؤه ففازوا بخيرى الدنيا والآخرة فنسلكها ونقفو أثرهم ، ولهذا قال تعالى **﴿أفلم يهد الذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم﴾** الآية ، وقال تعالى **﴿ وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال ، وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم ﴾** ، وقال تعالى **﴿ أولم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم ، إن فى ذلك لآيات أفلا يسمعون ﴾**(١) ، وقال تعالى بعد أن قص علينا ما قص فى سورة هود **﴿ ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد ، وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهتهم التى يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك وما زادوهم غير تتبيب . وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد﴾** الآيات ، وقد قال رسول الله ﷺ « لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين أن يصيبكم مثل ما أصابهم » وهو فى الصحيح ، فاذا كان هذا الخطر على من دخل ديارهم فما ظنك بمن عمل مثل عملهم وزيادة ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

﴿ ومن على القبر سراجا أوقدا　　　أو ابتنى على الضريح مسجدا ﴾

﴿ فانـــه مجـــدد جهـــارا　　　لسنـــن اليهـــود والنصارى ﴾

(ومن على القبر) متعلق بأوقد (سراجا) مفعول (أوقدا) بألف الاطلاق ، والمعنى ومن أوقد سراجا على القبر (أو ابتنى) بمعنى بنا وزيدت التاء فيه لمعنى الاتخاذ (على الضريح) أى على القبر واشتقاقه من الضرح الذى هو الشق (مسجدا) أو اتخذ القبر نفسه مسجدا ولو لم يبن عليه (فانه) أى فاعل ذلك (مجدد) بفعله ذلك (جهارا) أى تجديدا واضحا مجاهرا به الله ورسوله وأولياءه (لسنن) أى لطرائق (اليهود والنصارى)

(١) الآية : ٢٦ من سورة السجدة ، ووردت فى الأصل « أولم يهدهم » .

في اتخاذهم قبور أنبيائهم مساجد ويعكفون عليها ، وأعياد لهم ينتابونها ، ويترددون إليها ، كيف وقد قال الرسول ﷺ للذين طلبوا منه ذات أنواط « الله أكبر ، إنها السنن ، قلتم والذى نفسى بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى ﴿ اجعل لنا إلها كما لهم آلهة ، قال إنكم قوم تجهلون ﴾ لتتبعن سنن من كان قبلكم » وقال ﷺ « لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه . قلنا يا رسول الله اليهود والنصارى ؟ قال فمن ؟ » أخرجاه من حديث أبى سعيد رضى الله عنه ، وقد وقع الأمر والله كما أخبر ﷺ به ، فالله المستعان .

﴿ كم حذر المختار عن ذا ولعن فاعله كما روى أهل السنن ﴾

﴿ بل قد نهى عن ارتفاع القبر وأن يزاد فيه فوق الشبر ﴾

﴿ وكل قبر مشرف فقد أمر بأن يسوى هكذا صح الخبر ﴾

(كم) خبرية للتكثير (حذر المختار) نبينا محمدا ﷺ (عن ذا) الفعل من اتخاذ القبور مساجد وأعيادا والبناء عليها وإيقاد السرج عليها ، كما فى الصحيح عن عائشة رضى الله عنها أن أم سلمة ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها بأرض الحبشة يقال لها مارية فذكرت له ما رأت فيها من الصور ، فقال رسول الله ﷺ « أولئك قوم إذا مات فيهم العبد الصالح ـ أو الرجل الصالح ـ بنوا على قبره مسجدا وصوروا فيه تلك الصور ، أولئك شرار الخلق عند الله » . وفيه عنها هى وعبد الله بن عباس رضى الله عنهم قال : لما نزل برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة له على وجهه ، فاذا اغتم بها كشفها عن وجهه فقال وهو كذلك : « لعنة الله على اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » يحذّر ما صنعوا . وفيه عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « قاتل الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » . وعن أبى مرثد الغنوى رضى الله عنه قال : قال قال رسول الله ﷺ « لا تصلوا إلى القبور ولا تجلسوا عليها » رواه الجماعة إلا البخارى وابن ماجه ، وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « اجعلوا من صلاتكم فى بيوتكم ولا تتخذوها قبورا » رواه الجماعة إلا ابن ماجه . وعن جندب بن عبد الله البجلى رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ قبل أن يموت بخمس وهو يقول « إن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد ، إنى أنهاكم عن ذلك » رواه مسلم . وعن جابر رضى الله عنه قال : نهى النبى ﷺ أن يجصص القبر ، وأن يقعد عليه ، وأن يبنى عليه ، رواه أحمد ومسلم والثلاثة وصححه الترمذى ولفظه : نهى أن تجصص القبور وأن يكتب عليها وأن يبنى عليها وأن توطأ ، وفى النسائى : نهى أن يبنى على القبر أو يزاد عليه أو يجصص أو يكتب عليه ، وعن

ابن عباس رضى الله عنهما قال : لعن رسول الله ﷺ زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج ، رواه أهل السنن . وللترمذى وصححه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : لعن رسول الله ﷺ زوارات القبور . ولابن ماجه مثله من حديث حسان رضى الله عنه ، ولأحمد بسند جيد عن ابن مسعود رضى الله عنه مرفوعاً « إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء ، والذين يتخذون القبور مساجد » رواه أبو حاتم وابن حبان فى صحيحه. وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « لا تجعلوا بيوتكم قبورا ، ولا تجعلوا قبرى عيدا ، وصلوا على فان صلاتكم تبلغنى حيث كنتم » رواه أبو داود بإسناد حسن ورواته ثقات . وعن على بن الحسين رضى الله عنهما أنه رأى رجلا يجىء إلى فرجة عند قبر النبى ﷺ فيدخل فيدعو فيها ، فقال ألا أحدثكم حديثا سمعته من أبى عن جدى عن رسول الله ﷺ قال « لا تتخذوا قبرى عيدا ، ولا بيوتكم قبورا ، فإن تسليمكم يبلغنى أينما كنتم » رواه فى المختارة ، وقال سعيد بن منصور فى سننه : حدثنا عبد العزيز بن محمد أخبرنى سهيل بن أبى صالح قال : رآنى الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنه عند القبر فنادانى وهو فى بيت فاطمة رضى الله عنها يتعشى فقال : هلم إلى العشاء ، فقلت لا أريده ، فقال : مالى رأيتك عند القبر ؟ فقلت سلمت على النبى ﷺ ، فقال : إذا دخلت المسجد فسلم . ثم قال : إن رسول الله ﷺ قال « لا تتخذوا قبرى عيدا ، ولا تتخذوا بيوتكم مقابر ، وصلوا على فان صلاتكم تبلغنى حيث كنتم . لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » ما أنتم ومن بالأندلس إلا سواء . وروى مالك فى الموطأ أن رسول الله ﷺ قال « اللهم لا تجعل قبرى وثنا يعبد ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » وفى الباب أحاديث غير ما ذكرنا .

(وقد نهى) النبى ﷺ (عن ارتفاع القبر) بالبناء أو نحوه ، كما تقدم من النهى عن تجصيصها والبناء عليها ، وكما سيأتى من الأمر بتسويتها (وأن يزاد فيه فوق شبر) كما فى السنن عن جابر رضى الله عنه قال : نهى النبى ﷺ أن يبنى على القبر أو يزاد عليه أو يجصص .

(وكل قبر مشرف) يعنى مرتفع (فقد أمر) النبى ﷺ (بأن يسوى) بالأرض أو بما عداه من القبور التى لم تجاوز الشرع فى ارتفاعها ، (هكذا صح الخبر) ، وهو ما رواه مسلم عن ثمامة بن شفى قال : كنا مع فضالة بن عبيد بأرض الروم برودس فتوفى صاحب لنا ، فأمر فضالة بن عبيد بقبره فسوى ثم قال : سمعت رسول الله ﷺ يأمر بتسويتها . وله عن أبى الهياج الأسدى قال : قال لى على بن أبى طالب : ألا أبعثك على ما بعثنى عليه رسول الله ﷺ « ألا تدع تمثالا إلا طمسته ، ولا قبرا مشرفا إلا سويته » .

﴿ وحـذر الأمة عن إطرائه فغرهـــم إبليـس باستجرائه ﴾

﴿ فخالفوه جهرة وارتكبوا ما قد نهى عنه ولم يجتنبوا ﴾

(وحذر) النبى ﷺ (الأمة عن إطرائه) أى الغلو فيه ، كما فى الصحيحين عن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال « لا تطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم ، إنما أنا عبد ، فقولوا عبد الله ورسوله » . وعن ابن عباس رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال« إياكم والغلو فى الدين ، فانما أهلك من كان قبلكم الغلو فى الدين » . وعن أنس رضى الله عنه أن ناسا قالوا : يا رسول الله يا خيرنا وابن خيرنا وسيدنا وابن سيدنا ، فقال «ياأيها الناس قولوا بقولكم أو بعض قولكم ، ولا يستهوينكم الشيطان ، أنا محمد عبد الله ورسوله، ما أحب أن ترفعونى فوق منزلتى التى أنزلنى الله عز وجل » رواه النسائى بسند جيد . وعن عبد الله بن الشخير قال : انطلقت فى وفد بنى عامر إلى النبى ﷺ فقلنا : أنت سيدنا ، فقال « السيد الله تعالى » قلنا وأفضلنا فضلا وأعظمنا طولا ، فقال « قولوا بقولكم أو بعض قولكم ، ولا يستجرينكم الشيطان » . وهذا كله من حماية النبى ﷺ جناب التوحيد . وكما قال لمن قال : تعالوا بنا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق ، قال « إنه لا يستغاث بى ، وإنما يستغاث بالله » والله سبحانه وتعالى قد بين ما يجب اعتقاده فى حق الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وأنه هو تصديق خبرهم وامتثال أمرهم واجتناب نهيهم واتباعهم على شريعتهم ومحبتهم هم وأتباعهم وتوابع ذلك ، وهذا هو الذى دعوا إليه لم يدّع أحد منهم الربوبية ولا دعوا إلى عبادة أنفسهم ولا ينبغى لهم ذلك كما قال تعالى **﴿ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لى من دون الله ، ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون . ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا ، أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون ﴾** وقال تعالى **﴿ لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعا ﴾** الآيات ، وقال **﴿ ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام ﴾** الآية ، وقال تعالى **﴿إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبنى إسرائيل ﴾** وقال تعالى **﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم ، قل فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعا ولله ملك السموات والأرض يخلق ما يشاء والله على كل شيء قدير ﴾** ، وقال تعالى **﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون ، لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا**

(١) الآية : ١٧ من سورة المائدة ، ووردت فى الأصل « وهو على كل شئ قدير » .

يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون . ومن يقل منهم إنى إله من دونه فذلك نجزيه جهنم ، كذلك نجزى الظالمين ﴾ وقال تعالى عن نوح عليه السلام ﴿ **ولا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إنى ملك** ﴾ وقال لصفوة خلقه وخاتم رسله وسيد ولد آدم أجمعين محمد ﷺ ﴿ **قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله ، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير** ﴾ وقال تعالى له ﴿**ليس لك من الأمر شيء** ﴾ وقال تعالى ﴿ **قل إنما أدعو ربى ولا أشرك به أحدا ، قل إنى لا أملك لكم ضرا ولا رشدا ، قل إنى لن يجيرنى من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا ، إلا بلاغا من الله ورسالاته** ﴾ الآيات ، وقال تعالى ﴿ **قل ما كنت بدعا من الرسل وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم ، إن أتبع إلا ما يوحى إلى ، وما أنا إلا نذير مبين**﴾ وقال تعالى ﴿ **وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم** ﴾ الآيات ، وقد تلاها أبو بكر رضى الله عنه يوم مات النبى ﷺ وقال : أيها الناس من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ﷺ ، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت ، إلى آخر خطبته رضى الله عنه . وهذا باب واسع كثيرة النصوص فيه ،. بل ليست النصوص إلا فيه وفى متعلقاته ومكملاته .

(فغرهم) أى أكثر الأمة بعد ما سمعوا الزواجر والنواهى (إبليس) لعنه الله وأعاذنا منه (باستجرائه) أى باستهوائه إياهم واستدراجه لهم وإدخالهم فى الهلكات شيئاً فشيئاً كما فعل بالأمم السالفة قوم نوح فمن بعدهم ، وأتاهم على ما يهوون إما بغلو وإما بجفاء لا يبالى ما أهلك العبد به سواء قصره على الصراط المستقيم وهون عليه أمره حتى لا يدخله ولا يسلكه أو جاوزه به حتى يتبع سبيل الضلال فتفرق به عن سبيله ، فالذين أبغضوا الرسل من الكفار وعادوهم ونابذوهم بالمحاربة من أول مرة زين لهم ذلك وضرب لهم الأمثلة والمقاييس وأنهم مثلهم بشر يأكلون ويشربون ، وأنهم يريدون أن يصدوهم عما كان يعبد آباؤهم ويتنقصوا شيوخهم بذلك وتكون لهم الكبرياء فى الأرض وغير ذلك . والذين صدقوا الرسل واتبعوهم أتى لكثير من خلوفهم وزين لهم الغلو فيهم بالكذب والقول عليهم بالبهتان ورفعهم فوق منزلتهم التى أنزلهم الله عز وجل ، وأتاهم بذلك فى صورة محبتهم وموالاتهم حتى جعلهم مثله فى البعد عن الله ورسله ولم يسلم من ذلك إلا عباد الله المخلصون الذين هداهم الله صراطه المستقيم ، فلم يقصروا عنه ولم يستبدلوا به غيره ، بل استمسكوا به واعتصموا ﴿ **ومن يعتصم بالله فقد هدىَ إلى صراط مستقيم** ﴾ ، ﴿**ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا** ﴾ .

(فخالفوه) أى الذين استهواهم الشيطان خالفوا النص من الكتاب والسنة (جهرة

وارتكبوا ، ما قد نهى عنه) من الغلو والاطراء وما لم يأذن به الله (ولم يجتنبوا) ذلك ولا شيئا : فنهى عن الحلف بغير الله عز وجل وهؤلاء لا يحلفون إلا بغيره ، وقد يحلفون بالله على الكذب ولا يحلفون بالندّ فيكذبون . ونهى أن تقرن مشيئة العبد بمشيئة الله تعالى ، وهؤلاء يثبتون له ذلك على سبيل الاستقلال ، ويهتفون باسمه فى الغدوّ والآصال ، ويسألون منهم قضاء الحوائج دون ذى الجلال ، بل يعتقد فيهم الغلاة منهم أن بعض الأولياء هو المتصرف فى الكون والمدبر له فى كل حال . ودعا الرسول ﷺ إلى عبادة الله وحده ودعائه وحده لا شريك له ، فدعوا مع الله غيره ، حتى دعوا الرسول الآتى بذلك نفسه مع الله عز وجل . ونهى عن اتخاذ القبور مساجد وهؤلاء يعكفون عليها ، ويصلون عليها وإليها بل ولها من دون الله عز وجل ، وكثير منهم يفضلون الصلاة فيها على مساجد الله عز وجل التى بنيت لذلك . ونهى أن تجصص القبور أو يبنى عليها ، وهؤلاء قد ضربوا عليها القباب وزخرفوها ، وحبسوا عليها العقارات وغيرها وأوقفوها ، وجعلوا لها النذور والقربات ، وكم عبادة إليها دون الله صرفوها . ونهى عن بناء المساجد عليها ولعن من فعل ذلك ودعا عليه بالغضب وهؤلاء قد بنوا عليها ورآوها من أكبر حسناتهم ، وما بينهم وبين بنائهم عليها إلا موت أهلها أو حلم يتمثل لهم الشيطان فيه أو خيال أو سماع صوت فيسارعون إلى ذلك أسرع من مسارعة أهل الدين إلى الكتاب والسنة . ونهى عن إيقاد السرج عليها ، وهؤلاء يوقفون الوقوف على تسريجها ، ويجعلون عليها من الشموع والقناديل ما لم يجعلوه فى مساجد الله ، وكأنما ندبهم الرسول ﷺ إلى ذلك بتلك اللعنة التى عنى بها من فعل ذلك . وقال ﷺ « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد »[1] الحديث وهؤلاء يضربون أكباد الابل إلى قبور الصالحين أو من يظنونهم صالحين مسافة الأيام والأسابيع والشهور ويرون ارتكاب ذلك المنهى من أعظم القربات . ونهى ﷺ عن اتخاذها أعيادا ، وهؤلاء قد اتخذوها أعيادا ومعابد لا بل معبودات من دون الله عز وجل ، ووقتوا لها المواقيت زمانا ومكانا ، وصنفوا فيها مناسك حج المشاهد وحجوا إليها أكثر مما يحج إلى بيت الله الحرام ، بل رأوها أولى بالحج منه ورأوا من أخل بشىء من مناسكها أعظم جرما ممن أخل بشىء من مناسك الحج ، حتى أن من كان منهم قد حج عشرات مرات أو أكثر يبايع من شهد أحد المشاهد أن يعاوضه بجميع حججه بتلك الزيارة فيمتنع أشد الامتناع ، ويخشعون عندها أكثر مما يخشع عند شعائر الله ، وقال ﷺ « لا تطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم » وهؤلاء قد أطروا من هو دونه من أمته بكثير بل قد أطروا من لم يؤمن به ﷺ ساعة من الدهر أعظم من إطراء النصارى ابن مريم ، بل جعلوه هو الرب على سبيل الاستقلال. وقال ﷺ «إنه لا يستغاث بى وإنما يستغاث بالله»، وهؤلاء قد

---

(١) رواه الترمذى والنسائى ، وأحمد فى مسنده .

استغاثوا بغير الله سرا وجهرا وهتفوا باسم غير الله فى السراء والضراء والشدة والرخاء وأخلصوا لهم الدعاء من دون الله عز وجل وصرفوا إليهم جل العبادات من الصلاة والنذر والنسك والطواف وغير ذلك . وقد أنكر ﷺ على من قال لولا الله وفلان فكيف بمن يقول يا فلان مالى سواك ، ويقول قد استغثت الله فلم يغثنى حتى استغثت فلانا فأغاثنى ، وإنه ليعصى الله فى المسجد الحرام ، ولا يقدر على مخالفة شىء مما ينسبونه إلى وليه من الأكاذيب المختلقة والحكايات الملفقة ، وترى أكثر مساجد الله المبنية للصلوات معطلة حسا ومعنى ، وفيها من الأزبال والكناسات والأوساخ مالا يعد ولا يحصى ، فاذا أتيت قباب المقابر والمساجد المبنية عليها رأيت بها من الزينة والزخارف والأعطار والزبرقة والستور المنقشة المعلمة المرصعة والأبواب المفصصة المحكمة ، ولها من السدنة والخدام ما لم تجده فى بيت الله الحرام ، والداخل إليها والخارج منها من الزوار مالا تحصيهم الأقلام ، وعليها من الأكسية والرايات والأعلام مالو قسم لاستغنى به كثير من الفقراء والأرامل والأيتام ، فما ظنك بالوقوف المحبسة عليها ، والأموال المجبية إليها من الثمار والنقود والأنعام ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . فأى فاقرة على أصعب من هذه الأفعال ، وهل جنى الأخابث على الدين أعظم من هذا الضلال ، وهل استطاع الاعداء من هدم قواعد الدين ما هدمه هؤلاء الضلال ، وهل تلاعب الشيطان بأحد ما تلاعب بهؤلاء الجهال ، فأى مناف للتوحيد وأى مناقض له أقبح من هذا الشرك والتنديد ، تالله ما قوم نوح ولا عاد ولا ثمود ولا أصحاب الأيكة بأعظم شركا ولا أشد كفرا من هؤلاء الملاحيد وليس أولئك بأحق منهم بالعذاب الشديد ، وليس هؤلاء المشركون خيرا من أولئك ولا براءة لهم من ذلك الوعيد ، ولكن الله يمهل ولا يهمل وما بطشه من الظالمين ببعيد ، **﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد﴾**.

﴿ فانظر اليهم قد غلوا وزادوا ورفعوا بناءها وشادوا ﴾

﴿ بالشيد والآجرّ والأحجار لا سيما فى هذه الأعصار ﴾

(فانظر) أيها المؤمن (إليهم) وإلى أعمالهم (قد غلوا) فى أهل القبور الغلو المفرط الذى نهاهم الله تعالى ورسوله ﷺ (وزادوا) عما حذرهم عنه الرسل (ورفعوا بناءها) أى بناء القبور المنهى عن مجرده قليله وكثيره (وشادوا) أى ضربوه (بالشيد) وهو الجص (والآجرّ) اللبن المحرق (والأحجار) المنقشة المزخرفة (لا سيما) بزيادة (فى هذه الأعصار) القريبة بعد ظهور دولة العبيديين الذين قال فيهم أهل العلم : ظاهرهم الرفض وباطنهم الكفر المحض ، فاعتنوا ببناء القباب على القبور وزخرفتها وتشييدها وجعلها مشاهد ، وندبوا الناس إلى زيارتها وأتوا بذلك باسم محبة أهل البيت

وكل من جاء بعدهم من الدول المبتدعة زاد فيها وأحدث أكثر مما أحدث من قبله حتى اتخذوها مساجد ومعابد ، إلى أن عبدت من دون الله ، وسألوا منها مالا يقدر عليه إلا الله وفعلوا بها ما يفعل أهل الأوثان بأوثانهم وزادوا كثيرا فضلوا عن سواء السبيل ، وأضلوا من قدروا على إضلاله جيلا بعد جيل ، ولم يبق من الدين عندهم إلا اسمه ، ولا من الكتاب والسنة لديهم إلا لفظه ورسمه ، ولكن الأرض لا تخلو من مجدد لمعالم الشريعة الحنيفية ، ومنبه على ما يخل بها أو يناقضها من البدع الشيطانية ، ولا تزال طائفة من هذه الامة أمة محمد ﷺ على الحق ظاهرة لا يضرهم من خالفهم أو خذلهم حتى يأتى أمر الله تبارك وتعالى ، والله سبحانه يقول ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** ﴾

﴿ وللقناديـــل عليهـــا أوقـــدوا　　وكـم لواء فوقها قد عقدوا ﴾

﴿ ونصبـــوا الأعـــلام والرايـــات　　وافتتنوا بالأعظـم الرفـــات ﴾

﴿ بـــل نحروا فى سوحها النحائر　　فعل أولى التسبيب والبحائر ﴾

﴿ والتمسوا الحاجات من موتاهم　　واتخـــذوا إلهـــم هواهـــم ﴾

(وللقناديل) من الشموع وغيرها (عليها) أى على القبور وفى قبابها (أوقدوا) تعرضا للّعنة من رسول الله ﷺ لمن فعل ذلك إذ يقول « لعن الله زوّارات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج » فأوقفوا لتسريجها الوقوف الكثيرة وجعلوا عليها سدنة وخداما معدّين لإيقادها ، وويل للسادن إن طفىء مصباح قبر الشيخ (وكم لواء فوقها قد عقدوا) تعظيما لها وتألها ورغبة ورهبة ، (ونصبوا) عليها (الاعلام والرايات) لاسيما يوم عيدها لأنهم قد اتخذوا لكل قبر عيدا أى يوما معتادا يجتمعون فيه من أقاصى البلاد وأدناها كما أن الحج يوم عرفة ، مخالفة منهم ومشاقة لله ورسوله إذ يقول ﷺ « لا تتخذوا قبرى عيدا » فقد اتخذوا قبور من هو دونه أعيادا ، ومن فاته يوم ذلك العيد المعتاد فقد فاته المشهد وفاته خير كثير ، وفى ذلك العيد تنصب الزينة الباهرة وتدق الطبول والأعواد ، ويجتمع الرجال والنساء فى ميدان واحد لابسين زينتهم قد تعطر كل من الجنسين بأطيب ما يجد ولبس أطيب ما يجد ، وتجبى الأموال من الأوقاف والنذور وغيرها على اختلاف أجناسها من نقود وثمار وأنعام وخراجات وغيرها مما علم الله تعالى أنها لا يبتغى بها وجهه ولم تنفق فى مرضاته بل فى مساخطه (وافتتنوا) فى دينهم (بالأعظم الرفات) النخرة فعبدوها من دون الله عز وجل دعاء وتوكلا وخوفا ورجاء ونذرا ونسكا وغير ذلك ، (بل نحروا فى سوحها) أى فى أفنية القبور (النحائر) من الابل والبقر والغنم إذا نابهم أمر أو طلبوا حاجة من شفاء مريض أو ردّ غائب أو نحو ذلك ، وأكثرهم يسمها للقبر من حين

تولد ويربيها له إلى أن تصلح للقربة فى عرفهم ، ولا يجوز عندهم تغييرها ولا تبديلها ولا خصيها ولا وجاؤها لا يذهب شيء من دمها إذ ذلك عندهم نقص فيها وبخس (فعل أولى التسييب والبحائر) أى كفعل مشركى الجاهلية من العرب وغيرهم فى تسييبهم السوائب وتبحير البحائر وجعل الحام كما قدمنا عنهم ذلك مبسوطا فى موضعه ، غير أن أولئك سموهم آلهة وشفعاء وسموا مثل هذا الفعل بهم عبادة ، وهؤلاء سموهم سادة وأولياء وسموا دعاءهم إياهم تبركا وتوسلا وكلاهما مشرك فى فعله بالله عز وجل ، وهؤلاء أعظم شركا وأشد لأنهم يشركون فى الرخاء وفى الشدة بل هم فى الشدة أكثر شركا وأشد تعلقا بهم من حالة الرخاء ، وأما مشركو الجاهلية الأولى فيشركون فى الرخاء ويخلصون لله فى الشدة كما أخبرنا الله عنهم بقوله تعالى ﴿ **فإذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين ، فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون** ﴾ وغيرها من الآيات . (والتمسوا الحاجات) التى لا يقدر عليها إلا الله عز وجل (من موتاهم) من جلب الخير ودفع الشر (واتخذوا إلهم هواهم) وهذا هو السبب فى عبادة غير الله بل فى جميع معاصى الله ، وهو الذى كلما هوى أمرا أتاه ، ولم يأتهم الشيطان من غير باب الهوى ولم يصطد أحدا بغير شبكته ، لأن الهوى يعمى عن الحق . ويضل عن السبيل أتباعه ، وهو سبب الشقاوة كما أن التزام الشريعة باطنا وظاهرا سبب السعادة ، فهما ضدان لا يجتمعان ولا يكون الحكم إلا لواحد منهما ، لأن الشريعة تدل على مرضاة الله وتأمر بها ، وتحذر من مساخط الله وتنهى عنها ، والهوى بضد ذلك ، ولهذا قال ﷺ « حفت الجنة بالمكاره » يعنى لمخالفة أسبابها من الأعمال الصالحة للهوى ، « وحفت النار بالشهوات » لموافقة أسبابها من المعاصى الهوى . فطوبى لمن كان هواه تبعا لما جاء به رسول الله محمد ﷺ ، وويل لمن قدم هواه على ذلك لقد هلك .

﴿ قد صادهم ابليس فى فخاخه بل بعضهم قد صار من أفراخه ﴾

﴿ يدعو إلى عبادة الأوثان بالمال والنفس وباللسان ﴾

(قد صادهم) من الاصطياد بل من مطاوع اصطاد لأن التاء التى قلبت طاء هى لمعنى الطلب وأما حذفها فيدل على وصول الطالب الى مطلوبه ، (إبليس فى فخاخه) التى نصبها لهم كما نصبها لمن قبلهم من تزيين المعاصى وتصويرها فى صورة الطاعات ، فأول ما زين لقوم نوح العكوف على صور صالحيهم ليتذكروا عبادتهم الله تعالى فيقتفوا أثرهم فيها ، ولم يزل بهم حتى عبدوها كما قدمنا . وكذلك فعل بسفهاء هذه الأمة أول ما أشار عليهم ببناء القباب على القبور باسم محبة الأولياء ثم بالعكوف عليها وعبادة الله عز وجل عندها تبركا وتيمنا بتلك البقاع التى فضلت بهم إذ دفنوا فيها ثم بعبادتهم أنفسهم

دون الله عز وجل ، ثم استرسلوا فى تلك العبادة مثل عبادتهم الله تعالى فيقتفوا أثرهم فيها، ولم يزل بهم حتى عبدوها كما قدمنا . وكذلك فعل بسفهاء هذه الأمة أول ما أشار عليهم ببناء القباب على القبور باسم محبة الأولياء ثم بالعكوف عليها وعبادة الله عز وجل عندها تبركا وتيمنا بتلك البقاع التى فضلت بهم إذ دفنوا فيها ثم بعبادتهم أنفسهم دون الله عز وجل ، ثم استرسلوا فى تلك العبادة شيئا فشيئا إلى أن أثبتوا للمخلوق صفات الربوبية من التصرف فيما لا يقدر عليه إلا الله عز وجل ، فصار الامر كما ترى فى جميع الأقطار ، وفى كل القرى والأمصار ، وفى كل زمن تشيع وتزيد وفى كل عصر من الأعصار ، (بل بعضهم قد صار من أفراخه) المساعدين له الداعين إلى ما دعا إليه حزبه ليكونوا من أصحاب السعير (يدعو إلى عبادة الأوثان) من القبور وغيرها (بالمال والنفس وباللسان) ، فمن دعايتهم إلى ذلك أنهم يجمعون أنواعا من المطالب ويدخلونها القبر إلى القبة المبنية عليه فى سراديب معدة تحتها فاذا أتى إليهم الجاهل المفتون ووقف على الحاجب فان لم يكن له مطلوب معين قال له أدخل يدك فما خرج فيها فهو الباب الذى ترزق منه لا تعدوه إلى غيره ، فان خرج فى يده تراب فحارث ، وإن خرج قطن فحائك ، وإن خرج فحم أو نحوه فحداد أو صائغ ، وإن خرج آلة حجامة فحجام ، وإن خرج كذا فهو كذا ، على قواعدهم يعرفونها ، ومخرقة لهم يألفونها ، وإن كان له مطلوب معين قال له ما تريد من الشيخ ؟ قال أريد كذا ، فان كان ذلك يوجد فيها أدخل القبر ، وإلا قال ارجع الآن وموعدك الوقت الفلانى فان الشيخ الآن مشغول أو نحو ذلك من الأعذار مع مافى قلبه من تعظيم الشيخ ، فلا يكرر الطلب أدبا معه ، فلا يأتى فى المرة الثانية إلا وقد استعد له بمطلوبه ، فاذا جاء وأدخل يده خرج فيها ذلك المطلوب فحينئذ خرج ينادى : شىء لله يا شيخ فلان ، وكلما وجد أحدا أراه ذلك وقال : هذا من كرامات الشيخ فلان وعطاياه ، فيجمعون من أموال الناس بهذه الحيل والشعوذة مالا يحصى ، ولكنهم لم يحتالوا لأخذ أموال الناس فحسب ، بل احتالوا لسلب دينهم وأخرجوهم من دائرة الاسلام إلى دائرة الكفر ، وليس هذا خاصا بقبور الصالحين الذين عرفوا فى الدنيا بالأمانة والديانة ، بل أى قبر تمثل فيه الشيطان أو حكيت له حكاية أو رؤيت له رؤيا صدقا كانت أو كذبا فقد استحق عندهم أن يبنى عليه القباب ويعكف عنده وينذر له ويذبح عليه ويستشفى به المرض ويستنزل به الغيث ويستغاث به فى الشدائد ويسأل منه قضاء الحوائج ويخاف ويرجى ويتخذ ندا من دون الله عز وجل وتقدس وتنزه عما يقول الظالمون والجاحدون والملحدون علوا كبيرا .

الله أكبر لو رأيت على القبو ... ر عكوفهم صبحا وبالامساء
والله أكبر لو ترى أعيادهم ... جمع الرجال معا وجمع نساء
والله أكبر لو رأيت مساجدا ... بنيت على الموتى بأى بناء
قد زخرفت بحجارة منقوشة ... بالشيد قد ضربت مع الاعلاء
ورءوسها قد زينت بأهلة ... من أنفس المنقوش دون مراء
قد أسرجت ولكم على تسريجها ... وقفوا الشموع لها بأى أداء
كم سادن قد وكلوه بشأنها ... طيبا وتنظيفا وشأن ضياء
ويل له لو قد أخل ببعض ذا ... ماذا يقاسى من ضروب بلاء
ولكم عليها راية قد نشرت ... ألوانها سلبت لقلب الرائى
وكرائم الأنعام تنحر سوحها ... منذورة يؤتى بها لوفاء
لم يفردوا رب السماء بدعوة ... بل للقبور تجاوبوا بنداء
يدعونهم فى كشف كل ملمة ... فى الجهر قد هتفوا وفى الإخفاء
ويعظمونهمو بكل عبادة ... يا صاح فى السراء والضراء
وتراه بالرحمن يحلف كاذبا ... وصفاته العليا وبالأسماء
لكنه لا يستطيع الحلف بالمقبور ... ذا إن لم يكن ببراء
زادوا على شرك الذين إليهمو ... بعث الرسول بأصدق الأنباء
إذ يخلصون لدى الكروب وهؤلا ... ء فشركهم فى شدة ورخاء
بل فى الشدائد شركهم أضعاف ما ... قد أشركوا فى حالة السراء
فتراه ينذر فى الرخاء ببدنة ... وببدنتين لدى اشتداد بلاء
وجميع ما يأتيه فى سرائه ... فله به الأضعاف فى الضراء
تالله ما ظفر اللعين بمثلها ... من بعض أهل الشرعة الغراء
حتى إذا ما هيّأوا لعدوهم ... سبب الدخول وسلم الإغواء
طمع العدوُّ بهم لنيل مراده ... منهم فغرَّ القوم باستجداء
لما أساءوا الظن بالوحيين لكن ... أحسنوه بزخرف الأعداء
لم يهتدوا بالنص قط بل اقتفوا ... آراء من قد كان عنها نائى
نبذوا الكتاب فلم يقيموا نصه ... إذ كان ميلهمو إلى الأهواء
وعبادة الأوثان قد صارت لهم ... دينا تعالى الله عن شركاء
وطرائق البدع المضلة صيروا ... سبلا مكان الملة السمحاء
يارب ثبتنا على دين الهدى ... وعلى سلوك طريقه البيضاء

واردد بتـوفـيق إليـهـا من نأى ممن قـد اسـتـهـوى أولو الإغـواء
يا ربنا فـاكـشف غطاء قلوبنا بالنور أخـرجنا من الظلمـاء
واسلك بنا نهج النجـاة ونجنا من حـيـرة وضـلالة عـمـيـاء
واجـعل كـتـابك يا كـريم إمـامنا ورسـولك المقـدام للحنفـاء
وانصـر على الأعـداء حـزبك إنهم خـبطتـهـمـو فتن من الأعـداء
رامـوا بنا السـوأى بسـوء مكايد فـاقـصـمـهـمـو يارب للأسـواء
واردد إلهى كـيـدهم فى بيـدهم وأبدهمـو بيـدا عن البـيـداء
أظهـر على الأديان دينك جـهـرة وشـعـاره فـارفع بدون خـفـاء
واجـعل لوجـهك خلصاً أعـمـالنا بعـبـادة وولاية وبراء

فصل

أذكر فيه بيان حقيقة السحر وحكم الساحر

أى ما عليه من العقوبة شرعا ، وأن منه أى من السحر علم التنجيم وهو النظر فى النجوم الآتى بيانه ، وذكر عقوبة من صدق كاهنا بقلبه ، ويعنى عقوبته الوعيدية . والبحث فى هذا الفصل فى أمور : (الأول) هل السحر حقيقة وقوعه ووجوده أم لا ، (الثانى) أنواعه ، (الثالث) حكم متعلمه إن عمل به أو لم يعمل ، (الرابع) عقوبته شرعا ووعيدا .

﴿ والسحـر حـق ولـه تأثير لكـن بما قـدره القديـر ﴾
﴿ أعنى بذا التقدير ما قد قدره فى الكون لا فى الشرعة المطهره ﴾

هذا هو البحث الأول فى حقيقته وتأثيره . (والسحر حق) يعنى متحقق وقوعه ووجوده، ولو لم يكن موجودا حقيقة لم ترد النواهى عنه فى الشرع والوعيد على فاعله والعقوبات الدينية والأخروية على متعاطيه والاستعاذة منه أمرا وخبرا . وقد أخبر الله تعالى أنه كان موجودا فى زمن فرعون وأنه أراد أن يعارض به معجزات نبى الله موسى عليه السلام فى العصا بعد أن رماه هو وقومه به بقولهم ﴿ **إن هذا لساحر عليم** ﴾ إلى قوله ﴿ **قال فرعون ائتونى بكل ساحر عليم** ﴾ وقال تعالى عن السحرة ﴿ **فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم** ﴾ وقال تعالى فيهم ﴿ **فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى ، فأوجس فى نفسه خيفة موسى ، قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى ، وألق ما فى يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح**

الساحر حيث أتى ﴾ يقال إنهم كانوا سبعين ألفا مع كل واحد منهم حبل وعصا فأخذوا بأبصار الناس بسحرهم وألقوا تلك الحبال والعصى فرآها الناس حيات عظاما ضخاما وذلك قوله تعالى ﴿ **سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم** ﴾ وقوله : ﴿ **يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى** ﴾ قال الله تعالى ﴿ **فأوجس في نفسه خيفة موسى ، قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى ، وألق مافي يمينك** ﴾ يعنى العصا ﴿ **تلقف** ﴾ تبتلع ﴿ **ما صنعوا**﴾ أى السحرة أى ما اختلقوا وائتفكوا من الزور والتخييل ، ولهذا قال تعالى فى الاية الأخرى ﴿**فإذا هى تلقف ما يأفكون** ﴾ وهون الله أمرهم على نبيه موسى عليه السلام بقوله سبحانه ﴿ إنما صنعوا كيد ساحر ﴾ مكره وخداعه ﴿ **ولا يفلح الساحر حيث أتى** ﴾ ، ﴿ **فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون ، فغُلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين** ﴾ إلى آخر الايات ، وقد أخبر الله تعالى عن قوم صالح وكانوا قبل إبراهيم عليه السلام أنهم قالوا لنبيهم عليه السلام ﴿ **إنما أنت من المسحرين** ﴾ وكذا قال قوم شعيب له عليه السلام ﴿ **إنما أنت من المسحرين** ﴾ وقالت قريش لنبينا محمد ﷺ كما ذكر الله تعالى ذلك عنهم فى غير موضع بل ذكر الله عز وجل أن ذلك القول تداوله كل الكفار لرسلهم فقال تعالى ﴿**كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون . أتواصوا به** ﴾ الاية ، وقال سبحانه فى ذم اليهود ﴿ **ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون ، واتبعوا ما تتلواْ الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد إلا باذن الله ، ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق ، ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون . ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون** ﴾ وقال تعالى ﴿ **ومن شر النفّاثات فى العُقَد** ﴾ والنفاثات هن السواحر يعقدن وينفثن . والمقصود أنه قد ثبت بهذه النصوص وغيرها مما سنذكر ومما لا نذكر أن السحر حقيقة وجوده .

(وله تأثير) فمنه ما يمرض ومنه ما يقتل ومنه ما يأخذ بالعقول ومنه ما يأخذ بالأبصار ومنه ما يفرق بين المرء وزوجه ، (لكن) تأثيره ذلك إنما هو (بما قدره القدير) سبحانه وتعالى ، أى بما قضاه وقدره وخلقه عند ما يلقى الساحر ما ألقى ، ولذا قلنا (أعنى بذا التقدير) فى قوله بما قدره القدير (ما قد قدره فى الكون) وشاءه (لا) أنه أمر به (فى الشرعة) التى أرسل الله بها رسله وأنزل بها كتبه (المطهرة) ، من ذلك وغيره كما

تقدم أن القضاء والأمر والحكم والارادة كل منها ينقسم على كونى وشرعى ، فالكونى يشمل ما يرضاه الله ويحبه شرعا ، ومالا يرضاه فى الشرع ولا يحبه ، والشرعى يختص بمرضاته سبحانه وتعالى ومحابه ، ولهذا قال تعالى فى الشرعى ﴿ **يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر** ﴾ وقال عز وجل ﴿ **ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم** ﴾ فأخبر تعالى أنه يريد بعباده اليسر ولا يريد بهم العسر وأنه يرضى لهم الشكر ولا يرضى لهم الكفر ، مع كون كل من العسر واليسر والشكر والكفر واقع بقضاء الله وقدره وخلقه وتكوينه ومشيئته ، قال الله تعالى ﴿ **الله خالق كل شىء وهو على كل شىء وكيل** ﴾ وقال تعالى ﴿ **إنا كل شىء خلقناه بقدر** ﴾ والمقصود أن السحر ليس بمؤثر بذاته نفعا ولا ضرا وإنما يؤثر بقضاء الله تعالى وقدره ، وخلقه وتكوينه ، لأنه تعالى خالق الخير والشر ، والسحر من الشر ، ولهذا قال تعالى ﴿ **فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله** ﴾ وهو القضاء الكونى القدرى ، فان الله تعالى لم يأذن بذلك شرعا ، وقد ثبت فى الصحيحين من طرق عن عائشة رضى الله عنها قالت : سحر رسول الله ﷺ حتى إنه ليخيل إليه أنه يفعل الشىء وما فعله ، حتى إذا كان ذات يوم وهو عندى دعا الله عز وجل ودعاه ثم قال « أشعرت يا عائشة ، إن الله قد أفتانى فيما استفتيته فيه » قلت : وما ذاك يا رسول الله ؟ قال « جاءنى رجلان فجلس أحدهما عند رأسى والآخر عند رجلى ، ثم قال أحدهما لصاحبه : ما وجع الرجل ؟ قال : مطبوب . قال : ومن طبه ؟ قال : لبيد بن العاص اليهودى من بنى زريق . قال : فبماذا ؟ قال : فى مشط ومشاطة وجف طلعة ذكر . قال : فأين ؟ قال : فى بئر ذى أروان . قال فذهب النبى ﷺ فى أناس من أصحابه إلى البئر فنظر إليها وعليها نخل ثم رجع إلى عائشة فقال « والله لكأن ماءها نقاعة الحناء ، ولكأن نخلها رءوس الشياطين » . قلت : يا رسول الله أفأخرجته؟ قال « لا ، أما أنا فقد عافانى الله عز وجل وشفانى وخشيت أن أثور على الناس منه شرا » وأمر بها فدفنت . وفى رواية قال : ومن طبه ؟ قال لبيد بن الأعصم رجل من بنى زريق حليف ليهود كان منافقا . قال وفيم ؟ قال فى مشط ومشاقة . قال : وأين قال فى جف طلعة ذكر تحت راعوفة فى بئر ذروان ـ وذكره ـ هذا لفظ البخارى . المشاطة ما يخرج من الشعر، والمشط أسنان ما يمشط به ، والمشاقة من مشاقة الكتان ، وجف طلعة غشاؤها وهو الوعاء الذى يكون فيه الطلع ، تحت راعوفة هو حجر يترك فى البئر عند الحفر ثابت لا يستطاع قلعه يقوم عليه المستقى ، وقيل حجر على رأس البئر يستقى عليه المستقى ، وقيل حجر بارز من طيها يقف عليه المستقى والناظر فيها ، وقيل فى أسفل البئر يجلس عليه الذى ينظفها لا يمكن قلعه لصلابته . والله سبحانه وتعالى أعلم .

قال الامام النورى رحمه الله تعالى فى شرح مسلم : قال المازرى رحمه الله تعالى : مذهب أهل السنة وجمهور علماء الأمة على إثبات السحر وأن له حقيقة كحقيقة غيره من الاشياء الثابتة خلافا لمن أنكر ذلك ونفى حقيقته وأضاف ما يقع منه إلى خيالات باطلة لا حقائق لها ، وقد ذكره الله تعالى فى كتابه وذكر أنه مما يتعلم ، وذكر ما فيه إشارة إلى أنه مما يكفر به ، وأنه يفرق بين المرء وزوجه ، وهذا كله لا يمكن فيما لا حقيقة له ، وهذا الحديث أيضا مصرح باثباته وأنه أشياء دفنت وأخرجت ، وهذا كله يبطل ما قالوه فإحالة كونه من الحقائق محال ، ولا يستنكر فى العقل أن الله سبحانه وتعالى يخرق العادة عند النطق بكلام ملفق أو تركيب أجسام أو المزج بين قوى على ترتيب لا يعرفه إلا الساحر ، وإذا شاهد الانسان بعض الأجسام منها قاتلة كالسموم ومنها مسقمة كالأدوية الحادة ومنها مضرة كالأدوية المضادة للمرض لم يستبعد عقله أن ينفرد الساحر بعلم قوى قتالة أو كلام مهلك أو مؤد إلى التفرقة . قال : وقد أنكر بعض المبتدعة هذا الحديث بسبب آخر فزعم أنه يحط من منصب النبوة ويشكك فيها وأن تجويزه يمنع الثقة بالشرع ، وهذا الذى ادعاه هؤلاء المبتدعة باطل لأن الدلائل القطعية قد قامت على صدقه وصحته ، وعصمته ﷺ فيما يتعلق بالتبليغ والمعجزة شاهدة بذلك ، وتجويز ما قام الدليل بخلافه باطل . فأما ما يتعلق ببعض أمور الدنيا التى لم يبعث بسببها ولا كان مفضلا من أجلها وهو مما يعرض للبشر فغير بعيد أن يخيل إليه من أمور الدنيا مالا حقيقة له ، وقد قيل إنه إنما كان يخيل إليه إنه وطىء زوجاته وليس بواطىء ، وقد يتخيل الانسان مثل هذا فى المنام فلا يبعد تخيله فى اليقظة ولا حقيقة له ، وقيل إنه يخيل إليه أنه فعله وما فعله ، ولكن لا يعتقد صحة ما يتخيله فتكون اعتقاداته على السداد . قال القاضى عياض رحمه الله تعالى : وقد جاءت روايات هذا الحديث مبينة أن السحر إنما تسلط على جسده وظواهر جوارحه لاعلى عقله وقلبه واعتقاده ، ويكون معنى قوله فى الحديث حتى يظن أنه يأتى أهله ولا يأتيهن ، ويروى يخيل إليه أى يظهر له من نشاطه ومتقدم عادته القدرة عليهن ، فاذا دنا منهن أخذته أخذة السحر فلم يأتهن ولم يتمكن من ذلك كما يعترى المسحور . وكل ما جاء فى الروايات من أنه يخيل إليه فعل شىء لم يفعله ونحوه فمحمول على التخيل بالبصر لاكالخلل تطرق إلى العقل وليس فى ذلك ما يدخل لبسا على الرسالة ولا طعنا لأهل الضلالة والله أعلم ا هـ قلت : قول المازرى خلافا لمن أنكر ذلك ، قال ابن هبيرة رحمه الله تعالى : أجمعوا على أن السحر له حقيقة ، إلا أبا حنيفة فانه قال : لا حقيقة له عنده . ثم ذكر الاختلاف فى حكم الساحر ، وقال القرطبى رحمه الله تعالى : وعندنا أن السحر حق وله حقيقة يخلق الله عنده ما يشاء خلافا للمعتزلة وأبى اسحاق

الاسفراييني حيث قالوا إنه تمويه وتخييل ا هـ .

قلت : قد ثبت وتقرر من هذا وغيره تحقق السحر وتأثيره باذن الله بظواهر الآيات والأحاديث وأقوال عامة الصحابة ، وجماهير العلماء بعدهم رواية ودراية ، فأما القتل به والأمراض والتفرقة بين المرء وزوجه وأخذه بالأبصار فحقيقة لا مكابرة فيها ، وأما قلب الأعيان كقلب الجماد حيوانا وقلب الحيوان من شكل إلى آخر فليس بمحال فى قدرة الله عز وجل ولا غير ممكن ، فانه هو الفاعل فى الحقيقة وهو الفعال لما يريد ، فلا مانع من أن يحول الله ذلك عند ما يلقى الساحر ما ألقى امتحانا وابتلاء وفتنة لعباده ، ولكن الذى أخبرنا الله تعالى به فى الواقع من سحرة فرعون فى قصتهم مع موسى إنما هو التخييل والأخذ بالأبصار حتى رأوا الحبال والعصى حيات ، فنؤمن بالخبر ونصدقه ولا نتعداه ولا نبدل قولا غير الذى قيل لنا ولا نقول على الله مالا نعلم . وبالله التوفيق .

﴿ واحكم على الساحر بالتكفير | وحده القتل بلا نكير ﴾
﴿ كما أتى فى السنة المصرحه | مما رواه الترمذى وصححه ﴾
﴿ عن جندب وهكذا فى أثر | أمر بقتلهم روى عن عمر ﴾
﴿ وصح عن حفصة عند مالك | ما فيه أقوى مرشد للسالك ﴾

هذا هو الحكم الثانى وهو حكم الساحر (واحكم على الساحر) تعلّمه أو علّمه عمل به أو لم يعمل (بالتكفير) أى بأنه كفر بهذا الذنب الذى هو السحر ، وذلك واضح صريح فى آية البقرة بأمور : منها سبب عدول اليهود إليه وهو نبذهم الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم ﴿ **ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون** ﴾ سواء أريد بالكتاب التوراة التى بأيديهم أو القرآن الذى جاء به محمد ﷺ ، كل ذلك نبذه كفر ، وقد علم أن السحر لا يعمل إلا مع من كفر بالله ، وهذا معلوم من سبب نزول الآية كما قال الربيع بن أنس وغيره : إن اليهود سألوا محمداً ﷺ زمانا عن أمور من التوراة ، لا يسألونه عن شىء من ذلك إلا أنزل الله سبحانه وتعالى ما سألوه عنه فيخصمهم ، فلما رأوا ذلك قالوا : هذا أعلم بما أنزل الله إلينا منا ، وأنهم سألوه عن السحر وخاصموه به فأنزل الله عز وجل ﴿ **واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر** ﴾ الآيات .

ومنها قوله ﴿ **واتبعوا ما تتلوا الشياطين** ﴾ تتقوله وتزوره ﴿ **على ملك سليمان** ﴾ أى

فى ملكه وعهده ، ومعلوم أن استبدال ما تتلوه الشياطين وتتقوله والانقياد له والعمل به عوضا عما أوحى الله تعالى إلى رسوله ﷺ هذا من أعظم الكفر ، وهو من عبادة الطاغوت التى هى أصل الكفر ، وقد سمى الله تعالى طاعة العلماء والأمراء فى تحليل ما حرم الله أو تحريم ما أحله ، سمى ذلك عبادة وأنه اتخاذ لهم أربابا من دون الله فقال تعالى **﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ﴾** الآية ، قال عدى بن حاتم رضى الله عنه حين سمع رسول الله ﷺ يتلوها : إنا لسنا نعبدهم ، قال « أليس يحلون ما حرم الله فتحلونه ، ويحرمون ما أحل الله فتحرمونه » ؟ قال بلى . قال « فتلك عبادتكم إياهم » ، ولهذا قال تعالى بعدها **﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ﴾** فاذا كان هذا فى طاعة الأحبار والرهبان فكيف فى طاعة الشيطان فيما ينافى الوحى ، **فهل** فوق هذا الشرك من كفر ؟ **﴿ سبحان الله عما يشركون ﴾** وعبادة الشيطان هى اتباعه فيما أمر به من الكفر والضلال ودعا إليه ، كما قال عز وجل فيه إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ، وكما يقول للمجرمين يوم القيامة **﴿ ألم أعهد إليكم يا بنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين . وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم . ولقد أضل منكم جبلا كثيرا أفلم تكونوا تعقلون ﴾** .

ومنها قوله تعالى **﴿ وما كفر سليمان ﴾** ، برأ الله سبحانه وتعالى نبيه عليه السلام من الكفر ، وهذا الكفر الذى برأه تعالى منه هو علم الساحر وعمله ، وإن كان بريئا من الكفر كله معصوما مما هو دونه ، لكن سياق الآية فى خصوص السحر وأنه برىء منه . ولو فرض وجود عمله به لكفر لأنه شرك والشرك أقبح الذنوب وأعظم المحبطات للأعمال كما قال تعالى فى جميع رسله سليمان وغيره عليهم السلام بعد أن ذكرهم : **﴿ ذلك هدى الله يهدى به من يشاء من عباده ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون ﴾** ، وهذا معلوم من أصل القصة فإن اليهود قاتلهم الله تلقوا السحر عن الشياطين ونسبوه إلى سليمان عليه السلام ، فبرأه الله تعالى من إفكهم بهذه الآية ، كما قال مجاهد رحمه الله تعالى فى هذه الآية **﴿ واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان ﴾** قال : كانت الشياطين تستمع الوحى فما سمعوا من كلمة زادوا فيها مائتين مثلها ، فأرسل سليمان عليه السلام إلى ما كتبوا من ذلك ، فلما توفى سليمان وجدته الشياطين وعلمته الناس وهو السحر . وقال سعيد بن جبير رحمه الله تعالى : كان سليمان عليه السلام يتبع ما فى أيدى الشياطين من السحر فيأخذه منهم فيدفنه تحت كرسيه فى بيت خزانته فلم تقدر الشياطين أن يصلوا إليه ، فدنت إلى الانس فقالوا لهم : أتدرون ما العلم الذى كان سليمان يسخر به الشياطين والرياح وغير ذلك ؟ قالوا نعم . قالوا فانه فى بيت خزانته وتحت كرسيه ، فاستثار به الإنس

---

(١) الآية : ٨٨ من سورة الأنعام و « من عباده ساقطة من الأصل » .

واستخرجوه وعملوا به ، فقال أهل الحجاز ـ يعنى اليهود من أهل الحجاز ـ كان سليمان يعمل بهذا السحر ، فأنزل الله تعالى على نبيه محمد ﷺ براءة سليمان عليه السلام فقال تعالى ﴿ **واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان ، وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا** ﴾ وقال محمد بن إسحاق بن يسار : عمدت الشياطين حين عرفت موت سليمان ابن داود عليهما السلام فكتبوا أصناف السحر ، من كان يحب أن يبلغ كذا وكذا فليفعل كذا وكذا ، حتى إذا صنفوا أصناف السحر جعلوه فى كتاب ثم ختموه بخاتم على نقش خاتم سليمان وكتبوا فى عنوانه : هذا ما كتب آصف بن برخيا الصديق للملك سليمان ابن داود من ذخائر كنوز العلم . ثم دفنوه تحت كرسيه واستخرجته بعد ذلك بقايا بنى إسرائيل حتى أحدثوا ما أحدثوا ،. فلما عثروا عليه قالوا والله ما كان ملك سليمان إلا بهذا ، فأفشوا السحر فى الناس فتعلموه وعلموه ، فليس هو فى أحد أكثر منه فى اليهود لعنهم الله، فلما ذكر رسول الله ﷺ فيما نزل عليه من الله سليمانَ بن داود وعده فيمن عد من المرسلين قال من كان بالمدينة من اليهود : تعجبون من محمد يزعم أن ابن داود كان نبيا ، والله ما كان إلا ساحرا . وأنزل الله تعالى فى ذلك ﴿ **واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان ، وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر** ﴾ الاية وروى ابن أبى حاتم عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كان آصف كاتب سليمان ، وكان يعلم الاسم الأعظم ، وكان يكتب كل شيء بأمر سليمان ويدفنه تحت كرسيه ، فلما مات سليمان أخرجته الشياطين فكتبوا بين كل سطرين سحرا وكفرا وقالوا : هذا الذى كان سليمان يعمل به . قال فأكفره جهال الناس وسبوه ووقف علماء الناس ، فلم يزل جهال الناس يسبونه حتى أنزل الله على محمد ﷺ ﴿ **واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر** ﴾ وتفاسير السلف وآثارهم فى هذه الاية كثيرة جدا ، وما كان منها إسرائيليا فهو من القسم المقبول لموافقته ظاهر الاية فى أن اليهود تعلموا السحر من الشياطين ورموا به نبى الله سليمان وأكفروه به وسبوه ، وخاصموا به محمدا رسول الله ﷺ ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم ، فبين الله تعالى ما لبسوه وهدم ما أسسوه وبرأ نبيه سليمان عليه السلام مما ائتفكوه وأقام الحجة عليهم فى بطلان ما انتحلوا فلله الحمد والمنة .

ومنها قوله تعالى ﴿ **ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر** ﴾ أكذب الله تعالى اليهود فيما نسبوه إلى نبيه سليمان عليه السلام بقوله ﴿ **وما كفر سليمان** ﴾ وإنما نسبوا السحر إليه ، ولازم ما نسبوه إليه هو الكفر لأن السحر كفر ، ولهذا كفر الشياطين بتعليمهم الناس السحر فقال تعالى ﴿ **ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر** ﴾

وكذلك كل من تعلم السحر أو علمه أو عمل به يكفر ككفر الشياطين الذين علموه الناس ، إذ لا فرق بينه وبينهم ، بل هو تلميذ الشيطان وخريجه ، عنه روى وبه تخرج وإياه اتبع ، ولهذا قال تعالى فى الملكين ﴿ **وما يعلّمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر** ﴾ فبين تعالى أنه بمجرد تعلمه يكفر سواء عمل به وعلّمه أو لا . وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : فاذا أتاهما الآتى مريد السحر نهياه أشد النهى وقالا له : إنما نحن فتنة فلا تكفر وذلك أنهما علما الخير والشر والكفر والايمان فعرفا أن السحر من الكفر ، قال فاذا أبى عليهما أمراه أن يأتى مكان كذا وكذا فاذا أتى عاين الشيطان فعلمه ، فاذا تعلمه خرج منه النور فنظر إليه ساطعاً فى السماء فيقول : يا حسرتاه يا ويله ماذا صنع . وروى ابن أبى حاتم عن الحسن البصرى أنه قال فى تفسير هذه الاية : نعم أنزل الملكان بالسحر ليعلما الناس البلاء الذى أراد الله تعالى أن يبتلى به الناس ، فأخذ عليهما الميثاق أن لا يعلما أحدا حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر ، وقال قتادة كان أخذ عليهما أن لا يعلما أحدا حتى يقولا ﴿ **إنما نحن فتنة** ﴾ أى بلاء ابتلينا به ﴿ **فلا تكفر** ﴾ ، وقال السدى إذا أتاهما إنسان يريد السحر وعظاه وقالا له : لا تكفر إنما نحن فتنة ، فإذا أبى قالا له ائت هذا الرماد فبل عليه فإذا بال عليه خرج منه نور فسطع حتى يدخل السماء وذلك الايمان، وأقبل شيء أسود كهيئة الدخان حتى يدخل فى مسامعه وكل شيء وذلك غضب الله فإذا أخبرهما بذلك علماه السحر فذلك قول الله تعالى ﴿ **وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر** ﴾ الآية . وعن ابن جريج فى هذه الاية : لا يجترئ على السحر إلا كافر ، والفتنة هى المحنة والاختبار .

ومنها قوله تعالى ﴿ **ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ، ولقد علموا لمن اشتراه ما له فى الآخرة من خلاق** ﴾ يعنى من حظ ولا نصيب ، وهذا الوعيد لم يطلق إلا فيما هو كفر لا بقاء للايمان معه ، فانه ما من مؤمن إلا ويدخل الجنة ، وكفى بدخول الجنة خلاقا، ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة . ثم قال تعالى ﴿ **ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون** ﴾ .

ومنها قوله تعالى ﴿ **ولو أنهم آمنوا** ﴾ يعنى بمحمد ﷺ والقرآن ﴿ **واتقوا** ﴾ السحر وسائر الذنوب ﴿ **لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون** ﴾ وهذا من أصرح الأدلة على كفر الساحر ونفى الايمان عنه بالكلية ، فانه لا يقال للمؤمن المتقى : ولو أنه آمن واتقى ، وإنما قال تعالى ذلك لمن كفر وفجر وعمل بالسحر واتبعه وخاصم به رسوله ورمى به نبيه ونبذ الكتاب وراء ظهره ، وهذا ظاهر لاغبار عليه والله أعلم . وقد صرح بذلك أئمة السلف من الصحابة والتابعين ، وإنما اختلفوا فى القدر الذى يصير به كافرا ، والصحيح أن السحر

المتعلم من الشياطين كله كفر قليله وكثيره كما هو ظاهر القرآن .

(وحدّه) أى حدّ الساحر (القتل) ضربه (بالسيف) (بلا نكير) بل هو ثابت بالكتاب من عموم النصوص فى الكفار المرتدين وغيرهم (كما أتى) ثابتا (فى السنة المصرحة) الثابتة عن النبى ﷺ (مما رواه الترمذى) محمد بن عيسى ابن سورة بمهملتين ابن موسى بن الضحاك السلمى أبو عيسى الترمذى الحافظ الضرير أحد الأعلام وصاحب الجامع والتفسير عن خلق مذكورين فى تراجمهم من جامعه وغيره ، وعنه محمد بن إسماعيل السمرقندى وحماد بن شكر وأبو العباس محمد بن أحمد المحبوبى راوى الجامع والهيثم بن كليب وخلق من أهل سمرقند ونسف وتلك الديار ، وقال ابن حبان كان ممن جمع وصنف ، قال أبو العباس المستغفرى مات سنة تسع وسبعين ومائتين ، مرفوعا (وصححه) موقوفا (عن جندب) هو ابن عبد الله بن سفيان البجلى العلقمى أو العلقى له ثلاثة وأربعون حديثا اتفقا على سبعة وانفرد مسلم بخمسة . روى عنه الحسن وابن سيرين وأبو مجلز ، مات بعد الستين ، قال رحمه الله تعالى « باب ما جاء فى حد الساحر حدثنا أحمد بن منيع حدثنا أبو معاوية عن إسماعيل بن مسلم عن الحسن عن جندب قال : قال رسول الله ﷺ « حد الساحر ضربه بالسيف » هذا حديث لا نعرفه مرفوعا إلا من هذا الوجه وإسماعيل بن مسلم المكى يضعف فى الحديث من قبل حفظه وإسماعيل بن مسلم العبدى البصرى قال وكيع هو ثقة ويروى عن الحسن أيضا والصحيح عن جندب موقوفا والعمل على هذا الحديث عند بعض أهل العلم من أصحاب النبى ﷺ وغيرهم وهو قول مالك بن أنس ، وقال الشافعى : انما يقتل الساحر إذا كان يعمل من سحره ما يبلغ الكفر فإذا عمل عملا دون الكفر فلم ير عليه قتلا . ويعنى بقوله : ما يبلغ الكفر أى ما كان فيه اعتقاد التصرف لغير الله وصرف العبادة له كما يفعله عباد هياكل النجوم من أهل بابل وغيرهم والله أعلم (وهكذا فى أثر . أمر بقتلهم) يعنى السحرة (روى عن عمر) ابن الخطاب بن نفيل بن عبد العزّى العدوى أبى حفص المدنى أحد فقهاء الصحابة ثانى الخلفاء الراشدين وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة وأول من سمى أمير المؤمنين ، له خمسمائة وتسعة وثلاثون حديثا اتفقا على عشرة وانفرد البخارى بتسعة ومسلم بخمسة عشر ، وعنه أبناؤه عبد الله وعاصم وعبيد الله وعلقمة بن أبى وقاص وغيرهم ، شهد بدرا والمشاهد والمواقف ، وولى أمر الأمة بعد أبى بكر رضى الله عنهما وفتح فى أيامة عدة أمصار ، أسلم بعد أربعين رجلا ، عن ابن عمر رضى الله عنهما مرفوعاً « إن الله تعالى جعل الحق على لسان عمر وقلبه » ولما دفن قال ابن مسعود رضى الله عنه : ذهب اليوم بتسعة أعشار العلم . استشهد فى آخر سنة ثلاث وعشرين ودفن فى أول سنة

أربع وعشرين في الحجرة النبوية وهو ابن ثلاث وستين وصلى عليه صهيب ، ومناقبه جمة قد أفردت في مجلدات . وهذا الأثر المشار إليه في الباب هو ما رواه الامامان الجليلان أحمد بن حنبل الشيباني ومحمد بن إدريس الشافعي رحمهما الله تعالى قالا : أخبرنا سفيان هو ابن عيينة عن عمرو بن دينار أنه سمع بجالة بن عبدة يقول كتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن اقتلوا كل ساحر وساحرة ، قال فقتلنا ثلاث سواحر .

(وصح) نقلا (عن حفصة) بنت عمر بن الخطاب العدوية أم المؤمنين رضى الله عنها (عند مالك) بن أنس بن مالك بن أبي عامر بن عمرو بن الحارث الأصبحي أبي عبد الله المدني أحد الأعلام في الاسلام وإمام دار الهجرة ، ولد سنة ثلاث وتسعين وحمل به ثلاث سنين ، وتوفي سنة تسع وسبعين ومائة ودفن بالبقيع رحمه الله تعالى ورضي عنه (ما) أي الذي (فيه أقوى) دليل (مرشد للسالك) وهو ما رواه في موطإه في « باب ما جاء في الغيلة والسحر من كتاب العقول : عن محمد بن عبد الرحمن بن سعد بن زرارة أنه بلغه أن حفصة زوج النبي ﷺ قتلت جارية لها سحرتها ، وقد كانت دبرتها فأمرت بها فقتلت ، قال مالك : الساحر الذي يعمل السحر ، ولم يعمل ذلك له غيره ، هو مثل الذي قال الله تعالى في كتابه ﴿ **ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق** ﴾ فأرى أن يقتل ذلك إذا عمل ذلك هو نفسه » اهـ . قال ابن كثير رحمه الله تعالى : وقد روى من طرق متعددة أن الوليد بن عقبة كان عنده ساحر يلعب بين يديه فكان يضرب رأس الرجل ثم يصيح به فيرد إليه رأسه ، فقال الناس : سبحان الله ، يحيي الموتى ! ورآه رجل من صالح المهاجرين فلما كان الغد جاء مشتملا على سيفه وذهب يلعب لعبه ذلك فاخترط الرجل سيفه فضرب عنق الساحر وقال : إن كان صادقا فليحي نفسه ، وتلا قوله تعالى ﴿ **أتأتون السحر وأنتم تبصرون** ﴾ فغضب الوليد إذ لم يستأذنه في ذلك فسجنه ثم أطلقه والله أعلم . وقال الامام أبو بكر الخلال : أخبرنا عبد الله بن أحمد بن حنبل حدثني أبي أخبرنا يحيى بن سعيد حدثني أبو اسحاق عن حارثة قال : كان عند بعض الأمراء رجل يلعب فجاء جندب مشتملا على سيفه فقتله ،. قال أراه كان ساحرا . وحمل الشافعي رحمه الله تعالى قصة عمر وحفصة على سحر يكون شركا . والله أعلم .

وقال ابن كثير رحمه الله تعالى : فصـل . وقد ذكر الوزير أبو المظفر يحيي بن محمد ابن هبيرة رحمه الله تعالى فيمن يتعلم السحر ويستعمله ، فقال أبو حنيفة ومالك وأحمد : يكفر بذلك ، ومن أصحاب أبي حنيفة من قال : إن تعلمه ليتقيه أو ليتجنبه فلا يكفر ، ومن تعلمه معتقدا جوازه أو أنه ينفعه كفر ، وكذا من اعتقد أن الشياطين تفعل له ما يشاء فهو كافر . وقال الشافعي رحمه الله تعالى : إذا تعلم السحر قلنا له صف لنا سحرك ، فان

وصف ما يوجب الكفر مثل ما اعتقده أهل بابل من التقرب إلى الكواكب السبعة وأنها تفعل ما يلتمس منها فهو كافر . وإن كان لا يوجب الكفر فان اعتقد إباحته فهو كافر . قال ابن هبيرة : وهل يقتل بمجرد فعله واستعماله ؟ فقال مالك وأحمد : نعم ، وقال الشافعى وأبو حنيفة : لا ، فأما إن قُتل بسحره إنسان فانه يقتل عند مالك والشافعى وأحمد، وقال أبو حنيفة : لا يقتل حتى يتكرر منه ذلك أو يقر بذلك فى حق شخص معين، وإذا قَتَل فانه يقتل حدًا عندهم ، إلا الشافعى فانه قال يقتل والحالة هذه قصاصا . قال وهل إذا تاب الساحر تقبل توبته ؟ فقال مالك وأبو حنيفة وأحمد فى المشهور عنه : لا تقبل وقال الشافعى وأحمد فى الرواية : تقبل ، وأما ساحر أهل الكتاب فعند أبى حنيفة إنه يقتل كما يقتل الساحر إذا كان مسلما ، وقال مالك وأحمد والشافعى : لا يقتل يعفى عنه لقصة لبيد بن الأعصم . واختلفوا فى المسلمة الساحرة فعند أبى حنيفة إنها لا تقتل ولكن تحبس ، وقال الثلاثة : حكمها حكم الرجل والله أعلم . وقال أبو بكر الخلال أخبرنا أبو بكر المروزى قال قرأ على أبى عبد الله يعنى أحمد بن حنبل : عمر بن هارون أخبرنا يونس عن الزهرى قال يقتل ساحر المسلمين ولا يقتل ساحر المشركين لأن رسول الله ﷺ سحرته امرأة من اليهود فلم يقتلها ، وقد نقل القرطبى عن مالك رحمه الله تعالى أنه قال فى الذمى : يقتل إن قتل سحره ، وحكى ابن خويز منداد عن مالك روايتين فى الذمى إذا سحر أحدا : الاولى أنه يستتاب فان أسلم وإلا قتل . والثانية أنه يقتل وإن أسلم . وأما الساحر المسلم فان تضمن سحره كفرا كفر عند الأئمة الأربعة وغيرهم لقوله تعالى ﴿ **وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر ، فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه** ﴾ لكن قال مالك : إذا ظهر عليه لم تقبل توبته لأنه كالزنديق ، فان تاب قبل أن يظهر عليه وجاءنا تائبا قبلناه ، فان قَتل بسحره قُتل ، قال الشافعى : فان قال لم أتعمد القتل فهو مخطىء عليه الدية .

﴿ هـذا ومـن أنواعـه وشعبـه   علم النجوم فادر هذا وانتبه ﴾

هذا هو البحث الرابع وهو (بيان أنواعه) ، فمنها علم التنجيم وهو أنواع : أعظمها ما يفعله عبدة النجوم ويعتقدونه فى السبعة السيارة وغيرها ، فقد بنوا بيوتا لأجلها وصوروا فيها تماثيل سموها بأسماء النجوم ، وجعلوا لها مناسك وشرائع يعبدونها بكيفياتها ، ويلبسون لها لباسا خاصا وحلية خاصة ، وينحرون لها من الانعام أجناسا خاصة ، لكل نجم منها جنس زعموا أنه يناسبه ، وكل نجم جعلوا لعبادته أوقاتا مخصوصة كأوقات الصلوات عند المسلمين ، واعتقدوا تصرفها فى الكون . وهذا هو المعروف عن قوم إبراهيم ببابل وغيرها، وإياهم خاطب فيما حكى الله عنهم متحديا لهم مبينا سخافة عقولهم وضلال

قلوبهم ، قال الله تعالى ﴿ **وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين . فلما جنّ عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى ، فلما أفل قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى ، فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر ، فلما أفلت قال يا قوم إنى برىء مما تشركون** ﴾ إلى آخر الآيات .

ومنها ما يفعله من يكتب حروف أبى جاد ويجعل لكل حرف منها قدرا من العدد معلوما ويجرى على ذلك أسماء الآدميين والأزمنة والأمكنة وغيرها ، ويجمع جمعا معروفا عنده ، ويطرح منه طرحا خاصا ، ويثبت إثباتا خاصا ، وينسبه إلى الأبراج الاثنى عشر المعروفة عند أهل الحساب ، ثم يحكم على تلك القواعد بالسعود والنحوس وغيرها مما يوحيه إليه الشيطان ، وكثير منهم يغير الاسم لأجل ذلك ويفرق بين المرء وزوجه بذلك ، ويعتقد أنهم إن جمعهم بيت لا يعيش أحدهم . وقد يتحكم بذلك فى الغيب فيدّعى أن هذا يولد له وهذا لا ، وهذا الذكر وهذا الأنثى ، وهذا يكون غنيا وهذا يكون فقيرا ، وهذا يكون شريفا وهذا وضيعا ، وهذا محببا وهذا مبغضا ، كأنه هو الكاتب ذلك للجنين فى بطن أمه ، لا والله لا يدريه الملك الذى يكتب ذلك حتى يسأل ربه أذكر أم أنثى شقى أم سعيد ما الرزق وما الأجل ، فيقول له فيكتب ، وهذا الكاذب المفترى يدّعى علم ما استأثر بعلمه ، ويدعى أنه يدركه بصناعه اخترقها ، وأكاذيب اختلقها ، وهذا من أعظم الشرك فى الربوبية ، ومن صدقه به واعتقده فيه كفر والعياذ بالله .

ومنها النظر فى حركات الأفلاك ودورانها وطلوعها وغروبها واقترانها وافتراقها معتقدين أن لكل نجم منها تأثيرات فى كل حركاته منفردا ، وله تأثيرات أخر عند اقترانه بغيره فى غلاء الأسعار ورخصها وهبوب الرياح وسكونها ووقوع الكوائن والحوادث ، وقد ينسبون ذلك إليها مطلقا . ومن هذا القسم الاستسقاء بالأنواء وسيأتى الحديث فيه عند ذكره فى المتن إن شاء الله وبه الثقة .

ومنها النظر فى منازل القمر الثمانية والعشرين مع اعتقاد التأثيرات فى اقتران القمر بكل منها ومفارقته ، وأن فى تلك سعوداً أو نحوساً وتأليفا وتفريقا وغير ذلك ، وكل هذه الأنواع اعتقاد صدقها محادّة لله ورسوله ، وتكذيب بشرعه وتنزيله ، واتباع لزخارف الشيطان ما أنزل الله بذلك من سلطان ، والنجم مخلوق من المخلوقات مربوب مسخر مدبر كائن بعد أن لم يكن ، مسبوق بالعدم المحض متعقب به ليس له تأثير فى حركة فى الكون ولا سكون لا فى نفسه ولا فى غيره ، قال الله تعالى ﴿ **إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا**

والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ، ألا له الخلق والأمر ﴾ وقال تعالى ﴿ ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر ، لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون ﴾ وقال تعالى ﴿ وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فاذا هم مظلمون ، والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم ، والقمر قدّرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم ، لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون ﴾ وقال تبارك وتعالى ﴿ تبارك الذى جعل فى السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا . وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذّكر أو أراد شكورا ﴾ وقال تعالى ﴿ وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر ، قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون ﴾ وقال تعالى ﴿ وعلامات وبالنجم هم يهتدون﴾ وقال سبحانه ﴿ إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب . وحفظا من كل شيطان مارد . لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب . دحورا ولهم عذاب واصب، إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب ﴾ وقال تعالى ﴿ ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين ﴾ وقال تعالى ﴿ هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدّره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ، ما خلق الله ذلك إلا بالحق ﴾ وغير ذلك من الايات . وقال تعالى فى ذهابها وفنائها وعودها إلى العدم كما أوجدت بعد العدم : ﴿إذا الشمس . كورت وإذا النجوم انكدرت ﴾ وقال تعالى ﴿ وإذا الكواكب انتثرت ﴾ وقال سبحانه ﴿ وخسف القمر ، وجمع الشمس والقمر ﴾ وروى ابن أبى حاتم رحمه الله تعالى عن قتادة الإمام فى التفسير وغيره قال رحمه الله تعالى : إنما جعل الله سبحانه هذه النجوم لثلاث خصال ، جعلها زينة للسماء ، وجعلها يهتدى بها ، وجعلها رجوما للشياطين . فمن تعاطى فيها غير ذلك فقد قال برأيه وأخطأ حظه وأضاع نصيبه وتكلف مالا علم له به، وإن ناسا جهلة بأمر الله قد أحدثوا من هذه النجوم كهانة ، من أعرس بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا ، ومن سافر بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا ، ومن ولد بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا . ولعمرى ما من نجم إلا يولد به الأحمر والأسود والقصير والطويل والحسن والدميم ، وما علم هذا النجم وهذه الدابة وهذا الطير بشيء من الغيب ، وقضى الله تعالى أنه ﴿ لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله وما يشعرون أيان يبعثون﴾ . وهذا كلام جليل متين صحيح ، وأصله فى صحيح البخارى تعليقا . وقال أبو داود رحمه الله تعالى فى كتاب الطب من سننه : « باب فى النجوم » حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة ومسدد المعنى ، قالا حدثنا يحيى بن عبيد الله بن الأخنس عن الوليد بن عبد الله عن يوسف بن ماهك عن ابن عباس رضى الله عنهما قال

: قال رسول الله ﷺ « من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد » وذكر حديث النوء . وروى عبد بن حميد عن رجاء بن حيوة أن النبي ﷺ قال « إنما أخاف على أمتي التصديق بالنجوم والتكذيب بالقدر ، وحيف الأئمة » . وروى ابن عساكر وحسنه عن أبي محجن مرفوعا « أخاف على أمتي ثلاثا : حيف الأئمة ، وإيمانا بالنجوم ، وتكذيبا بالقدر » . وروى أبو يعلى وابن عدى عن أنس رضي الله عنه مرفوعا « أخاف على أمتي بعدى خصلتين : تكذيبا بالقدر ، وإيمانا بالنجوم » وروى الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعا « رب معلم حروف أبي جاد دارس في النجوم ليس له عند الله خلاق يوم القيامة » ورواه حميد بن زنجويه عنه بلفظ « رب ناظر في النجوم ومتعلم حروف أبي جاد ليس له عند الله خلاق » .

ومن أنواع السحر زجر الطير والخط بالأرض ، قال أبو داود : حدثنا مسدد حدثنا يحيى حدثنا عوف حدثنا حيان ــ قال غير مسدد : حيان بن العلاء ــ حدثنا قطن بن قبيصة عن أبيه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « العيافة والطيرة والطرق من الجبت » ورواه أحمد في مسنده . والجبت هو السحر قاله عمر رضي الله عنه وكذلك قال ابن عباس وأبو العالية ومجاهد والحسن وغيرهم . وعن ابن عباس وغيره أيضا الجبت الشيطان ، ولا ينافي الأول لأن السحر من عمل الشيطان ، وعنه أيضا الجبت الشرك ، وعنه الجبت الأصنام ، وعنه الجبت حيي بن أخطب ، وعن الشعبي الجبت كاهن . وعن مجاهد الجبت كعب بن الأشرف ، ولا منافاة أيضا فان السحر من الشرك الذى يشمله عبادة غير الله وحيي بن أخطب وكعب بن الأشرف ممن خاصم رسول الله ﷺ بالسحر ، والكاهن عامل بالسحر ، وقال في القاموس : الجبت بالكسر الصنم والكاهن والساحر والسحر والذى لا خير فيه وكل ما عبد من دون الله عز وجل .

ومن أنواعه العقد والنفث فيه قال الله تعالى ﴿ **ومن شر النفاثات في العقد** ﴾ وقد تقدم حديث عائشة في قصة لبيد بن الأعصم ، وقد ثبت في حديث نزول المعوذتين ورقية جبريل النبي ﷺ بهما أنه كان كلما قرأ آية انحلت عقدة . وقال النسائي رحمه الله تعالى في كتاب تحريم الدم من سننه : « الحكم في السحرة » أخبرنا عمرو بن على قال حدثنا أبو داود قال حدثنا عباد بن ميسرة المنقرى عن الحسن عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر ، ومن سحر فقد أشرك ، ومن تعلق شيئا وكل إليه » وقد أطلق السحر على ما فيه التخييل في قلب الأعيان وإن لم يكن السحر الحقيقي ، كما في الصحيحين عن ابن عمر أن رسول الله قال « إن من البيان لسحرا »

(١) رواه ابن ماجه ، وأحمد في المسند ، والبيهقي .

يعنى لتضمنه التخييل فيخيل الباطل فى صورة الحق ، وإنما عنى به البيان فى المفاخرة والخصومات بالباطل ونحوها كما يدل عليه أصل القصة فى التميميين اللذين تفاخرا عنده بأحسابهما وطعن أحدهما في حسب الآخر ونسبه ، وكذلك قال ﷺ « إنكم تختصمون إليّ ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأحكم له على نحو ما أسمع ، فمن حكمت له من حق أخيه بشيء فانما هو قطعة من النار » أو كما قال ، وهو فى الصحيح، وأما البيان بالحق لنصرة الحق فهو فريضة على كل مسلم ما أستطاع إلى ذلك سبيلا ، وهو من الجهاد فى سبيل الله عز وجل . وقد سمى ﷺ ما يعمل عمل السحر سحرا وإن لم يكن سحرا كقوله ﷺ « ألا أنبئكم ما العضه ، هى النميمة ، القالة بين الناس » رواه مسلم عن ابن مسعود رضى الله عنه . والعضه فى لغة قريش السحر ، ويقولون للساحر عاضه ، فسمى النميمة سحرا لأنها عمل السحر فى التفرقة بين المرء وزوجه وغيرهما من المتحابين بل هى أعظم فى الوشاية لأنها تثير العداوة بين الأخوين . وتسعر الحرب بين المتسالمين كما هو معروف مشاهد لا ينكر . وقد جاء الوعيد للقتات فى الآيات والأحاديث كثيرا جدا ، ومع هذا فالخداع للكفار للفتك بهم وإظهار المسلمين عليهم وكسر شوكتهم وتفريق كلمتهم من أعظم الجهاد وأنفعه وأشده نكاية فيهم كما فعله نعيم بن مسعود الغطفانى رضى الله عنه فى تفريق كلمة الأحزاب بإذن رسول الله ﷺ حتى فرّق بين قريش وبين يهود بنى قريظة ونقض الله بذلك ما أبرموه ولله الحمد والمنة .

﴿ وحله بالوحى نصا يشرع أمـا بسحر مثله فيمنع ﴾

(وحله) يعنى حل السحر عن المسحور (بـ) الرقى والتعاويذ والأدعية من (الوحى) الكتاب والسنة (نصا) أى بالنص (يشرع) كما رقى جبريل النبى ﷺ بالمعوذتين ، وكما يشمل ذلك أحاديث الرقى المتقدمة فى بابها التى أمر بها الشارع ﷺ ، وندب إليها، ومن أعظمها فاتحه الكتاب وآية الكرسى والمعوذتان وآخر سورة الحشر ، فان ضم إلى ذلك الآيات التى فيها التعوذ من الشياطين مطلقا والآيات التى يتضمن لفظها إبطال السحر كقوله تعالى **﴿ فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون . فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين ﴾** وقوله عز وجل **﴿ ما جئتم به السحر إن الله سيبطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين ﴾** وقوله تعالى **﴿ إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى ﴾** ونحوها كان ذلك حسنا ، ومثل ذلك الأدعية والتعاويذ المأثورة عن النبى ﷺ الواردة فى الأحاديث الصحيحة كما تقدم كثير منها فى باب الرقى ، وكحديث « ربنا الله الذى فى السماء ، تبارك اسمك ، أمرك فى السماء والأرض كما رحمتك فى السماء ، أنزل رحمة من رحمتك وشفاء من شفائك على هذا الوجع ، فيبرأ » رواه أبو داود ، وكحديث عثمان بن أبى

العاص أنه قال : أتاني رسول الله ﷺ وبي وجع قد كاد يهلكني ، فقال رسول الله ﷺ «امسح بيمينك سبع مرات وقل : أعوذ بعزة الله وقدرته وسلطانه من شر ما أجد »[١] قال ففعلت فأذهب الله ما كان بي فلم أزل آمر به أهلي وغيرهم ، قال الترمذي هذا حديث حسن صحيح . وكتب السنة من الأمهات وغيرها مشحونات بالأدعية والتعوذات الكافية الشافية بإذن الله عز وجل ، فمن ابتغى ذلك وجده ، والله الموفق .

(أما) حل السحر عن المسحور (بسحر مثله فيحرم) ، فإنه معاونة للساحر وإقرار له على عمله ، وتقرب إلى الشيطان بأنواع القرب ليبطل عمله عن المسحور ، ولهذا قال الحسن : لا يحل السحر إلا ساحر . ولما قيل للنبي ﷺ : لو تنشرت ، فقال « أما أنا فقد شفاني الله وعافاني ، وخشيت أن أثير على الناس شرا » وقال أبو داود في كتاب الطب من سننه « باب في النشرة » حدثنا أحمد بن حنبل حدثنا عبد الرزاق حدثنا عقيل بن معقل قال : سمعت وهب بن منبه يحدث عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : سئل رسول الله ﷺ عن النشرة فقال « هو من عمل الشيطان » . ولهذا ترى كثيرا من السحرة الفجرة في الأزمان التي لا سيف فيها يردعهم يتعمد سحر الناس ممن يحبه أو يبغضه ليضطره بذلك إلى سؤاله حله ليتوصل بذلك إلى أموال الناس بالباطل فيستحوذ على أموالهم ودينهم نسأل الله تعالى العافية .

﴿ ومن يصدق كاهنا فقد كفر   بما أتى به الرسول المعتبر ﴾

(ومن يصدق كاهنا) يعتقد بقلبه صدقه في ما ادعاه من علم المغيبات التي استأثر الله تعالى بعلمها (فقد كفر) أي بلغ دركة الكفر بتصديقه الكاهن (بما أتى به الرسول) محمد ﷺ عن الله عز وجل من الكتاب والسنة وبما أتى به غيره ﷺ من الرسل عليهم السلام . ولنسق الكلام أولا في تعريف الكاهن من هو ثم في بيان كذبه وكفره ثم في كفر من صدقه بما قال والله المستعان ، فنقول : الكاهن في الأصل هو من يأتيه الرئي من الشياطين المسترقة السمع تتنزل عليهم كما قال الله تعالى ﴿ **هل أنبئكم على من تنزل الشياطين ، تنزل على كل أفاك أثيم ، يلقون السمع وأكثرهم كاذبون** ﴾ وهذه الآيات متعلقة بما قبلها وهي قوله عز وجل لما قال المشركون في رسوله محمد ﷺ إنه كاهن وقالوا في القرآن كهانة وأنه مما يلقيه الشيطان ، فنفى الله تعالى ذلك وبرأ رسوله وكتابه مما أفكوه وافتروه ﴿ **وانه لتنزيل رب العالمين ، نزل به الروح الأمين ، على قلبك لتكون من المنذرين ، بلسان عربي مبين** ﴾ إلى أن قال تعالى ﴿ **وما تنزلت به الشياطين وما ينبغي لهم وما يستطيعون . إنهم عن السمع لمعزولون** ﴾ فأثبت تعالى أن القرآن كلامه وتنزيله ، وأن جبريل عليه السلام رسول منه مبلغ كلامه إلى الرسول البشري محمد ﷺ ، وهو مبلغ

له إلى الناس ، ثم نفى ما افتراه المشركون عليه فقال ﴿ **وما تنزلت به الشياطين** ﴾ وقرر انتفاء ذلك بثلاثة أمور : الأول بعد الشياطين وأعمالهم عن القرآن ، وبعده وبعد مقاصده منهم ، فقال تعالى ﴿ **وما ينبغى لهم** ﴾ لأن الشياطين مقاصدها الفساد والكفر والمعاصى والبغى والعتوّ والتمرد وغير ذلك من القبائح ، والقرآن آت بصلاح الدنيا والآخرة ، آمر بأصول الإيمان وشرائعه مقرر لها مرغب فيها زاجر عن الكفر والمعاصى ذام لها متوعد عليها آمر بالمعروف ناه عن المنكر ، ما من خير آجل ولا عاجل إلا وفيه الدلالة عليه والدعوة إليه والبيان له ، وما من شر عاجل ولا آجل إلا وفيه النهى عنه والتحذير منه ، فأين هذا من مقاصد الشياطين ؟ الثانى عجزهم عنه فقال تعالى ﴿ **وما يستطيعون** ﴾ ، أى لو انبغى لهم ما استطاعوه ، لأنه كلام رب العالمين ليس يشبه كلام شيء من المخلوقين ، وليس فى وسعهم الإتيان به ولا بسورة من مثله ﴿ **قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا** ﴾ . الثالث عزلهم عن السمع وطردهم عن مقاعده التى كانوا يقعدون من السماء قبل نزول القرآن فقال تعالى ﴿ **إنهم عن السمع لمعزولون** ﴾ فبين تعالى ـ مع كونه لا ينبغى لهم ـ أنه لو انبغى ما استطاعوا الإتيان به أو بمثله لا من عند أنفسهم ولا نقلا عن غيرهم من الملائكة ، نفى عنهم الأول بعدم الاستطاعة ، والثانى بعزلهم عن السمع وطردهم منه قال الله عز وجل ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** ﴾ إلى قوله ﴿ **ولقد جعلنا فى السماء بروجا وزيناها للناظرين ، وحفظناها من كل شيطان رجيم ، إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين** ﴾ وقال تعالى ﴿ **إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب وحفظا من كل شيطان مارد ، لا يسّمعون إلى الملإ الأعلى ويقذفون من كل جانب دحورا ولهم عذاب واصب ، إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب** ﴾ وقال تعالى ﴿**ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين** ﴾ وقال تعالى عن مؤمنى الجن رضى الله عنهم ﴿ **وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا ، وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا . وأنا لا ندرى أشر أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا** ﴾ وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : انطلق رسول الله ﷺ فى طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء وأرسلت عليهم الشهب ، فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا : ما لكم؟ قالوا : حيل بيننا وبين خبر السماء ، وأرسلت علينا الشهب . قالوا : ما ذاك إلا من شيء حدث ، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها فانظروا ما الذى حال بيننا وبين خبر السماء . فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها ، فمر النفر الذين أخذوا نحو تهامة وهو ﷺ بنخل عامدا إلى سوق عكاظ

وهو يصلى بأصحابه صلاة الفجر ، فلما سمعوا القرآن استمعوا له وقالوا : هذا الذى حال بيننا وبين خبر السماء . فرجعوا إلى قومهم فقالوا ياقومنا ﴿ إنا سمعنا قرآنا عجبا . يهدى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا ﴾ فأنزل الله عز وجل على نبيه محمد ﷺ ﴿ **قل أوحى إلىّ أنه استمع نفر من الجن** ﴾ وهذا الحديث بطوله وطرقه فى الصحيحين وغيرهما، ثم قال تعالى فى جواب الكفار مبينا لهم أولياء الشياطين الذين تنزل عليهم فقال تعالى ﴿ **هل أنبؤكم على من تنزل الشياطين** ﴾ الآيات. وفى صحيح البخارى قالت عائشة رضى الله عنها : سأل ناس النبى ﷺ عن الكهان ، فقال « إنهم ليسوا بشىء » قالوا يا رسول الله إنهم يحدثون بالشىء يكون حقا ، فقال النبى ﷺ « تلك الكلمة من الحق يخطفها الجنى فيقرقرها فى أذن وليه كقرقرة الدجاج ، فيخلطون معها أكثر من مائة كذبة » . وله عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال « إذا قضى الله الأمر فى السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله كأنه سلسلة على صفوان ، فاذا فُزّع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلى الكبير ، فيسمعها مسترقو السمع ومسترقو السمع هكذا بعضه فوق بعض ــ وصفه سفيان بكفه فحرفها وبدد بين أصابعه ــ فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته ، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته ، حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن ، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها وربما ألقاها قبل أن يدركه ، فيكذب معها مائة كذبة ، فيقال : أو ليس قد قال لنا يوم كذا وكذا ، كذا وكذا ؟ فيصدق بتلك الكلمة التى سمعت من السماء » ولمسلم عن ابن عباس نحوه ، وللبخارى عن عائشة رضى الله عنها عن النبى ﷺ أنه قال : « إن الملائكة تحدّث فى العَنان ــ والعنان الغمام ــ بالأمر فى الأرض ، فتسمع الشياطين الكلمة فتقرها فى أذن الكاهن كما تقرر القارورة ، فيزيدون معها مائة كذبة » . وقد بين الله تعالى كذب الكاهن بقوله ﴿ **أفاك أثيم** ﴾ فسماه أفاكا وذلك مبالغة فى وصفه بالكذب . وسماه أثيما وذلك مبالغة فى وصفه بالفجور . وقوله ﴿**وأكثرهم كاذبون** ﴾ أى أكثر ما يقولونه الكذب فلا يفهم منه أن فيهم صادقا ، يفسره قول النبى ﷺ « فيكذب معها مائة كذبة » فلا يكون صدقا إلا الكلمة التى سمعت من السماء .

وأما كفر الكاهن فمن وجوه : منها كونه وليا للشيطان فلم يوح إليه الشيطان إلا بعد أن تولاه ، قال الله تعالى : ﴿ **وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم** ﴾ والشيطان لا يتولى إلا الكفار ويتولونه ، قال الله تعالى : ﴿ **والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات** ﴾ وهذا وجه ثان . والثالث قوله تعالى ﴿ **يخرجونهم من النور** ﴾ أى نورالإيمان والهدى ﴿ **إلى الظلمات** ﴾ أى ظلمات الكفر والضلالة . وقال تعالى ﴿ **ومن**

يتخذ الشيطان وليا من دون الله فقد خسر خسرانا مبينا ﴾ وهذا وجه رابع . والخامس تسميته طاغوتا فى قوله عز وجل ﴿ **يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا** ﴾ نزلت فى المتحاكمين إلى كاهن جهينة . وقوله ﴿ **وقد أمروا أن يكفروا به** ﴾ أى بالطاغوت . وهذا وجه سادس . والسابع أن مـ . هداه الله للايمان من الكهان كسواد بن قارب رضى الله عنه لم يأته رئيه بعد أن دخل

ره وتوليه إياه ، حتى إنه رضى الله

الله عنه : ما كنا فيه من عبادة

فى صفاته ومنازعته له تعالى فى

الله تعالى بها دون من سواه فلا

ب لا يعلمها إلا هو » ، « **قل لا**

عرون أيان يبعثون » ، « **عالم**

سول فإنه يسلك من بين يديه

ن » ، « **أعنده علم الغيب فهو**

ن دعواه تلك تتضمن التكذيب

ر من سأله عن شيء فصدقه بما

عة والحاكم وقال صحيح على

كاهنا فصدقه بما يقول فقد كفر

ى الله عنه « ليس منا من تطير أو

من أتى كاهنا فصدقه بما يقول

أزواج النبى ﷺ عن النبى ﷺ

يعين ليلة » فهذا حكم من سأله

فى كل من ادعى معرفة المغيبات

جم الذى قدمنا ذكره أو الطارق

لالة على المسروق ومكان الضالة

ونحوها أو المستقبلة كمجيء المطر أو رجوع الغائب أو هبوب الرياح ونحو ذلك مما استأثر الله عز وجل بعلمه فلا يعلمه ملك مقرب ولا نبى مرسل إلا من طريق الوحى كما قال تعالى ﴿ **فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول فانه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا** ﴾ ملائكة يحفظونه من مسترقى السمع وغيرهم ﴿ **ليعلم أن قد أبلغوا**

رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عددا ﴾ فمن ذا الذى يدّعى علم ما استأثر الله بعلمه عن رسله من الملائكة والبشر كما قال تعالى عن نوح عليه السلام ﴿ ولا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ﴾ الآية ، وقال تعالى عن هود عليه السلام ﴿قل إنما العلم عند الله وأبلغكم ما أرسلت به ﴾ ، وقال لنبيه محمد ﷺ ﴿قل لا أقول لكم عندى خزائن الله . ولا أعلم الغيب ﴾ الآية ، وقال تعالى ﴿ قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله ، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء ﴾ وقال تعالى ﴿ قل ما كنت بدعا من الرسل وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم إن أتبع إلا ما يوحى إلى ﴾ الآية ، وقال تعالى عن الملائكة ﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ﴾ الآيات ولم يعلم الرسول ﷺ مكان راحلته حتى أعلمه الله بذلك ، وقال فى سؤال الحبر إياه فأجابه ﷺ وصدقه الحبر ثم انصرف فذهب فقال رسول الله ﷺ « لقد سألنى هذا عن الذى سألنى عنه ومالى علم بشيء منه حتى أتانى الله عز وجل به » وهى فى مسلم . وفيه قول عائشة رضى الله عنها لمسروق رحمه الله تعالى : ومن زعم أن رسول الله ﷺ يخبر بما يكون فى غد فقد أعظم على الله الفرية ، والله تعالى يقول ﴿ قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله ﴾ . ولم يكن ﷺ يعلم شيئا من الرسالة حتى أتاه الله عز وجل به كما قال تعالى ﴿ووجدك ضالا فهدى ﴾ ، وقال تعالى ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ﴾ وقال تعالى ﴿ تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا﴾ ، وقال تعالى ﴿ قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون ﴾ وقال تعالى ﴿ وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما ﴾ . نسأل الله العظيم من فضلة العظيم .

تم بعون الله الجزء الأول ـ ولله الحمد والمنّة

ويليه إن شاء الله

الجزء الثانى

فهـــــــــرس

الموضوع صفحة

الموضـــــــــــوع صفحة

الموضـــــــــــــــوع صفحة

الموضـــــــــــوع صفحة

الموضـــــــــــــــــوع	صفحة

الموضـــــــــــــوع صفحة

الموضـــــــــــــــوع	صفحة

تمت الفهرس بحمد الله